حنا مينه

رواية

حمامة زرقاء في السحب

دار الآداب

حمامة زرقاء في السحب

حنا مينة

حمامة زرقاء في السحب

رواية

دار الآداب - بيروت

حمامة زرقاء في السحب

حنا مينة/روائيّ سوريّ

الطبعة الرابعة عام ٢٠٠٢

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 11-4123

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

- ١ -

كانت ابنته ترقد على سريرها في الجهة الجنوبية من الغرفة، وهي ترنو إليه بعينيها السوداوين الجميلتين وتبتسم قائلة:

ـ متى نعود؟

ـ قريباً.

ـ ليس فور خروجي من المستشفى على كل حال.

ـ ليس فور خروجك قطعاً...

ـ لا بد أن نمكث أياماً في لندن..

ـ لا بد يا صغيرتي.

ـ سأتفرّج على المدينة وأشتري بعض الهدايا لإخوتي.

ـ ستتفرّجين على المدينة وتشترين الهدايا.

ـ وماذا بشأن الهدية لأخي الصغير؟ أريدها جميلة جداً.

ـ ستكون جميلة جداً ولا شك...

ـ أنا التي سأختارها...

ـ أنت التي ستختارين كل الهدايا...

ـ ولن تتضايق إذا طوفت كثيراً في الأسواق؟

ـ لن أتضايق...

ـ وماذا يقول الطبيب بشأني؟

ـ أنت بصحة جيدة...

ـ هل أخرجوا ذلك الشيء الصغير من ظهري؟

ـ أخرجوه.

ـ كانت العملية ناجحة إذن؟

ـ ناجحة تماماً.

ـ وسأمشـي ثانية مثل كل الناس؟

ـ ستمشين مثل كل الناس.

ـ وأركض؟

ـ ستركضين.

ـ وأقفز كما أشاء؟

ـ ستقفزين كما تشائين.

ـ شكراً لله يا بابا.

ـ شكراً لله يا صغيرتي.

ـ أعطني يدك...

ـ هاك يدي...

ـ أحس وأنا ألمسها كأنني ألمس يد ماما وإخوتي...

ـ لقد طلبوا إليّ في الرسالة أن أقبّلك...

ـ ولماذا لم تفعل؟

ـ نسيت.. ها.. سأقبّلك (وقبّلها)

ـ من كان يظن أنني سأشفى بهذه السرعة؟

ـ الله كريم يا حبيبتي...

ـ كنت خائفاً عليّ؟

ـ قليلاً...

ـ والآن؟

ـ اطمأننت...

ـ قبّلني ثانية إذن...

ـ هه (وقبّلها ثانية)

فعل ذلك بصعوبة أكبر، مستشعراً حرقة في حنجرته لم يستطع معها الكلام. ابتعد عن السرير متظاهراً بأنه يسرح النظر في أبنية لندن القديمة، المنبسطة سطوحها ذات المداخن أمامه. كان يجاهد كي يتماسك فلا ينفجر بالبكاء، أو لا تغدره دمعة فتسقط من عينيه وتشي

بحقيقة ما سمع. وكان على شك من قدرته على هذا التماسك، فهو يتهرّب متجنباً النظر في عيني صبيّته الصغيرة، راغباً في الفرار من المستشفى كله، والسير حيث تقوده قدماه، أو الجلوس في حانة وإغراق حزنه بالشراب.

قال في نفسه وهو يزفر كاتماً زفرته:

ـ عليّ أن أحتمل. لست امرأة على كل حال. عار على الرجل أن يبكي.

وحاول أن يغيّب في الأعماق مشاعره الحزينة، وأن يتسلى بالنظر فيما أمامه من مناظر.

السماء رمادية، توشك أن تمطر، المداخن مشرّعة الدخان، كسفن متراصّة في مرفأ، تنفث الدخان تأهّباً للرحيل. وجو قابض للنفس يهيئ المشاعر للاندماج في الحزن، بينما هو يريد الانفكاك منه. يجاهد لكي تتراخى أوتار حنجرته اللعينة التي تهدّج صوته وتبعث بتيار حار إلى الدماغ وأعصاب العينين.

قال في نفسه: «اللعنة علي كم أنا ضعيف!»

وقال أيضاً: «يا الله! لماذا خلقتني ضعيفاً رقيقاً الى هذا الحد؟»

وقال: «ما أقسى أن يتبلّغ الانسان حكماً بالموت!»

وتساءل: «أيهما أقسى، ان يتبلّغ الانسان حكماً بموته أم بموت ولده؟»

نفض، أخيراً، كل هذا التساؤل المعذّب وقال: «لست أدري... لماذا أعذب نفسي بالدوران على محور أفكاري الحزينة؟ لقد تبلّغت الحكم وكفى... الطبيب قال لي إنها ستموت، وأنا، الآن، أعرف أنها ستموت، لكن هي يجب ألا تعرف».

استدار عن الجدار الزجاجي ونظر إليها. كانت تبتسم كلما نظر إليها. إنها فرحة، مطمئنة، واثقة أن كل شيء على ما يرام. لقد

أخرج الطبيب - كما قال لها - ذلك الشيء الصغير من ظهرها. وانتهت العملية بنجاح، ولم يبق إلا أيام وتشفى.

قال في سره وهو يواجهها: «آه لو كان في وسعي أن أفديك يا حبيبتي».

وقال: «لماذا لا يقبل عزرائيل الفدية؟»

وقال: «لو كنت أرحل أنا وتبقى هي؟»

اقترب منها، مسّد براحتيه شعرها الأسود المرسل على الوسادة. ثم داعب جبينها، ومن جديد أخذ يدها بين يديه وابتسم.. واستشعر راحة لأنه ابتسم.. لقد انتصر على حزنه مؤقّتاً..

زالت، قليلاً، آثار الصدمة التي خلفتها مقابلة الطبيب الجراح منذ قليل.

كان قد اجتمع به بناء على موعد سابق. وقال الطبيب وهو يشجعه على التعبير:

- لا فائدة من المعالجة يا سيدي.. ابنتك ستموت.

وساد صمت رهيب كما في محكمة تلفظ حكماً بالإعدام.

أضاف الطبيب:

- السرطان منتشر على طول العمود الفقري، وستبقى قدم الفتاة مشلولة، ثم تشل القدم الأخرى، ويسري الشلل بعد ذلك في الجسم كله، حتى يبلغ الدماغ فتموت.

حاول أن يسائل الطبيب أكثر. ان ينتزع منه كلمة تفيد بأن ثمة أملاً بإنقاذها ولو بنسبة واحد في الألف، لكن الطبيب ردّد ما قاله سابقاً بكلمات أقل هذه المرة.

وعندما فقد الأمل، شرع يفرك أصابعه بعضها ببعض وراء ظهره. ولما انصرف الطبيب جعل يذرع غرفة رئيسة الممرّضات جيئة

وذهاباً. وهو يودّ لو يتحدّث إلى إنسان. لو يشكو ما به عسى أن تخف لوعته، لكن أحداً لم يكن إلى جانبه. فهو غريب، وفي بلاد الغربة يتلقى نبأالموت الذي سيختطف ابنته من بين يديه. هنا لا أمّ ولا أخ ولا زوج ولا صديق. هو وابنته، وحدهما مع الموت، ووحدهما مع الغربة.

لقد جاء بها الى لندن من بلده العربي البعيد، على أمل إنقاذها، وها هو الأمل يخيب. الفتاة ستموت، وهو وحده يعرف هذه الحقيقة، ولنفسه يجب ان يحتفظ بها.

حسناً! أشعل سيكارة، ثم أخرى، ثم ثالثة، وعض على شفته وهو يهم بدخول غرفتها. استجمع كل ما بقي من قواه حتى اغتصب ابتسامة رسمها على وجهه ودخل.

كانت الصبية بانتظاره، وقد سألت الممرضة عدة مرات عن وصوله. وكان وجهها الفتي نضيراً، كصباح صيفي، وابتسامتها الفاتنة تشع بها عيناها السوداوان، لظنها أنها شفيت، وأنها ستغادر المستشفى الى البيت فالمدرسة، وهي لذلك تلح قائلة:

ـ علينا ان نسرع بإجراء العملية لأنني لا أريد أن أضيع مستقبلي.

الآن أجريت العملية وضاع المستقبل، بل ضاعت الحياة نفسها، ولكن عليه ان يكتم كل ذلك، عليه ان يكذب، أن يقول لها إنك ستشفين، ويجاريها في وهمها.

ولما ضاق بالكذب، قال لها إنه سيخرج ليدخن سيكارة ويعود، فهزّت برأسها موافقة وهي تتابع ابتسامتها المشرقة. وفي طريقه الى خارج الغرفة خطا خطواً هادئاً متّزناً، كيلا يشعرها انه يهرب من غرفتها، فلما ابتعد عن الباب، أوسع الخطى الى غرفة الانتظار، حيث سيرتمي على أحد المقاعد، ويترك لعواطفه حرية التعبير عن نفسها.

غير أنه، في غرفة الانتظار، وجد طفلاً يحبو على السجاد. كان

طفلاً رضيعاً، تنبه لدخوله، فتوقف وأرسل في الهواء يده الصغيرة كأنه يدعوه الى حمله، فلما لم يفعل بكى الطفل، وازداد بكاؤه حتى احتار الرجل في أمره، ولما لم تنفع المناغاة التي اصطنعها معه، حمله على ساعده، وراح يدلله ويلاطفه حتى كف عن البكاء.

كان الطفل أسمر، معافى، في ثياب تشي بأنه من غير أبناء لندن. وكانت مصّاصة تتدلى من عنقه، وضعتها أمه في فمه عندما تركته على السجادة، وقد سقطت المصاصة على الصدر فراح الطفل يزحف، كأنما يلاحقها، ثم فطن الى غياب أمه فبكى. وكان على الرجل ان يعيد مصاصته إليه، وأن يحمله ريثما تعود أمه، وهكذا فعل، وهو يعجب للأمر، ويتعزى عن مصابه بتحويل دفعات الألم التي تكوي حلقه الى هتفات حنان صغيرة، استغرب هو نفسه من أين واتته، وكيف تلفّظ بها برغم ذلك اليباس الذي يستشعره في لهاته.

أخيراً ظهرت امرأة على الباب. كانت حنطية اللون، ذات شعر أسود، ملفوف بشال حريري أبيض يتدلى على الكتف، وقد استدل من هيئتها أنها غريبة مثله، لكنه لم يستطع أن يحزر من أي بلد هي.

وفوجئت المرأة بالرجل الغريب يحمل طفلها. تسمّرت على العتبة قبل ان تخطو داخلة، وارتبكت قبل ان تتصرّف فتمد يديها لتتناول طفلها الذي عاود البكاء منذ أن رآها، ولأنها تجهل أيما لغة أجنبية فقد تمتمت بشيء ما بين أسنانها، وأخذت طفلها وانزوت به على أحد المقاعد في ركن الغرفة.

جلسا صامتين. هو يدخّن وهي تحتضن الطفل. كان لكل منهما ألمه الخاص، وكان ألم الرجل أكبر. لكنه استطاع ان يكبته. بينما المرأة تنطوي على نوع من رجاء يجعل تصرفها هادئاً.. وقد تمنى ان تتكلم، ان تتحدّث إلى طفلها، ليعلم من أي بلد هي، غير أنها لم تنبس بكلمة، لأنها مثله كانت تفكر من أي بلد هذا الرجل الذي حمل الطفل؟

جاءت ممرضة وندهـت الرجـل. كـان هـو أيضـاً يجهـل اللغـة الانكليزية، وفهم أن الطبيب يريده فسار معها، وفي غرفة رئيسة الممرّضات كان طبيب لم يره قبل الآن ينتظره. كان يتكلم الفرنسية، وقد اعتذر لإزعاجه، وأبلغه أنه مضطر إلى الكلام معه حول مريض عربي وصل أمس الى المستشفى. تذكهر جهاد المرأة والطفل فوراً. وفهم أن عليه ان يكون ترجماناً، وتمنى في سره ان يكون النبأ الذي سيتلقاه عن المريض أفضل من النبأ الذي تلقاه عن ابنته، لكن الطبيب رجاه ان يتفهّم الموقف، ويتصرف مع زوجة المريض بما يراه متلائماً مع عادات البلاد العربية.

ـ فهمت، قال الرجل، عندنا لا يقول الأطباء كل الحقيقة لأهل المريض.

ـ أنت أدرى، قال الطبيب، هنا نصارح ذوي المريض. نضعهم في الصورة الصحيحة.

ـ والمريض؟

ـ لا داعي لتعذيبه.. أحياناً، في الحالات الخطيرة، نتكتّم عليه.

ـ وماذا بشأن المريض زوج المرأة؟

ـ لا فائدة من معالجته.. سرطان الدم..

ـ الأفضل ان يعود إلى بلده إذن؟

ـ فات الأوان.. كان الأفضل ألا يأتي.

ـ سيموت اذن؟

ـ خلال يومين على الأكثر.

ـ وماذا علي أن أقول لزوجته؟

ـ قل لها إن حالته خطيرة فقط..

ـ انده لها الى هنا؟

ـ كما تريد..

ثم أضاف:

ـ لا تنده لها.. النتيجة النهائية بعد الظهر.. ولأنها لا تعرف أية لغة أجنبية، فعليها ان تحضر من يترجم لها..

ـ سأكون هنا للمساعدة..

ـ هذا جميل منك.. في الخامسة بعد الظهر اذن.

ـ اتفقنا.

عاد أدراجه على طول الممر وهو مطرق يعض على جرحه عضاً. كانت ابنته ترقد على سريرها في الغرفة التي في آخر الممر. ربما كانت تبتسم لشيء ما الآن. عيناها السوداوان الجميلتان تلمعان بفرحة الشفاء القريب، وهي تفكر بأمها واخوتها وأخيها الصغير. تفكر بالهدايا وبالركض والقفز. وكذلك بالعودة الى المدرسة وبالمستقبل الذي لا تريده ان يضيع.

وقال في نفسه وهو يمر بغرفتها منخطفاً كيلا تراه: «أي مستقبل بقي لك يا صغيرتي؟» أضاف:

«وأي مستقبل بقي لهذا الرجل المريض الذي ربما كان يحدّث زوجته قبل قليل عن الشفاء والعودة إلى العمل؟ إن أجمل ما في الانسان هو قدرته على الحلم. التعلق بالحياة والثقة فيها وهي تغرب كالشمس في يوم خريفي. وها هما إنسانان يغربان. ينطفئان كالشمعة ليحل من حولهما ظلام طويل، وعليه هو الذي يعرف أنهما في رحلة النهاية أن يبتسم لهما، ويطمئنهما، ويقول لهما إنكما ستشفيان، وستعودان إلى بلادنا البعيدة، الجميلة، حيث الشمس والخضرة والسماء الصافية الزرقاء.

توقّف قبل خطوات من غرفة الانتظار. عليه الآن أن يغتصب ابتسامة أخرى فيرسمها على وجهه قبل الدخول. عليه ان يكذب مرة أخرى، ويقول كلاماً آخر غير الذي سمعه.

رغب عن مرأى الأم وطفلها القابعين في زاوية غرفة الانتظار. عاوده، في هذه اللحظات التي يحس فيها بالاختناق، النزوع الى

الهروب خارج المستشفى، الى السير في شوارع لندن على غير هدى، تحت السماء المضبّة، ورذاذ المطر، كي يتنفس في العراء ملء رئتيه. وعندما يتمالك نفسه من جديد، يعود ليكذب من جديد، ليبعث أمل الشفاء في إنسانين يسيران إلى الموت. لكنه كان مضطراً الى البقاء، لأنه لا يستطيع ان يترك ابنته، ولا المرأة وطفلها وزوجها المريض.

مسح، على غير وعي منه، وجهه بمنديله، استشعر غباراً على الوجه، مسّد شعره. أصلح ربطة عنقه. ضغط أعصابه بقوة، وعندما خيّل إليه أنه عاد إلى وضعه الطبيعي، دخل غرفة الانتظار.

كان الطفل قد نام. وجهه الملائكي ينبئ عن سعادة طفل في حضن أمه، إنه لا يعرف شيئاً، وغداً، عندما يكبر، لن يذكر شيئاً أيضاً. ستحدثه أمه عن ابيه، وسيرى صورته في درج أو على الجدار، لكنه لن يتوصل إلى تذكّر شيء، فالحياة تمسح الأحزان والأفراح على السواء، تجعلها من الذكريات الراقدة في اللاشعور بالنسبة للكبار، فكيف به وهو طفل رضيع؟

وقال في نفسه وهو ينظر اليه: «أيها الطفل! يا ملاكاً له وحده الجنة، لأن له وحده براءة هذا الوجود، نم.. ابق نائماً. لا تفكر بأبيك الذي يحتضر. إنه لا يطلب منك ذلك ولا يعتب. هو يفكر بك وكفى، وربما، الآن، في هذه اللحظة، يتمنى ان يراك، وأن يقبّلك ويناغيك».

والمرأة التي ينام الطفل في حضنها كانت قد أغفت هي الأخرى.. هدّها التعب وسهر الليالي، وهدّتها هذه الغربة التي لا تعرف كيف تتصرّف فيها، والى من تشكو همّها. والرجل يقف داخل العتبة، ينقل ناظريه بين الطفل وأمه النائمين، ويعد الكلمات التي سيقولها لها عندما تستيقظ، والطريقة التي سيقولها بها، ويشفق على هذين المخلوقين البائسين مثله، ان يكون مصيرهما كمصيره.

غير أن الأم فتحت عينيها فجأة، فتحتها وحلقت في الرجل

وجلة، معتذرة عن نومها في هذا المكان. وبغير إرادة منها مدّت يدها فشدّت ذيل فستانها، وسوّت الشال على رأسها، واحتضنت طفلها، وأطرقت مفكّرة مهمومة.

حيّاها الرجل بالعربية. فوجئت به، وانداحت مع المفاجأة أمائر للراحة في قسماتها، كمن لقي فرجاً بعد ضيق شديد.

قال الرجل:

ـ اعذريني.. ما كنت أعرف أنك عربية.

قالت المرأة:

ـ قلبي حدثني أنك عربي، لكنني خجلت.. ما كنت أتصور أن ألتقي هنا بمن أستطيع التكلم معه بالعربية.

ـ (وبعد صمت) أنت طبيب؟

ـ كلا..

ـ لك مريض في المستشفى؟

ـ ابنتي..

ـ عافاها الله...

قال الرجل في سره: «هيهات!» وسأل بدوره:

ـ وأنت؟

ـ زوجي في المستشفى.

ـ وكيف حاله الآن؟

ـ تحت رحمة الله

ـ حدثني الطبيب عنه.

ـ وماذا قال؟

ـ سيحضر كبير الأطباء بعد الظهر، وهو الذي سيحدثك عن مرضه.. وسأكون هنا للترجمة.

ـ أشكرك جداً، ولكن أما عرفت شيئاً على الأقل؟

فكر ان يقول لها إن زوجك في حالة الخطر، ثم بلع ريقه وقال:

ـ لم تنته الفحوص.. ارجو ان تسمعي أخباراً مطمئنة.

ـ إن شاء الله.

ـ من أي بلد أنت؟

ـ من فلسطين، وزوجي يعمل الآن في الكويت.. كان يتعالج في مصر، وأشار الأطباء بأن حالته خطرة، فقررنا المجيء الى لندن.. قالوا لنا إن الطب متقدم هنا، ويمكن إنقاذه إذا جئنا، وسيلحق بنا أخوه غداً.. هذه هي القصة.

تشبه قصته الى حدٍّ ما.. هو أيضاً نصحه الأطباء بمعالجة ابنته في لندن، ولكن لندن خيّبت أمله.

ـ أنا من سورية.. وابنتي مصابة بورم في النخاع الشوكي.. وأفضل مكان لجراحة النخاع الشوكي هو لندن.. هكذا قال الأطباء أيضاً.

ـ لماذا يبعثون بنا الى هنا.. الى بلاد الغربة هذه؟

ـ لأنه لا توجد مشافٍ ذات تجهيزات مماثلة وأخصائيين كما هنا.

سكتت المرأة.. وفكر الرجل: «كم يكلف مستشفى من هذا النوع؟ وهل تعجز دولة بترولية واحدة، عن إنشاء عشرة مشافٍ مماثلة؟» ثم قال في سره: ولماذا لا يستقدمون أخصائيين للعمل في مشافٍ مجهزة كهذه؟ مونت كارلو! يا مونت كارلو! على موائدك الخضر، كل ليلة، تهدر أموال تبنى مدينة مشاف، ويا باريس! عطورك، وغانياتك، واللحى، وحمّامات العطور، والملايين التي تنفق ونحن هنا.. طفل يزحف على الأرض، ورجل يئن على السرير، وصبية تنحدر الى اللجّة، وأب يلوب ويتألم، وزوجة تضطرب من خشية وحرقة، ومئات مثلهم، في هذا البلد أو ذاك، يموتون في بلاد الغربة».

جاءت الممرضة تطلب الزوجة الى غرفة زوجها. أشارت الى الأم ان تترك الطفل في غرفة الانتظار. وأفاق الطفل لدى نهوض الأم، وبكى فتقدم الرجل، كأنما إلى واجب متفق عليه، وتناول الطفل، وقال للأم:

ـ اذهبي..

ذهبت وهي تتعثّر في خطوها حياء من الرجل. لكن هذا، الآن، لم يعد غريباً عنها. نسيب الغربة صار، وشريك الألم، وحامل الحقيقة وكاتمها. عليه ان يتحمل مصابه ويساعد في تحمل مصاب الزوجة، وان يتنقل بكذبته عن الشفاء بين سريرين متباعدين، في غرفتين متجاورتين، وأن يرى الموت جلّاداً فوق رأسين: رأس الصبية ورأس الرجل.

قالت المرأة لزوجها:

ـ في غرفة الانتظار رجل من ديارنا.. عربي مثلنا.

وقال الرجل لزوجته:

ـ وماذا يفعل هنا؟

ـ ابنته مريضة، في الغرفة المجاورة.

ـ أريد أن أراه.. لماذا لم يأت معك؟

سكتت المرأة. كبر عليها أن تقول إنه يحمل الطفل. كان ذلك تجاوزاً للحد، ولكن الحدود في الغربة تمحي. والمريض قد لا يفهم هذا. لماذا يتطوع الرجل الغريب ليحمل طفلاً غريباً؟ والزوجة ارتبكت، والممرضة الواقفة قرب السرير لا تفقه حرفاً مما يدور بين الزوجين. هي شاهدة فقط، وشاهدة حيادية، ترى الموت يقف على رأس الرجل، ولكنها، في كل يوم، ترى هذا الجلاد الذي ألفته، أو هي، مثل غيرها، لا تستطيع حياله شيئاً.

وجاءت الزوجة تنده الرجل «في الغرفة رقم (٢)، قالت، زوجي، انه يريدك. أرجوك ان تكلّمه قليلاً، ان تجبر خاطره بالبقاء الى جانبه حتى يطمئن».

ذهب الرجل الى المريض. مرّ على ابنته التي ما تزال تبتسم، إنها تفكر بالهدايا ولا شك. وقال لها:

« كيف أنت يا صغيرتي؟ » وقال لها: « إنه سيأتيها غداً بالرسائل التي تصل من الأهل » وقال لها: « أنا مشغول قليلاً.. وسأعود » وعندما غادرها كانت تبتسم أيضاً. لقد أزالوا ذلك الشيء الصغير من ظهرها، وغداً أو بعده تنهض من السرير.

وفي الغرفة الأخرى كان المريض، وكان الموت قد تخطى الحاجز الحديدي للسرير، وصار على الوسادة. وهتف المريض منذ دخل عليه:

ـ مرحباً، يا رائحة الوطن!

ـ كيف أنت الآن، ألا تشعر بتحسّن؟

ـ لا أدري.. ماذا يقول الطبيب؟

ـ لم تظهر نتائج الفحوص بعد..

ـ وما رأيه؟ لقد فحصني.. قالوا لي إنهم يعرفون هنا.. ألم يعرف علّتي؟

ـ هنا لا يشخّصون المرض ويبدأون بالمعالجة إلا بعد ظهور نتائج الفحوص.

ـ ومتى تظهر هذه النتائج؟

ـ غداً.

ـ غداً؟

قالها بأسى، كأنما هذا الغد بعيد، في الأبد. لوى رقبته بعد ذلك على الوسادة.

راحت كلمة « غداً » تدوي في فضاء الغرفة. تتسمّر في العينين الشاردتين. تنبت إبراً على الفراش، وشوكاً على الشفتين. الوهن. رغبة في الكلام ولا طاقة. « لا أريد أن أموت.. أنقذوني.. اشتروني » وصرخات تشتعل، وتنطفئ، وتمتمات، وعرق على الجبين، وأنين.. ثم سأل بلهفة عن الصغير.

قال الرجل:

ـ الصغير نائم..

ـ ومتى يفيق؟ كلما سألت عنه قالوا إنه نائم.. أريد أن أراه.. دعوني أره..

ـ ستراه..

ـ متى؟

ـ عندما يفيق.

ـ أحضروه لي نائماً.

ـ هذا لا يجوز.. اصبر وستراه.. إذا لم يكن اليوم فغداً.

وترقرقت دمعتان في المحجرين. «كل شيء غداً. لماذا ليس اليوم؟» وخبط برجليه فانكشف الغطاء، وتقدمت الممرضة لتعيد الغطاء وتمنع حركة الساعد التي كادت تملص أنبوب التغذية الاصطناعية. فصاح المريض:

ـ أريد الطبيب.. نادوا الطبيب..

وأومأ الرجل الى الممرضة، فهزت هذه برأسها نفياً: لا حاجة للطبيب، لا فائدة.

فقال الرجل:

ـ انتظر قليلاً، سيأتي الطبيب..

ـ وسيعطيني دواء، يوقف الألم؟

ـ لا بد أن يعطيك دواء يوقف الألم..

ـ ولن أموت؟

بلع الرجل ريقه بصعوبة..

ـ ستشفى.. تحمّل قليلاً وستشفى.

ـ قالوا لي إنني سأشفى هنا..

ـ صدّق ذلك، ستشفى..

ـ وسنعود إلى الوطن؟

ـ سنعود..

ـ وأحمل ابني على زندي وأسير..؟

ـ ستحمل ابنك وتسير.

ـ وسأرى بيتي وأولادي وأهلي؟

ـ ستراهم جميعاً.

ـ أعطني يدك..

أعطاه يده. أمسك بها بقوة سرعان ما تلاشت. مع ذلك ظل محتفظاً بها. ابنته أيضاً طلبت يده وظلت ممسكة بها. كل الذين هنا، المودعون في رحلة اللاعودة، يمسكون بأيدي ذويهم ويحتفظون بها. يتعلقون بهم، يحتمون، ويتشبّثون..

تراخت يد المريض. الغيبوبة. سيفيق بعد قليل، يشرع بالصياح ثم يغيب، ويعاود الصياح فالغيبوبة. إنه يحتضر. الطبيب قال ذلك، وهو يراه، الممرضة تنتظر، وفي غرفة الانتظار الزوجة تنتظر، وهو، الرجل الذي يشهد ولا يستطيع أن يتكلم، يمضغ ألمه مضغاً ويسكت.

عاد إلى غرفة الانتظار. قال للزوجة إن زوجها نام. قال لها هاتي الصغير واذهبي إلى غرفة ابنتي التي هناك. لا تحدثيها بشيء. قولي لها فقط إن زوجك مريض وأنه سيشفى. ستكون ابنتي مسرورة برؤيتِك. هي أيضاً اشتاقت أن تتكلم العربية مع أحد، وستتسليان قليلاً.

أعطته الطفل وذهبت. صار من واجبها أن تزور ابنته كما رأى من واجبه أن يحمل ابنها. إن علاقة ما، حميمة، قامت بينهم الآن. علاقة وطن وألم. وهو، في قلب لندن الكبيرة، وجد، الآن، زاوية آهلة، وبرودة الاشياء في الوحدة، صارت إلى دفء، وهذا الطفل بين يديه، يناغي ويرفس برجليه ويلوّح بيديه، وهو به سعيد، وقادر مع الألم أن يتعزى. قد يكون ثمة أمل بعد، ولن ينقطع ما دام كبير الأطباء لم يقل كلمته الأخيرة.

في اليوم التالي جاء شقيق المريض. ترك عمله في الكويت ولحق

بأخيه، واستقبلته زوجة الأخ باكية. كان كبير الأطباء قد جاء وقال كلاماً ترجم الرجل بعضه وامتنع عن ترجمة البعض الآخر. لقد أصدر كبير الأطباء، بواقع الحرفة ولياقتها، حكمه المنتظر بالموت، ثم تعجل بالرحيل، بكثير من اللطف، وببعض التعليمات إلى رئيسة الممرضات.

جلس الرجل والأخ والزوجة في غرفة الانتظار. ثلاثة غرباء في بلد غريب. وفي غرفتين متجاورتين مريض يحتضر وفتاة صبية تبرق عيناها السوداوان بفرحة الشفاء القريب، لأنها لا تعرف أنها ستموت. وكل الفارق بينها وبين المريض الذي يحتضر، زمن قد يطول وقد يقصر، لكن النتيجة مقررة: الموت أيضاً.

قال شقيق المريض:

ـ لماذا كتب علينا أن نتشرد من فلسطين إلى لبنان، ومن لبنان إلى الكويت، ومنها إلى مصر، ومن مصر إلى لندن؟ أما لتشردنا من نهاية؟

وقالت زوجة المريض:

ـ غرباء غرباء غرباء.. لماذا نحن دون سائر الناس غرباء؟ ولماذا نحيا في الغربة، وفي الغربة نواجه المرض والموت؟

وبكى الطفل الرضيع كأنما يذكّر بوجوده، ويشارك بالتذكير بغربته هو الآخر.

قال الرجل:

ـ لنتحمل قليلاً.. الغربة ليست أبدية.. سينتهي كل شيء ونعود.

قال شقيق المريض:

ـ نعود؟ هه.. منذ عشرين عاماً..

قال الرجل:

ـ أعرف أعرف.. منذ عشرين عاماً..

قالت المرأة:

ـ كثيرون لن يعودوا .. ماتوا في الغربة.
وقال الرجل في سره: « زوجك من هؤلاء ».
ثم قال لها:
ـ استراحوا ..
قال شقيق المريض:
ـ ونحن متى سنستريح؟ لقد مللنا.
ـ نحن أيضاً سنستريح .. من يصبر قليلاً ينل كثيراً ..
انفجر شقيق المريض:
ـ اللعنة على الصبر.
وهز الرجل رأسه موافقاً، بينما عادت الزوجة تسأل:
ـ قلت ان الطبيب لم يعط رأياً قاطعاً؟
ـ نعم ..
وبكى الطفل من جديد، كان والده يحتضر.
وقالت الزوجة:
ـ لو أعطاه دواء مسكناً على الأقل؟
قال الرجل:
ـ الطبيب أعطى التعليمات اللازمة لرئيسة الممرضات.
وقال الشقيق موجهاً الكلام إلى الرجل:
ـ لنذهب إليها .. أرجوك .. عساها تفيدنا في شيء ..
وافق الرجل، فذهبا ..
رئيسة الممرضات لم تقل شيئاً. كان المريض يحتضر ..
وقال الشقيق:
ـ لندخل إلى غرفته وننظر إلى حالته ..
وترجم الرجل ما قاله الشقيق، فمانعت الممرضة. كان المريض يحتضر ..
عادا إلى غرفة الانتظار، ولم ينبسا بكلمة الآن. كان كل منهم يجتر

همومه على طريقته. والطفل نام في حضن أمه. لم يكن قادراً على أن يفهم أن والده يموت، وهو وحده استراح من فهم هذه الحقيقة وتجاوزها. سيكبر يوماً ويفهم، وعندئذ ربما يكون زمن الغربة والتشرد قد انتهى.

دخان. أشعل الشقيق سيكارة. أشعل الرجل سيكارة. أعاد كل منهما إشعال سيكارة جديدة، وأعادا، طوال ساعة، إشعال السيكارات وإطفاءها، وفجأة جاءت الممرضة تنده شقيق المريض...لقد توفي الذي كان يحتضر..

هرع الرجلان إلى الغرفة. كانت ستائر السرير قد أسدلت من حول الميت، والسكينة في الغرفة تشي بالحزن والسفر البعيد. وحين شق الأخ الستارة ورأى أخاه المريض قد أسلم الروح، هجم عليه وراح يعانقه صارخاً: «ياخي! كلّمني ياخي، كيف متّ بهذه السرعة يا خي؟».

الأخ لم يجب: كان قد سافر إلى بعيد.

وجاءت رئيسة الممرضات فأخرجت الرجلين، وطلبت منهما أن يخبرا الزوجة لتأتي فتلقي نظرة الوداع على زوجها، قبل أن ينقل إلى غرفة الموتى. نظر أحدهما إلى الآخر وهما يسيران إلى الزوجة في غرفة الانتظار: من يخبرها منهما؟ توسلت عينا الاخ. توسلت عينا الرجل. دمعت العيون الاربع. تعانقا ليس لأن مريضاً مات، وليس لأن فلسطينياً مات، ولكن لأنه في الغربة قضى، وفي غرفة الانتظار تنتظر زوجة وطفل رضيع..

ما أقسى بعض المواقف، سنة؟ ربما أكثر، مستعد كل منا أن يدفع من عمره ليتجنب موقفاً مماثلاً. لكن تبادل المواقف والسنوات لا يتم بسهولة. علينا أن ندفع ألماً. وأن نتعلم، كل يوم، كيف نتألم أكثر، ونتحمل أكثر.

دخلا غرفة الانتظار، وشهق الأخ باكياً:

ـ آخ ..

وقال الرجل للزوجة:

ـ العوض بسلامتك ..

وصاحت الزوجة:

ـ مات؟

هزا برأسيها، شقيقه والرجل، ولطمت الزوجة خديها وانهارت، وركضت رئيسة الممرضات للإسعاف، وغادر الرجل الغرفة وهو يحمل الطفل بين ذراعيه.

بعد ساعة خرجت الزوجة من غرفة زوجها الميت. كان بيدها كيس من نايلون، فيه كل ما تبقى منه: بنطلون، وقميص، وفردتا حذاء .. وعلى الأثر خرجت عربة نقالة من الغرفة وعليها المتوفي مسجى ومغطى بشرشف أبيض، وبعد أن أُدخل المصعد ونُقل إلى غرفة الموتى، تعانق الرجلان، الشقيق ووالد الصبيّة المريضة، وافترق الجميع إلى غير لقاء، أو هكذا خيل إليهم.

وعندما، في اليوم التالي، سألت الصبية والدها:

ـ كيف صحة العم المريض في الغرفة الثانية؟

أجابها دون أن ينظر في عينيها:

ـ جيدة يا بنيتي .. ولكنهم نقلوه من هنا .. لقد اكتشفوا أن مرضه في المعدة، ونقلوه إلى مستشفى آخر، لاجراء جراحة لمعدته ..

وسكتت الصبية.

صدّقت؟

من يدري ..

ربما حزرت، وربما شكّت، لكنها، هي نفسها، وبنفسها، لم تشك أبداً. كانت واثقة أنها ستشفى.

وأكد لها والدها، وهو يكذب، ربما للمرة العاشرة، أنها ستشفى.

وغادر غرفتها ليطوف على غير هدى، غريباً في مدينة غريبة.

- ٢ -

كانت دمعته قد جفّت، يبست في المحجر. حين ييبس الدمع في المحجرين يصبح حصاتين بلّورتين كـاويتين، تسـدان مجرى الدمـع. تذوي النخلة في رمل الصحراء. الشمس تلفحها، والنسغ، في ري الارض، يكف عن إمدادها بما يروي الغصون والأوراق، عندئذ تحترق النخلة. تبـدأ النـار في دبيـب جهنمـي، تسري في الأغصـان والأوراق، ثم الجذع. الاحتراق سدومي الشكل، من نار جهنم لفح، الشمس، من فوق، تمده بحرارة تتسعر، ممعنة في امتصاص بقايا الماء، والمطر لا يأتي، النخلة تيبس والمطر لا يأتي، النخلة تحترق والمطر لا يأتي، النخلة تنتظر، لهفى، والمطر لا يهمي، والموت يسري على مهل، متصاعداً من الجذع، منتشراً في الأوراق والغصون، والنخلة تودع، والأصيل حزين، والدمع، في المقلتين ييبس.. « ومارش » الغروب، ذو المزاهر على تخوم الأفق، هو اللحن الجنائزي الوحيد الذي يتردد في سمع التيه الرملي الذي ضاع فيه الركب.

كان الرجل، ذلك الأصيل، نخلة في الصحراء. إنه يحترق ولا شمس، يغص بالدمع والحصاة تسد المجرى في المحجرين، وشوارع لندن ليست طرقاً في البيداء، والشمس، في هاجرة الجحيم، لا تخترق السحب، لكنها، بطريقة ما، ترسل شواظها الذي يحترق بها: أيها الدمع! يا ماء الغمام، اهم قليلاً، فالنفس عطشى، والأحشاء تتلظى، والدمعة، في موقف كهذا، هي الراحة الكبرى.

الدمعة عزّت عليه، سورية بعيدة. فلسطين أبعد. البلاد العربية دونها المتوسط. وهنا، الغربة، والموت، وطفل يبكي، وامرأة في يدها كيس يحوي ما تبقى من زوجها، وغرفة الانتظار، في المستشفى، حوّلها الشيطان إلى تنور، والصبية السمراء، ابنـة السـادسـة عشرة، تتمدد على السرير، تحدق، بعينيها السوداوين الرائعتيـن، في السقف

الأبيض، وتبتسم لأنها شفيت، ولأن ذلك الشيء الصغير، قد أخرج من عموده الفقري، وغداً أو بعده، تخرج معافاة، وتجوب الشوارع دونما حاجة إلى مقعد، وسترى كل ما حواليها، أمامها، وراءها، على جانبيها، ولن تشبع من النظر، وستنتقي الهدايا، وتشتريها لأمها وإخوتها:

ـ أنا سأنتقي الهدايا..

ـ انتقيها كما تريدين.

ـ وستكون جميلة..

ـ جميلة كما تشائين..

ـ وكثيرة.. لكل الذين هناك، لكل الذين ينتظرون عودتي.. بعد هذه العملية الناجحة.

ـ نعم يا حبيبتي، ستكون كثيرة..بقدر ما ترغبين.

ـ كم أنا سعيدة..

ـ يجب أن تكوني سعيدة..

ـ ما كنت أصدق أنني سأشفى..

ـ صدقي أنك شفيت..

ـ وأن العملية ستكون سهلة.. وسيخرجون ذلك الشيء الصغير من عمودي الفقري..

ـ لقد أخرجوه الآن..

ـ أنت واثق أنهم أخرجوه؟.

ـ تماماً..

ـ الطبيب قال ذلك..؟

ـ الطبيب نفسه.

ـ إذن يجب أن نشتري له هدية مناسبة.. وغداً، من سورية، سأرسل له هدية دمشقية.

ـ هذا ما يجب.

ـ اشتقت إلى أخي الصغير أيمن.
ـ وأنا مثلك..
ـ وإلى الماما..
ـ والماما اشتاقت لك..
ـ يا ألله كم سأضمها وأشم رائحتها، أغمر وجهي في عنقها.. ولن أرفعه.. لن أشبع منها..

شوارع لندن مزدحمة، سيارات، دراجات ومارة، والناس يركضون في اتجاهات مختلفة، وهو يسير، يترنّح، يستعيد الأشياء، الذكريات، ويود أن يبكي، آه لو يبكي.. آه لوتمطر عيناه، لو تمطر السماء، لو يتبلل كله، ويبرد، وتنطفئ الشعلة المتّقدة في صدره، تحت القلب مباشرة، التي تحرقه كما لم تفعل نار من قبل.

خمسة عشر يوماً وهو في لندن، خالها خمسة عشر شهراً، خمسة عشر عاماً. إنه يسهر، ويدخن، ويبكي، يعرف، ويخفي ما يعرف، لقد أوصاه الطبيب في دمشق، حين ودعوه في المطار، ألا يُفاجأ بالنتيجة. أية نتيجة؟ عمّ يتحدث الطبيب؟ ماذا في العمود الفقري؟ وظل يسأل، وظل الطبيب يراوغ.. قال له: « اذهب أنت ومن هناك اكتب إلي بكل شيء، أرسل كل تقرير تحصل عليه من المستشفى.»

كان ذلك في الرابع من نيسان، في ذلك الصباح سافر ومعه ابنته، قبل أربعة أيام ما كان يخطر على باله أنه سيسافر، وأن ابنته ستكون معه، وأنها ستكون مريضة. أمضى يوم الجمعة السابق في الغوطة. وقالت الأم، للطبيب الصديق، الذي كان معهم مع عائلته:
ـ رنا تشكو من رجلها..
ـ ماذا في رجلها؟
ـ تحس أنها بطيئة الحركة، لا تستجيب للسير..
ـ منذ كم يوم أحست بذلك؟

ـ منذ أيام..

لم يقل الطبيب شيئاً. ولم يلحوا هم.. لا سبب للقلق، وتالياً لا شك، لا وسواس، لا حدس بأن ثمة شيئاً غير عادي.. وفي المساء، حين عادوا من الغوطة، عرج الطبيب معهم على البيت، وطلب أن يفحص الفتاة. أدخلها غرفة المكتب، وعاين الرجل، وأخرج دبوساً فنخزها، لكن الرجل لم تتأثر.. كان الإحساس فيها ميتاً، وكانت، تلك إشارة سوء. في اليوم التالي نقلوها إلى المستشفى، وأخذوا لها صوراً شعاعية، وحقنوا النخاع الشوكي بإبرة ظليلة، فتبين الورم، وكان على الجميع، بعد ذلك، مسابقة الأيام، قبل أن ينتشر الورم في العمود الفقري كله، وهكذا، خلال أربعة أيام فقط، كان الأب وابنته في لندن، مع كتاب توصية إلى المستشفى..

جرى كل ذلك كومضة خاطفة، كاسترجاع ذكرى، كشريط تناهبته ثانية. فرك الأب عينيه من دهشة دون أن يصدق. أعد أوراق السفر، وصل المطار، ركب الطائرة، نزل في لندن، حمل ابنته، في اليوم نفسه، إلى المستشفى، دون أن يصدق أن ما يجري حقيقة. كان حلماً، كابوساً، غاشية، وكان في كل لحظة، يحدق في عيني فتاته، يتأملها، يرى إلى عينيها السوداوين، ويأمل، في تمام يقظته، أن يكون في حلم. وحين، في مطار روما، رغبت الفتاة أن تكون في عداد الذين نزلوا من الطائرة، لينتظروا إقلاعها في غرفة الترانزيت، قدم له يدها، فتوكأت عليها ونزلت، وأرسلت بصرها في كل جهة، سائلة: «أهذه روما؟» وقال الوالد: «هذه روما» فابتسمت عيناها، وقالت في رجاء رقيق، شفاف، آسر: «في طريق العودة، حين أشفى سنمكث فيها أياماً، أليس كذلك؟» وقال الأب: «سنفعل ما تريدين، نتجول في روما، وأريك آثارها الرائعة، ونسير إلى أن تتعبي.

قالت الفتاة:

ـ لن أتعب.. حين أشفى، ويزول هذا الخدر في الرجل، لن أكفّ عن السير ولن أتعب.

ـ لن تتعبي أبداً.. بعد الشفاء، ستعود رجلك سليمة، وستتجول كثيراً.

ـ سأرى جميع الآثار..

ـ سترينها..

ـ ولن تمل أنت..

ـ أبداً..

ـ هذه النظرة، من وراء زجاج قاعة الانتظار، لا تكفي أبداً..

ـ روما كبيرة، جميلة، فاتنة، وسترينها كلها..

ـ الآن عد بي إلى الطائرة، بدأ الركاب يتحركون. ولكنني أتعبك.. أستند عليك، وهذا ما يؤلمني..

ـ لا شيء يدعو الى التعب أو الألم، ألا تعرفين كم أنت عزيزة علي؟

ـ هل هذا لأني مريضة..؟

ـ وهل أنت مريضة..؟ بضعة أيام وينتهي العلاج..

قالت بثقة:

ـ نعم، سينتهي العلاج، وسنعود مسرورين.. وسأكون أشد سروراً.

ـ كوني من الآن أشد سروراً..

ـ ذلك ما سأحاوله.. أنا غير خائفة..

ـ ولماذا تخافين؟

ـ وغير قلقة.. لديّ ثقة بالشفاء..

ـ هذا ما يجب..

ـ وفي هذه الحال أقدم الامتحان في موعده..

ـ ستعودين إلى المدرسة، وتقدمين الامتحان في موعده..

ـ يا ألله.. كم سيكون ذلك جميلاً..

ـ سيكون جميلاً جداً..

الأب في شوارع لندن ما يزال. إنه يطوف على غير هدى، وابنته راقدة في مستشفاها، فقد قال الطبيب لها:

ـ في ظهرك شيء صغير سنخرجه بالجراحة..

ـ ولن أحس أو أتألم وأنتم تخرجونه؟.

ـ أبداً.

ـ إذن أسرعوا.. أريد العودة لتقديم الامتحان..

ابتسم الطبيب:

ـ سنسرع.. وستعودين، وتقدّمين الامتحان.. لكن الآن كوني طيبة، كوني مطيعة، وتناولي دواءك.. نامي.. نامي ولا تفكري بشيء..

نامت، كانت مطمئنة ونامت. لم يخالجها شك بأنهم سيستخرجون من ظهرها ذلك الشيء الصغير، وبسرعة، وستشفى، وسيكون كل شيء على ما يرام.

الآن انتهت الجراحة، لم يخرجوا ذلك الشيئ الصغير كما وعدوها. كان كبيراً، ينتشر على امتداد العمود الفقري، كان ورماً سرطانياً، وورماً خبيثاً، ولا شفاء منه، لكن هذا لا يقال، وينبغي ألا يقال أبداً.

سألت رنا حين أفاقت من التخدير:

ـ انتهى كل شيء؟

ـ انتهى.

ـ أخرجوا ذلك الشيء الصغير؟

ـ أخرجوه..

ـ ومتى نغادر المستشفى؟

ـ حين يختم الجرح..

صفقت من غبطة، حين استعادت وعيها صفقت من غبطة، كانت

فرحة إلى أبعد حدود الفرح، وشعّ السرور من عينيها، وابتسمت بوجهها كله: شعرهـا، عينيهـا، وجنتيهـا، وأصرت على أن تقبّـل والدها، وقبّلته.. وبعد ذلك تحولت ثقتها بالشفاء إلى يقين، وظل هذا اليقين قائماً، وفي وهمه أخذت تردد، كل صباح، وكل مساء:

- لنسرع، لا أريد إضاعة مستقبلي...

كيف يقول لها والدهـا، إن حيـاتها، لا مستقبلهـا وحـده، قـد ضاعت؟ ماذا يحدث لوعلمـت، في وهـم الظـن، أن مـوتها أصبـح واقعاً؟ هو لا يستطيع أن يجهر بهذه الحقيقة. حتى المحكوم بالإعدام يخفون عنه نبأ التنفيذ في ليلته الأخيرة. يدعونه جاهلاً، غافلاً، ينام إلى الفجر، حين يقرع عليه الحارس الباب، ويكون الموت واقفاً على العتبة. إن ابنته أيضاً محكومة بالاعدام. الحكم أصدره القدر، وسيُنفذ ذات صباح أو ذات مساء، وقد قال الطبيب إن لمرض السرطان قوساً واسعاً، ودرجة سريان الورم، تتراوح بين حدّي القوس، وهذا الورم، الآن، في أحد طرفي القوس، في العمود الفقري، وسيسري رويداً رويداً، حتى يبلغ الدماغ، وعندئذ يأتي الموت.

هو وحده. الأب وحده يعرف أن هذا ما سوف يكون، وإلى ذلك الحين، عليه أن يخترع كل يوم كذبة جديدة، وعليه أن يتجلّد، أن يتعلم استعارة ابتسامة من الضوء أو الجهمة، أن يكون قوياً قادراً، أن يـؤكـد لها أنها ستشفـى، وأن مستقبلهـا، هـذا الذي يملـك عليهـا مشاعرها، لن يضيع.

تذكّر، في قصة تشيكوف، ذلـك الرجـل العجـوز، الذي يموت ابنه، ولا يجد، في وحدته، من يبثه شكواه، فيذهب إلى حصانه ويروي له قصته وهو يبكي. هو أيضاً تموت ابنته. أصبحت مرشحة للموت، مخطوبة له، وحين يقبل، عريساً بثوب أسود، سيكون عريساً من نوع القتلة، ولكم ودّ، في توق التمنّي، أن يقتل هذا الخطيب، هذا العريس المنتظر، فالعروس ستزف زفافاً غريباً، لن يضعوا على رأسها

الإكليل، بل باقة من ورد شاحب، وهي مسجاة في تابوتها الخشبي. إنه يمارس نفس إحساس ذلك العجوز، ولا يجد حواليه من يبثه شكواه، ولا حصان لديه لذلك، ولنـدن مـدينـة كبيرة، عبـوس، لا تشرق الشمس فيها إلا نادراً، وغيمها الأسود يخترق صدره، ويستقر فيه هماً كالرصاص.

مشكلته، بعد ظهور النتيجة، هي خوفه. يخاف أن يعود إلى ابنته، ويخاف أن يبتعد عنها، وقد قال لها، قبل خروجه، إن المريض العربي، الفلسطيني، قد نقل من هذا المستشفى إلى مستشفى آخر، لان داءه في معدته، وبعد ذلك، وعندما نقلت الجثة، وغادرت الزوجة وطفلها المستشفى، استغرب أن يكذب على هذا النحو، وأن يؤاتيه الكذب، وأن يصبح الكذب، بعد اليوم، صناعة يومية بالنسبة إليه. لقد كذب على ابنته وفرّمن الغرفة، فرّ من المستشفـى كلّـه، وهـا هـو، منـذ ساعتين، يطوف في الشوارع، راغباً عن العودة لئلا تفضحه عيناه.

فكر أن يشتري لابنته هدية. سيختبئ وراء هديته، يجعلها ستاراً بين عينيه وعيني ابنته، لكن المشكلة في نوع هذه الهدية، في شكلهـا، حجمها، تناسبها، وفي نجاحه بأن يختبئ وراءها، ولا ترتعش يده حين يقدمها، ولا تخونه دمعته وهو يقول لها:

ـ احزري بماذا أتيتك؟

ظل يقلّب الأمر على وجوهه كافة، فالصبيّة الراقدة في المستشفى، لها من الذكاء، وحدّة الشخصية، والقدرة على النفاذ إلى ما وراء الأشياء، ما يجعلها تكتشف، أن والدها، يدلّلها أكثر من اللازم، يحبّها أكثر من قبل، يحاول أن يرضيها، وأن يصرفها عن التفكير بمرضها، وربما كشفته خائنة الأعين، وعنـدئـذ يسقـط في الامتحـان، وهـذا الامتحان الطويل، الذي عليه أن يدخله كل ساعة، كل لحظة، على

مدى شهور وربما أعوام. غير أن المناسبة، وفّرتها له العملية الجراحية. سيقول إن هديته بمناسبة نجاحها، وسيدعها تفرح، لكنه أبداً لن ينظر في عينيها، هو غير قادر، مهما حاول، أن ينظر في عينيها، لأن دمعه سينسكب لا محالة.

كره نفسه، لامها، قرعها. كان يحب الرجال الأقوياء، رابطي الجأش، الذين لا يتأثرون، في مثل هذه المواقف. لشد ما حسد والده، لشد ما أكبر فيه هذه الحجرية في العاطفة، فهي لا تبالي، لا تتأثر، لا تعرف الدمع حتى أمام الموت، أو أيما فاجعة، مهما تكن تراجيدية.

ليجرب أن يكون والده. أن يقلده على الأقل. أن يرتفع على الشدة ويبتسم برغم الألم، أن يضع، بدل القلب، حجراً في صدره. كم هم سعداء الذين يحملون، بدل قلوبهم أحجاراً. طير العمر، إذا بقي في الحساسين، فلن يبلغ أن يتخذ مواقف الرجولة حيث يقتضي الواجب، عليه، على طير العمر، أن يكون في الجوارح، أن يحلّق، دون خوف، في الأعالي، ودون خشية يعاين ما على الأرض، ولا يكترث حتى لسقوط فرخه برصاصة صياد.

اتّجه صوب ساحة البيكاديللي. كان الحمام كثيراًفيها، يحطّ على الأرض، ويدرج بين الناس، ويقف على حواف البركة، والتمثال، بل يقع على أكتاف الناس الذين يحملون إليه الحبوب، وهو يجرب، في أحيان كثيرة، أن يلتقط الحب من أكفهم المفتوحة. هنا لا يطاردون الحمام، لا يكشونه، لا يصطادونه، ولا يذبحونه. رسول السلام هذا ينبغي أن يبقى رسول محبة أيضاً. يبدو آمناً، مطمئناً، لا مبالياً بالناس الذين حول الساحة، ووسطها، وقد ألفهم، وأحبهم، واعتاد أن يهدل من حولهم، كأنما يغني على هواه، أغنية لا لغة لها، سوى اللغة الموسيقية التي تمتح من القلوب تأثرات واهنة، أقرب إلى الاسى، لأن

الحمام لا يعرف، ولا يستطيع، أن ينشد للفرح، إلا على طريقته الخاصة، الطريقة التي فيها بعض الشجن.

نعم بهذا المشهد الذي يقوم على الألفة بين الطير والإنسان، دخل لعبتها بنفسه، طرح عنه، ولو لوقت قصير، حزنه القارض. طاف في الباحة، دخل بين الحمام، تلقّى تحيته حين وقف على كتفه، أسف لأنه لم يحضر معه حبوباً يطعمها الحمامات التي أقتربت منه ودارت به. ودّ لو يخاطبها، لويفهم لغتها، لويقول لها شيئاً. فقد أحسّ، في هذه الساحة وحدها، وبين الحمام وحده، أنه ليس غريباً، الحمامات استقبلته كضيف، كصديق، كواحد من المعارف القدامى، وبقي أن يكلّمها، يشكرها، يسألها أن تأتي معه، وتقف على النافذة قبالة سرير ابنته، بل ودّ أن يمسك بحمامة ويحملها إلى ابنته، لولا أن فعلة كهذه مستهجنة ومرفوضة في بلدٍ كلندن.

قال في نفسه:

ـ أنت لا تقيم مودة صافية مع هذه الحمامات. أنت من الشرق، وهناك يذبحون الحمام.

وقالت له نفسه:

ـ وأنت، لولا الكياسة، وضرورتها المفروضة، كنت قميناً بذبح حمامة.

ـ محال، زجر نفسه، أنا لا أذبح حمامة. أنا من الشرق ولكني لا أذبح الحمام.

ـ لكنك تأكله مذبوحاً.

ـ تلك وجبة على مائدة..

ـ وما الفرق؟

ـ الفرق أنني آكل الحمام ولكن لا أذبحه..

ـ النتيجة واحدة..

ـ الحمامة طير.. والطير حلال ذبحه..

ـ أعني قتله..

ـ بل اصطياده..

ـ كل ما يصطاد يقتل..

ـ وماذا في ذلك؟

ـ فيه موت.. إزهاق روح..

ـ في بني جنسك من يزهقون الروح..

ـ هؤلاء هم المتوحّشون..

ـ وأنت واحد منهم..

ـ في هذه الحال كل البشر متوحّشون..

ـ أنت قلت.. أنت عزرائيل بصورة إنسان.

ـ عزرائيل يميت الناس..

ـ والناس يميتون الطيور والوحوش..

ـ عزرائيل سيميت ابنتي..

ـ وأنت تميت أبناء غيرك..

ـ هذا غير صحيح،

ـ أنت تخدع نفسك..

ـ أنا أصدّقها..

ـ أنت تمكر بها..

ـ أنا أكرهك يا نفسي.. أكرهك.. هل تفهمين؟

وقالت له نفسه:

ـ هذا يؤكد أنني أقول الحقيقة.. الحقيقة التي تخافها وتداري خوفك منها.. بل وتنكره.

ـ أنا لا أنكر شيئاً.. وألعن هذا الحوار الذي تفرضينه علي..

ـ اللعنة لا تمحو الخطيئة، ورفض الحوار لا يعني نفيه.. لقد كتب عليك، منذ ولدت، أن تحاور نفسك، وكل إنسان يحاور نفسه، وهذا ما يسمى محاكمة الضمير..

وقال في ذاته: «نعم هذه محاكمة الضمير» خيّل إليه أن رجلاً

يقف على كتفه وفي يده ميزان. كل إنسان يحمل على كتفه رجلاً في يده ميزان، نحن نزن خطايانا، قال في نفسه، والخطيئة، طريقها الشك، نحن جميعاً خطاة وشكّاكون، نحن نشرب دماء لا ماء، وفي هذه الدماء يتراءى لنا الماء بلون بلوري، فنخدع ذواتنا عما نرتكب من حماقات.

كان الآن ميّالاً إلى رؤية عصره بعين مجردة. عصره سكران، شقيّ، تعب، شاكّ، وهو من أبنائه، ويحمل كل ما في هذا العصر من آثام. إنه يبحث، في سريرته، عن الخطيئة التي ارتكبتها ابنته حتى نزل بها حكم قدر بلون الفحم، ولما لم يجده، أو لم يهتد إلى أن ابنته، الصغيرة،البريئة، ارتكبت خطيئة ما، رغب في ان يحمّل نفسه المسؤولية في الخطيئة غير المقترفة، إنه هو الخاطئ، وابنته تدفع ثمن إثم ارتكبه في يوم من الأيام. لكنه لم يلبث أن ردّد «ولا تزر وازرة وزر أخرى»، وأن ابنته لا تدفع نتيجة إثمه، وأن هذا الاتهام الذاتي بالقتل، لمجرد أنه ذبح حمامة، ليس إلا نوعاً من تعذيب الذات، وعليه، هو العاقل، المتعلم، ان يطرح فكراً شريراً لبلابياً، عرّش على شجرة الحزن في صدره.

غادر ساحة البيكاديللي متوجهاً الى حديقة هايدبارك، هناك سيجد أنماطاً من الناس، غريبة، شاذّة أو مستقيمة، لكل من هؤلاء قضية، وهو الآن مساوٍ لهم. إن له قضية، وإن كانت مؤلمة على نحو لا يحسب أن سواه قد ابتلي بها، إنه الممتحن الوحيد بينهم، البلوى امتحان، وفي بلواه يخضع لامتحان صارم، وعليه ان يجتازه بنجاح.

ألفى حديقة هايدبارك مزدحمة. عشاق على المقاعد، عجائز يأخذن بعضاً من راحة، أطفال يتراكضون بين الأشجار، كرات صغيرة تتدحرج، رجل ذو لحية يقف على كرسي ويخطب.. إنه يعطي رأيه بالحكومة، ويتهم تصرفاتها وأحكامها، وآخر على صندوق خشبي، يدافع عن قضية الزنوج، وثالث غمر شعره المسترسل جانبي

وجهه، فلم يعد يبين منه سوى العينين وأنف، فوق لحية طويلة صهباء، مشعثة، يدافع عن حقّ الناس في الشذوذ. كل إنسان يستطيع ان يصنع من أيما مقعد، أو سحارة خشبية، أو كرسيّ، او أي شيء يرتفع به عن المحيطين به، منبراً يخطب من فوقه بما يريد.

كانت اللغات متعددة، واللهجات متباينة، وبقدر ما يعرف من هذه اللغة أو تلك، استطاع ان يفهم مشكلة المتكلم. لكن الازدحام كان يمنعه من الاقتراب، فيكتفي بالوقوف في مؤخرة الحلقة، وفي حالات الصراخ، أو الخطابة المرفقة بالإشارات، ومداخلات السامعين، كان يضطر للتطاول، مرتفعاً إلى أعلى على رؤوس أصابع قدميه، مستغرباً حماسة الخطباء، وحدة المناقشات، ومعجباً، في عين الوقت، أن لكل منهم قضية، وأن كلاً منهم يعيش قضيته، وبذلك يحقق ذاته التي لوثتها أوحال المدينة، غمرتها الرذيلة المنتشرة في حي سوهو، مقصد المدمنين على الجنس، والمخدّر، والسرقة، والغارقين بشكل يدعو الى الدهشة أو الضحك، في عالم خاص، من وهم المخدرات، هؤلاء الناسين، أو المتناسين، همومهم التي تطل من عيون حمر، ذابلة، ناعسة، ووجوه ذاهلة، كأنما لا حياة، لا مشكلات، ولا قضايا تهم الوطن، أو البلد، أو الناس، هؤلاء الذين يتدافعون، في زحمة السير، ويمرقون، بحركات لولبية، بين السيارات والحافلات عند اختناق السير وتعذّر التقدم إلى أمام.

إن ما عناه من لندن، أمكنة قليلة، ومن المؤسف أن المستشفى كان أحدها وأشقاها، وكذلك ساحة البيكاديللي، وحديقة هايدبرك، وحي سوهو، وبعض المخازن، وهو يمرّ من أمام واجهاتها المغرية بالفرجة، لمن كان خلياً، وليس هارباً من مواجهة حقيقة مؤلمة وراهنة مثله. ومع أنه ليس عفيفاً بطبعه، ولا قديساً في مسلكه، أو زاهداً بملذات الدنيا، فإنه في الحال التي هو فيها، وجد الألم حاجزاً بينه وبين التسرية عن نفسه بأي شكل. إنه طير مهاجر، كسر جنحه بضربة سهم

غير متوقّع. السرّة ليست فماً للتذوق، لكنها مركز يوزع الألم على الجسم، حين يكون هناك تناذر عضوي. تناذره هو نفسي، يرفده تناذر عضلي، يحس معه أن جميع مفاصله تشكو وجعاً غير معروف. لا مرض، لكنه مريض، لا إعياء لكنه عاجز عن الحركة الطبيعية، مشلول، وهذا هو الشلل الذي يسيطر عليه عقلاً وجسماً، فما يدري كيف يستعيد سيطرته على أعصابه، ويرتاح من تفتت يحسه فيها، دون ان يعرف مكانه بالضبط.

لعل ذلك عائد إلى جهمة السماء في لندن. شهر نيسان بداية ربيع في العاصمة التي يسود الدخان جدران أبنيتها. ولم يكن، في سابق عهده، يكره الغيم الذي يعطي راحة للنفس، خاصة في مدن الشاطئ، لكنه، في لندن، يستشعر جهامة السماء على نحو معذّب. ولقد تمنى أن تهب الريح، وتذرو الغيوم، لتشرق الشمس، عسى تتبدّل هذه القتامة التي تسد الأفق أمام ناظريه. ولأن الريح لا تهبّ، ولا تكنس الغيوم، والشمس لا تشرق، فإن كل شيء قد أعد ليكون لوحة صامتة، لطبيعة ميتة، يعطي لحالته سبباً إضافياً للخوف من العودة إلى المستشفى، حيث ترقد فتاته في سريرها، وتشكل لوحة لتجريح القلب، وتركه ينزف على مهل.

ألقى نظرة مسح فيها جسده كله: يديه، رجليه، جذعه، أطرافه، ولم ير أيما أثر للدم. النزيف في الداخل، منبعاً ومصباً، جرحه المفتوح لا فوهة له، ولن يكون، في وسع أيما جرّاح، أن يضمده. وعند هذه القناعة، قرّر أن يعيش بجرح مفتوح، وان يتخطى الألم الناشئ عنه. إن عليه ان يتعايش مع جرحه، وان يعتاد ألمه، ويرتفع، بقوة إرادة فائقة، فوق الشدة التي هو فيها، وان يعود الى المستشفى، ويحمل هدية صغيرة لابنته التي تستلقي وعينها على الباب، بانتظار إطلالته منه.

ابتاع ساعة جميلة في علبة مخملية مستطيلة. سيجعل ابنته تفرح. عمله، بعد اليوم، ان يصْنع لها الفرح. وهو على استعداد أن يمضي في

هذه اللعبة، ولعله يعتادها، وقد يحبها، متعزياً بالانتصار على الحزن، كما تنتصر الريح على الغيم، ولعله أن يكون، في صناعة الفرح هذه، أكثر توفيقاً من الارتهان للحزن، ولعله يتعملق، فيرتفع وبيده مكنسة ضخمة، يكنّس بها هذه الجهمة عن وجه السماء، فتشرق الشمس، وتعود البسمة الى جميع الوجوه.

حمل هديّته بيده، ملفوفة بورق جميل الزخرفة. أحسّ بها سلاحاً ضد بؤسه النفسي. سيقدمها لها وهو يعلن، بكلمات حلوة، حارّة، أنها الهدية المناسبة لنجاح الجراحة، وإخراج ذلك الشيء الصغير من عمودها الفقري، وسيقبّلها في خديها، وجبينها، وشعرها، وعنقها، إذا ما استطاع ان يحول دون الدمع والانسكاب، دونه والتحيير في المقلتين، وإذا ما فاز منها بابتسامة رضى، واطمئنان إلى أنها تسير نحو الشفاء. إن ذلك غاية ما ينشد، وهذا ما سيجعله يجتاز المرحلة الصعبة في علاقته بها وبالمستشفى معاً.

حين أطل من باب الغرفة، رأى ابتسامة ماسيّة، هي تلك الابتسامة التي وحدها تحسنها وتعطي لعينيها السوداوين ذلك البريق الأخّاذ الذي يعرف أنها ورثته عنه. لقد كانت عيناها موضع إعجاب الجميع، لا بسوادهما الليلي، وبياضهما الشديد، وبالبريق اللامع، الضاحك، فيهما، بل بسعة هاتين العينين، وانشقاقهما على شكل لوزتين طولانيتين، وبالأهداب الطويلة، السوداء، والتي يخال المرء أنهما اصطنعتهما اصطناعاً تزيينياً. وهو يذكر كم مرة في سويسرا، وفرنسا، والصين، حين كانت صغيرة ما تزال، استوقفها المارة، وأبدوا إعجاباً غير محدود بعينيها، والتقطوا لها الصور، مركّزين، على الوجه، حتى أنهم، في الصين، تراهنوا أنها إسبانية، فضحك والدها وسأل: «لماذا؟» وأجابوا: «لأن عينيها عينا فتاة إسبانية، فأجابهم وهو مفعم سروراً «إنها عربية سورية».

هو لا يريد أن يتذكّر. الذكرى تنتسب الى الماضي، بينما الحنين

ينتسب الى المستقبل، وفي مثل حاله، عليه ألا يتذكر ماضي ابنته أو مستقبلها، عليه أن يكتفي، إزاء هـذا الاستقبـال الاحتفـالي، الذي يفيض بشوق وبعتب على طول غيابه، باصطناع ابتسامة معافاة. وقد وفق اليها، وتقدم وقد أخفى الهدية وراء ظهره وسألها:

ـ احزري ماذا أحضرت لك؟

ـ دفتراً وقلماً للكتابة.

ـ ولماذا الدفتر والقلم؟

ـ لأنني أريد أن أكتب يوميات أتحدث فيها عما يخالجني.

ـ لسوف أحضر الدفتر والأقلام، وسأكون مسروراً ان تكتبي يومياتك، وأنتظر بفارغ الصبر أن أقرأها.. ستكون رائعة، يا إلّهي كم ستكون رائعة، وكم سأسرّ بها.. غير أنني، الآن، أحضرت لك هدية من نوع آخر، احزري ما هي..

ـ أنت لا تستثير شوقي الى معرفتها، أليس كذلك؟

ـ بل أستثيره..

ـ ولكنني لا أستطيع أن أحزر، لا أعرف ماذا في لندن من هدايا، وخاصة لمريضة مثلي.

ـ أنت لست مريضة.. كنت، قبل الجراحة، مريضة، أما الآن.. الهدية بمناسبة نجاح العملية الجراحية.

قدّم لها العلبة فتناولتها فرحة. طلبت أن تقبّله، طلب أن تفتحها أولاً، وعندئذ رجته ان يرفع السرير الى أعلى من جهة الرأس، فأدار لولب السرير، وأصبحـت في وضـع الاستنـاد، ولما فتحـت العلبـة صاحت:

ـ ساعة؟

ـ ومن أفخر الأنواع..

ـ إذن دعني أقبّلك..

انحنى عليها وأدار لها خده. غير أنها عانقته، غمرته بالقبل، وفعل

هو مثلها، ومسح عينيه اللتين خانتاه بكتفها. ودّ لو أن قدرته على التماسك كانت أكبر، ليحتفظ بها طويلاً بين ذراعيه، ويقبلها الى حد الارتواء..

وتنبّهت هي الى شدة عناقه وحرارته، فقالت:

ـ أنت تفعل الآن، كما لو أن أمي هي التي تقبلني..

ـ ولكني أبوك..

ـ أعرف، لكن الأم تقبّل ابنتها بهذه الطريقة.

ـ في الغربة أنا أبوك وأمك وإخوتك..

ـ إذن حاول ان نعود سريعاً.. لقد اشتقت لهم، اشتقت كثيراً، وخاصة لأخي الصغير أيمن.

ـ سأحاول.. سنعود ما ان ينتهي العلاج. ولكن قولي، ما رأيك بالهدية؟

ـ مدهشة..

ـ ضعيها في معصمك..

ـ لا.. لدي ساعة اخرى، وهي جميلة ودقيقة.. سأحتفظ بهذه الساعة للذكرى..

ـ كما تشائين.. والآن اسمحي لي أن أذهب الى غرفة الانتظار وأدخن سيكارة، منذ ساعتين وأنا أتجول، ولم أدخن أيما سيكارة..

ـ أعرف ذلك.. أنت لا تدخن في الطريق..

ـ هكذا أستريح قليلاً.. اللعنة على التدخين..

ـ لا تقل ذلك. أعرف حاجتك الى التدخين، خاصة وأنت بعيد عن الوطن.

ـ كم أنت رائعة.. حقاً إنني هنا بحاجة الى مضاعفة التدخين..

ـ لاحظت ذلك.. أنت تتعذب إذا أطلت المكوث في غرفتي.. انظر.. هذه مريضة جديدة تكثر من التدخين مثلك، لكنها تفعل ذلك هنا، داخل الغرفة.. وأنا لا ألومها، ولا أنزعج منها.

التفت الى الجهة المقابلة من الغرفة، فرأى ستارة بيضاء، وراءها سرير، فقدّر أن المريضة تستلقي عليه، وأنها، في حالة عصبية، كما هي حال المرضى جميعاً، قبل ان تظهر نتيجة فحوصهم الطبية. راوده شك في أنها مصابة بالسرطان، في مكان ما من جسمها. واغتم، للحظة، على أن ابنته لم تعد في الغرفة وحدها، وأنها سترى هذه المريضة الوافدة وتتألم، وربما اكتشفت، نتيجة تواجدها معها، أنها مريضة مثلها، وأن حالتيهما متشابهتان، لكنه حمد الله أن ابنته لا تجيد أيما لغة أجنبية، ولن تعرف حالة جارتها التي تغط في النوم الآن، نتيجة تعبها في السفر.

ولكي يخفّف عن ابنته، قال لها مع ابتسامة:

ـ ها هي مريضة أخرى، وهي شريكتك في الغرفة، وستتسليان، ولن تكوني وحيدة بعد اليوم. وهكذا أستطيع ان أتغيّب أكثر.

ـ أين؟

ـ في شوارع لندن.

ـ أنت تكتشفها الآن، كي يسهل علينا، عند خروجي من المستشفى، ان نتجوّل فيها..

ـ هذا بالضبط ما أفعله..

ـ ولكن لا تمش كثيراً.. أليس هناك أماكن للتسلية، ولشرب القهوة؟ أنا لا أريدك تعباً، حزيناً.

ـ أنا لست تعباً ولا حزيناً..

ـ أنت تضع على وجهك قناعاً.. أكتشف، من صوتك، أنك لست على ما يرام..

ـ أبداً، إنني في خير حال.. فرحتي بنجاح عمليتك تغمرني غمراً..

ـ أنت لا تقول ذلك لإرضائي.. أليس كذلك؟

ـ أقسم..

قاطعته:

ـ لا تقسم.. كلمتك هي الصدق عندي، لكنني أرغب في المزيد من حبك.. أنا طمّاعة..

ـ وأنا سخي.. سأحبك أكثر مما تتصورين، وقد كنت أحبك دائماً فوق ما تتصورين..

ـ لكنك تحب أخواتي وأخي وأمي كما تحبني..

ـ بل أحبك أنت أكثر..

ـ هذا لأني مريضة.؟

ـ بل لأنك ذكية..

ـ هناك طريقة واحدة للبرهنة على هذا الذكاء..

ـ ما هي؟

ـ ان نعود بسرعة وأنجح في الامتحان.. أفوز بالبكالوريا بدرجة جيدة..

ـ سنعود وستنجحين.. أنا واثق من نجاحك..

ـ ولكن علي ان أفوز بعلامات ممتازة.

ـ ستكون علاماتك جيدة..

ـ وسأدرس الطب..

ـ وستكونين طبيبة..

ـ وأتخصص بأمراض جهاز الهضم والصدر..

ـ سيكون لك الاختصاص الذي تريدين..

ـ كنت أرغب بالجراحة، لكن الجراحة، بالنسبة للمرأة، صعبة.. أليس كذلك؟

ـ الطبيبات الجرّاحات نادرات..

ـ لماذا؟

ـ لأن الجراحة، كيف أقول؟ غير سهلة بالنسبة للمرأة..

ـ في هذه الحال، تراودني نفسي أن أقتحم هذه الصعوبة.. أن

أصبح جرّاحة.. لقد غيرت فكري..
ـ كما تشائين.. أنت، كما أقول دائماً في نفسي، فتاة غير عادية..
ـ من ناحية الذكاء؟
ـ وقوّة الشصخية أيضاً..
وبعد وقفة قال مداعباً، مصطنعاً فرحاً طفولياً:
ـ الآن سأخرج.. أكاد أموت شوقاً الى التدخين.
ـ اخرج.. اخرج.. دخِّن كما تشاء.. كن سعيداً ولكن لا تذهب قبل أن تراني..
ـ لن أذهب قبل أن أراك..
ـ أرغب في أن ألامس يدك..
ـ وأنا أرغب أن أمسّد شعرك الجميل..
ـ الممرضات معجبات بشعري.
ـ وبعينيك.. رئيسة الممرضات نفسها أبدت إعجابها بما في عينيك من سواد ولمعان..
ـ أنت تبالغ.. كلكم تبالغون، تريدون ان تقنعوني أنني جميلة.. ولكنني أعرف نفسي، لدي هنا مرآة صغيرة.. أنا، كما أرى نفسي، فتاة مقبولة.
ـ أنت جميلة، جميلة جداً، ولكن الحديث طال.. أريد أن أدخن..
ـ وتعود، بعد التدخين إليّ؟
ـ أعود إليك.. سأمكث بعد ظهر اليوم كله عندك..
ـ يا حبيبي يا بابا...
ـ يا حبيبتي يا رنا...

ـ ٣ ـ

امتصّت شرايينه، بنهم، دخان السيكارة الأولى، تراخت أعصابه

وارتاحت، كأنما تناول مخدراً سريع المفعول. جلس على مقعد جلدي، وفوراً قفزت الى مخيلته صورة الصبي الذي حمله، وداعبه، وهدهده بين ذراعيه هذا الصباح. أين ذهبت الأم وطفلها يا ترى؟ وهل الأب في غرفة الموتى بعد؟ ينقلونه إلى بلده البعيد أم يدفنونه هنا؟ لم يعد الآن كائناً. لم يعد سوى شيء، ككل الأشياء التي لا حاجة لأحد بها، فهي تُحرق أو تطمر. الطفل لا يدري ما صار اليه أبوه. ستقول له ذلك أمه يوماً. ستذكر لندن والمستشفى، والغربة، والموت. ولن يكون لها قبر تزوره. ضياع فلسطين أضاع كل شيء، حتى القبور. والى أن توجد فلسطين وتستعاد، سيكون أبناؤها قد انتشروا في أربع رياح الأرض: موتى، وجرحى، ومشرّدين، ومهاجرين، وغرباء يقتاتون حزنهم خبزاً يومياً.

أشعل سيكارة ثانية. هذه دخنها واقفاً، كان، برغم الهدوء الظاهري، مهتاجاً من الداخل. كان يحس، بعمق، هول المأساة التي شهدها اليوم، لا مأساة الأرض فقط، بل مأساة إنسانها الذي يصلب على خشبة ويترك جسده طعماً للغربان. من يعرف اسم الرجل الذي مات؟ من يذكره؟ من يفكر بمأساته؟ وهذا الطفل، والمرأة التي ترمّلت، والأخ الذي بكى، وكذبته هو، حين زعم لابنته أن المريض نقل الى قسم الجهاز الهضميّ، لأن مرضه في معدته.

كم مرة يكذّب الانسان في اليوم؟ وأي نوع من الكذب يضطر إليه، لأنه ممنوع، ذاتياً، من قول الحقيقة؟ أتكون الدنيا كلها كذبة كبيرة؟ إنه يرفض هذه العدمية، يرفضها بقوة، ويؤمن أن الحياة، حتى في سوادها، تحمل جانبها الآخر، الأبيض، وأنها حقيقية، وموجودة، ورائعة، وليست كذبة أبداً، وإنسانها ليس كذّاباً، ولو اضطر، أحياناً، الى كذبة بيضاء، كذبة ليست خطيئة كما في الأغنية.

ابنته مريضة. لا شفاء لها. ستكون ميتة بعد أسبوع أو بعد عام، وسيكون موتها ضربة موجعة تنزل به، بل إن حياتها، الآن، صارت

ضربة موجعة موصولة، لكنه يعرف، أو يجب أن يعرف، وأن يوقن أيضاً، أن الحياة لن تتوقف عند مرضها أو موتها، وأن عليه، كإنسان، ان يواصل طريق الانسانية، وأن يشارك في كفاحها، حتى تزال الشرور التي تجعلها قاسية، سيئة الى هذا الحد.

وإذا كان، قبل اليوم، لم يفكر بالموت، فقد فرض الموت عليه، منذ الآن، ان يفكر فيه. يفكر فيه ليس بالنسبة لابنته، بل بالنسبة لنفسه أيضاً، وان يواجه أسئلة كثيرة، أسئلة شغلت البشرية، طوال عمرها، وستبقى تشغلها، طوال عمرها أيضاً، ويبقى الموت سراً مغلقاً، وباباً لا يعرف الذي خارجه ما في داخله، حتى ولو كان هو، قد اعتبر الموت، دائماً، نوماً ثم لا شيء، وانتقالاً الى فناء عام، يعود، في الصيرورة، الى وجود عام، وهكذا تستمر اللعبة، بين ولادة ووفاة، بين كينونة وزوال، والحقيقة الوحيدة، بين قطبيها، هي المقدار الذي يحقق فيه الانسان ذاته ما دام حياً.

شهيته للتدخين، في المواقف العصيبة، كانت تنقلب الى شراهة. ينتشر الدخان، وهو يسحب من سيكارته أنفاساً متتابعة، في خلايا جسمه كله.. الدخان يهبط، يصعد، يتسرب إلى الأطراف، يتغلغل في شرايينه وأوردته، ويدخل المسام الدقيقة، لمسارب تحت الجلد، لا يستطيع تشريحها أو وصفها، غير أنه يدركها بالاحساس، وعندئذ يستشعر راحة ما، تختلف من وقت إلى آخر، ومن مقام إلى مقام، لكنها راحة تدرك بالتدخين وحده، هذا الذي يتساءل: «كم كانت الحياة ناقصة، فارغة، لولاه؟»

إنه يعرف ما عليه ان يفعل الآن. سيسأل عن الرجل الفلسطيني الذي توفي صباحاً. من غير المعقول ان يُلقى في البراد ويظل فيه. الموقف تقرّره الزوجة، بل يقرره الأخ، وكم تمنى أن يكونا عاقلين، وأن يدعا الجسد يستريح، في أيما مقبرة هنا في لندن. إن الذي كان لهما زوجاً وأخاً، لم يعد الآن كذلك، صار شيئاً، وليس في نقل الشيء،

عبر المسافات الطويلة، وعلى متن أيما طائرة، فيه ما ينفعه. التراب استسلم الى التراب، حنّ الى جبلته الأولى. ولو أُعطي الجسد للتشريح، ربما كانت في ذلك فائدة طبية ما، فإذا كانا يرفضان، ومن حقهما الرفض، معزة للفقيد الراحل، فيمكن ان يوافقا على دفنه هنا، وغداً يرافقان سيارة التشييع، ويتركان الطفل عنده، فإذا تأمن وضع الطفل لدى امرأة ما، ممرضة أو حاضنة، فسيذهب هو معهما، مشاركاً في موكب تشييع فقير، بائس، يضم ثلاثة من الغرباء، يمشون وحيدين وراء ميت غريب، ويمكنهم ان ينثروا على قبره بعض الزهور، وفي اليوم التالي، إذا ما رأوا ذلك ضرورياً، وهو ضروري، يضعون شاهدة عليها الاسم والتاريخ.

أطفأ سيكارته وهبط في المصعد الى الطابق الأرضي، وفق ما قالته له الممرضة. غرفة الموتى في القبو، وفي هذا القبو برّاد كبير تحفظ فيه الجثث إلى أن يتسلمها أصحابها، أو يتخلوا عنها إذا لم يكن للمتوفى أحد، وعندئذ تتصرّف إدارة المستشفى بما تراه مناسباً. إن الوقت الذي غاب فيه عن الزوجة الأرملة، والأخ المفجوع، كافٍ لأن يكونا قد اتخذا قراراً. ومهما يكن نوع القرار، فإن عليه أن يشارك في تنفيذه، ويؤدّي واجبه حيال إنسان يربطه به، فوق نسب الغربة، نسب الانتماء إلى وطن واحد، وكذلك المصير الفاجع الذي جعله قريباً أو واحداً من عائلة الفقيد نفسه.

في غرفة الموتى كانت الزوجة وطفلها. كانت تخوض تجربة مرة، قاسية، وصل ألمها الى لبّ عظامها. هي معه وليست معه. تعرف أنه في البراد، ولا يسمح لها بأن تفتح البراد وتراه. النظرة التي ألقتها عليه، في الغرفة التي مات فيها، كانت النظرة الأخيرة. هنا يعالجون أموراً كهذه بعقلانية، ببرود، بفهم أكثر واقعية، وأكثر جدية وفائدة، لكن المرأة من الشرق، من فلسطين، وهي مهاجرة الى الكويت، ولا تفهم كيف يتصرفون حيال زوجها، عزيزها، فقيدها، هذا التصرف الذي

يتسم بلا مبالاة شديدة. لقد كانوا، في الأصل، يريدون إخراجها من غرفة الموتى، إبعادها عن مجاورة الموت ورائحته، لكنها رفضت، وصرخت، وراحت تلطم خدّيها وصدرها، مولولة في غير اقتصاد ولا مراعاة للظرف الذي هي فيه، فدعوها وشأنها، على مقعد يبدو أنه مخصص لذوي الموتى، بانتظار إخراج جثة المتوفى وتسليمها لهم.

كانت المرأة، عند وصوله، قد هدأت. لم تعد تصرخ أو تولول، كانت تلطم على خدّيها فقط، وفي عينيها يتجمّد حزن يحيل لونهما إلى احمرار، وقد تزجّج البياض، وبدت ذاهلة، كأنما المصيبة التي ألمت بها قد أفقدتها القدرة على محاكمة الأمور. نسيت أين هي، ومن تنتظر، ولماذا تنتظر، ومن الذي كان أمس زوجها، وصار الآن جثة قريبة منها، غريبة عنها، تربطها بها رابطة الحب والذكرى، والفاجعة، ويفصلها عنها وعي الشعور بأن ذلك الذي كان أقرب الناس إليها، وأبرّهم بها، وأشفقهم على أطفالها، قد رحل الآن رحلته الأبدية البعيدة، لكنه من حيث الوجود المادي، ولو على شكل جثة محفوظة في ثلاجة، ما زال حقيقة بالنسبة إليها، وما زالت ترغب، حتى ولو قبّلت أقدام المسؤولين عن الثلاجة أن تراه، وأن تبقى قربه، وأن تخاطبه لعله يسمع، وتبثه شكواها لعل الأعجوبة تقع وتدب فيه الحياة ثانية.

مرة أخرى، حين اقترب جهاد منها، استشعر أنها بعض من ذاته، وأن نسب الغربة قد اشتدّ، وتعمّق، وأورق وشيجة تكاد تكون صلبية بينهما. هي أخته وليست أخته، وهي جارته وليست جارته، وهي عزيزة معزّة الأخت والأم، وبكلمة، هي مواطنة عربية غريبة، وهو مواطن عربي غريب، وقد أصبحا نسيبين، يجمعهما لا رباط القومية وحده، ولا خيط العروبة فقط، بل حبل الفجيعة، التي يعرف كل منهما أنه أمامها، دون أن يقوى على فعل أو قول حيالها. الفارق الوحيد أن فجيعتها حلّت قبل فجيعته، وفي الغربة أيضاً، بينما كان من

حظه أن الوقت سيتاح له للتمتع برؤية ابنته فترة أطول، وللعودة بها حية الى الوطن.

كان الطفل في حضنها، كان مبللاً بدموعها، وكان يرى اليها ويبتسم، ثم يحرك يديه ورجليه، على أمل ان تداعبه، لكنها كانت، حين ترى اليه، تزداد جوى، تتسعّر نار في داخلها، تستشعر كل مأساة اليتم التي صار اليها طفلها، دون أن يدرك أو يقدر، ودون ان يفهم مشاعر أمه النائحة حسرة، والمرمدة في موقد حزن خبت ناره، وما بقي فيها هو النزيف الدمعي الذي يفور وينسكب من المآقي، دون ان يبلغ موقد النار المرمد أن يجففه.

كان منظر الطفل، لا الأم، هو الذي يبعث على الأسى الشديد. بكى جهاد قبل ان يقول شيئاً، بل لم يستطع ان يقول شيئاً. ظهوره جدّد نواح المرأة التي كانت قوتها على التماسك قد تلاشت الآن تماماً، وبغير كلام تناول الطفل من حضنها. لم تمانع. ربما كانت تودّ لو لم تصطحب طفلها معها، وربما كان الطفل أُنساً لها، لكنه، في الوضع الذي عليه، كان مثار شفقة جارحة. وقد خطر لجهاد، قبل كل شيء، ان يخرج به من قبو الموت هذا، وان يبحث له عن ممرضة، تعطيه بعض الحليب، فقد كان بكاؤه، في لحظة رفعه من حضن الأم، قد تحوّل الى زعيق، عرف أن مصدره الجوع، الذي يعجز الطفل عن الصبر عليه، ويجهل ضرورة هذا الصبر أصلاً.

وفكر جهاد في نفسه وهو يحمل الولـد صـاعـداً بـه إلى رئيسـة المرضات: «الموت شفرة حادة تقطع جذوع الناس بغير رحمة. إنها شفرة مسننة كمنشار، ومنذ أن تبدأ عملها، يبدأ المرض يعطي تأثيره، يصدر حكمه الذي لا شفيع له، ولا رادّ. وأمس، بعد أن نشر الجذع طويلاً، هوت شجرة الميت الذي يعطي الآن نفسه لبرودة العدم. إنه، حتى في اطباقة جفنيه، كان عاتباً على نحو ما، وكان خائفاً على نحو ما، وتوسل ما ينبعث من خلجة جسده أمام قاضي الموت. لكن هذا،

كقاضٍ انكليزي على رأسه شعر أبيض مستعار، كان صارماً، قاسياً، خالياً من الرحمة حيال الطفولة نفسها. لقد كان هناك ورأى، وكان هناك وابتهل، في عمق أعماقه، أن يرأف قاضي الموت بالأب رحمة بالابن، لكن ابتهالاته ذهبت بدداً. يمين القاضي شالت المطرقة، وحين هوت بها على خشبة الروح المصلوبة، كان حكم مبرم قد صدر.

راح، وهو يصعد بالطفل في طلب الحليب، يهزّه بين ذراعيه، في محاولة لتهدئته، لخداعه، لجعله يحترم ملاك الموت الذي يربض على كتف ابنته المريضة. أبوه انتهى، وسيظل الطفل طفلاً، ثم يصبح فتى، فشاباً، فرجلاً، فشيخاً، وبدوره يتلقى مخالب الغراب الأسود الذي سيحط على كتفه. ليس ثمة طريق آخر، ولا علاج آخر، ولا نهاية أخرى. الخط المستقيم أقرب الخطوط بين نقطتين، وهو يعرف نقطة الولادة، ويجهل نقطة الوفاة. يعرف البداية ويجهل النهاية، لكنه يود، يرجو، لو أن رجاءه يُقبل، أن يموت في وطنه، أرضه، بيته، ويوارى الثرى في المقبرة التي يثوي بها أبواه.

فجأة اضطرب الطفل بين ذراعيه. رفس برجليه وأرسل صراخاً ثاقباً، معبّراً، بحركة طفولية لا يجيد غيرها، احتجاجاً على فصله عن أمه، وقبل ذلك عن أبيه، ثم احتجاجاً على هذا الجوع الذي لا يحتمله، فهو يريد حليباً، وعلى جهاد ان يسعى، ان يسأل، ولو بلهجة توسّل، هي لهجة الغربة في زمن الفاجعة هذا، ان يعطوا قليلاً من الغذاء للطفل اليتيم الجائع، الذي أمه جائعة أيضاً، بل شديدة الجوع، شديدة اللوعة، ولم تذق طعاماً منذ أن شرع زوجها، يحتضر بعد ظهر أمس.

وقال جهاد الذي نسي ابنته الآن، ومصيبته بها، قال في ذات نفسه، مخاطباً الطفل: «أيها الطفل الذي أصبح في الأيتام، يا طفلي الصغير، العزيز، الجميل، الجاهل بالمصير الذي انتهى إليه أبوه، أنت دون أب الآن، وأنا أحبك، وأعزك، وأفديك، لكنني لا أستطيع أن

أكون لك أباً، كل شيء يصير، إلا أن يستعيد الطفل أباً فقده، أو أماً غادرته ولن تعود إليه قط. اصبر يا صغيري، اهدأ قليلاً، قدِّر ما نحن فيه، ولسوف أجد لك قليلاً من الحليب، وسأكون الى جانبك، الى أن يتقرر مصير الجثة الملقاة في ثلاجة الموتى، في قبو هذا المستشفى اللعين».

شرح لرئيسة الممرضات الوضع المأساوي لهذه العائلة الغريبة التي توفي ربها. قال إن الطفل يبكي، وهو جائع، وأمه جف حليبها، وهي بدورها جائعة، لكنها ترفض الطعام، وتقيم في القبو حيث ثلاجة الموتى، بانتظار أن يعود شقيق المتوفى، ويقرر دفنه هنا، أو نقل جثته إلى وطنه الكويت، حيث كان يعمل بعد أن تشرد من فلسطين.

سألت رئيسة الممرضات بعد أن أصغت إلى شرحه بنوع من دهشة لا تخلو من مسحة حزن:

ـ ألا تستطيعون العودة بالمتوفى إلى فلسطين؟

ـ لا يمكن ذلك.. سلطات الاحتلال الاسرائيلي ترفض.

ـ ولكن أليس فلسطين وطنه؟

ـ كانت وطنه.. أغتصبته إسرائيل الآن.. وطردته منه..

ـ بأي حق؟

ـ بحق السلاح..

ـ والمجتمع الدولي؟

ـ يتفرج ويساند إسرائيل، أميركا مثلاً.. و..

لم يشأ أن يذكر بريطانيا صراحة. خشي أن يؤدي اتهامها إلى ردة فعل عند رئيسة الممرضات، لكن هذه كانت تجهل كل شيء، لا تدري بالكارثة التي حلت بفلسطين، ولا بمذابح قبية وديرياسين، ولا بطرد العرب من بيوتهم أو نسفها وهم فيها. كانت إنكليزية عادية، صنعت عقليتها آلة الدعاية المضادة للعرب، إضافة إلى أنها مستغرقة في عملها، ولا تدرك أبعاد النكبة ألتي حلّت بهم.

قالت لجهاد:

ـ أنا لم أسمع بما تقول، صحفنا لا تتحدث كثيراً عما تسميه نكبة العرب. وأنا، كمواطنة إنكليزية، لا أقر ما تفعله إسرائيل، إذا كان ما تقوله حقاً، لكن هذا لا يدخل، هنا، في اختصاصي. أنت تعرف أن مهمتي هي العناية بالمرضى، وانني آسفة أن تفقد هذه العائلة ربها، وأن يكون هذا الطفل الصغير البريء في هذا الوضع.. انتظر، سوف أعالج الأمر.

ـ كل ما أريده قليل من الحليب.

ـ أفهم هذا، ولكن المشكلة أنه ليس في المستشفى قسم للأطفال.. وقد أخطأت في أنك لم تجلب الرضاعة معك.. أنا مضطرة إلى البحث، سأسأل صيدلية المستشفى، يجب أن يأكل الطفل، وينبغي إخراج أمه من القبو، أنا لا أدري من سمح لها بالبقاء هناك، في غرفة الموتى، هذا مخالف للأنظمة.

قال جهاد:

ـ الحالة التي نحن فيها تتجاوز حرفية الأنظمة. الأخ ذهب ليؤمن دفن أخيه، أو نقله إلى الكويت، والزوجة لا تريد أن تفارق الغرفة التي ترقد جثة زوجها في ثلاجتها، والمشكلة، الآن، في هذا الطفل، وباسم الإنسانية، الإنسانية التي نذرت نفسك لخدمتها، أطلب منك المساعدة في تأمين بعض الغذاء له، عسى يكف عن هذا الصراخ الصادر عن الجوع.

قالت رئيسة المرضات، في نبرة أسى أسيف:

ـ يا للطفل المسكين.. أعطنيه.. لا بد من تغيير قماطه، وغسل وجهه ويديه، وسأعهد بذلك إلى إحدى الممرضات، وبانتظار أن نفعل ذلك أتدبر أمر الرضاعة، من صيدلية المستشفى، أو من أيما صيدلية قريبة.

سلّمها الطفل. كان النزيف الدمعيّ قد جفّ في محجريه، وارتاح

لانه وجد حلاً مؤقتاً، فهرول إلى المصعد، نازلاً إلى القبو، ليرى الأم، ويبلغها أن طفلها بخير، وأنه وجد من يعنى به بانتظار عودة الأخ الذي يرتب أمر تشييع جثة أخيه..

وقالت الأم، من بين دموعها:

ـ شكراً .. لقد كنت لنا أخاً في هذه الغربة..

ـ أنا شريككم في المصيبة.. ولديّ، فوق، ابنتي التي رأيتها ولا شك.

ـ ما بها؟ قاطعته فزعة.

ـ مريضة!

ـ أليست ابنتك بخير؟

قال:

ـ ابنتي ستموت أيضاً..

ـ قالت لي إنهم أخرجوا شيئاً صغيراً من ظهرها وأنها شفيت..

ـ هي تجهل الحقيقة.. لا تعرف أنهم لم يخرجوا شيئاً من ظهرها، وأن الورم السرطاني يمتد على طول عمودها الفقري..

قال ذلك مرتبكاً. كان صوته يختنق، يغصّ بالدمع، والكلام لا يؤاتيه.. فهذه المرأة أول إنسان عربي يقصّ عليه مصيبته. وقد أرتج عليها، فهي لا تعرف ما تقول، وتعبيراً عن مشاركتها في الأسى، راحت من جديد، تلطم خديها، وهو يحاول وقف ذلك، ويجفف الدمع في مآقيه، آسفاً لانه اعترف، لاول مرة، أن ابنته ستموت أيضاً، وأنها ستمضي في الطريق التي سلكها زوجها.

ارتمى على المقعد إلى جانبها، انهدّ، قال ما كان يخاف أن يقوله، اشترك مع الأطباء في إصدار الحكم، ولا فائدة من الإمعان في الكتمان. انه في غرفة الموتى، وأمام رهبة هذا السلطان القاهر، الكريه، قال ما يجب الا يقول. لقد ضعف، ولكنه يعرف أن هذه المرأة، المفجوعة مثله، لن ترى ابنته، ولا أمها، ولا إخوتها، ولن تقول أيما

شيء عن السرّ الذي أفشاه لها، وهذا ما خفّف عنه، فاستطاع، وهو يغتصب الكلمات، ان يخبرها أن طفلها بخير، وأنهم، فوق، يعتنون به، وسيرضعونه، ثم يعيده إليها.

ـ لكن زوجي لن يعود إلي؟

ـ زوجك في ذمة الله.

ـ وما نفع الولد بغير أب؟

ـ كثير من الابناء يعيشون بغير آباء.

ـ يعيشون يتامى..

ـ حين تكون الأم لا يكون اليتم.. اليتم هو موت الأم.

ـ ولكن ماذا أفعل أنا؟ كيف أربي هؤلاء الصغار؟ كيف أعود إليهم دون أبيهم؟

ـ قد يقرر أخوه نقل الجثمان إلى الكويت.

ـ وماذا ينفعهم أبوهم وهو جثة في تابوت؟

ـ يرونه للمرة الأخيرة على الأقل. يلقون عليه نظرة الوداع..

ـ وماذا يفيدهم ذلك؟ لقد جئت به على أمل الشفاء.. قلت لهم إن أباكم سيعود سليماً.

ـ والآن سيعرفون الحقيقة.. سيتعلمون أن يعيشوا بغير أب.

قالت وهي تلطم على خديها:

ـ إذن انتهى كل شيء..؟

ـ نعم.. وعلينا أن نواجه الحقيقة..

ـ مات ولن يعود؟

ـ لن يعود أبداً..

ـ يا ذلّي من بعده إذن..

ـ ليس في الموت ذلّ.. الموت حقيقة.

ـ لكنها مرّة.. لا أستطيع تقبّلها..

وبعد وقفة:

ـ أنت أب وتقدر..

ـ أنا أب أتعذب.. أعرف أن ابنتي ستموت أيضاً.

ـ وتدعها تموت؟

ـ أحاول أن أتعايش مع فكرة موتها..

ـ لكم هي جميلة، لكم هي حلوة حين تبتسم. قالت لي إنها شفيت..

ـ يجب الا تعرف شيئاً..

ـ تموت وهي لا تدري أنها تموت؟

ـ هذا هو الواقع.. ستموت ولا فائدة من البكاء..

ـ ولكنك تبكي..

ـ أبكي معك.. أبكي مصابي في مصابك.. أبكي ابنتي في زوجك.. إنني أب، وغريب، وأنت أم، وغريبة، وهذا ما يوحد بيننا.. المصيبة وحّدت بيننا، وعلينا أن نتماسك.. انهضي.. أخرجي من غرفة الموت هذه.. استريحي قليلاً، فأمامك وقت طويل للندب والبكاء.

رفضت بإصرار أن تغادر الغرفة. قالت إنها تتمنى أن تموت وتلحق بزوجها، وقال جهاد في نفسه: «زوجك الآن يستريح، لقد انتهت أوجاعه، انتهى خوفه، لا شيء يضع حداً للخوف من الموت سوى الموت نفسه» ثم تذكر أن هذا الزوج، عند النزع، كان يصيح بها:

ـ اشتريني..

وكانت تقول باكية:

ـ أفديك بروحي.. ماذا تريد؟ ماذا علي أن أفعل؟

ـ لا أدري، لكنني لا أريد أن أموت. فكرة الموت ترعبني.. لا أستطيع أن أتصور نفسي في قبر، ومن فوقي التراب.. أنقذيني..

ـ أنقذك بماذا؟ أنت اقترحت السفر فسافرنا، وأنت تداويت في

الكويت، فخدمتك ليل نهار، ولما فقدت الثقة بالطب هناك، رغبت في السفر إلى لندن..

قال جهاد في نفسه: « كان يهرب من الموت » وقال للمرأة:

ـ الطب في لندن متقدم ولا شك، ولكن ماذا يفعلون مع سرطان الدم..؟

ـ هو قال إنهم يعرفون دواءه.. وأنهم سيشفونه من دائه..

ـ المريض يتعلق دائماً بالامل، والمحكوم بالاعدام يحلم بالعفو..

ـ إذن كان زوجي محكوماً ولا أدري؟

ـ نعم، كان حكم الموت قد صدر عليه وانتهى الأمر..

صاحت:

ـ ما أقسى الموت، وما أبغض قلب عزرائيل..

قال:

ـ لا نفع في الصياح.. الآن انتهى كل شيء، لا ألم، لا خوف، ولا شعور.. إنه أكثر منا راحة.

ـ ألا يحس الأموات؟

تساءل في ذات نفسه: « كيف لي أن اعرف؟ » وأجاب:

ـ ظني أنهم لا يحسون. الإحساس من طبيعة الحياة. وحين يكون الموت لا تكون الحياة.

ـ ألا يجوز أن تكون فيه بقية حياة، وأنه يتعذب في هذا البراد..؟

ـ لم تعد فيه بقية حياة، الموتى يفارقون الحياة، وسيان أكانوا في قبر أو في براد.

ـ أنت لا تقطع أملي الأخير، أ؟

قال في نفسه: « أي أمل أيتها المسكينة؟ زوجك مات، والموتى لا يعودون إلى الحياة، متى تفهمين هذه الحقيقة؟ متى تسلمين أمرك لله، وتنتهين من هذا العذاب المضمر في الرجاء؟ زوجك مات، كان حياً ومات، كلنا أحياء وكلنا سنموت، هذه هي الدنيا، ، وفهمها بسيط، وأنت لست طفلة، وينبغي أن تفهمي الحقيقة وتقتنعي بها »

نصحها:

- انهضي، إذا مات هو فيجب أن تبقي حية أنت، لأجل أولادك، لأجل بيتك، لأجل هذا الطفل الذي لا أدري ما صنعوا به الآن..

- لن أنهض، سألحق به، لا حياة لي من دونه.

لكنها، بضغط من إلحاحه، وهدوء منطقه، والمشاركة الوجدانية معها في مصابها، نهضت. استطاع أن يقنعها بالنهوض، ويقودها إلى أعلى، إلى الطابق الذي فيه ابنها، فهناك تستريح، وهناك تأخذ بعض المهدّئات، وربما قليلاً من الحساء إذا استطاعت.

وجد الطفل نائماً، كان نظيفاً الآن، مقمطاً بالبياض، وكان قد رضع وجبته، وخرج، في براءة طفولته، من عدائيّة الموت وبغضه. كان لا مبالياً، وربما يحلم بشيء زهريّ، مخمليّ، حلو، بدليل هذه الابتسامة التي ترف على شفتيه. إنه يجهل من هو، وأين هو، ولماذا سافروا به، ومع من سافروا به، وكيف عاش ثلاثة أيام في المستشفى، وكيف كان يناغي وأبوه يحتضر، وكيف كانت الحياة تبدأ فيه، من حيث تنتهي بأبيه. كان في العمر الذي يجهل فيه ما يعرفه الذين كبروا، وكان في السن التي لا تعرف من الحياة الا فرحة العيش، ولم يكن، أمام دموع أمه ونواحها، يفهم لماذا هذا البكاء أو هذا النواح، وإن كان، في غمرة جوعه، قد شارك فيهما، وأعطى تضامنه اللاواعي للأم الواعية.

مرة أخرى، عاد جهاد يحاول أن ينسى حزنه. عاد إلى صحوه وكل ما حوله يغرقه في غيبوبة ألم. رجا رئيسة الممرضات المساعدة. ناشدها، باسم الانسانية التي تقوم بخدمتها، أن تتحمل قليلاً هذه العائلة المنكوبة. ولم تفهم رئيسة الممرضات ما هو المطلوب منها. كانت، ضمن دائرة العلاقات الرسمية في المستشفى، ووفق أنظمته الدقيقة، قد صارت خارج دائرة الالتزام تجاه الميت وذويه. وكان هذا قانوناً معمولاً به، سارياً على الجميع، وربما لم تمر بها حالة مماثلة.

إن وظيفتها منوطة بالمرضى، وحين يموت أحدهم، تنتقل المسؤولية لمن يشرفون على الموتى، وكانت هذه مسؤولية يسيرة، فالميت ينقل إلى غرفة الموتى، ويوضع في البراد، وعلى ذويه أن يتسلموا الجثة، أو يدعوا للمستشفى، باقرار منهم، أن يتصرف بها، تشريحاً أو دفناً. لكن هذا الميت العربي، حالة نادرة بالنسبة إليها، وهذه المرأة المفجوعة حالة استثنائية، وهي اذ تفعل للأم والطفل شيئاً، فإنما تفعله شفقة، خارج دائرة اختصاصها، وهذا ما أفهمته للرجل، ورجته أن يتفهمه، وان ينقله إلى المرأة ويقنعها به. لكن الرجل، المقتنع بمنطق رئيسة المرضات، كان يواجه حالة تخرج عن دائرة القانون وتدخل في إطار الرحمة الإنسانية، وعلى هذا الأساس، وفي كلام فيه لجاجة، خشي أن تضيق بها رئيسة المرضات، ظل يحاول أن يستثير مشاعر الشفقة في نفسها، ويحملها على العناية بالأم كما اعتنت بالطفل، ريثما يعود شقيق المتوفى، ويبت بأمر الجثة.

سألت رئيسة المرضات:

ـ لماذا لا تتعالجون في بلادكم؟ أليس من أطباء؟ أليس من مستشفيات؟

ـ يوجد أطباء ومستشفيات، ولكن الاختصاص؟

ـ وماذا يمنعكم من إرسال بعثات التخصص، أو استقدام اخصائيين؟ ألستم من بلاد البترول؟

فكر في نفسه، «إنها تردد ما جال في خاطري» وقال مخاتلاً، في سبيل الا يكشف سر الوضع المتخلف للبلاد التي تعوم على البترول:

ـ المال وحده لا يكفي، قصدت لا يصنع حضارة بمثل السرعة التي تتصورين.. سيصير لدينا مستشفيات، واخصائيون ونكفّ عن اللجوء إلى بلادكم، وتحمّل مشاق السفر والغربة.

ـ قرأت أنكم تبنون قصوراً كما في ألف ليلة وليلة وتملكون أفخم السيارات..

نظر إليها بأسى، وقال والألم يحز في نفسه:

ـ نعم الأمر كذلك، وفي الغرب، فرنسا مثلاً، مصانع للولآعات الديبون الذهبية، وبيوتات لصنع ربطات العنق الفاخرة، وفي إيطاليا ورشات للمجوهرات الثمينة، وكلها برسم بلاد البترول فقط، لكن البترول لمن؟ إنني، يا آنستي، لا أرغب الدخول في التفصيلات.. آسف.. ما كنت أريد قول هذا، ولكن الحقيقة غير ما تنشره الصحف.. يكفي.. لندع الجروح مغلقة.. كل ما أرجوه، الآن، وقد بذلت عناية بالطفل، أن تبذلي بعض العناية للأم.. وسأذكر معروفك هذا طويلاً.

ـ هل أثرتك بسؤالي؟ إنني أعتذر..

ـ لا حاجة للاعتذار.. إنه سؤال مشروع، ونحن نلقيه على أنفسنا.. لكننا لا نحصل على جواب.

ـ أحسب أنني فهمت.. لدينا، نحن أيضاً، مشاكلنا.

ـ ولكنها تختلف..

ـ ليس في الجوهر..

ـ هذا صحيح.. لديكم، أنتم أيضاً، طبقات.. وأنا أعرف..

ـ يكفي ما تحدثنا عن هذا.. إنني سأتدبر أمر المرأة.. عليها أن تهدأ قليلاً، وستكون بعض الحبوب ذات فائدة.. وبعض الحساء سيكون نافعاً.. وهذا كل ما أستطيعه، اعذرني..

ـ بل أشكرك.. أنت ملاك رحمة حقيقية.

ـ هذا واجبنا..

قال جهاد في نفسه: «هذا يخرج عن الواجب.. هذا كرم، جميل، وأنا أفهم، وما كنت أطلبه لولا الضرورة.. لقد قلت أشياء فيها خروج عن موضوع المعالجة، ولكن الحق، بعد كل شيء، على من؟ أنت التي سألت.. وأنا أعذرك.. كل هذا البترول، كل هذه الأموال، كل هذه الودائع في البنوك الأجنبية، وما يزال عندنا، من يحتاج إلى حبة أسبرين، وفي أريافنا لا يعرفون من الطبابة إلا شكلها

البدائي، إننا نكافح، وبعض بلداننا العربية يطمح إلى التقدم، وشعبنا يعمل للحرية والعدالة، ولكن كل هذا لا علاقة له بالبترول. ولعل البترول أن يكون إحدى مصائبنا».

دخّن، في غرفة الانتظار، ثلاث أو أربع سيكارات متتابعة. كان حزيناً، ومثاراً. كان يجهل، الآن، ما حل بابنته التي تنتظره، لكنه لا يستطيع، ولا يقوى وجدانه على ترك هذه العائلة المفجوعة في ظرف كهذا. كل ما فعله أنه اتصل بغرفة الموتى، وأبلغ المسؤول عنها، أن زوجة الميت في الاعلى، وأنها تتلقى بعض العناية الطبية، وهو يرجو، إذا عاد شقيق المتوفى، أن يتصلوا بالطابق الرابع، ويرشدوه إليها.

لقد اطمأن، الآن، إلى حالة الأم. هدأت قليلاً، أغفت وهي جالسة، وبرغم إلحاح الممرضة رفضت أن تتناول أيما طعام، واكتفت بكوب من العصير، وحين أفاق الطفل، كان الرجل قد تعلم ما يجب أن يفعل، فحمله، وداعبه، وربت على ظهره، وناغاه بما أوتي من كلمات الملاطفة التي لا يحسنها كثيراً، وأقام ينتظر، ريثما تستريح الأم، أو يعود الأخ، ويعثرون على حل لمشكلة الجثة التي في البراد.

كان جهاد يستشعر للحظات أنه، هو أيضاً ،سيكون قريباً بحاجة إلى حبوب مهدئة. وكان يقدر، حين يفكر بابنته، مبلغ ألمه. إن ابنته تموت ببطء، وفي كل ثانية تموت إحدى خلاياها الحية، وإن الورم السرطاني ينتشر على امتداد العمود الفقري، وقد قال له الطبيب إن الاصابة لا شفاء لها، لكن الموت لن يكون سريعاً، وهكذا ستكون لديه أيام للاستمتاع برؤيتها. إذن سينطوي على حسرة قاتلة، والسر الذي يحتفظ به لنفسه، سيعذبه كثيراً، وسيدفع من أعصابه الثمن، الا أنه عاجز عن فعل أي شيء، وعليه ان يستسلم، مهيض الجناح، ويحتفظ، بأكبر جهد ممكن، برباطة جأشه، ليس هنا، في الغربة، فقط، بل هناك، في دمشق أيضاً، وكل ما يخافه أن ينهار، وأن تخونه

أعصابه لا عمره، فخيانة العمر، في مثل الوضع الذي هو فيه، مطلوبة ومرغوبة، وبذلك يستريح.

وللتأكيد على هذه الفكرة، ردد في ذات نفسه: «أجل أستريح!» وسقطت دمعتان من عينيه، مسحهما بكفه، مستشعراً، في تلك اللحظة، أن شيئاً ما، في الصدر، يذوب ويسيل، وأن عليه أن يوقف كل ذلك، ويحوّل كل هذا الحنان الأبوي الذي أبكاه إلى حنان يغمر الطفل الذي على حضنه.

إنه، حيال مصيبته بابنته، تزاوجت فيه عاطفتا الأبوة والأمومة. هو الآن، بالنسبة إليها، الأب والأم. وحتى ابوته نمت كما لم تنم قبل اليوم. أحسها تتفتح، تزهر في صدره، وانه انقلب، حيال النهاية المتوقعة للصبية الصغيرة، إلى أب آخر، حنون، رقيق، فإذا لم يكن، كما عند بلزاك، «الأب الخالد»، فإنه، عند نفسه، مثال لهذا الأب. لقد غدت ابنته كل دنياه، كل وجوده، وانه، بعد اليوم، غير قادر أن يرد لها طلباً، أو يقف منها موقف اللامبالي، أو حتى موقف الطبيب المداوي. إنه روح يشكلها الألم، وعاطفة منسوجة من مهجة شفّت إلى أن أصبحت بلورية، فهي صافية كدمعة الطفل، وهي قاصرة عن أيما زجر، تجاه أيما شطط، يصدر عن ابنته، وعاجزة عن النظر بعيون لا يتحير فيهما الدمع.

في الماضي، ماضيه البعيد، حين كان فتى، وشاباً، وفي نضج الرجولة، كان هذا الونى بعيداً عن خاطره، ولم يذكر، في أي يوم، أنه استشعر فوران عاطفة حارة، جارفة، غامرة، تجاه أي ولد من أولاده. حتى انه، أحياناً، كان ينسى أنه أب، وأن عليه أن يداعب أولاده، ويلاعبهم، أو يلاطفهم، بسبب من انهماكه في مشاغل كثيرة، عديدة، لا تتيح له فرصة أن يمارس شعوراً أبوياً حقيقياً، عميقاً، طاغياً.

وقد لام نفسه، أحياناً كثيرة، على بوادر لامبالاة، لم تصل حد

القسوة، لكنها دانتها، وكان في طبعه شيء من ميل إلى اتخاذ موقف الأب المهيب، الذي يعيش على مسافة من أولاده أو يدع، مهما اقترب، مسافة ما بينه وبينهم، فهو مطاع، محبوب، مرهوب الجانب، نافذ الكلمة، حتى لا يذكر أن ولداً تجاهل نداءه، أو قصر في الرد على ندهته، أو عصى له أمراً، أو احتاج إلى زجره، كأنه، في الشخصية التي عايشها، قد تقمّص دون أن يدري، شخصية الأب التقليدي، الذي فات زمنه.

وقد كانت طاعة زوجته، ومحبتها، وتفانيها في سبيله، مثلاً أعلى احتذاه الاطفال، واتبعوه، ونفذوه، حتى بلغ به الإحساس بدور الأب، أن يعتبر نفسه ملكاً، وزوجته وأطفاله رعاياه، وأن يتوقع منهم في لحظة هذه الاعتبارية التي تبلغ حد العنجهية التي للملك، أو للسيد الامر. كان يعيش، وجدانياً، هذا كله في نوع من لذة مبهمة، غريبة، تعطيه الحق في أن يمثل شخصية الرجل القوي، الهادئ، الواثق في خطوه وقوله وفعله، والواثق أكثر في أن كل ذلك يصدر عنه بعفوية، كما يصدر عن زوجه وأولاده.

هذه الكتلة السلطوية الأبوية، التي ما أعوزه أحد من أهل بيته إلى فرضها فرضاً، كانت شيئاً من طبيعة الأشياء، ولم يكن يدري، أنها، أمام مصابه في ابنته، ستتناذر، وتتشتت، وتهوي، كبناء كرتوني، وأنه سينقلب إلى نقيضها، في دورة كاملة، عجب هو نفسه كيف صارت دون إرادته، وعلى غير معرفة منه. لقد أحس فجأة بأنه اليوم غيره بالأمس، وأن قلبه قد بدل تبديلاً، فهو أقرب إلى قلب الأم، مع أنه الوالد الذي عليه أن يلعب دور الأب في السهر على ابنته المريضة.

كل هذه الأفكار جالت في رأسه وهو يحمل الطفل، ويذرع به غرفة الأنتظار، ويرفعه إلى كتفه تارة، ويحتويه بين ذراعيه طوراً، أو يحتضنه، حين يجلس، ويجعل من ساعديه أرجوحة له، ويعجب أن

يصل به الصبر، الاحتمال، التجلد على البلوى، حداً يدفع به إلى الطرف الآخر، الأقصى، من شخصيّته. ومع أن الوقت طال، فإنه لم يضق ذرعاً بالطفل، لكنه كان يتشهي سيكارة في هذا الوقت. إنه يعرف، حين يتوتر، كم يصبح مهتاجاً، وكم يستر اهتياجه بالهدوء الظاهري، لكن السيكارة تصبح مشتهاة كامرأة، كحبة مهدئ من النوع الذي يسلمه إلى النوم.

بعد ساعة عاد الشقيق، جاء يبحث عن زوجة أخيه وطفلها، ولما رأى الطفل في حضن الرجل، والأم، في ركن من المجاز، نائمة على كرسي ذي مساند، اختنق بالاشفاق على هذا الوضع الذي صارت إليه عائلة أخيه، وكان أول ما خطر له، أن يعتذر لجهاد، عن هذا الإزعاج، وان يأخذ الطفل منه، محاولاً فك أسار مواطنه العربي، الذي لم يعرف من أي بلد هو بعد، ولم يتحدث إليه، أو يتقدم بكلمات الشكر على هذه المشاطرة في نكبة أحالتها الغربة إلى كارثة.

رفض جهاد أن يعطيه الطفل. أشار له أن يدعه، أن يجلس ويستريح، وسأله، بنبرة فيها الكثير من الرغبة في الاطمئنان عما إذا كانت المشكلة قد حلت، أو هي في طريق الحل، كي يتفرغ هو لابنته التي تنتظره، والتي صارت إلى حال من القلق من غير شك.

قال بلهفة:

ـ ماذا جرى؟

ـ لا شيء..

ـ كيف لا شيء؟

ـ لا شيء، نحن بحاجة إلى طائرة، ومعاملة، وموافقة من دولة عربية على نقل الجثة إليها، ومواراتها الثرى في أرضها.

ـ إلى أين تنوى نقل الجثة؟

ـ كان الأنسب، لولا ظروف الاحتلال، أن نعيد الجثة إلى وطنها.

ـ هذا واضح، لكنه صعب التحقيق..
ـ ما تبقّى هو إعادتها الى الكويت، مشحونة في طائرة..
ـ وهل وفقت إلى ذلك؟
ـ لم أوفق.
ـ ما هي العقبة!؟
ـ الإذن، وأجرة شحن الجثة، وبطاقات العودة لنا نحن الثلاثة.
ـ وماذا قررت؟
ـ لا أدري..
ـ لكن المستشفى بانتظار البت بأمر الجثة كما أبلغونا..
ـ ليتصرفوا بها كما يشاؤون..
وبعد وقفة:
ـ إنني عاجز، عاجز تماماً، ولا أجد من يساعدني في حل هذا الإشكال.
قال جهاد في نوع من تسليم:
ـ لندفن الجثة هنا إذن.
ـ أين؟
ـ في المقبرة التي يعيّنونها لنا..
ـ والتابوت؟
ـ ندفع ثمن تابوت بسيط، ونعثر، غداً، على من يغسل الميت ويصلّي عليه.
ـ هذا ما تراه؟
ـ هذا هو الحل.. نحن غرباء، والغربة قاسية.
ـ ألن يفوز بقبر في وطنه إذن؟
ـ أنت تعلم أنْ لا وطن له الآن..
وقال الأخ بنبرة شكوى حارقة:
ـ نعم، الفلسطيني لا وطن له الآن..

ـ حسبما أعلم، إن أكرام الميت دفنه، وعلينا أن نكرم فقيدنا بالتعجيل في دفنه، ونبدأ المعاملة، منذ صباح الغد.

ـ مع من نتكلم في كل هذا؟

ـ مع إدارة المستشفى.. هيا لنوقظ الأم، ونسلمها الطفل، ونذهب إلى الادارة.

وقال الأخ مستسلماً:

ـ لنذهب..

وذهبا..

ـ ٤ ـ

الغيبة الطويلة عن ابنته كانت تتطلب عذراً مقبولاً، يحمل لها قناعة تامة تنفي كل شك، في الحاضر والمستقبل، بأن والدها يخفي عنها شيئاً. هي تعرفه محباً، عطوفاً، رقيقاً، ولا يمكن، لأيما شغل، إلا أن يكون قاهراً، أن يحمله على الابتعاد عنها من الظهر إلى العصر تقريباً. وفعلاً كان في شغل قاهر، معذِّب، أتلف أعصابه، لكنه لا يستطيع، بأية حال، أن يصارحها به. جولته، في الصباح أراحته قليلاً، وفرحه بالهدية التي حملها إليها، فاق فرحها بها، وحين خرج إلى غرفة الانتظار للتدخين، أوصته الا يتأخر، أو يغادر المستشفى دون أن يراها، وهو لم يغادر المستشفى. كان في غرفة الموتى، حيث الصمت كلام حزين، والقتامة غم يعشش في الرموش، وكل ما في هذه الغرفة، بارد برودة الموت، أصفر كصفرته، كريه كأنما فرض على من يدخلها أن يستشعر وجوده في خشخاشة[1] مع الميت نفسه.

لقد بكى اليوم، بكى سراً والطفل على كتفه. كان واثقاً أن الطفل لا يراه، وأنه لن يفشي سره حتى لو رآه، فهو لا يعي الاشياء، ولا

(١) الخشخاشة: القبر الذي فوقه رخام وفي الداخل غرفة صغيرة للاموات من عائلة واحدة، أي مدفن العائلة.

يبوح بها، وكان بكاؤه على الرجل الميت، وزوجته، وطفله، وأخيه، وابنته المريضة، كان بكاؤه على كل هؤلاء ثم على نفسه، وها هو، بعد أن وافقت إدارة المستشفى على إجراء معاملة الدفن، في إحدى مقابر لندن الفقيرة، المخصصة للغرباء، وبعد أن فرغ من مهمة خيّل إليه، أثناءها، أنه يحمل كأس السم التي حملها سقراط، يعود إلى ابنته، ليخترع ذريعة لغيابه، ليكذب من جديد، ليجعل دمعه يفيض في الصدر، بدل أن يهمي من المقلتين، ليغتصب ابتسامة يشقى في رسمها، وإخراجها، مسرحياً، على الشفتين، دون أن يكتشف المتفرج الذي هو ابنته، أن الممثل الذي أمامه يخفي وراء ابتسامته دمعاً.

صاحت منذ رأته:

ـ يا إلّهي لكم تأخرت..

وقال في مرح كذوب:

ـ يا إلّهي لكم اشتقت!!

ـ الذي يشتاق لا يتأخر.

ـ وإذا كان مضطراً؟

ـ ما أظنك كنت تتسلى وأنت تعرف أنني بانتظارك.

ـ لم يكن ما قمت به مسلياً.

ـ وماذا جرى.؟

ـ بحثت عن غرفة صغيرة أنتقل إليها، وأتخلّص من أجرة الفندق فاحشة الغلاء.

ـ ولماذا لم تقل لي ذلك قبل ذهابك؟.. أما وعدتني بعدم مغادرة المستشفى قبل المرور عليّ؟

ـ وعدتك، لكنني اضطررت إلى الخروج مسرعاً، فقد هتف إليّ أحد الأصدقاء، وطلب مني الإسلاع لرؤية الغرفة واستئجارها قبل أن يشغلها سواي.

ـ وهل كانت غرفة ملائمة..؟
ـ إنها صغيرة ولكن ملائمة.. إجارها يناسب وضعنا المالي.
ـ أنت في ضائقة، أليس كذلك؟
ـ ليس كثيراً..
ـ ومصاريف المستشفى الباهظة؟
ـ هذه لا تفكري فيها.. لقد تدبرت كل شيء قبل سفرنا..
ـ أنت تؤثرني على نفسك.. تتحمل الضيق وحدك، توفر من طعامك وأجرة مسكنك لأجلي.. آه يا ربي. كم أنت أب مثالي، وكم سأبقى مدينة لك..
ـ أنت مدينة لي بشيء واحد..
ـ قبلة..
ـ كيف حزرت؟
ـ وماذا في وسعي أن أعطيك سوى خدّي؟
ـ هذا، بالنسبة لي، عطاء كبير.. لا شيء يعادل فرحي بشفائك، وبقبلة بعد الشفاء.
ـ شرط الا أبقى طويلاً في المستشفى.. ألست موافقاً؟
ـ كل الموافقة.. أريد تخريجك اليوم قبل الغد، ولكن ذلك مرهون بأمر الطبيب.
ـ وما دخل الطبيب إذا كانت العملية قد نجحت والجرح التأم؟
ـ هناك فحوص إضافية.
ـ ولن تقول لي إنهم سيقومون بعملية تنظير أخرى..
ـ التنظير انتهى..
ـ لقد كانت الإبرة مؤلمة..
ـ كل ألم في وقته صعب.. المهم النتيجة..
ـ شكراً لله.. علي أن أصلي.. لقد شفاني الربّ..
ـ الرب رحيم كريم..

ـ والطبيب الجرّاح بارع..
ـ بارع جداً.. وهو أخصائي كبير.. رغم أنه شاباً ما يزال.
ـ هذا ما يسمونه موهبة..
ـ الموهبة لا تنقصك.. ستكونين طبيبة بارعة..
ـ المهم، الآن، الحصول على البكالوريا العلمية..
ـ هذه لا شيء بالنسبة اليك.. كنت متفوّقة دائماً..
ـ وأريد أن أبقى متفوّقة.. أن أصنع مستقبلي.
ـ ستصنعينه كما تشائين..
ـ في هذه الحال تستحق القبلة..
ـ إذن أعطيني خدك.
وأعطته خدها.

كان خدها شاحباً، وربما الشحوب، أو الحنين المنبعث من شعور مرضي، هو الذي أضفى على صفحة الخد، تحت السالف الأسود المتخوتم، هالة من بهاء ما كان يراها، أو كانت تلفته، بهذه القوة من قبل. قبّل الخد الممنوح له بكرم متوّج بمعزة البنوّة وفرحها، وداعب خصلات الشعر المستعار لونه من ظلام كانون، وتناول المشط من الكومودينة قربها، وجرب أن يمشط الشعر ويسوّيه، بأصابع لا تنقصها مهارة حلاق سابق، وهي تبتسم، وتساعده برفع رأسها، وإدارته، وتطويعه، لحركة الأنامل. وحين انتهى، تناول وردة حمراء، من أصّ كان قربها، وشكلها في الجانب الأيمن، وأعطاها، بعد ذلك، المرآة لترى تسريحة شعرها، المتوّجة بوردة جورية نادرة ابتاعها لها من أحد باعة الزهور في المدينة.

ومرة أخرى، بعد أن فرغ من عملية تزيين مرتجلة، قبّلها في خدها، وجبينها، وشعرها، وشم عطر الوردة، وصاح منتشياً:

ـ يا الله! أية لوحة جميلة خلقت؟

وقالت الفتاة، بحساسيتها المفرطة، وقدرتها الخارقة على ملاحظة ما هو غريب في أيما موقف:

ـ أنت تفعل شيء مفرحاً، لكنه خاص، كأنما فرضته مناسبة.

ـ لكنني لم أفعل سوى أن سرّحت شعرك.

ـ لكنك، قبل مرضي، لم تفعل هذا أبداً.. أنت تدلّلني لا أدري لماذا؟

ارتبك أمام هذه الملاحظة الدقيقة، لكنه لجأ، كما ينبغي، إلى كذبة جديدة، قال إنه فعل ذلك لأنها، وهي مستلقية، لا تحسن ان تسرح شعرها، ولا تفكر كم تتناسب الوردة مع التسريحة، وغداً، بعد عودتها، سيتولى هو، بمهارته في التزيين، تصفيف شعرها، حين تكون ثمة مناسبة، أو حفلة في البيت، أو لدى إحدى الصديقات.

لكنها، من جديد، كشفت سره، وقالت معترضة:

ـ حين أشفى لا تفعل ذلك.. أنت لم تفعل هذا مع أيما واحدة من أخواتي، لا وقت لديك، وأنا أعذرك، فلديك الوظيفة، والكتابة، وتدبير شؤون البيت، ولن تحس، ونحن في الوطن، بما تحسه تجاهي في الغربة. وإذا لم أكن مخطئة، فأنت تفعل هذا لأنني مريضة، فالمريض يستدر شفقة المعافى دائماً، وهناك مثل تقوله أمي ساعدني على تذكره.

ـ لدينا، في سورية، كثير من الأمثال، فكيف أحزر ما هو؟

ـ بل أنت تحزر، وتعرف، لأن أمي تردّده كثيراً، وأنت نفسك قلته أكثر من مرة، وهو يدور حول المريض والغائب.. هيا ساعدني على تذكره..

ـ لكنني لا أذكر، فكيف أذكرك به؟ ثم لماذا؟

ـ لأنه ينطبق على موقفك مني..

ثم، بعد صفنة، صاحت فرحة: «تذكرت» المثل يقول: «ثلاثة أشياء حبيبة الى القلب: المريض حتى يشفى، والغائب حتى يعود، والصغير حتى يكبر». تظاهر فوراً بأنه تذكر، وأرفق ذلك بحركة من

يده التي خفق بها على جانب رأسه، كأنما ليوقظ ذاكرة هاجعة، وقال:

ـ يا الله! كيف نسيت؟ نعم، هذا هو المثل، وأمك تردّده كما قلت.

ـ وهو ينطبق على حالتي.

ـ أنت لن تسلبيني حقي، أليس كذلك؟ اعترفي أنني فعلت ما فعلت برغبة دافعها التجربة.

ـ أية تجربة هذه؟

ـ تجربة ما إذا كنت حلاقاً جيداً بعد.

ـ ربما كان ذلك كذلك، غير أن مرضي هو الذي أيقظ فكرة التجريب في ذهنك، وهو الذي دفعك إلى ما فعل ما فعلت.

ـ ولنفرض أن هذا صحيح.

ـ بل هو صحيح.. اعترف!

ـ اذن أعترف.. أريدك أن تكوني مسرورة بدقة ملاحظتك.

ـ هذه ورثتها عنك.. لا أقول هذا من جانبه السيئ، فأنا أتمنى أن يطول عمرك، إنما دقة الملاحظة مسألة وراثية أنت مصدرها.

مرة أخرى احتاج الى التمثيل، والى معاودة الكذب!

ـ مهما يكن، قال وهو يبتسم، أنا مسرور بما فعلت، ومسرور بدقة ملاحظتك، لأنني، وهذه هي النقطة المهمة في الموضوع كله، سعيد بشفائك.

ـ اذن ارفع السرير من ناحية الرأس.. أريد أن أرى نفسي في المرآة وأنا مستقيمة الجذع.

فعل ما طلبته منه. أدار محرك السرير، فارتفع من عند الرأس، واستوى جذعها بدرجة كافية، كي ترى وجهها وابتسامتها، وتسريحتها، والوردة الحمراء المشكولة على الجانب الأيمن.. وحين تملّت وجهها بإمعان، قالت متسائلة:

ـ ما كنت أحسب أن اللون الأحمر يتناسب وشعري الأسود، وبشرتي السمراء..

ـ أنت حنطية اللون ولست سمراء..

ـ فليكن، ثم ما الفرق، ما دمت، كما تقول، جميلة؟ إلا ان تكون..

قاطعها:

ـ أتشكّين بصدقي؟

وقالت مبتسمة:

ـ عفواً يا بابا، لكنني لا أصدق نفسي، أأنا جميلة الى الحد الذي تقوله؟

ـ وأكثر!

ـ اذن سأتباهى بجمالي، سيكون عليكم، وعليك أنت بالذات، ان تحبني بشكل خاص، لا لأنني ابنتك فقط، ولكن لأنني جميلة الى هذا الحد.

ـ سأحبك في كل أحوالك، وفي المستقبل، من يدري، قد أقضي شيخوختي عندك.

ـ لا تقل هذا، لا أريد أن أتصورك شيخاً، وإذا كنت تنوي، كما تقول، ان تكون مستقبلاً في بيتي، حين يصير لي بيت، فستكون سعادة لي، سعادة لا توصف، وعندئذ فقط ستبرهن على أنك تحبني حقاً، وتؤثرني على الجميع حقاً، ولكن انظر.. (وبصوت خافت) هذه ابنة المرأة.!

تحوّل الأب الى الجهّة التي أشارت اليها ابنته. كان حتى الآن، منصرفاً الى تلفيق الكذب حول غيبته الطويلة، والى العناية بابنته. لقد كان موقفاً أنانياً، لا إنسانياً، أن يقبل على فتاته كل هذا الإقبال، وان ينسى أن في الغرفة نفسها، امرأة تقف الى النافذة وتدخن، وأنها ظلت على هذا الوضع حين دخل، لذلك لم يتبادل التحية معها، ولم

يتعرّف إليها، بل نسي، في غمرة بحثه عن خدع صغيرة لمريضته، أن ثمة مريضة أخرى، في الغرفة نفسها.

التفت، فوراً، الى حيث استدارت المرأة عن النافذة، وجلست على كرسي، تتابع التدخين بعصبية ظاهرة. وحين تقدمت منها ابنتها، أدارت لها خدها، فقبّلتها، وراحتا تتحدّثان بالفرنسية، وهو يتحيّن الفرصة ليقوم بالتحية وبواجب التعارف.

أخيراً سنحت الفرصة، فانحنى للمرأة وابنتها، وحيّاهما بالفرنسية، ومشى نحوهما مصافحاً.

ـ جهاد مروان، قال وابتسم.

ـ مارسيل ميشيل، أجابت المرأة.. دون ان تبتسم.

وقالت الفتاة وهي تصافحه:

ـ ليديا ميشيل.

وأشار الى ابنته المريضة وقال:

ـ رنا، ابنتي، وقد أجريت لها جراحة في الظهر.

هكذا تمّ التعارف بأقل المراسم كلفة. كان مرتبكاً قليلاً، واستشعر الحرج بسبب من صمت السيدة مارسيل وسهومها، ونظراتها الحزينة، السادرة في فضاء الغرفة، كأنها تلاحق فكرة ما، أو تحاول القبض على جواب لسؤال يعذبها. كانت جميلة، سمرتها تعطيها طابعاً شرقياً، وإن كان أصلها الأوربي حاضراً، تستشفه النظرة المتأنية، وقد تردّد قبل ان يسألها عن السبب الذي جاءت من أجله الى المستشفى، لكنها، بدلاً من الجواب، أشعلت سيكارة وراحت تعبّ منها أنفاساً متتابعة، ونابت عنها ابنتها في الجواب فقالت:

ـ أمي تعبة قليلاً، نحن من البرتغال، وقد وصلنا اليوم، وستجري امي بعض الفحوص، ونأمل أن تكون النتيجة طيبة.

ـ آمل ان تكون النتيجة كما تتوقعان، وان تكون السيدة مارسيل بخير، وتغادر المستشفى معافاة.

قالت السيدة مارسيل، وهي تحاول تهدئة أعصابها بالتدخين:

ـ أشك في ان تكون نتائج الفحوص لصالحي، أنا امرأة قضي عليها..

وقالت البنت:

ـ آه يا ماما، لماذا تقولين ذلك؟ أنت بخير..

وقالت الأم بحسم:

ـ لست بخير أبداً، أعرف مرضي.

وقال الرجل:

ـ آمل ان يكون ذلك وهماً، يتبدّد بعد ظهور نتائج الفحوص.

ـ شكراً لملاطفتك.. هل ابنتك بخير؟

ـ ابنتي بخير.. أجرت جراحة في العمود الفقري.

سألت بقلق:

ـ في العمود الفقري؟..

ـ نعم.. وكانت جراحة صعبة..

وبعد وقفة:

ـ ابنتي لا تعرف الفرنسية.. لا تعرف أيما لغة أجنبية، هي في الدراسة الثانوية، ولغتها الفرنسية ضعيفة، وخاصة في الكلام، إذ لم تجد، حتى الآن، من تتكلم معه، وآمل ان تكوني مرتاحة بوجودها معك في الغرفة، وأن تتعارفا، وتتصادقا، فهي تفهم ما يقال بالفرنسية، لكنها تتعثّر، أو تتلعثم في النطق، وهذا بسبب الخجل، وآمل ان يزول حين تكبر.

ـ هل لي أن أعرف بلد السيد؟

ـ سورية.. نحن من مدينة دمشق، العاصمة.

ـ أحسبها بعيدة جداً..

ـ ليس كثيراً، بضع ساعات في الطائرة..

ـ أجل! ليست بعيدة، لم يعد ثمة ما هو بعيد، العالم صار صغيراً، لكنني أجهل سورية، ولم أزر الشرق الأوسط أبداً.. هل سورية قريبة من لبنان؟

ـ إنهما بلد واحد تقريباً.

ـ يقولون إن لبنان بلد جميل، متطوّر، كأنه قطعة من أوربا.

ـ هذا هو الواقع، لكن حالة ابنتي استدعت إحضارها إلى لندن.

ـ وحالتي استدعت مجيئي الى لندن أيضاً.. ليس عندنا مشافٍ حديثة، مجهزة، وأخصائيون يرتاح المرء للمعالجة عندهم.

ـ أنت على حق يا سيدتي، ولو أن الأسباب، لعدم قيام المشافي الحديثة، واستحضار الاخصائيين، تختلف في بلدينا.

ـ ألستم من بلاد البترول؟

ـ سورية ليست من بلاد البترول..

ـ وبلاد البترول أليست عربية..؟

ـ نعم هي عربية، لكنها، كيف أقول؟

ـ بودي لو نتحدث عن بلادكم.. إنني أعرف القليل عنها..

ـ حين تسمح صحتك سنتحدث في هذا، وسأعرف منك كل ما أجهله عن بلدك البرتغال، هل هي جميلة؟

ـ جميلة جداً، ولكن لندع هذا الحديث، أشعر بتعب يحول بيني وبين الإسهاب في الكلام.

قالت ابنتها ليديا:

ـ أنت تكثرين من التدخين يا ماما.. وفي غرفة لست وحدك فيها.

ـ هذا صحيح.. علي أن أمتنع، أو أخفف، لكن أعصابي تحتاج الى تهدئة.. انني مضطرة، مضطرة، أتفهمين؟

وبكت فجأة، كأنها حبست دموعها طويلاً، والآن انفجرت.. وفوراً غطت وجهها بيديها وأدارت ظهرها، قائلة:

- سامحني.. إنني عاطفية.

وقال الرجل في نفسه: «بل أنت مأزومة، وهذه الدموع ضرورية لك، فالبكاء يريح الأعصاب» وكيلا يحرج السيدة، استأذن، وذهب الى ابنته، وقال لها:

- سأخرج للتدخين..

- دخّن في الغرفة.. السيدة تدخن في الغرفة أيضاً.

- إنها مريضة.. لا حرج على مريض، أما أنا فعلي مراعاة النظام.

في غرفة الانتظار، أشعل سيكارة وراح يفكر بالمرأة: وجهها البيضاوي، سمرتها الفاتحة، على مهاد من صفرة، مما يكسبها لوناً خاصاً، هو لون المتحدرين من أصل أوربي، ويعيشون في البرتغال. أما ابنتها فأقل شبهاً بلون الناس في تلك البلاد، وهي على ملاحة تزيدها سمرتها فتنة. كان واضحاً أن الأم مريضة، ومرضها في درجة متقدمة، وأنها تعرف حالتها، وتعرف أنها ستموت، لكنها لا تريد ان تموت، وتخاف الموت إلى درجة الجنون، وتلك حالة صعبة، ولن تكون ابنته مرتاحة معها في غرفة واحدة، وستكتشف، بدقة ملاحظتها، أن جارتها المريضة في وضع صعب، وتحزن لذلك.

كان باب غرفة التدخين مواربا، والنافذة مفتوحة قليلاً للتهوية، وكان هو يقطع الغرفة جيئة وذهاباً، مفكراً، سادراً، يحس أن تواجده في المستشفى، بين هؤلاء المرضى الميئوس من شفائهم، يعذبه جداً، لأنه يعرف لماذا تكبدوا مشاق السفر وجاءوا من بلاد بعيدة. إنها محاولة للنجاة، مغامرة هدفها الشفاء، ولكن الشفاء متعذر، فمرضى السرطان لا يشفون غالباً، إلا إذا كان المرض في الأطراف، أو في أماكن يسهل على مبضع الجراح استئصاله منها.

في هذه اللحظة دفع الباب، دخلت ليديا وفوجئت به أنه هنا

يدخن، وينفث الدخان بحالة عصبية، تدل على أن له، هو أيضاً، مشكلة ما.

أخرجت علبة دخان من نوع « كنت »، تناولت سيكارة فأشعلها لها، ولم يقل شيئاً. كان يفكر، يراقب، يئن تحت وطأة معاناة يوم كامل، ولا قابلية له للكلام، إذا لم يضطر اليه. الفتاة أيضاً ظلت صامتة، حزرت مشاعره، أدركت في أي حال نفسية هو، انصرفت الى التدخين، جالسة على مقعد في زاوية الغرفة، بينما هو لا يبرح يذهب ويجيء، كأن ذلك يريحه، وكأن غرفة الانتظار، هي الغرفة الوحيدة التي يتمتع فيها المرء بالتدخين، والبكاء، والاسترخاء، بعد انشداد أعصابه طويلاً. إنه، هنا، كما في بيته، ولا حرج عليه ان يتصرّف على النحو الذي يريحه.

قالت الفتاة وهي تتناول السيكارة الثانية:

ـ المعذرة إذا قطعت عليك خلوتك.

ـ لست في خلوة.. ليس هذا مكان الاختلاء بالنفس، هذه غرفة انتظار، وكل ذوي المرضى الذين تتعب أعصابهم يلجأون اليها. إنهم، هنا، يدخنون، ويبكون، ويقول بعضهم لبعض الأشياء التي لا يمكن ان تقال أمام المرضى.. لقد ألفت هذا الوضع.

ـ وعلي، أنا أيضاً، أن آلفه.. هنا أستطيع أن أستنشق الهواء، وأدخن، وأفكر، وأحزن، وأبكي، وآتي بكل ضروب الأفعال التي لا أستطيعها هناك، أمام الماما.

ـ في هذه الحال نكون سواسية في الألم، وفي التكتم الذي يعذبنا.

أضاف:

ـ هل السيدة الوالدة في خطر؟

ـ لا أعرف.. نتائج الفحوص لم تظهر.. لكنها، هي، تحس بهذا الخطر، وتخاف ألا تشفى.. الموت شيء رهيب يا سيدي.

ـ أنا جهاد مروان، يمكنك ان تخاطبيني بغير كلفة، بالاسم

الصغير، وكذلك سأفعل أنا. يبدو أن المصيبة تخلق بين الناس صداقة من نوع ما، وبسرعة.

ـ يسرّني أن أسمع منك هذا.. أجد صعوبة في لفظ اسمك الأول..

ـ جهاد..

ردّدتها بلكنة أجنبية، وقالت دونما تمهيد:

ـ يسرّني أن نكون صديقين.. أمي مريضة بالسرطان في المعدة..

ـ وابنتي مريضة بالسرطان في النخاع الشوكي..

ـ رهيب! لا أكاد أصدق، إنها تبتسم لكل ما حولها..

ـ ذلك أنها تجهل ما بها.. هذا سر أحتفظ به لنفسي، وعلي ألا أبوح به لأحد، وآمل ان يبقى سراً بيننا..

وبعد وقفة سأل:

ـ هل تعرف والدتك نوع مرضها؟

ـ تعرف مع الأسف.. تلك خطيئة الطبيب في بلدنا، كان صريحاً كما يريد ان يصف نفسه، لكنني أعتبره ثرثاراً، كان يجب ألا يدعها تعرف أو تحزر ما بها..

ـ أجل هذا ما كان يجب.

ـ إنه وضعها في الصورة بشكل فظ.

ـ قال لها إن لديك سرطاناً في المعدة؟

ـ أحسب ذلك..

ـ يا له من مأفون!.

ـ على كل، انتهى ذلك الآن، لا نستطيع جعلها تنسى، يا إلهي كم هي خائفة، مذعورة، مرتعدة من فكرة الموت.

ـ هذا طبيعي، بالنسبة لامرأة في نضج العمر..

ـ أترى كم هي بائسة، حين تفكر أنها ستموت؟

ـ أرى ذلك جلياً، ثم هذه العصبية وكثرة التدخين.

ـ نصحتها بالإقلاع عنه فما استجابت لطلبي..

ـ وماذا قال الطبيب؟

ـ الطبيب قال: سيان، لتدخن بقدر ما تشاء..

ـ هذا ليس علامة جيدة..

ـ أنت لا تريد ان تقول إن الطب يئس من شفائها، أليس كذلك؟

ـ لا أقول هذا، ولكن اسمعي، أنت قرأت تشيكوف..

ـ ومفتونة به..

ـ كان تشيكوف مسلولاً، وحين اشتدت عليه وطأة المرض، سافر الى مدينة بادن، تحت إلحاح وتوسّلات أصدقائه، وهناك، بعد أن عاينه الطبيب، وأدرك أنه سيموت، قال له: «تستطيع ان تشرب الشمبانيا يا عزيزي تشيكوف» وباعتباره طبيباً، فهم تشيكوف أن نهايته دنت، فقال لزوجته، وهي ممثلة روسية شهيرة: «الآن نستطيع ان نشرب الشمبانيا بقدر ما نريد» قالها بسخريته المعهودة، وفهمت زوجته أن كل شيء أوشك على النهاية..

ـ يا لها من فاجعة!

ـ أجل يا آنستي، موت تشيكوف المبكر كان فاجعة.. وبالنسبة إلينا، أنت وأنا، علينا أن نتحمل الفاجعة برباطة جأش. قصدت ألا نجاري مريضتينا في شعورهما المرعب

ـ ابنتك لا تمارس هذا الشعور.. إنها تبتسم..

ـ ذلك أنها تجهل ما بها، كما قلت لك، وينبغي أن تظل جاهلة ما بها..

ـ وأنت؟ كيف تتحمل؟ إنني أبكي، ولا أستطيع الامتناع عن البكاء.

ـ وأنا أبكي.. أفعل ذلك سراً، وأفعله في قلبي، على الرجل ألا يبكي جهاراً، هكذا يقولون، لكنني، أحياناً لا أقوى على التماسك..

أحس برعشة، رعدة، وحنين، وخوف، وتجري دموعي رغماً عني.. إن الفاجعة كبيرة، كبيرة الى درجة لا أقوى على تصورّها، ولا أستطيع احتمالها.

ـ نحن، كما يقال، أمام جدار واحد..

ـ هذا صحيح.. وعلينا، كلينا، أن نتماسك..

ـ لكنني لا أستطيع.. لقد بكيت كثيراً هذا الصباح..

ـ بعض الدمع راحة..

ـ لا أريد أن أستريح، أريد أن تشفى والدتي..

ـ لنأمل ذلك..

ـ ولكن لا أمل كما فهمت منك، ما دام الطبيب، كما عند تشيكوف.. أنت تفهمني كما أعتقد..

ـ أفهمك تماماً، ولكن ليس شرطاً أن تكون الحالتان متماثلتين.. التدخين خطر على المصاب برئتيه، ومرض والدتك في معدتها..

ـ آمل ذلك.. أرجو، لكنني لا أنخدع بسهولة.. ما قلته أولاً هو الصحيح..

ـ على كل، لا نملك، أنت وأنا، للموت دفعاً.. وليس علينا سوى الصبر..

وقالت بنبرة عتاب:

ـ أنت تدعوني الى الصبر..؟

ـ عفواً.. أنا أعرف سخف هذا الطلب وأنصحك بالصبر ولا أجيده.. ولكن ماذا نفعل؟ مهما يكن موقفنا، يظل الصبر وسيلتنا كيلا ننهار، كي نظل في وضع حسن، ولو ظاهرياً، وما دام الطبيب يعمل، فما علينا سوى الانتظار، وبأي ثمن..

ـ يا له من ثمن.. لنكف عن الحديث في هذا، أكاد أبكي من جديد، لا أتصور موت أمي، إنها كل شيء في حياتي..

أشعل سيكارة ولم يقل شيئاً.. ها هو، أخيراً، وجد إنساناً يبادله

الحديث بصراحة.. إن بينهما قربى الآن، قـربـى لعينـة، تنتمـي الى فجيعة متوقعة، وتوقعها هو أصعب ما فيها، غير أنه يستطيع، بعد اليوم، ان يعبر لها، دونما حرج، عن مشاعره كأب، حيال مصيبته بابنته الصبية.

عاد يذهب ويجيء، ويدخن بشراهة، بينما هي وضعت رأسها بين كفيها، وظهر من ارتجاف كتفيها، أن نوبة من رعب تعتريها، وأنه لصعب، صعب جداً، أن تواجه فتاة شابة، قليلة التجربة، موقفاً دراماتيكياً كهذا، موقفاً يتعلق بمصير كائن عزيز هو الأم، وبرغم كل ذلك، لا سبيل إلى التغلب على هذا الموقف سوى بالصبر والعمل، وهما كل ما تبقى في المسافة الباقية بين الحياة والموت، بالنسبة لكائنين عزيزين على كل منهما.

فجأة رفعت رأسها، وفي عينيها دموع، وسألته بلهفة شديدة الى المعرفة:

ـ هل الموت صعب؟

ـ بالنسبة للمريض أم بالنسبة لذويه؟

ـ بالنسبة للجميع..

فكّر «الموت، كيف أقول.»؟ وخطا بضع خطوات، ثم توقّف، ثم خطا مرة أخرى، وتذكر قول سقراط: «لو أن العقل انطفأ نهائياً، وبات الموت مجرد نوم عميق خال من الأحلام، نغرق فيه لفترة من الزمن، لكان الموت، عندئذ أمراً مرغوباً فيه» إن الموت، نوم ثم لا شيء، حسب تعبير شكسبير، ولكن ما هو فظيع في الموت، هو توقعه، هو الإحساس به قبل ان يحلّ، هو الاحتضار، وهو صعوبة مفارقة الدنيا، بكل ما فيها من أشياء عزيزة، وبكل ما ندع وراءنا من أحبة.

ـ أنت لم تجبني على سؤالي..

ـ ذلك أنني لا أعرف.. إن موت ابنتي هو موتي، لكن ثمة فارقاً بين من يموت، وبين من يراقب الموت.

ـ أيهما أقسى في نظرك؟

ـ كلاهما قاسيان.. كلاهما يبعثان على الخوف، ولكن الذي يموت. آه لا أستطيع تصور تلك اللحظة، لا بالنسبة لابنتي، ولا بالنسبة لي، برغم أنني، لو ملكت خياراً، لفضلت أن أموت أنا، وتبقى هي..

ـ وأنا مثلَك..

ـ ليس تماماً.. أنت في فجر العمر، أنت شابة، وأنا كهل، موتك خسارة، فاجعة، أما موتي فإنه من طبيعة الأشياء، لقد عشت.. وشكراً للحياة، شكراً ووداعاً..

ـ أنت ذو قلب كبير يا سيدي..

ـ أنا أب يا آنستي.. ثم أنا غريب.. الغربة هي فاجعة ثانية..

ـ وأنا مثلك.. أنا أيضاً غريبة، وأحسب أن حظاً طيباً هو الذي أتاح لي التعرف اليك، وكل ما أرجوه ان تعاملني بما لديك من رحابة صدر، وأن تتحمل، هذه النوبات التي تصيبني.

ـ إذن ينبغي لي، أنا أيضاً، أن ألتمس منك عدم الضيق بما ينتابني من غم يبلغ حد الإزعاج.

ـ تستطيع ان تقول لي كل شيء، وان تطلب، ونحن نعاني معاً، أن نتعاون في ما يفيدنا كلينا، وكعربون على موقفك الطيب، أقدم لك صداقتي المخلصة.

تأمّلها مليّاً، هذه المرأة الصغيرة، التي لما تبلغ الصبا إلا قليلاً، واستشعر عطفاً حقيقياً حيالها، ماذا تستطيع فتاة صغيرة مثلها أن تفعل أو تقول، حيال مصاب بهذا الحجم؟ هي البنت وليست الأم، ولكن عليها ان تقرر، حيال المستشفى وما يقترحه الأطباء، ما كان على الأم ان تقرره حيال ابنتها المريضة. غداً سيسألونها عن هذا وذاك من

الأمور. سيكون عليها ان تقرر، أمام وضع ما حاسم، طرأ فجأة، ما يجب ان يُعمل.. فلو أرادوا، مثلاً، إجراء جراحة لأمها، سيكون عليها ان تقرر إجراء هذه الجراحة أم لا، وأن توقِّع في حال القبول أو الرفض. إنها كل عائلة أمها في هذا المستشفى، كما هو كل عائلة ابنته، ونظام المستشفى، في دقته وصرامته، يتطلب منها، في ساعة الحسم، أن تحسم في الأمر، وعندئذ، لو كان قربها، ستهرع اليه، تشاوره، تسأله كيف يجب أن تتصرّف.

هكذا تحوّل التعاطف الى مشاركة. صار التعارف صداقة. وصارت الصداقة واجباً يفرض عليه ان يرشدها، ان يسدي اليها النصيحة حين تحتاجها، هو المضيَّع في دوامة مصابه، والذي عليه، غداً، ان يهتم بجثة الرجل الذي في الثلاجة، وفي تشييعها، ودفنها، وفي رعاية الطفل، حين لا يكون للأم الأرملة من الوقت، ومن الطاقة، ما يجعلها قادرة على العناية به.

قال في نفسه، وهو يشعل سيكارة جديدة: « إنما الناس إخوان، وإنما هم، دون قربى، أقرباء، والإنسانية، لو وعت مصيرها المشترك، أسرة واحدة، ونحن أفرادها الذين يترتب علينا ان نتعاون في اجتيازنا مرحلة العمر القصير.. » أضاف متسائلاً: « هل يعي الآخرون هذه الحقيقة يا ترى؟ وهل نكون في يوم قادم، بعيد، ومهما يكن بعيداً، جديرين بحمل مشاعر الأسرة الإنسانية، أم أن هناك، في الأعلى، من لا يحسّون، لا يستشعرون، ما يعانيه الذين في الأدنى، وأن طبقية حياتنا، وافتراقنا بين سيد وعبد، ستظل تحول دون قيام هذه الأسرة المنشودة، المُحبّة والمتضامنة؟

لم يكن، في الحقيقة، بقادر على إعطاء جواب مريح. وكان في نزوعه إلى العدالة، وفي نضاله من أجلها، من أنصار قيام هذه الأسرة الإنسانية التي يعي الآن، أكثر من أي يوم مضى، أهميتها، ضرورتها، وحاجة الناس القصوى اليها. لكنه، في المدرك، يعرف أن هذا، لن

يصير، وأن هذه الأسرة المنشودة مستحيلة التحقق في مجتمع طبقي، وأن ذلك اليوم الذي تزول فيه الطبقات، ويتساوى الناس، وتقوم علاقات عادلة بينهم، هو في الغيب، وفي سفر لا يدرى متى يعود منه. المهم، الآن، هؤلاء الأربعة: المريضتان، والبنت، والأب، الذين وحّدتهم المصيبة. إنهم وحدة، أسرة، قشرة مأساة ولبّها، وأن عليهم، أو عليه هو بالذات، بعد تشييع الجثة غداً، أن يبرهن كم هو إنساني في الفعل، كما هو إنساني في القول، أو عند نفسه كما يتصوّر.

دخان، دخان، دخان! الأم تدخن، والفتاة تدخن، وهو يدخن، وهذا الدخان المخدر قليلاً، سيشكل الوجبة الأكثر شهية، والأشد طلباً. وفي الهدوء الذي يحمله اليهم، عليهم أن يفكروا، وأن يكفوا عن عذاب التوقع، لأن وقت التوقع فات، وهم الآن في قبضة الرزء الذي يبهظهم برصاصيته القاتلة.

- ٥ -

كان من عادته، في ساعات الهموم، حين يفكر والسيكارة عالقة بين شفتيه، ان يذهب مع أفكاره بعيداً، ان ينسى نفسه، وما حوله، والنقطة الأساسية التي انطلقت منها أفكاره، ويتابع تفرعات هذه الأفكار، وينسرب معها في سردابية الألم والكآبة، حتى ليحسبه الرائي مشغولاً إلى درجة الاندغام في مسألة عويصة يبحث لها عن حل. وهو، في الحقيقة، لا يبحث عن حل، لأنه أحياناً، وكما هو الآن، يكون أمام لا حل، أمام قضاء نافذ، وعليه، ما دام قد صار في دائرته، ان ينساه، لكن النسيان لا يؤاتيه، فهو، من هذه الناحية، عصابي على نحو ما، وعندما تسيطر عليه حالة ذهنية وتجره إلى بؤرتها المأزومة، ينوء تحت أزمة اكتئاب ما تفتأ تشتد، وتتكاثف، وتنتصب جداراً لعذاب نفساني مروع.

ولولا تدخل الفتاة، وسماع صوتها الذي ذكره بوجودها، لظل سادراً، لوقت طويل، الى أن تنتهي علبة التبغ التي يشعل سيكاراتها، الواحدة من الأخرى، ويحرقها ويحترق بها، في نقمة تتأرث نارها، على وجود بعينه، وجود لا إنساني، يحسه، يعيشه، يكافح ضده، لكنه لا يبلغ أن يثقب ظلمته، ويستنير بأيما بقعة ضوء تأتيه من إحدى الجهات الأربع، التي تشكل حوله مربعاً غرفياً، هو فيه السجين والسجان معاً.

قالت الفتاة:

ـ أنت تتعذّب يا سيدي. أنت في أزمة تتجاوز مرض ابنتك.

ـ أنا أفكر في الثلاجة.

فوجئت بالجواب.

ـ عن أية ثلاجة تتحدث؟

ـ عن ثلاجة الموتى.. هناك تنطرح جثة رجل عربي، من فلسطين، توفي هذا الصباح في الغرفة المجاورة، وعلي أن أتدبر، مع زوجته، أمر دفنه، في إحدى مقابر لندن.

ـ أنا لا أجرؤ على تصوّر ذلك.. ولا أريد مجرد التفكير في أنني سأكون أمام موقف كهذا.

نظر إليها نظرة حانية. نظرة أب، نظرة مشاركة في كل هذا الألم الذي يحيط بها، وقال بأكثر ما استطاع من عبارات التطمين:

ـ أرجو ألا نحتاج، أنت أو أنا، الى مثل هذا الموقف.

ـ ولكنه محتمل..

ـ لا، إن لدى مريضتينا الوقت الكافي لحياة تجنبنا هذه المأساة.

ـ أواثق مما تقول؟

ـ كل الثقة.

ـ ولن تتركني وحيدة أمام حيرتي وعذابي؟

ـ لن أتركك أبداً.. أين تنزلين يا آنستي؟

ـ في فندق قريب، فندق « بيدفور »

ـ وأنا أنزل في فندق « بيدفور » أيضاً.. يا للمصادفة!

ـ وهل أنت ذاهب الآن اليه؟

ـ ليس قبل ان نعود إلى مريضتينا.. ادخلي قبلي، ريثما أكمل هذه السيكارة.

انصاعت الفتاة لما طلب منها. خرجت من غرفة الانتظار وهي تعتصر نفسها في طلب ابتسامة ما، تصطنعها قبل أن تواجه أمها. عندئذ، وهو يراها في الرعب الذي صارت اليه، ندم لأنه حدثها عن الثلاجة والميت الذي حشر فيها. كان عليه أن يبقي ذلك سراً بينه وبين نفسه، لكنه عجز عن الكذب وهي تسأله: « بم تفكر؟ » وقال في نفسه: « لقد قلت لها الحقيقة.. إننا، هي وأنا، لا نواجه الوضع الذي واجهته الزوجة، وسأنصحها، إذا ما كانت حال أمها خطيرة، أن تعود بها إلى وطنها، ولا تدعها تموت هنا، كيلا تواجه موقفاً يائساً كالذي تواجهه الزوجة، وأواجهه معها ومع شقيق المتوفى ».

نسي سيكارته بين شفتيه حتى احترقت كلها. عندئذ رماها في منفضة السكائر التي امتلأت لكثرة ما دخّنا، هو والفتاة، حتى أنه استشعر نوعاً من مرارة تشيع في فمه، وتمنى، في هذه اللحظة، لو يغادر المستشفى إلى أي بار قريب، ويترشف زجاجة من البيرة المثلوجة، مع شريحة لحم، تسد جوعه الذي احتمله طويلاً هذا اليوم.

لقد فاز أخيراً بمخلوق يفتح له قلبه. يقول له كل ما فيه، يظهره على ما يقاسي، داخلياً، برغم المظهر المخادع، خارجياً. وقد أدرك، منذ أن تعرّف إلى ليديا في غرفة الانتظار هذه، أن عليه أن يقوم بدور مزدوج في التمثيل الذي لا يتقنه كثيراً: دور الأب المبتلي، الحامل بلواه بصبر، برباطة جأش، بأعصاب هادئة، ودور الصديق الذي عليه، بعد الآن، أن يقنع صديقته الصغيرة، بأن أمها ستتعافى، وأنهم، حتى لو أجروا لها جراحة، فإن الطب الحديث، في وسعه ان

يزيل الورم الخبيث من المعدة، ويحوّل المجرى المعوي، وتكون والدتها، بعدئذ، بخير. إن رجلاً مثله، عرف مرارات الحياة، من خلال تجاربها، جدير به ان يخوض هذه التجربة الأشد مرارة، بنجاح يتكافأ مع رجولته، مع تجلده، وثقافته المفروض فيها فهم نفوس الآخرين ومداراتها.

خرج من غرفة الانتظار وهو يتقنع كما فعلت الفتاة قبله. لقد كان، قبل مجيء السيدة مارسيل ميشيل، وحلولها في غرفة ابنته، يحمل هماً واحداً، ويضع قناعاً واحداً. أما الآن فعليه ان يحمل همّين وقناعين، وان يكذب مرتين، ويداري مريضتين، ويواجه وضعين كلاهما يتطلب برودة دم، وقدرة على الاختفاء وراء لعبة لفظية تجنبه قول الحقيقة. إنه رجل محكوم في هذه الغربة، وعليه، في هذا المستشفى، ان يكون غير ما كانه في وطنه. إن رقته، حساسيته، دمعته المدرارة، صدقه، رداءة تمثيله، كلها أشياء ينبغي أن تتبدّل، وأن يدخل جلد شخصية أخرى، في وسعها ان تداري مريضتين، ميئوس من شفائهما، شخصية تتبدّى صلبة، حكيمة، بهيجة، تحمل الراحة لهما، وتبدّد مخاوفهما، وتبعث فيهما أملاً دائماً بالشفاء. وهذا كله هيّن عليه بالنسبة لابنته، هذه الصبية التي تبتسم لفرحة الشفاء الخادعة، أما بالنسبة للسيدة مارسيل، فإنها مهمة صعبة، بسبب من معرفتها أنها مصابة بالسرطان في معدتها، وأنها، بما تكابد من آلام، تعرف أن المرض ينشب مخالبه، على نطاق واسع، في أحشائها.

« مهما يكن، قال في نفسه، علي أن ألعب دوراً وأتقنه. أنا قرأت ما كتب عن أن الحياة مسرح، وأننا عليه ممثلون، لكن المسألة هي في نجاح التمثيل بعد أن اتضح الدور، وصرت واحداً ممن عليهم أن يحملوا نص هذه الدراما الملعونة على أكتافهم، ويسعوا إلى إنجاحها، بقدر كاف من الإيهام، كي لا يكون هناك تغريب، ولا تنفصل الصالة عن الخشبة، وكي تظل المريضتان تحت إيحاء مخدر لتمثيل

ذكي، مقنع، قمين بأن يلبس الوهم ثوب الحقيقة، وينهض هو بعبء دوره كاملاً، حتى يسدل الستار، هنا أو في الوطن، على المسرحية كلها».

وبضيق شديد هتف: «اللعنة!»، متسائلاً لماذا يظل عليه، هو جهاد مروان، ان يمثّل أدواراً تراجيدية؟ لقد فهم ضرورة أن تكون الحياة مسرحاً، وأن يكون الناس فيها ممثلين، ولكن لماذا كتب عليه هو بالذات، ان يمثل المأساة دون الملهاة، وان تختلط مأساته بملهاته، فتكون بليته أكبر بما لا يقاس، وأدعى إلى الأسى من كل أدوار الآخرين؟ هذا ليس عدلاً، ولأنه ليس عدلاً فإنه ظلم فادح نزل به منذ أن وعى الوجود، وما برح يلاحقه كظله، ويقبع على إحدى كتفيه كغراب غير مرئي مسموع النعيب.

بعد أن ذهب وجاء في المجاز عدة مرات، دخل غرفة ابنته المريضة قائلاً في نفسه: «الممثل يصعد الخشبة الآن، الستارة انكشفت، إنه مع الجمهور وجهاً لوجه، وعلى هذا الممثل، الذي أجرى تمارين سابقة وكافية، أن يبدأ، ان يبتسم، وان يتظاهر بأنه قادم من راحة طيبة في غرفة الانتظار، حيث دخن، بخلو بال، أنفاساً رائعة، واستعاد قوته ونشاطه».

وجد ليديا بجانب سرير ابنته. كانت تتحدث اليها، وتستعين على الحديث ببعض الإشارات، وكان التفاهم جيداً، والانسجام كاملاً، والشعر الذي استعار لونه من الليل، مسرّحاً كما تركه، سوى أن الوردة قد نزعتها ابنته، وقدمتها إلى ليديا، كعربون حب وصداقة.

- إنها رائعة، صاحت ليديا.

أضافت:

- يا ربي، كم هي جميلة، بعينيها السوداوين، وسمرتها التي يوشحها شحوب خفيف.

قال الرجل:

ـ إنها لا تصدقني حين أقول لها ذلك.

والتفت إلى ابنته وأضاف:

ـ هل سمعت ما تقوله بأذنيك؟

ـ إنه لطف، قالت ابنته، لطف منها أن جاءت إلي.. لقد أحببتها، ولن أفتقدك إذا غبت، ما دامت هي في الغرفة..

ترجم ما قالته الصغيرة، فأجابت ليديا:

ـ وأنا أحببتها بدوري.. والماما أحبتها.. لقد كانت إلى جانبها قبل ان تدخل.

وقالت الأم بنبرة لم تتخلص من شجنها:

ـ ابنتك فاتنة يا سيدي، وكم أنا مسرورة بوجودي معها، وكم يتعاظم سروري لعلمي أنها أجرت جراحة ناجحة، وأنها الآن تتماثل نحو الشفاء.

ـ هذا لطف كثير منك يا سيدتي، وفي المقابل، سنكون نحن أيضاً مسرورين بالأخبار الطيبة التي تحملها نتيجة الفحوص.

قالت السيدة:

ـ آه، حتى الآن لا أخبار عن هذه النتيجة.

ـ أما سمعت المثل القائل: Pas de nouvelles bonnes nouvelles [1].

ـ أشك في ذلك.

ـ لم؟

ـ هكذا.. أشك في النتيجة، حتى ولو كانت أخبارها جيدة.. إنني أعرف نفسي.

ـ هذا ما يقوله المريض عادة.

ـ المريض الذي يواجه الموت..؟

(١) «لا أخبار، أخبار جيدة».

قالت ذاك وأدارت وجهها.. أدارته لتخفي دموعاً تفجّرت في المقلتين، كيلا نرى تلك الغلالة من خوف، توشّح الوجه الذي غدا الآن، بفعل المرض، ناحلاً، ممتقعاً، ترف عليه ظلال فناء مقبل، فناء تخطو نحوه، في كل لحظة، لتصير، من بعد، إلى عدم لا تعرف ما وراءه، فهي ترهبه، وهي ترفضه، وهي تصرخ، في كل ذرة من كيانها، لا أريده، لا أريد أن أموت، أنقذوني كيلا أموت.

وكيف ينقذونها؟ ماذا تفعل ابنتها؟ وماذا يفعل زوجها لو كان موجوداً؟ بل ماذا يفعل الطبيب نفسه؟ وما في وسع الدنيا كلها، إذا كان الموت شبحاً ذا قناع صيني مرعب، شبحاً بارداً، رمادياً، عديم الرأفة، عديم الاحساس، متحجّر الملامح، يتراءى لها في فضاء الغرفة، ويحدق فيها بعينين أفعوانتين، لتنّين بسبعة رؤوس، في كل رأس فم، وأنياب، وتكشيرة بغيضة، وهو يتربّص بها، كقاتل، يرصد ضحيته التي لا مهرب لها منه، ولا ملاذ، لأنه سيدركها، سيقتلها دون أن يرف له جفن...؟

حاولت ليديا ان تجعلها ترفع يديها عن وجهها، وأن تنظر إليها، كي تستمد منها بعض القوة، وبذلك ترتفع قليلاً معنوياتها المنهارة، لكن الأم رفضت بعناد، بل أجهشت في بكاء، وصاحت بصوت يضطرب بما فيه من عنف الاستغاثة:

ـ لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت.

بقي الرجل بجانب ابنته، بل وقف بينها وبين أن ترى السيدة المنتحبة. كان ذلك قاسياً، كان فاجعاً، كان عصيّاً على الاحتمال، وهو، الأب، في حيرة من أمره، قد أربكه الموقف، واغتاله الصوت الباكي، المطالب بعدم الموت، الجارح كنصل سكين، فراح يرتعش من فرط تأثّر، ويرتعد من إشفاق على ابنته ان ترى، وتفهم، وتعرف أن الذين في هذه الغرفة مرشحون للموت، وأن حكاية ذلك الشيء

الصغير الذي أخرجوه من عمودها الفقري كذبة لا تقل بشاعة عن الغول الأسطوري.

فكر لحظة ان يذهب إلى إدارة المستشفى ويطلب نقل ابنته الى غرفة أخرى، أو نقل السيدة الى أيما غرفة مجاورة، كيلا ترى إحداهما الأخرى. غير أنه سرعان ما لام نفسه على هذه الفكرة البغيضة، الخالية من أيما عاطفة إنسانية. ذلك أنه لا يضمن ان يكون في الغرفة الأخرى، التي ستنقل اليها ابنته، مريض يحتضر، كما لا يضمن ألا يُؤتى بمريضة أخرى، تعاني الحالة نفسها، إذا بقيت ابنته في غرفتها. إنه لا يملك ان يغيّر نظام المستشفى، ولا أن يحجز السريرين، إذا ما أراد ان تنفرد ابنته بغرفة خاصة. ثم هناك الرحمة، والمشاركة، وليديا المسكينة التي ينبغي، في هذه المحنة، ان يقف الى جانبها.

غامت الدنيا في عينيه، هبط ضباب الأسى منسرباً من كل المنافذ، وخيّم على الغرفة، حتى انعدمت الرؤية أو كادت. إنه واقف، متخشّب، متصنّم، صامت، ذاهل، لا يدري ما يقول، ولا أحد غيره يقول، والصمت العميق الفاجع، يبهظ الجو الذي غشيت ضبابيته العيون، وكل ما فعله، هو التحرك نحو السيدة، والانضمام إلى ليديا المذعورة بانتظار سانحة، أو ظهور ثغرة، تسمح له ان يمرق منها الى قول ما، فعل ما، يفيد في كسر حدة الموقف المأساوي.

كان كمن يقف على كرسي المشنقة، والحبل في رقبته، وهو بانتظار اللحظة التي يهوي فيها، فيتأرجح جسمه ويتطوّح، بينما الروح تزهق، واللسان يندلق، والأطراف تنتفض اختلاجها الأخيرة.. وفي هذه اللحظة الرهيبة، وهو يرى، بعينين يتحيّر فيهما الدمع، إلى السيدة المستجيرة بمن حولها لإنقاذها من الموت، لدفعه عنها، لفعل شيء يعيد إليها الأمل في الحياة، فكر بأنه كالقاضي الذي يتلو قراراً، والمتهم يحدق فيه من قفص الاتهام مرتعداً، متوسّلاً. راجياً ألا يسمع تلك

الكلمة الرهيبة « الإعدام »، التي يخافها أكثر من الجحيم نفسه. ثم قال في نفسه: « إننا، يا سيدتي، مثلك محكومون بالموت الذي يترصّدك. الفارق بيننا أن هذه لحظتك، وأن لحظتنا في الغيب ما تزال. كفّي عن البكاء، عن الضراعة، عن الاستغاثة، فليس من أحد، لا هنا ولا في العالم كله، بقادر أن يدفع عنك الموت الذي ترجين دفعه، تمالكي نفسك، واستعيدي هدوءك، وليكن، بعد ذلك، ما يكون.. ليأت الموت، هذا العدم القاسي، ليسرع ما استطاع.. إن في سرعته خلاصك ونهاية آلامك، وفي وقوعه نجاتك من خوف، لا يزول إلا بزوال أسبابه، تقبّلي الكأس المرة، وتجرّعيها بما تبقّى لديك من عزم، وقولي لدنياك: وداعاً ».

كان من السهل عليه، وهو الشاهد لا المحكوم عليه، أن يقول، بغير صوت، كلمات كهذه. وقد فكر، بعد أن قالها، أنه لو كان مكان المرأة، أما كان يرتعد، في حال كحالها؟ إن وضع الشاهد، غير وضع المتهم، ووضع السليم، غير وضع المريض، إلا أنه، في أية صورة تبدى الخوف، فإنه ينبغي ان يعقل، أو أن يبذل الخائف جهداً لعقل خوفه.. السيدة مارسيل انهارت. كان انهيارها مريعاً، لكنها لم تكن ملامة، وليس في الدنيا من له الحق في لومها، وخير ما يفعل، هو أن يسعى لها بحقنة مهدئة، تزرق في العضل، فتخلد إلى الهدوء، وبعد ان تتناول حبة منوّمة، تسترخي وترقد قليلاً.

دون ان يستشير ابنتها، مضى الى رئيسة الممرضات شارحاً لها وضع السيدة مارسيل، فهتفت إلى الطبيب المناوب الذي حضر فوراً، ولم يستطع ان يكلمها، لأنها كانت ما تزال في نوبة تشنج شديدة. وكما توقع جهاد، زرقها الطبيب بإبرة مخدرة، وأعطاها حبة منومة، وطلب منها ان تستلقي في سريرها، وما هي إلا دقائق، حتى هدأت المريضة، وتمدّدت، وانطبق جفناها، واستسلمت لنوم عميق.

تم كل ذلك بسرعة، وبسرعة انتهى مشهد مروع، وقالت ليديا وهي لا تعرف ماذا تفعل:

ـ كم يدوم نومها يا ترى؟

قال جهاد:

ـ ليس قبل وقت طويل، وعليك، الآن، ان تستريحي في غرفة الانتظار، ريثما أشرح لابنتي المريضة ما جرى، وأودّعها، ثم ننصرف من المستشفى لأنه من غير المسموح، كما تعلمين، أن نبقى فيه ليلاً.

ـ وإذا أفاقت وعاودتها النوبة؟

ـ ما أظن.. ستظل تحت تـأثير المهـدئـات إلى الصبـاح.. كـوني مطمئنة، وانتظريني، في الغرفة، وسيكون في وسعك، ريثما أحضر، ان تدخني سيكارة أنت بحاجة إليها.

أذعنت ليديا، ذهبت الى غرفة الانتظار، ساد الهدوء في الغرفة، اتجه جهاد إلى ابنته التي كانت ترى وتسمع، لكنها لا تجد تعليلاً لبكاء السيدة، ولا لإجراءات الطبيب، وكانت الابتسامة قد فارقت محياها، فهي، الآن، حزينة على نحو ما، وهي تتساءل عن كل ما جرى، وتنتظر جواباً من والدها الذي عليه، للمرة الرابعة أو الخامسة اليوم، أن يخترع كذبة، تقنع صغيرته المريضة، وتبعد أية فكرة سيئة قد تكون راودتها.

قال لها وهو يتقدم من سريرها مبتسماً:

ـ لقد نامت السيدة مارسيل.. أصابتها نوبة عصبية. إنها تعاني من خلل عصبي، يصل أحياناً الى درجة الانهيار.

ـ ولكن هذا ليس مستشفى للأمراض العصبية.

ـ السيدة مارسيـل لا تشكـو مـرض الأعصـاب.. إنها مصـابـة بالشقيقة، إضافة إلى مرضها الأصلي في المعدة.

ـ لم أسمع بمثل هذا المرض.

ـ هناك أمراض كثيرة لم نسمع بها.. نحن لم نكن في المستشفى قبل الآن.
ـ وما هو هذا المرض..؟
ـ ألم في جانب الرأس.. إنه شديد الحدّة، خاصة في المراحل الأولى للمعالجة.
ـ لقد أخافتني.. سمعت بعضاً من كلماتها.. فهمت أنها..

قاطعها:
ـ أجل! أجل! تلفظت بكلمة الموت.. تتمنى، عند اشتداد الألم، ان تموت.
ـ ولكنها لن تموت، أليس كذلك؟
ـ وهل يموت أحد من الصداع؟ الشقيقة نوع من صداع عنيف.
ـ مسكينة!
ـ أجل مسكينة، لكنها لا تتحمل الألم.. كان يجب ان تكون أقوى مما هي، كان يجب ان تكون مثلك، فأنت، حين أعطوك الإبرة الظليلة، تألمت كثيراً، لكنك لم تبكي.. أعصابك كانت قوية.. أنت دائماً قوية، وأنا فخور بك.
ـ وكيف سيعالجونها..؟
ـ بعملية جراحية في المعدة.. أنا لا أعرف كيف تصير هذه الجراحة، لست طبيباً، لكنهم، كما علمت، سيجرون لها جراحة بعد ان تظهر نتيجة الفحوص.
ـ وهل تعاودها النوبة ليلاً؟
ـ نوبة الألم زالت.. وستظل نائمة الى الصباح.
ـ يا إلهي! إنني خائفة، ماذا لو تبقى معي الليلة؟
ـ أنظمة المستشفى لا تسمح، لكنني سأستأذن في البقاء معك لنشاهد لعبة مهمة بكرة القدم، بين المنتخب الانكليزي والمنتخب الاسباني.. لقد أخبرتني الممرضة عن هذه المباراة، وسيضعون تلفزيوناً قرب سريرك... وسنشاهد هذه المباراة الممتعة معاً..

صفقت فرحاً. كانت ولوعة بالألعاب الرياضية، ولعبة كرة القدم تفتنها، وهو يعرف ذلك، ولهذا سعى بإحضار التلفاز الى غرفتها، وقد نجح، على هذا النحو، في إزالة أثر المشهد الذي أحزنها وأخافها، وهذا ما طمأنه وبعث السرور في نفسه، فربّت على خدها، وقبّلها، وقال لها كلمات حلوة، وأعلن أنه سيذهب الآن الى العشاء، ويعود قبل التاسعة ليلاً، لمشاهدة المباراة معها، وأوصاها، ان تتناول وجبة المساء، بعد قليل، بشهية طيبة، لأن الغذاء ضروري لها، وسيسرع بشفائها.

كان جوابها ابتسامة. كانت موافقتها ابتسامة. كانت ابتسامتها تقول كل شيء، وفي التماعة السواد، في عينيها الحوراوين، كانت هذه الابتسامة تتكثف، تضيء، تشع، وعندما تبتسم، وتنفرج شفتاها عن صف من الأسنان البيض، المنتظمة في قوسها الفكي، كان يجد دنيا من الصبا، والبراءة، والوداعة، والحلم الجميل، الذي يعرف أنه حلم غارب، كالشمس الغاربة.

استدار للخروج، لكنه بصعوبة انتزع نفسه من حضور ابتسامتها، ملقياً، وهو يخرج، نظرة على السيدة مارسيل الراقدة الآن في سريرها المحجوب بستارة بيضاء، تنغلق عليها كسياج، يجعلها شبه معزولة عن الغرفة التي ابنته فيها. وحين ألقى نظرة على سرير السيدة مارسيل، تذكّرها بقامتها الفارعة، وجسمها المتناسق، ووجهها البيضاوي الموشح بلون خلاسي، أقرب إلى البياض، وشعرها الخرنوبي، وكل طلعتها التي تعطي انطباعة عن نبالة أصل، ورقة امرأة ذات ثقافة، طغى عليها خوف مرعب، لكنه إنساني، يترك في النفس أثراً عميقاً من الغرابة والمشاركة في الأسى.

وفي غرفة الانتظار كانت ابنتها ليديا تدخن. كانت ساهمة، وآثار دموع في محجريها، فهي، وقد صارت وحيدة، سمحت لعواطفها ان تعبّر عن نفسها، ان تقول ذاتها دموعاً حارة، ما تزال

آثارها بادية. لم يقل أيما شيء فيه عتاب، أو زجر، لأنه ما من إنسان قادر ان يمنع طفلة، تعرف أن أمها ستموت، أن تذرف الدمع في خلوة تعطي للنفس ان تبوح بمشاعرها، وان تترجم هذه المشاعر بالطريقة التي تختارها، طريقة الحزن الذي ينطوي على لوعة مكبوتة.

قال وهو يمدّ إليها يداً صديقة:

ـ هيا!

ـ الى أين..؟

ـ الى الفندق، حيث نتناول، بسرعة، عشاءنا، ونعود لمشاهدة مباراة بكرة القدم، وعدت ابنتي أن أشهدها معها، وبودّي، إذا لم يكن لديك مانع، أو عمل، أن تأتي وتشاهديها معنا.

ـ لكنني حزينة ومتعبة.

ـ أعرف.. أنا أيضاً أحمل الحزن ذاته، والتعب ذاته، لكنني أريد أن أبقى واقفاً، متماسكاً، ولا أسمح للمصيبة ان تكسرني من الداخل.

قالت وهي تنهض:

ـ لكن ابنتك بخير.

ـ لأنها تجهل ما بها.

ـ ليت أمي كانت تجهل ما بها.

ـ لم يعد في يدنا ان نخفي شيئاً عنها، وبرغم أن نتيجة الفحص لم تظهر، فإنها تحتاج إلى جراحة، وبعد الجراحة ستتماثل الى الشفاء، وستعود الى الابتسام، صدّقيني..

ـ لكنه ابتسام مبعثه أمل خادع.

ـ لماذا؟

ـ لأن الجراحة لن تنقذها، خاصة إذا كان الورم منتشراً.

ـ مهما يكن.. الجراحة ستزيل الورم، وتعطيها ان تعيش سنوات أيضاً.

ـ أنت لا تقول هذا لإدخال الطمأنينة الى نفسي، أليس كذلك؟

ـ أقولـه لأنني واثـق منـه، وإذا لم أكـن طبيبـاً فقـد عـرفـت حالات مماثلة من المرض، وفي وسعك، أن تعتمدي على معلوماتي.. أمك ستعيش وتعود معك الى الوطن.

ـ أرجو ذلك.. أرجوه من كل قلبي.. أسأل الله أن يحقق ما نقول، وبودي، جزاء هذا الأمل الذي تبعثه في نفسي، أن أقبّلك..

سمح لها ان تقبّله. أجهشت وهي تقبله. قبّلها بدوره.. أخذها، كما ابنته، بين ذراعيه، ولم يضنّ عليها بحنانه، وبمنديله مسح دموعها التي تجدّدت.. وحين هدأت، استدارت الى المرآة، فـأصلحـت مـن شأنها، وأزالت آثار الدموع، وأرسلت أصابعها تتخلل شعرها، وتردّه عن صفحة خدها، ثم تناولت المشط مـن حقيبتهـا، ولحقـت بـه الى المصعد الذي كان ينتظرها عند بابه.

كان من عادته ان يمشي بسرعة. واضطرت ليديا إلى اللحاق به، غير أنه سرعان ما لاحظ أنه يتعبها بهرولته فتأنّى، وتباطأت خطواته حتى وازته، وراحت تتكلم، عن رغبتها الشديدة، المؤكدة الآن، في البقاء إلى جانبه، ولما بلغا الفندق، انحدرا الى المطعم، لتناول العشاء.

كان سرورهما بالجلوس الى طاولة واحدة، متعادلاً الآن، فقد أصبحا، بسرعة غير متوقعة، صديقين، وكان هذا أول عشاء، أو أول وجبة، يجد فيها كل منهما بعض الأنس، وبعض الشهية، التي ما لبثت أن انفتحت، بما تنـاولاه مـن مقبّلات، قبـل ان يختـارا طبقـاً مـن السباكيتي، وبعض الجبنة كخاتمة.

ـ ٦ ـ

تعذّر، بسبب السيدة المريضة، أن تشاهد ابنته مباراة كرة القدم في غرفتها. قالت رئيسة الممرضـات إن ذلـك مستحيـل، فـالسيـدة

مارسيل، التي ترقد إثر نوبة شديدة، ينبغي ان يتوفّر لها جو من الهدوء حتى الصباح، فهذا ضروري ومفيد جداً.

كادت رنا تصاب بإحباط، لتعذّر مشاهدة المباراة المتلفزة في غرفتها نفسها. إن هوايتها للرياضة، بكل ألوانها، كبيرة، وحبها لكرة القدم بالغ جداً، وقد أسفت إلى أبعد الحدود أن تفوتها المباراة، بين أكبر فريقين في بريطانيا واسبانيا.

كانت هناك، في الطابق نفسه، غرفة للتلفاز.. ورأى جهاد حماسة بعض الممرضات لمشاهدة المباراة أيضاً، فتساءل، عما إذا كان ممكناً نقل ابنته، في الكرسي المخصص للذين لا يستطيعون السير الى تلك الغرفة. تذكر أيضاً أن رئيسة الممرضات قالت له أمس، إنه من المقرّر، إذا كانت حالة ابنته جيدة ان تخرج قريباً الى حديقة المستشفى، في الكرسي ذي العجلات، وأن ترافقها ممرضة، كتمرين لها على الخروج، وأخذ قسط من الشمس والهواء النقي، قبل ان يسمح لها بالسير، بمساعدة عكازتين، أو بالاستناد على شخص ما.

هكذا، دون ان يدري، انبثقت الفكرة في رأسه فجأة. تذكر ما كان هاجعاً، في أعماقه، لكثرة ما فكر في وسيلة تتيح لابنته مشاهدة المباراة، وبسرعة قرر تنفيذ فكرته، فركض إلى رئيسة الممرضات، التي هي كل شيء في القسم في غياب الأطباء المشرفين على المرضى، وعرض عليها الفكرة.

قال وهو منفعل، وبشيء من الإلحاح:

ـ ما دام ثمة قاعة للتلفاز، وبعض المرضى والممرضات سيشاهدون المباراة، فإن ابنته، يمكن ان تنضم إليهم أيضاً على الكرسي ذي العجلات..

ـ لكن الطبيب لم يسمح بمثل هذا بعد.

ـ أحسب أنه سمح بخروجها الى الحديقة..

ـ غداً ستخرج الى الحديقة..

ـ اذن لتخرج اليوم، لفترة لا تتجاوز الشوط الأول من المباراة، وبذلك نحقق لها أمنية عزيزة، تشعرها بأنها قادرة على الخروج، وأن نزولها من السرير ممكن، وشفاؤها، بالتالي، ممكن أيضاً.

تساءلت رئيسة الممرضات:

ـ شفاؤها؟

قال الأب:

ـ أعرف ما تقصدين يا آنسة، حالة ابنتي واضحة بالنسبة لي جيداً، ولكنها، كما قال الطبيب، ستمر بفترة تحسن ولو مؤقتة، تتيح لها حتى أن تمشي، بفضل علاج الأشعة.

ـ هذا صحيح، ولكن نزولها من السرير، الليلة، قد يكون مضراً لها.

ـ أنت الرئيسة، وأنت من يقدّر، ولكن الجرح، كما قلت أمس، التحم، وفي هذه الحال، وما دامت ستخرج غداً للنزهة، فمن الممكن ان تنتقل، الليلة، الى غرفة التلفاز، وسنعيدها الى سريرها ما ان تطلب ذلك، وستكون، على كل حال، تحت مراقبتنا.

ـ لست أدري، قالت رئيسة الممرضات، أنت لست مسؤولاً..

ـ لكنني أب..

ـ الأب غير الطبيب.

ـ لكن في وسعه ان يقدّر.. ثم هناك شيء، وليكن هذا بيننا، ما دام لا أمل بالشفاء التام، فإنني قررت ألا أرد طلباً لابنتي، ولا أحرمها من التمتع بأيامها الباقية..

ـ هذا حنان أب..

ـ وهو منطقي من الوجهة النفسية، ومفيد أيضاً.

ـ يا سيدي، يا سيدي، إنك تحرج موقفي.. سأفكر.. دع لي مهلة للتفكير.

في هذا الوقت، كانت ليديا تتحادث وابنته بالكلمة والإشارة، وكانتا تبتسمان، بانتظار مساعيه، التي لم تطل كثيراً، لأن عربة ذات عجلات ما لبثت أن أدخلت الى الغرفة، وبمساعدة ممرضتين، استطاعت رنا الجلوس فيها، وهي تتألم قليلاً، لكنها تبتسم، وتشد على يد والدها التي أخذتها في يدها، لأنه حقق لها واحدة من أجمل أمنياتها.

كانت المباراة جميلة، حماسية، قدمت عرضاً كروياً فنياً ممتازاً، سرّت به رنا سروراً كبيراً، حتى أنها أدهشت والدها بتعليقاتها، وملاحظاتها، ومعرفتها أسماء اللاعبين، وأهمية كل لاعب، ودوره، ومهارته الفردية، أو الجماعية باعتباره هدّافاً، أو صانع أهداف للآخرين، كذلك معرفتها بالفارق بين الكرة الانكليزية والكرة الأوربية، وبينهما وبين الكرة في البرازيل، أو الكرة حسب مدرسة أميركا اللاتينية. كانت تصفق، تتهلّل، تبتسم، تضحك، تشارك المشاهدين الآخرين مشاعرهم، بعد أن استعادت كل تلك الحيوية، وقوة الشخصية، والنباهة التي لها قبل أن يلم بها المرض. وكان هذا كله مدعاة غبطة لوالدها، ممزوجة بحسرة خفية، على صبا ابنته، هذه الزهرة العطرة، الفوّاحة، ان تذبل قبل أوانها، أو تتصوح إثر «ضربة شمس» خبيثة لا علاج لها ولا شفاء.

وكانت رئيسة الممرضات، التي لم تستطع مشاهدة المباراة، تطل على قاعة التلفاز، ناصحة بعدم الضجيج، وعدم الصراخ والتصفيق، وتقف قرب رنا وتمسد على شعرها، وتربت على خدها، مراقبة حالتها الصحية، وما إذا كانت متابعة المباراة تتعبها، أو ينبغي إعادتها إلى غرفتها قبل انتهاء المباراة، لكنها كانت تقرأ، كلما نظرت الى عيني الفتاة، غبطة تحملها على الإشفاق، وتطمئنها الى أن موافقتها على اقتراح والد رنا كانت في محلها، ولم ينتج عنها أي ضرر، وتالياً أية مسؤولية.

انتهت المباراة بفوز المنتخب الانكليزي. وقد استمتع الذين

شاهدوها، لكن متعة رنا كانت هي الأكبر، وأعلنت أنها تستقبل النتيجة بروح رياضية، فليس المهم الفوز، بل جمال العرض الكروي الذي فاق، في روعته، تقديرها.. الأب انتشى بغبطة ابنته. كان فرحاً، الآن، كطفل، ويريد ان يعبّر لرئيسة الممرضات، وللممرضات والمستشفى كله، عن امتنانه. لقد صنعوا بهجة لصغيرته، وكان هو شريكاً في صنعها، باقتراحه الذي لم ينتج عنه أيما أذى، حتى أن ابنته أبدت رغبتها، بعد انتهاء المباراة، بجولة في مجاز الطابق، وهي ما تنفك تعلق على المباراة، وتبدي آراءها بأداء اللاعبين وبنزاهة الحكم. وكانت ليديا أيضاً موجودة، لكنها كانت كئيبة لم تستطع مشاهدة المباراة، بل قضت وقتها مترددة بين غرفة الانتظار، والغرفة التي ترقد بها والدتها.

قال جهاد لابنته بعد انتهاء المباراة:

ـ الآن إلى السرير، وسأودّعك بقبلة، الى صباح الغد.

قالت رنا:

ـ نعم الى السرير، إنني بخير، وأحس بالانتعاش، وسأنام نوماً هنيئاً.

لكنها حين قامت ممرضتان بحملها الى سريرها، تألمت قليلاً، وهذا ما لاحظه من عضلات وجهها، دون ان تقوله هي، رغبة منها في التأكيد على أنها تتماثل للشفاء، وأن باستطاعة الممرضة غداً، أن تأخذها في جولة للنزهة عبر حديقة المستشفى.

وحين استقرت في سريرها، وتمددت جيداً استشعرت راحة فقالت لوالدها:

ـ تستطيع الآن، العودة الى الفندق.. ويمكن ان تسهر قليلاً.. أنا بخير، كن مطمئناً، تسلّ قليلاً، لكن لا تتأخر غداً، كما فعلت اليوم.

تذكّر الوالد أن عليه، غداً، ان يشارك في تشييع الجثة التي في

البراد، وستستغرق المعاملة، وعملية الدفن، وقتاً طويلاً، قد تقلق من جرائه، فلجأ، كما كل يوم، الى كذبة بيضاء جديدة، زاعماً أن لديه عملاً قبل الظهر، وأن ليديا ستكون عندها، وستكون السيدة مارسيل بخير، وفي وسعها ان تقضي وقتاً طيباً معها، بانتظار عودته التي يرجو ألا تطول.

ـ مهما يكن، قالت رنا، لا تتأخر، فأنت تعلم ألا أحد يعوض عنك، ومن جهتي، سأقرأ في كتاب القصص الذي أحضرته معي، وأتسلى مع ليديا وأمها، وربما أخرجوني للنزهة، وفي حال كهذه، وإذا صادفت شيئاً لطيفاً، فسأشتريه.

ـ هذا، كما تعلمين، مبعث راحة لي.. كوني مسرورة، تمتّعي بنزهتك، وإلى اللقاء.. طاب مساؤك.

ـ لكنك نسيت أن تقبّلني..

ـ هذا صحيح.. علي أن أدفع غرامة، أعطيني خدك..

قبّلها، وقبلتها ليديا، وخرجا بعد أن ألقت نظرة على والدتها التي كانت تغط في نوم عميق. وحين صارا في الحديقة، خارج المستشفى، تنفس بعمق، واستشعر لذعة برد خفيفة، هي أثر من شهر نيسان، وقد جاء الربيع مبكراً هذا العام. كان سعيداً، وكان يتمنى لو أن سعادته هذه تكتمل، فحاول أن ينسى مستقبل ابنته، واقترح على ليديا نزهة قصيرة، قبل العودة الى الفندق، حيث سيشرب كأساً من الويسكي في غرفته، قبل ان يخلد الى النوم.

تنزّها قليلاً، في الشوارع المحيطة بالمستشفى، وكانت ليديا، الآن، تتحدث عن والدتها بكثير من القلق. لقد ذعرت، وهي تراها في مخالب نوبة الخوف من الموت، وحاولت، بعد ذلك، ان تتماسك، إلا أنها، في مواجهة الليل، طفقت تستشعر تفتتاً في أعصابها، وشيئاً مبهماً، مرضياً، في نفسيتها التي كانت، خلال المباراة، طبيعية بسبب من وجودها مع الآخرين في غرفة واحدة. إنها، ودون أن تقول

ذلك، تخشى الانفراد بنفسها، وهو يعرف هذا من رنة الأسى في صوتها، وقد أمل، بعد النزهة، ان يعود إلى غرفته ليشرب كأساً طلباً للنسيان، وليرتب مشاعره التي استثيرت، بـدرجـات مختلفـة، خلال النهار كله، وباتت في حاجة إلى الاسترخاء.

وكما توقع تماماً، رغبت ليديا ان تأتي معه الى غرفته، وأن تسهر، بعد، قليلاً، لأنها لا تحس برغبة في النوم، ولأنها تفكر على نحو يجعلها مسهدة، فهي تريد، إذا كانت لديه، حبة منومة تساعدها على رقاد مريح. لم يكن لديه سوى حبوب مهدّئة. هو أيضاً كان بحاجة الى الهدوء، وهو أيضاً قلق نفسياً، وهذا القلق الذي عاناه منذ صغره، بات يشكل لديه حالة مرضية، وكان يسمي قلقه بالوحش المفترس، ويستعين بحبوب مهدئة عليه، ويشرب ليزيد من تأثير الحبوب فينسى وينام.

أعطاها، في غرفته، حبة مهدئ، وطلب ثلجاً وصب لنفسه كأساً من الويسكي، لاحظ أن لديه شراهة في الشرب، وأن في داخله عطشاً شديداً، وعليه، الليلة، ألا يتحدث ولا يفكر بموضوع المرض والموت والمستشفى، لكن وجود ليديا فرض عليه ان يظل في دائرة الهاجس الذي يريد أن يتناساه، وهذا ما أربكه أكثر. ذلك ان ليديا طلبت كأساً من الويسكي وراحت تتناوله بجرعات متتالية. وكانت، كما لاحظ، تريد ان تنسى هي أيضاً، وإذا كانت البيرة مشروبها المفضل، إلا ان الويسكي المثلوج راق لها، وتذوقت نكهته بايجابية ظاهرة وهي صامتة، تفكر بشيء ما، الأمر الذي أضفى عليهـا طـابعـاً عصبيـاً، احتار كيف يطلقها من أساره.

قال لها بعد أن شعر بالانتعاش قليلاً:

ـ آمل أن تكوني قد تحسَّنتِ قليلاً.

ـ لديّ رغبة في النوم، ولعل الشراب يساعدني..

ـ ستنامين، وستفعل الحبة المهدئة ويفعل هذا الشراب فعلهما بعد قليل.

ـ ما أظن، أنا، كيف أقول؟ لست على ما يرام..

ـ كلنا لسنا على ما يرام، ولكن علينا، في سبيل ان نبقى في عافية نفسية، ان نكافح ضد الخوف والقلق وعدم الارتياح الذي نستشعره.

ـ ألست قلقاً أنت؟

ـ بلى!

ـ لكن ابنتك لا تعاني ما تعانيه والدتي..

ـ هذا صحيح، والسبب معروف، لكن والدتك، بعد الجراحة، ستتحسن كما قلت لك.

ـ إنها الآن خائفة.. خائفة من الموت.. يا إلهي! ما كنت قبل الآن أفكر في الموت، أو أحسب أنه مخيف إلى هذه الدرجة.

ـ الموت ليس مخيفاً.. إنه الحقيقة. الوجه الآخر لحقيقة الحياة، فما دامت هناك حياة، سيكون هناك موت، وعندما يكون موت لا تكون حياة.

ـ الا يشعر الميت بشيء أبداً؟

ـ لا يشعر بشيء أبداً.. الشعور صفة ملازمة للحياة فقط.

ـ وكيف يموت الإنسان؟ أي كيف يشعر لحظة الموت..؟

ضحك وهو يقول:

ـ لم أجرب هذا بعد!!

ابتسمت بدورها وهي تقول:

ـ يا لي من سخيفة!. كيف أسالك مثل هذا السؤال..؟ طبعاً أنت لا تعرف، مثلي ومثل كل الناس، كيف يشعر المرء لحظة الموت.

ـ أما أنا فلديّ فكرة ما عن لحظة الموت.

ـ ما هي؟

ـ الاحتضار الذي يسبق الموت، هو الحالة التي تسبق النوم.. نوع من قلق، ثم نوم وبعده لا شيء.

ـ أفهم ما تقول.. ولكنني أسأل ما إذا كانت اللحظة التي تسبق الموت مؤلمة جداً.

أشفق على الفتاة التي أمامه، أشفق عليها كما يشفق على ابنته وعلى نفسه. إنها تسأل لتعرف، تريد أن تطمئن إلى أن أمها لن تتعذب ساعة الموت من جهة، وتريد أن تنفي خوفها هي من جهة ثانية. كل شيء واضح له. استشفه منذ رآها ممتقعة وأمها تبكي، وأدرك أنها خائفة منذ طلبت أن تأتي معه إلى غرفته، ولن يكون للحبة المهدئة تأثيرها المطلوب، بسبب من توتر أعصابها الشديد. ثم إن هذا الشراب قد يحملها على السكر، لكنه لن يحملها على النسيان، وعليه أن يقول لها شيئاً ما طيباً، مسلياً، ينفي قلقها، أو يساعد في تخفيفه.

قال:

ـ اللحظة التي تسبق الموت غير مؤلمة، وحسب شوبنهاور، وهو فيلسوف كما تعرفين، أن بعضهم يستقبل الموت بارتياح كبير، لإيمانه أنها اللحظة التي يتحرر الجسد فيها من قيود النفس.

ـ لكن مفارقة الدنيا صعبة.

ـ وكذلك البقاء فيها، في حالة العجز، والشيخوخة، والمرض العضال، صعب بدوره. ثم هناك، في الانسان، غريزة تسمى غريزة الموت، وهي تنمو مع تقدم الانسان في العمر. لذلك نرى كثيراً من الشيوخ، يتمنون الموت، لانه راحة لهم.. وفي أدبنا العربي، فيلسوف كبير، عاش كفيف البصر، هو أبو العلاء المعري، يقول ما معناه: إن ضجعة الموت رقدة يستريح المرء فيها، أي لا يعود يحس بشيئ من الآلام والانفعالات النفسية التي كان يحسها قبلاً، وهو يتعجب ممن يرغب في ازدياد حياته، ذلك أن الحياة تعب كلها، بينما الموت راحة.

ـ لكن الموت حرمان من لذائذ الحياة..

ـ اللذة مطلوبة لإبطال الألم الناشئ عن فقدانها.

ـ لم أفهم.

ـ سأحاول أن أوضح الأمر: الجوع يسبب ألماً، واللذة التي نجدها في الأكل هي في القضاء على هذا الألم، وحين يموت الانسان، لايعود يحس بالألم، لذلك لا يعود يحس بحاجة إلى اللذة. ولكن، ياليديا، يكفي ما تحدثنا عن الموت، وعن الحياة، لنكن سعداء في هذه اللحظة، وندع ما تأتي به اللحظة القادمة لتلك اللحظة نفسها.. خير علاج للقلق النفسي هو عدم التفكير الا في اليوم الذي نعيش فيه.

ـ وهل نستطيع؟

ـ نستطيع طبعاً. أولاً بصعوبة، ثم بصعوبة أقل، وبعد ذلك بسهولة.. علينا أن نفكر بيومنا فقط.

ـ ومستقبلنا..؟

ـ نفكر فيه طبعاً، ونعمل له أيضاً، ولكن لا نجعله هماً يومياً.. لنعمل ونترك الباقي..

ـ أنت تعمل دائماً؟

ـ أجل أعمل صباحاً في الوزارة، وبعد الظهر في الكتابة.. وحتى هنا، في لندن، أكتب كل ليلة.

ـ أنت عظيم إذن!

ـ ليس كما تقولين.. لست عظيماً، إنما أنا واقعي، أو أتعلم أن أكون واقعياً، كي أتغلب على مصاعب الحياة.

ـ وهل كانت حياتك صعبة؟

ـ بأكثر مما تتصورين..

ـ لو تحدّثني عن حياتك قليلاً..

ـ ليس في حياتي ما هو هام، أو غير عادي. ولدت في عائلة فقيرة، وكافحت ضد الفقر طويلاً.. كان ذلك في الماضي، ولست

أرغب في نبشه، يكفي ما أنا فيه من عذاب الآن.. وأنت؟ كيف كانت طفولتك؟ وهل أنت من أسرة غنية؟

ـ إلى حد ما.. طفولتي كانت لطيفة، بل هي جميلة، وأنا وحيدة أبوي، ولكن انظر.. أمي الآن مطلّقة.

ـ كنت أفكر لماذا لم يأت والدك.. ولماذا ترك لك هذه المهمة الشاقة؟.. لعله، لو جاء الآن، لكانت الحالة النفسية لوالدتك تتحسّن.. الا تستطيعين الكتابة إليه..؟

ـ والدي غادر البرتغال منذ أعوام، وانقطعت أخباره عنا.. أكاد لا أعرفه جيداً.. والدتي هي التي سهرت على تربيتي وتعليمي. لدينا مزرعة، ومعمل صغير للبلاستيك، تديرهما أمي، وهي، كما ترى، كل أهلي، كل دنياي، وخوفها، أو بعضه، مردّه إلى شعورها بأنها ستتركني وحيدة.. فظيع ياسيدي! لا أتصور أنني قادرة على العيش دونها.. إنني أصلي لأجلها دائماً.

ـ لتكن صلاتك مقبولة، وعسى أن تشفى والدتك. ومهما يكن، فان المستقبل للشباب.. أنت شابة وستبنين مستقبلاً جيداً، وتحظين بزواج موفق.. أرجو لك، يا صغيرتي، كل الخير.

ـ أنت طيب يا سيدي.. وسأصلي لاجل فتاتك المريضة.. لا أدري ماذا كنت سأفعل لو لم ألتق بك..

ـ وبماذا أفدتك؟ نحن غريبان، ولدينا شعر يقول: «وكل غريب للغريب نسيب» نحن أقرباء بحكم غربتنا، وأنسباء بحكم مصيبتنا، وهذا كل شيء.... وددت لو كان في وسعي أن أكون نافعاً لك أكثر.. لو أقدم مساعدة ما لوالدتك، ولكنني، كما ترين، لست طبيباً، ولا أملك سوى الكلمات.. وهذه تبقى مجانية، لا نفع فيها لأحد.

ـ لا تقل ذلك، أرجوك.. أن تتكلم يعني أن تدخل العزاء إلي

نفسي.. إنني مدينة لـك بـالكثير.. تكلم.. قـل أي شيء. الصمـت يخيفني، يعيدني إلى التفكير بوالدتي..

ـ لنشرب إذن، ولنثـرثـر. في وسعك أن تكوني معي كما مع والدك..

ـ أفهمك.. وأشكرك، وليس لي من طلب سوى أن تحتملني.. الا أضايقك بوجودي؟

جرع جرعة من كأسه وهو يتأملها. كانت شابة ولكن طفلة. براءتها تعلن عن نفسها في تصرفها العفوي. ولولاها لكان، هو أيضاً، مع أفكاره، وهي أفكار غير مريحة. قد لا يكون خائفاً مثلها، غير أنه كئيب، ولديه أسباب إضافية للكآبة، ولديه، في هذه اللحظة، ما هو أكثر من الكآبة.. انه أب مفجوع بابنته، لا يعرف النوم إلى جفنيه سبيلاً، ولو ترك العنان لنفسه لبكى، فقـد أصـابـه القـدر بضربـة موجعة.. لكن مصاب هذه الفتاة أفدح من مصابه، فهي مهددة أن تبقى يتيمة، وأن تتحمل فجيعتها بمفردها، وأن تبقى، رغم ذلك، متماسكة. إنها في الموقف الصعب، بل في الموقف المأساوي، ومن المؤكد أنها لا تقدّر، الآن، حجم وهول ما ينتظرها من آلام، وهو لن يقول أيما شيء عـن ذلـك، بـل عليـه، كما كـان عليـه دائماً، أن يشجـع الآخرين، بينما هو بحاجة إلى من يشجعه.

صب كأساً ثانية. إلى الجحيم بكل الآلام التي تكاد ترهقه. إنه يريد أن يتسلى، أن ينسى، بل أن يغيب عن الوعي، وقد كفاه، اليوم، ما رأى من موت، وما تحدث عن الموت، فأسرته، بعد كل شيء، بحاجة إليـه، وزوجته، تلك العزيزة، الغالية، الطيبة البعيدة، تنتظره، وقد وعدها أن يعيد ابنتها إليها سالمة، وصدقت ما قاله لها، فهي تجهل مرض ابنتها، وهو، برغم معرفته المسبقة، كان لديه أمل ما. وفي لندن، بعد الجراحة، خاب هذا الامل، وتجلت له الحقيقة بكل قبحها، بكل فظاعتها، وسيكون عليه أن يأخذ كل الألم لحسابه، فيكتم الحقيقة عن

زوجته وعائلته، ويتظاهر بأن ابنته شفيت، وأنها، كما وعد، تعود معافاة.

كانا، خلال هذه الدقائق، صامتين، كل منهما يتكلم بغير صوت، يقول لنفسه، وتقول له نفسه، يقيم حواراً مع الذات، في محاولة للاقناع والاقتناع، محاولة للتأكيد أن كل شيء سيمرّ، سينقضي، وأن الحياة تتابع مجراها، الموت لا يستطيع أن يوقفها، أو يغلبها، أو يحول دون انسيال الزمن، في كتلته الرهيبة، الممتدة بين بعدين، هما البداية والنهاية، وما التقويم الذي اخترعه الإنسان، الا تقطيع لكتلة الزمن، حتى يقوى على تحمل وطأتها الرصاصية.. انه سيعيش، وليديا ستعيش، ومن الايام السود إلى الايام البيض، ومن الشقاء الذي يبهظها الآن، إلى سلوان سيأتي، تتلوه غبطة، وانشراح، وفرج يزيل هذا الهم الرابض على صدريهما كجبل من حديد.

سألته:

ـ بماذا تفكر؟

ـ بلا شيء.. إنني أستمتع بهذا الويسكي المثلوج الذي أنعشني قليلاً، وأجد في هذا تعويضاً لذيذاً عن كل ما قلناه اليوم، وكل ما واجهناه من مواقف دراماتيكية، علينا أن نقذف بها إلى اللاشعور، وسيكون، غداً، كل شيء على ما يرام.

ـ بودي أن يكون ذلك كذلك..

ـ سيكون يا ليديا سيكون.. لدينا مثل يقول: «الدهر دولاب» لا شيء يبقى هو ذاته، ولا مصيبة تظل هي بعينها، كل شيء يتغير، لا ثبات في الكون، وهذه نعمة كبرى، علينا أن نستمتع بها جيداً. إن أحوالنا السيئة هذه ستتبدل.

ـ أحياناً تتبدل الاشياء إلى أسوأ..

ـ ثم تتبدل، هي نفسها، إلى أحسن، وأكاد أقول إنها تتبدل، غالباً، إلى أحسن، ففي المستقبل يكمن كل رجاء الناس..

ـ لكنه مستقبل بعيد..

ـ وقريب أيضاً.. نحن، الآن، تحت حجر الطاحون. نحن تحت وطأة المأساة، لذلك نحس بثقلها، وبأنها لن تتزحزح.. هذا خطأ، صدقيني أنه خطأ، هذه المأساة ستزول أيضاً، وسيأتي الفرج، ونبتسم في قرارتنا.

ـ لو يحدث حقاً ما تقول..

ـ سيحدث، كوني على ثقة..

ـ إنك تبعث الثقة في نفسي.

ـ وفي نفسي أيضاً.. إنني، في سواد الأشياء، أبحث دائماً عن نقطة مضيئة.

ـ وتجدها؟

ـ غالباً أجدها..

ـ أرجو، أنا أيضاً، ان أجد النقطة المضيئة التي تتحدث عنها، وأن كنت أشك.. ومهما يكن، سأفكر في كلماتك، وأحاول أن أستفيد منها، سأتعلم أن أبحث، مثلك، عن شيءأبيض، في قلب السواد، في قلب هذه الفاجعة التي توشك أن تنزل بوالدتي، هذه المريضة المسكينة التي لا أستطيع الا أن أفكر فيها، ولا أقوى على نسيان ذكرياتي الجميلة معها، يوم كانت في صحتها..

توقفت لحظة وأضافت:

ـ أتعرف؟ اني لو حدث لوالدتي حادث، سأجن، أو أنتحر..

ـ لن يحدث لوالدتك شيء، وخاصة في الوقت الحاضر.. لديك وقت للتأمل، وللتفكير، وجرح الحياةهي التي تتكفل بشفائنا منه، الحياة تجرح وتداوي..

ـ ولكن جرحها سيكون عميقاً هذه المرة..

ـ ليس أكبر من جرحي..

ـ أنت لديك عائلة.. أما أنا، قل أنت، من يتبقى لي؟

ـ الأقرباء مثلاً..
ـ نعم، هناك أقرباء..
ـ وهناك أصدقاء.. ليس من إنسان بغير صديق..
ـ وهذا صحيح..
ـ وسيكونون إلى جانبك لو حدث لوالدتك مكروه..
ـ لكنني لا أستطيع أن أتصوّر أنني سأفقدها.. هذا رهيب، رهيب جداً.

وقال جهاد في نفسه: « نعم، رهيب إلى أقصى حد. » ثم عاد إلى تناول جرعة من كأسه، تاركاً للصمت أن يتكلم، ان يسود، أن يتمطى، ويعذب روحه وروح هذه الفتاة التي تستشف المأساة المقبلة، وليس من الحكمة، أو من الواقع في شيء، أن يقدم لها تطمينات كاذبة.

وحين، بعد قليل، جرعت آخر ما تبقى في كأسها، كان النعاس قد ألح عليها، وكانت تهوم، ثم لا تجرؤ على الذهاب إلى غرفتها والانفراد بنفسها. كانت قلقة، مترددة، معذبة، لا تعرف ماذا تقول، وكيف تتصرف، ولهذا تركت للصمت أن يقول ذاته، أن يتحكم في هذا الموقف الغريب.

أخيراً حزم أمره وقرر أن يسبر غورها. أن يفهم ما تريده منه، بعد أن انتصف الليل، واستبد الإنهاك بقواهما معاً.. قال لها:

ـ أنت خائفة يا ليديا!؟
ـ ليس تماماً..
ـ إذن أقترح أن تذهبي إلى غرفتك وتستريحي..
ـ أزعجتك؟
ـ ليس هذا ما يدفعني إلى تنبيهك، عفواً، إنني قادر على السهر حتى الصباح، ثم ماذا؟ لا بد أن نستريح، وخاصة أنت، إنك متعبة، ولا فائدة من المكابرة.. اذهبي إلى غرفتك..

ـ إذن أدعك تستريح..

قالتها ووقفت.. وقفت ولم تتحرك.. كانت مترددة، تحاول أن تلملم بقايا شجاعتها، لكنهـا تعـرف أن الخوف سينشـب أنيـابـه في أعصابها ما أن تبقى وحيدة، وسيكون، عندئذ، من السهل على مشهد الأم وهي تبكي صائحة: «لا أريد أن أموت!» أن يعتادها، وأن يصيبها بذعر قد يدفعها إلى فتح باب غرفتها والهرب إلى الشارع..إن تصوره هذا ليس غريباً أبداً، وحتى لو بقيت في غرفتها، فإنها لن تنجح في استجلاب النوم، وستبكي، وقد تصرخ، فهي خائفة، وهي تكابر كي لا تعترف بذلك.

سألها:

ـ ماذا قررت؟

ـ سأذهب..

ـ لماذا تتريثين إذن؟

ـ رافقني إلى غرفتي..

ـ هيا..

رافقها إلى غرفتها.. وقف عند الباب، تمنى لها ليلة سعيدة وهم بالرجوع، وعندئذ، وبعد أن قطع مسافة في المجاز، ركضت وراءه وهي تصرخ:

ـ أرجوك يا سيدي، ابق قليلاً معي، لا تتركني وحيدة.

عاد إليها. دعته الى الدخول، دخل متردداً، ظل واقفاً، تأملها بإمعان، بإشفاق، احتار في أمره، ودّ أن تدعه يذهب، أن تحاول النوم، وأن يسعفها النوم، لكن ذلك صعب. إن بها رجة عصبية، أعصابها متنبهة، وفي حال كهذه، يسيطر قلق الروح، وتبقى المشاعر مستيقظة. هذا لون من العصـاب، وأن نحاول مقـاومـة الأعصـاب، والضغط عليها، يعني أن نستثيرها، وفي حال كهذه تكون ثمة مكاسرة بين الإرادة وبين المرض،والأطباء، في وضع كهذا، ينصحون باللجوء

إلى الحبوب المهدئة طلباً للاسترخاء، وهو يعرف ذلك من تجاربه. الافضل أن تتناول كمية أكبر من المهدئات، وأن تشرب أيضاً، لعل ذلك يجلب لها النوم.

لاحظت ليديا تردده في البقاء. لو رغب فيه لجلس. بقاؤه واقفاً يعني التردد، التفكير، وهي لا تعرف النتيجة. إذا قرر أن يذهب إلى غرفته فستسأله أن يأذن لها بالذهاب معه، وجوده أضحى ضرورة بالنسبة إليها، ومهما يقل، أو يظن، فإنها ستبقى معه الليلة، وسيعرف، من تصرفها، أنها فتاة عاقلة، محترمة، سوى أنها خائفة، وسوى أنه أصبح رفيقاً لها، رفيقاً لا غنى عنه، اليوم، وغداً، وبعد غد، وخاصة الليلة، الليلة بالذات، حيث تسيطر عليها، إلى درجة الرعب، صورة أمها وهي ترتجف، مملوءة بالرعب، صارخة «لا أريد أن أموت!»..

ظلا واقفين.. لم يجرب أن يخطو نحوها، أن يمد يده ويربت على كتفها، أن يمسد شعرها، في محاولة لتهدئتها، لتلطيف الجو المتوتر، الرائن على الغرفة. لو فعل ذلك لما مانعت، إنها تريد أن يفعل، أن يأخذها بين ذراعيه، كما يفعل الأب تماماً. لكنه ليس أباها، ولأنه كذلك، وباعتباره رجلاً غريباً، فإنه يتصرف بحكمة، ببرود، ولا يسمح لنفسه أن يدنو منها، مع أن ذلك، لو فعله، لكان طبيعياً جداً في مثل هذا الموقف.

أخيراً سألته:

ـ الا تريد أن تجلس..؟

ـ لا مانع من الجلوس، ولكن ذلك ليس حلاً، لأنك بحاجة إلى النوم، فلماذا لا تجرّبين أن تنامي؟

ـ أنام وتسهر علي؟ تنتظر أن أغفو وتنسل خارجاً؟ تنام في غرفتي على المقعد؟ يا إلهي! انني فتاة غير صالحة.

ـ بل أنت فتاة صالحة تماماً..

ـ لكنني أتعبك..

ـ من قال هذا؟ وهل تحسبين أنني هادئ الأعصاب، ولست بحاجة إليك بدوري؟ أنت واهمة يا صغيرتي.. أنا أيضاً أتذكر كل ما وقع لي اليوم.. أتصوره بكل تفصيلاته، وأشعر بقشعريرة خوف، وربما لا أستطيع، مثلك، أن أنام.

ـ وماذا كنت ستفعل لو لم أطلب اليك البقاء معي؟

ـ كنت سأشرب..

ـ آسفة.. ليس لدي شراب..

ـ هذا طبيعي.. إنني أشرب كل ليلة، ولهذا أحتفظ بزجاجة إضافية دائماً.

ـ لنعد إلى غرفتك.. أجلس على مقعد، فاذا غفوت دعني كما أنا، ولك حرية التصرف، لك أن تشرب، أو تستلقي في سريرك، أو تذهب وتجيء، فقط كن معي، أريدك الليلة معي.. أنا بحاجة إلى أيما إنسان، وليس في هذا الفندق من يصنع لي هذا المعروف.. هل تفهمني؟.

ـ أفهمك تماماً..

ـ ولا تظن بي الظنون؟

ـ أبداً..

ـ لنعد إلى غرفتك إذن.. سأمكث لديك حتى الصباح.. عندك سأجرب النوم. ألن تنام أنت؟

ـ ليس الآن.. ليس قبل أن أتناول مزيداً من الحبوب المهدئة، ومزيداً من الويسكي..

ـ ولن تطفئ الضوء..

ـ لن أطفئه..

ـ أخاف الظلمة، كما أخاف الوحدة.. إنني معذبة..

ـ هيا إلى غرفتي إذن..

عاد إلى غرفته. تركت الضوء في غرفتها مشتعلاً. نبهها إلى ذلك

فأبلغته أن هذا أفضل حتى في غيابها، وحتى لو كانت الغرفة خالية من أي انسان، يبقى الضوء مريحاً، وتبقى الغرفة كأنها مأهولة. لم يشأ أن يناقشها. إشعال الضوء أو إطفاؤه ليس مشكلة، ليكن ما تريده هذه الفتاة الصغيرة التي تخاف، ربما، من الأشباح، والتي بلغت من التوتر حد الانقصاف.

في غرفته، شعر هو أيضاً بالأنس. شعر بالدفء. كان إلى جانبه إنسان، وكان، دون أن يفصح، يرتاح إلى وجود هذا الانسان إلى جانبه. ذلك أنه قلق، يقظ الكيان، كأنما ليس هو في الليل، وأن هذا الليل لم ينتصف، ولا يحس بأيما حاجة إلى النوم، وإن كان، في الوعي بضرورة الراحة، يتمنى أن يستسلم إلى رقاد طويل، يعوضه عما فاته من راحة، ويجلب له بعض القوة التي يحتاجها غداً. لولاها كان سيتناول حبة أو حبتين لتهدئة أعصابه، ثم يستلقي على سريره، دون أن يلجّ في طلب النوم، لعلمه أن اللجاجة في طلبه، تزيده إرهاقاً، وتجعل عملية الإغفاء صعبة إلى حد بعيد. يكفيه أن يستلقي، وأن يفكر، ويستعرض وقائع الامس وما قبله، ويرحل، على جناح الخيال، إلى مدينته دمشق، ومن خلّف فيها من أهل وأصحاب.

جلسا متقابلين. نصحها أن تتناول حبة أخرى مهدئة، وأن تسترخي في مقعدها، وتطمئن لوجودها معه، وستجد نفسها، بعد قليل، قد أغفت. ربما كان من الأفضل أن تستلقي في سريره، وأن يظلّ هو جالساً، ففي وضع الاستلقاء راحة لا تؤاتي في وضع الجلوس، إضافة إلى أن الدورة الدموية في حالة الاستلقاء، تنشط أكثر، وتتوفر حالة من الاطمئنان تساعد على النوم.

رغم ذلك احتفظ بأفكاره هذه لنفسه، قرر أن يدعها وشأنها، أن يراعي ما تريده عفوياً، أن يوفر لها كل الحرية، وأن يدع جو الصمت الحلو رائناً على الغرفة، لعل في ذلك ما يفيده ويفيدها، وبدلاً من

الحديث، يستغرق كل منهما في عالمه الخاص، العالم الذي اعتاد أن يتطلبه، ويألفه، ويرتاح إليه، لما فيه من لذة استرجاع الماضي، وإمكانية استحضار صور الذين يحبهم، وفي مقدمتهم زوجته، وأولاده، وتلك الصديقة التي هي كل دنياه، والتي يعاني من الابتعاد عنها، ضعف ما يعانيه من ابتعاده عن الآخرين.. لقد كان محباً، وكان محبوباً، وهو يعرف أن ثمة قلباً هناك، في بلده البعيد، يخفق من أجله، وربما، في هذا الوقت، يعاني ما يعانيه من عذاب الفراق، ويسهر مثله، ويفكر فيه، ويتساءل: «ماذا يفعل الآن؟»

أشعل سيكارة. كانت هذه أُنسه وسلوته. كان مدمناً، والتدخين، في نظامه الجسمي القلق طبيعة، خير معين على الهدوء، وعلى اللذة، وعلى الكلام ولا كلام، فالسيكارة جليس صامت، يؤثره، ويرغبه، وتتشهى له عروقه كلها، خاصة في وقت كهذا، مشحون بالهم، والتناذر، وتشتت الفكر، وتعب الجسد مما عانى في يومه من مشاهد مبهظة. ليديا أيضاً كانت تدخن، لاحظ أن والدتها، في المستشفى، تحرق اللفافات بنهم شديد، الأمر الذي يدل على إدمانها، كما يدل على حالتها النفسية المعذبة، التي تتطلب خدر التدخين في نوع من الإلحاح البالغ. لكنه لم ير ليديا تدخن أمامها. كانت تعرف، بحكم تربيتها وبيئتها، كيف تحترم نظام المستشفى، وترغب في الحفاظ على نقاء الجو في الغرفة، الا أنها تعذر والدتها في خرقها هذا النظام، لأنها مريضة وفي غاية الاضطراب. أما هو وهي، فكانا يتناوبان التدخين في غرفة الانتظار، وباقتصاد. أما خارج المستشفى فقد كانت ليديا تكثر من التدخين، مثلها في غرفته الآن، وتنفث الدخان بعد أنْ تمتلئ به رئتاها، وتحتجب وراء هالة منه، بينما هي تراقب انداياحات دوائره في سهوم، وشرود عن كل ما حولها.

عندما أعدّ لنفسه قدحاً جديداً من الويسكي، رجته ان يعدّ لها، هي الأخرى، قدحاً مماثلاً.. انتفى، الآن، الخوف من ان تسكر. بل

إنها رغبت في السكر، ولم ير فيه مانعاً بدوره، فما دامت ستقضي الليل في غرفته، فلتسكر، لعل هذا يجلب لها النـوم، بـل يضطـرهـا اليـه اضطراراً. أما بالنسبـة اليـه، فـإن الشراب الذهبي، الرائـع النكهـة والرائحة، مما يشتهيه، ويلذ له جداً، لأنه يريح أعصابه، ويضاعف شهيته الى التدخين، ويتيح له أن ينسى، أن ينأى عما هو راهن، الى ما هو من الماضي، حيث الذكريات الجميلة، التي كانت في وقتها، أقل جمالاً، وغدت الآن عزيزة، مبهجة، كأنه يعيشها من جديد، وفي سعادة بالغة الإمتاع.

ليديا كانت على انسجام مع كأسها أيضاً. وجدت الويسكي قوياً بالنسبة اليها، هي التي اعتادت النبيذ، لكنها تذوّقت كأسها على نحو رائع، وأمتعها ان يكون الويسكي مثلوجاً، فهي ما تبرح تخفق الكأس بهزات من يدها، ليسمع للثلج صوت جميل وهو يدور في الكأس ويصطدم بالزجاج، ويذوب شيئاً فشيئاً، محيلاً اللون الذهبي للشراب الى لون ماسي، يبعث على النشوة.

أسعده أن هذه أول ليلة، منذ وصوله الى لندن، يشرب مع إنسان آخر، إنسان كان، لولا ظروف المرض، يضفي على هذه الجلسة شاعرية خاصة. كان يحب الشراب ويحب المرأة. وفي أيامه الخوالي، وجد متعة بالغة، له فيها لذتان قولة أبي نواس، كأن يشرب مع صديقة، مع حبيبة، مع امرأة مـا، أو مطلـق زميلـة، في لقـاء حميم، يتحدّثـان فيه عن الحب، أو الشعر، أو الفن بعامة، ويدعان الرسميات جانبـاً فينطلـق كـل منهما في الحديـث على سجيتـه. إن احتفـاليتـه بالشراب، تبلغ ان تكون احتفالية طقسية، فهو يتذوق شرابه على مهل، وبكل حواسه.. فإذا كان لاذعاً قليلاً، مثل الكونياك، حرص على ألا يتناول شيئاً معه، ضناً منه ان تخالط الحرقة الخفيفة في الحلق، أية مزة تفسد الطعم، وإذا كان الشراب مثلوجاً، مثل الويسكي، احتفظ بالبرودة آسرة في فمه وهو يتحسّسها بتؤدة واستمتاع، وتأتي

السيكارة، بعدئذ، خدراً رقيقاً، عذباً، مرافقاً، مضيفاً الى الشراب لذة مضاعفة، كأنما نكهته، مع نكهة السيكارة، مزجة علوية، تعطي المزاج ان يتسلطن، حاملاً اليه جواً من النشوة الغريبة، التي تفصله عن عالم الواقع، وتحلق به في فضاء عال، رحب، من التأملات الحلوة، الناعمة، المبهمة، ولكن الجميلة الى حد لا يصدق. وفي خلوة مع امرأة، تأخذ نشوته مجرى سحرياً، فتتفتح مسامه كلها وتزهر، كما عند الصبابة أو الوصال، ويطيب له الحديث، يرق، يعذب، يتدفق، حتى يصبح غيره، يصبح إنساناً قادراً على احتواء الكون من فرط حب للحياة، وتغدو المرأة، نعيمه الأرضي، فردوسه الموعود، شوقه اللاهب، المجنون، المرتوي والظمآن في آن، الذي لا سبيل إلى إشباعه.

الليلة يخالط الأسى متعته، يضعه على مبعدة من اللذة. يشعره بأنه على حافة هاوية في قرارتها الجحيم، جحيمه وجحيم هذه الفتاة التي جمعته ووحّدته بها مصيبة الموت المتربص بعزيزتين: ابنته وأمها.. شرابه، إذن، للراحة لا للمتعة. إنه ينشد الراحة، الاسترخاء، النسيان، وفي النهاية النوم لو يؤاتي. لكن النوم بدا عصياً، كأنه يسفح كأسه على الأرض، ولا يتجرعه فيستقر في جوفه. إنه لا يسكر. نادراً ما وصل الى درجة السكر، وحتى في هذه الحالة فهو يظل واعياً، ولا يفعل سوى ان يذهب الى فراشه. إن محنته في وعيه الدائم، فلماذا لا يفارقه هذا الوعي؟ لماذا لا يستطيع ان يفقده ويلج عالماً منفلتاً من الشعور بالذات التي يهصرها الاكتئاب؟ القلق والوعي، هذان هما الوحش الناهش في لحمه، المستوطن عقله، الذي لا يريده ان ينسى، ولا يكف عن الرقابة الصارمة، المعذبة، المنهكة، التي لا يظفر بالخلاص منها، ولا يقوى على التفلت من أسارها.

سمعا، في هدوء الليل، الساعة تعلن الثانية بعد منتصفه. كانا يتبادلان حديثاً متقطعاً، وكانا يصمتان، فيراقب الفتاة خفية، يختلس النظر اليها، راجياً أن يراها تهوم، يذبل جفناها، تدخل في دائرة

النعاس، غير أن الفتاة ظلت صاحية، تخالسه النظر بدورها، يؤرقها شعور بالألم لحال أمها، وشعور بالأسف لأنها فرضت نفسها عليه، احتلت غرفته، أسهرته الى هذا الوقت المتأخر، هو المنهك بوقائع يوم بارح، لم يهدأ طواله كما أخبرها.

سألته، بنبرة ضارعة:

ـ ألا تريد ان تستلقي فتستريح؟

ـ كنت أفكر أن أسألك السؤال نفسه.

أضاف:

ـ هيا الى غرفتك.. يجب ان تعودي الى غرفتك.

ـ وأنت؟

ـ أحاول أن أبقى معك قليلاً أيضاً.

ـ هذا كرم منك، لكنه غير مقبول.. لو قبلت عرضك لكنت أنانية.

ـ ليس في الأمر أنانية.. ينبغي ان تنامي قليلاً..

ـ لماذا لا نسهر الى الصباح؟

ـ ألا يضايقك هذا؟

ـ أبداً.. حين تكون معي، أتحمل السهر، فإذا نمت، دعني واخرج.

فكر في نفسه: «هذا وثوق بالنفس. هذا اطمئنان اليك. أنت لن تكون سيئاً. محال ان تكون نذلاً، اذهب معها إذا كنت مثلها، واثقاً من قدرتك على ضبط نوازعك. هيا، كن أباً حقيقياً، كن أخاً، كن أنت نفسك، الكهل الذي يحترم كهولته، باحترامه لشباب هذه الفتاة. برهن لها أن ذلك ممكن، وأنك لا تخشاه، ادخل هذه التجربة، برغم أنها التجربة الأولى في حياتك».

قال:

ـ إذا كنت لا أضايقك، فإنني سأذهب معك الى غرفتك، وأبقى فيها حتى تنامي، وربما نمت على المقعد حتى الصباح.

ـ في هذه الحال أكون شاكرة جداً...

وذهبا!

- ٧ -

بقي معها في غرفتها حتى نامت، استلقت على السرير في محاولة لاستجلاب الراحة، ولم تلبث أن أغفت، لأنها كانت متعبة، وكان الشراب قد فعل فعله، فنامت نوماً عميقاً.

لقد أولته ثقتها، وكان جديراً بهذه الثقة، فطرد كل فكرة سيئة منذ البدء. قرر أن ينأى بأية هاجسة تجانب الطهر، ويتعامل مع الفتاة كابنة حقيقية، وقد سرّه أنه نجح في ذلك، وأن ليديا ساعدته على النجاح، فقد ظلت، رغم الشراب، واعية، رصينة، ولم تبدر عنها بادرة سوء، وحين أغفت، وتأكد أنها نامت، أبقى الضوء مشتعلاً، وانسل الى غرفته، حيث استلقى من فوره، وبعد قليل أغفى بدوره، ونام نوماً عميقاً أيضاً.

رأى نفسه، في الحلم، يقف على قمة جبل، كان الوادي تحته عميقاً، وكان يحاول الهبوط بصعوبة، ثم رأى نفسه يطير فوق الوادي، ولم يلبث أن دخل سرداباً طويلاً، وعبثاً حاول إشعال شمعة في يده. كانت الشمعة تنوس، تتأرجح ذبالتها وتنطفئ، وكان النفق مزدحماً، وعليه ان يمشي، فلم تطاوعه رجلاه، ووجد عناء شديداً في التقدم الى حيث يتراكض الناس. لم يتعرف، في من حوله، على وجه يعرفه، وهكذا بذل مجهوداً في السير وسقط، ثم وقف، ثم عاود السقوط، وأخيراً أحاطت به أشكال آدمية، غريبة، مخيفة، وانبثقت المرأة التي

يحب، لكنها مرت به دون أن تأبه له، وتجاوزته بصحبة رجل كان يكرهه، الأمر الذي أحنقه، وعندئذ قرر اللحاق بهما، لكن قدميه خانتاه مرة أخرى واستشعر غيرة كاوية، فراح يشق لنفسه طريقاً حتى ألفى نفسه، دون ان يدري كيف، أمام بناية ضخمة، ذات درج رخامي خارجي عريض، وراحت حبيبته تصعد الدرج برفقة ذلك الرجل وهي تضحك ولا تلتفت اليه، حتى دخلا باباً، انغلق بسرعة في وجهه، فظل ينتظر، ومن نافذة البناية سال دم، وقهقه صوت أجش، كريه، فقعد في مكانه على الدرج وأخلاط من البشر تمر به وترقى إلى أعلى، وهو يعاني من ضيق شديد، كأنما شيء يضغط على صدره كالحجر.. ومن جديد حدّقت به عيون غريبة، مشقوقة طولاً كعيون نساء يابانيات رآهن في صورة قديمة، وألفى نفسه، من جديد، يسير وسط رهط من الوجوه المقنّعة، وأمامه نعش أسود، يحمله رجال على أكتافهم بصورة عرضانية، على خلاف ما يحمل الناس النعوش في العادة.

هكذا، ظل ينتقل من مشهد غريب الى مشهد أغرب، وهو يضطرب في نومه، ويعاني بشاعة الأشياء من حوله، محاولاً، كلما لاحت حبيبته، أن يلحق بها، ان يكلمها، ان يقول لها كلمات عتاب مثقلة بغضبه، لكنه لا يتوصل الى إدراكها، فيتعذب في غير طائل، بينما حقد يفور في صدره، وتهديد صامت يتردد في ذاته، وأسف شديد ينتابه لأنه أحبها، ووثق بها، وأخلص لها، دون ان يفطن الى علاقتها بذلك الرجل الذي كان يتبدى في صورة مختلفة، متباينة.

بعد ذلك غامت الرؤى، اختلفت، اختلطت، وكانت كلها رؤى مزعجة، اضطرب لها دون ان يفلح، مرة واحدة، في الإفلات منها، مع أنه كان يدرك، على نحو ما، أن هذا كله ليس حقيقياً، وأنه في حلم، وعليه ان يستيقظ، ان يصرخ، ان يزيح الكابوس عن صدره.

الفرح الوحيد الذي عرفه كان عندما أفاق صباحاً. فتح عينيه

فرأى الضوء يأتي شحيحاً من وراء سجف النافذة. تذكر فوراً كيف نام، والتشوش الكابوسي الذي عاناه، وحمد الله أن ذلك كله كان حلماً، وأنه أغفى، ولو على هذا الشكل المزعج، وأن عليه، الآن، أن ينهض دون ان يجد رغبة في النهوض، مع كل معرفته بضرورته، لأن عليه اليوم ان يسعى في تشييع ذلك الرجل الملقى جثة هامدة في ثلاجة المستشفى.

رفع يده ونظر في ساعته. كانت الثامنة إلا دقائق، فنهض وارتدى ثيابه، وقبل ان يغادر الفندق أراد الاطمئنان على ليديا، فقصد غرفتها، وفتح الباب بحذر، فوجدها في سريرها، كما تركها ليلة البارحة، بكامل ثيابها تغط في نوم لا يعرف أكان مريحاً أم معذباً، لكنه نوم لا بد منه، وكفيل بأن يعيد اليها بعضاً من قوة، هي التي عانت، أمس، معاناة شديدة.

تأمل وجهها المستريح على الوسادة. شعرها الخرنوبي المبعثر على وجهها، عينيها المطبقتين، بشرتها السمراء، الصفراء قليلاً، بلون السفرجل الناضج، وأنفها الدقيق، المنشمر قليلاً الى أعلى، ووجد فيها صورة أمها، صورة أبناء البرتغال، الذين لهم ملاحة خاصة، وجاذبية خاصة، ثم فكر بخوفها ليلة أمس، وبرعبها الشديد الذي استثاره مشهد والدتها التي لا تريد ان تموت، وأشفق عليها، وعلى أمها، وعلى ابنته، ونفسه، وتنهد من أسى، وبشكل عميق وممض.

ومن جديد استعاد الحلم، بل الأحلام التي تراءت له، استعادها وهو يرتعش من تأثر كدر، بسبب هذا القدر من البشاعة التي انطوى عليها الكابوس، وقد ألح عليه، أكثر من كل ما رأى، مشهد ليلى التي يحب، والتي ودّعها وهي تبكي، وترجوه ان يكتب اليها كل يوم، وهي، بدورها، ستفعل مثله، ورجت ان تكون رسائله مطمئنة، تحمل بشرى شفاء فتاته، وبشرى عودته بسرعة.

كانت ليلى قريبته، وقد عرفها منذ الصغر، ويخيل اليه أنه مال اليها منذ الصغر أيضاً، وكانت لها في نفسه معزة خاصة، وقد تزوجت وسافرت، وفي الغربة مات زوجها، فعادت الى دمشق لتلتقيه من جديد، وتقوم بينهما تلك الصداقة المتميزة من جديد، وكانت تصغره، وعلى نضج في السن، ونضج في الأنوثة، فسكنت حي القصاع، غير بعيدة من بيته، وقامت بينهما مودة ترسخت مع الأيام، وانقلبت الى حب هادئ، حب رابطته القرابة، وكانا يعانيان كلاهما من وطأة مشاعر حبيسة، مكبوتة، لا سبيل إلى إرخاء العنان لها، تقوم، من جانبها، على معزة تماثل معزته، هي معزة الأخت، والقريبة، والحبيبة في آن.

كان الآن يجلس في مطعم الفندق وحيداً. لقد أغلق الباب على ليديا بهدوء، وكما فتحه بهدوء، وسار عبر المجاز الى المصعد، ثم هبط الى المطعم، وشرب قهوة بحليب، وتناول قليلاً من الخبز المحمص مع الزبدة والمربى، ودخن سيكارة، ثم خرج واتجه بسرعة الى المستشفى.

في غرفة الموتى، أي في القبو، حيث الثلاجة والجثث، كانت زوجة المتوفى وابنها الرضيع. ثمة مقعد، في الممر، كانت تجلس عليه، بانتظار ان يعود سلفها الذي ذهب الى الإدارة.

كانت، الآن، ساهمة، محزونة، وآثار الليلة الفاجعة التي قضتها دون نوم تبدو عليها. الطفل وحده كان يناغي، ويخفق، في حضنها، بيديه ورجليه، غير آبه بالموت والدموع. كان طفلاً جميلاً، معافى، وكان نظيفاً، مرتباً، لذلك لم يكن يبكي، وقد سألها عما إذا كانت قد أرضعته، أو سقته حليب الصباح، وعندما أجابت أنها أطعمته، غادرها مسرعاً الى ادارة المستشفى، حيث كان شقيق المتوفى يتسلم أوراق الدفن ليملأها. بعد ذلك قصدا مكتب دفن الموتى، في احدى ضواحي لندن، لدفع الرسوم، وأخذ التصريح اللازم بالدفن.

كانت ذقن الشقيق نابتة، لم يحلقها منذ أيام، ولن يحلقها قبل مرور اسبوع، على عادة الشرقيين، وهذه اللحية، والحزن، وقلة النوم، والبكاء، ومرارة الفجيعة، في الغربة القاسية، تركت لها أثاراً من التشوه في وجهه. كان اسمه عمر، واسم المتوفى كما جاء في الأوراق الرسمية، ابراهيم خليل النابلسي، وقال عمر وهما في التاكسي الذي يقلهما الى مكتب الدفن:

- من كان يظن أنه سيموت في الغربة، ويدفن في مقبرة الغرباء في لندن؟

- هذي هي مقبرة الفقراء أيضاً.. معظم الغرباء من الفقراء.

- هناك أغنياء يموتون هنا أيضاً..

- هؤلاء ينقل جثمانهم الى بلدانهم..

- كان يجب ان أنقل جثمان أخي..

- النقل يكلف غالياً.. الأفضل ان يبقى المبلغ لعائلته..

- ليس هذا هو المهم.. المهم الى أين ننقله.. نابلس تحت الاحتلال..

- اذن لا فرق، وحتى لو نقلته الى الخليج، فإنه سيدفن في أرض غريبة أيضاً.

- هذا ما اضطرني الى الموافقة على دفنه هنا..

- الغريب لا أرض له، ولا بيت، ولا مدفن..

- هذه، تماماً، حال الفلسطيني المشرد..

- لقد فهمت ذلك، منذ رأيت الفقيد في المستشفى..

- هو قال ذلك؟

- كان، عند احتضاره، يردّد اسم فلسطين..

- فلسطين أضحت بعيدة..

- وستكون قريبة أيضاً، لا بد من العودة.

- متى؟

- ...
- ليست هناك عودة، وإذا كانت فهي بعيدة جداً.. كتب علينا ان نعيش مشردين.
- سينتهي التشرد.. الزمن لا يقاس بالأعوام..
- وبماذا يقاس..؟
- بالصبر.. النضال يحتاج الى صبر.. كثيرون تشردوا ثم عادوا الى أوطانهم...
- نحن الفلسطينيين لن نعود.. طال الزمن علينا.
- ستعودون، لا بدّ أن تتحرّر فلسطين..
- ومن يحرّرها؟
- أبناؤها، وكذلك الشعب العربي، قضية فلسطين قضية الأمة العربية.
- هذا كلام.. فلسطين ضاعت..
- أنت تقول ذلك من ألمك.. لأنك تحت الشدة..
- الشدة تحمل على الكفر.. أمس، وأنا أراهم يضعون جثة أخي في الثلاجة، كدت أكفر.. ألا تكفي مصيبتنا في الغربة، حتى نموت بعيدين، لا وطن ولا أهل...؟
- نحن أهلك هنا.
- أنت غريب أيضاً.
- وكل غريب للغريب نسيب.. لقد بكيت، مثلك، أمس، فما نفع الدموع؟
- لكن الانسان لا يستطيع أن يحبس دموعه.. الانسان ليس من حجر.
- الحجر يبكي أيضاً.. أحجار الوطن البعيد تبكي لغربتنا ومصابنا.
- وماذا ينفع بكاؤها؟

ـ وماذا ينفع بكاؤنا ؟ ماذا أفادتنا الدموع ؟ الأفضل ان نتماسك ، ان نتحمل ، ان نصبر .

ـ هذه تعزية للذين لا قوة لهم .

ـ تعزيتنا جميعاً . . أنا مثلاً ، أتعرف كم أعاني ؟

ـ بسبب مرض ابنتك ؟

ـ وبسبب موتها أيضاً ، ابنتي ستموت .

ـ ابنتك ستموت ؟ هذه الزهرة ؟

ـ هي بعينها . . مرضها نفس مرض أخيك : السرطان !

ـ أين ؟

ـ في العمود الفقري .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله . . ما كنت أظن ، أتمنى لها الشفاء .

ـ لا شفاء يا صاحبي ، انتهى الأمر . . هذا ما قاله الأطباء .

ـ وأنت تواجه المصيبة بمفردك ، غريباً مثلنا .

ـ تماماً . .

ـ اعذرني اذن . . الآن فهمت سبب دموعك . .

ـ كل منا يبكي على نفسه .

ـ نبكي على بعضنا ، ومع بعضنا . . أليس هذا فوق الطاقة على الاحتمال ؟

ـ أما قلت لك إن علينا ان نصبر ؟

ـ لقد طال صبرنا ، أليس كذلك ؟

لم يجب جهاد بشيء ، لاذ بالصمت ، خيم الصمت عليهما ما تبقى من الطريق . كان صمتاً ثقيلاً ، انصرف كل منهما خلاله الى التفكير بمصابه . قال عمر في نفسه : « يا للفاجعة ! من كان يظن ؟ هذه الفتاة الصبية محكوم عليها بالموت اذن . . ؟ وكيف يلقاها والدها ؟ كيف يستطيع ان يبتسم لها كما رأيته أمس . . ؟ أهذه نهايتنا ؟ لماذا جئنا الى لندن اذن ؟ هنا تضيع نقودنا ويموت أحباؤنا ؟ »

سأل عمر :

ـ ستبقى طويلاً في لندن؟

أجاب جهاد :

ـ حتى ينتهي العلاج ؟

ـ وما فائدة العلاج ؟

ـ يطيل في عمرها قليلاً .

ـ هذا كل شيء ؟

ـ إلا إذا حدثت أعجوبة.. أو إذا اكتشف الأطباء دواء ما .

ـ أنت تعيش على الأمل اذن؟

ـ لا حياة مع اليأس.

ـ نخدع أنفسنا ؟

ـ هذا ما يجب أحياناً .

قالها وتلهّى بالنظر من النافذة. كان الأفضل لو استقلا المترو.. المترو أسرع من التكسي ، لكنهما يجهلان لندن.. للغربة ضريبتها . هما يدفعان هذه الضريبة في كل لحظة ، يدفعانها صاغرين ، معذبين ، ومع العذاب الإنفاق.. ينفقان مضطرين ، ويعرفان ألا فائدة.. نقودهما تهدر كالماء المسفوح على التراب.

ومن جديد اعتصما بالصمت ، راح جهاد ، وهو ينظر من النافذة ، يتأمل الناس في الشارع :

« من يدري بأي شيء يفكر هؤلاء المارة؟ قد تكون لكل منهم مصيبته ، أو يكون لكل منهم همّه . الفجيعة ليست قبعة توضع على الرأس ، الهمّ ليس شارة تعلّق على الصدر . كل إنسان ينطوي على سره . ما أفظع أسرار الناس وأعمقها ! نحـن مثلاً ، رجلان في سيارة ، من يعرف من هؤلاء الذين نمر بهم ما حكايتنا ؟ ما خطبنا ؟ من أي بلد نحن ، ولماذا أتينا الى لندن؟ لكل منّا قصته.. وقصة كل واحد

تختلف عن قصة الآخر. مئات الوجوه، آلاف الوجوه، ومئات وآلاف القصص، والزمن يسيل، والوقت يمضي، والعمر ينقضي.. بعضنا ما زال في الطفولة، وبعضنا في الشباب، وبعضنا الثالث في الكهولة أو الشيخوخة، وكلنا نريد ان نعيش، كلنا يدفع ضريبة العيش، ومن عجب أن الجميع يريدون الاستزادة، مع كل ما في الحياة من تعب! هكذا هي الحياة، حلوة رغم مرارتها، ومطلوبة رغم كرهها، ومباركة رغم لعنتها».

في مكتب الدفن وقفا في صف طويل من المراجعين أمثالهما، قال الأب في نفسه: «حصاد عزرائيل وافر اليوم، كم عدد الذين يموتون، يومياً، في لندن؟ وكم عدد الذين يولدون؟ في كل مكان ازدحام، وتكاليف الموت لا تقل عن تكاليف الولادة.. التكاليف مفروضة دائماً: عند الولادة، والزواج، والموت، ناهيك بمعاملات العيش، وفي كل مرة عليك ان تقف في صف طويل وتنتظر». ولأن المتوفى غريب، وسيدفن في احدى مقابر لندن، فقد كان عليهما ان يعودا الى البلدية، لدفع رسم الدفن، والحصول على ترخيص. وهكذا ركبا التاكسي الى البلدية، وفق العنوان المكتوب الذي أعطي لهما، وفي البلدية طلبت منهما ورقة إضافية، ناقصة في المعاملة، وعليهما ان يحصلا عليها من المستشفى.

عادا الى المستشفى، وانتظرا في الادارة حتى حصلا على توقيع الطبيب بحصول الوفاة، ذلك أن التوقيع يجب ان يكون من الطبيب المعالج، وهذا الطبيب كان في جولة على مرضاه، وكان عليهما، هنا أيضاً ان ينتظرا، وأن يلوذا بالصبر، بينما الجثة في الثلاجة، والأم وطفلها على المقعد في القبو، والوقت يمضي، والنهار يتقدم، وينبغي، بعد هذا كله، شراء التابوت، ونقل الجثة الى الجامع، ليجري غسلها والصلاة عليها، وكانت قائمة التكاليف ترتفع، والشقيق يدفع، وهو

يستعيذ بالله، ويتحمّل، وينظر في عيني جهاد، الذي كان وجهه ينطق بجواب واحد: «هذه أمور لا بد منها!».

- ٨ -

في الثالثة بعد الظهر، انتهت معاملة الدفن. صارت الإضبارة كاملة، ولم يبق الا شراء التابوت، فاقترح الأب أن يكون من خشب فقط، طالما أنه لن يوضع مع المتوفى في القبر. وحين حصلا عليه، ووضع في عربة الدفن، بدا بائساً، فقيراً، يشي بغربة الفقيد، ويحزن القلب، على نحو خاص. كان هذا آخر جهاز له. فبعد الكفن الذي اقترحه شيخ الجامع، كان التابوت آخر ما يضم الجسد، ثم القبر الذي هو المثوى الأخير.

ولم يكن الشقيق مبالياً بنوع التابوت، أو بخشبه العاري، بخلاف جهاد الذي كان منظر الخشب، في بؤسه، عريه، خشونته، خلوّه من أية زينة كما التوابيت الأخرى، يبعث فيه الأسى، ويذكره بحقيقة رهيبة: «الموت في الغربة!» كان هذا هو الوجه الآخر للحياة هنا، وعندما، في المستشفى، وضعت الجثة في التابوت، وكتب عليه الاسم بالانكليزية، بدا وكأنه سلعة ما، توضع في أي صندوق، وتشحن إلى جهة ما، عليها أن تتسلمها، وأن توضبها في جملة السلع التي تتلقاها. حتى قال جهاد في نفسه: «يا لسخرية القدر، ويا لتفاهة الانسان، حين يصير إلى هذه النهاية الموجعة!».

بكت الزوجة عند إخراج الجثة من الثلاجة، أرادت أن تودعها، أن تودع زوجها ورفيق حياتها، وأن ترفع ابنها الرضيع، ليرى والده للمرة الأخيرة، لكنهم، في المستشفى، منعوها من ذلك، فلطمت على خديها، وجنبيها، وولولت، فبكى الشقيق، وبكى جهاد، وذرف

الثلاثة دموعاً كثيرة، لوقت قصير، قصير جداً، تطلّبه تشييع الجثة من المستشفى، وسار الموكب الصغير، الحزين، في سيارتين: الأولى تحمل التابوت، والأخرى تحمل الثلاثة والطفل.

ولما انتهى الدفن تفرقوا. خرجوا من المقبرة برؤوس مطرقة. توقفوا في الشارع. الطقسية الاحتفالية كانت مقتضبة، وكذلك المراسم، وانقطع آخر خيط يربط الأسرة المفجوعة بفقيدها الذي لم يكن له قبر خاص تعود إليه، تزوره، تضع الآس والزهور عليه. حشرت الجثة في مدفن عام، بين كثير من جثث الغرباء، دون شاهدة، دون زهور، فالذي كان من التراب، عاد إلى التراب، كأنه لم يكن أبداً، لم ينوجد، ولم يدرج على الأرض، ولا تنفّس الحياة، وأحب، وأبغض، وعشق، وكره، ومارس كل ذلك الوجود الذي عاشه في وطنه، وغربته، والمدينة التي مات فيها.

ماذا يقول أحدهم للآخر؟ بل ماذا يقولون للطفل الرضيع؟ أية تعزية؟ وأية أصوات مبللة بالدمع ستخرج من أفواههم؟ كل شئ كان يدعو إلى الصمت. عليهم أن يتفرقوا بغير كلام، أن يكتفوا بالشد على الأيدي، تاركين للعيون الدامعة أن تقول ذاتها. تعانق الرجلان، وقبّل جهاد الطفل، وشدّ على يد الأم. فعل كل ذلك بسرعة، فراراً من مأتمية الموقف، وكيلا تتجدد اللوعة وينفجر البكاء. ثم ألقى بجسمه في أول سيارة صادفها، طالباً من السائق أن يوصله إلى الفندق، وغادر عمر وامرأة أخيه وطفلها المقبرة إلى فندقهم أيضاً، بانتظار الطائرة التي ستقلهم إلى بلدهم، وليس معهم من الراحل سوى قميص، وبنطلون، وحذاء، وذكرى أليمة، وصفحة مطوية، وحكاية يتداولونها لبعض الوقت، ثم يلفها النسيان ككل شئ في الحياة.

كان جهاد بحاجة إلى بعض الراحة، إلى الاغتسال وتناول فنجان من القهوة، والانتظار حتى يستعيد وضعه الطبيعي، قبل أن يذهب إلى

المستشفى، حيث ابنته تنتظر، وقد أقلقها من غير شك غيابه الطويل، وحيث ليديا وأمها، والجو الخانق، الضاغط، الذي عليه أن يتحمله إلى أن يحين، ليلاً، موعد انصرافه، فيهرع إلى غرفته، ويتناول كأساً، ويدخن، ويرتب أفكاره المشوشة على مهل.

لقد فرغ الآن من إبراهيم خليل النابلسي، فرغت منه عائلته أيضاً. ضمّه القبر والصمت والظلمة، صار، منذ ووري حفرته، نسياً منسياً. لن يزوره أحد، ولن يعرف قبره أحد، لأن فرداً من عائلته لن يبقى في لندن، وإذا جاءها زائراً فمن المشكوك فيه أن يتحمل عناء الزيارة، أو أن يجد الضريح الذي دفن فيه. عدم! الجثة عدم، وصاحبها عدم، وكأنه في هذه الرحلة العابرة في الحياة، كان مناماً، وانتهى الآن. استراح. لم تبق منه إلا ذكرى، ومع الأيام تبلى، فالذكريات، كالحيوات، كالأحلام، كالآمال جميعاً، تبلى، ويخلي المرء الطريق لمن بعده، في هذا التدافع الذي لا يني البشر يقومون به، في المسيرة نحو النهاية المحتومة.

إنه حزين، ما في ذلك شك. جهاد حزين حتى العظم، وربما تساءل: «على من كان يبكي، حين بكى؟ على الفقيد أم على نفسه؟» إنه، في المآل،يبكي نفسه الصائرة إلى ما صار إليه إبراهيم، لكنه يبكي ابنته أيضاً، ولا يستطيع، حتى عبر التأمل، أن يتصور أن الموت سيغمض عينيها الجميلتين، وأن الثرى سيضمها، وأنه سيفقدها إلى الابد. ما يعرفه عن موتها المقبل صليب يقطر ألماً، وسيظل مصلوباً عليه حتى ترحل، وبعد ذلك تمسي ذكرى، حالها إلى نسيان، كما حال الجرح الذي تخلفه إلى اندمال.

ترشّف كأسه على عجل، كان يريد أن يعود إلى المستشفى، ويريد أن يضع حداً لهذا التأمل الذي يلفحه كما تلفح الهاجرة ورقة خضراء مقطوعة. إنه مطالب بالتخلي عن كل هذا المظهر الكئيب، مظهر المشيّع الذي يعود من موكب التشييع، ومطالب بأن يتقمص شخصية

أخرى، بهيجة، ضاحكة سعيدة، متفائلة، ليس لاجل ابنته وحدها، بل لأجل المرأة التي تشاركها الغرفة أيضاً.

مارسيل ميشيل! هذا هو اسمها، وماذا يعني بالنسبة إليه؟ مجرد مريضة في غرفة ابنته، غير أنها مريضة مرضها نفسه، وتعرف أنها كذلك، وأن الموت يتربص بها. هذا الفارق البسيط، هو في الواقع فارق كبير، رهيب، وهو الذي يحدد، في الوقت الراهن، حالة كل من المريضتين المتجاورتين، فاحداهما،ابنته، تعتقد أنها شفيت، بينما الأخرى تعرف أنها ستموت، وهي لا تريد أن تموت، وتحاول أن تهرب من الموت، لكن إلى أين؟ من يستطيع الهرب من الموت؟ وكيف؟ وبأية وسيلة؟ إلى أي برج مشيد؟ ان طريق الهرب مسدود، ومارسيل تعرف ذلك، وترتعد خوفاً، بلغ بها أمس درجة الهسترة.

فكر في نفسه. فكر في موته. فكر بالطريقة التي سيتقبل بها الموت، وهز التفكير كل كيانه، رجّه رجاً، فألفى نفسه جزعاً حتى قبل أن تحين الساعة الرهيبة، ألفاها مرتعدة إلى درجة أنه وضع يده على عينيه، ليوقف تصور ما سيحدث له عند دنو أجله، متمنياً، في كثير من الضراعة، أن تكون ميتته مباغتة، كأن يتوقف قلبه فجأة، إثر نوبة قاصية، أو ينفجر دماغه، فيدخل في غيبوبة، أو يموت دون مرض طويل، دون مرض خبيث، يعرف نهايته سلفاً، كما تعرفه السيدة مارسيل الآن. تذكر المثل الشائع «من وقعتنا لميتتنا» الذي كانت تردده أمه، أدرك ما يخفي من حكمة، مبعثها الخوف من الموت، وغايتها الراحة من طول المرض والاحتضار، وقال في نفسه: «إن في الامثال لحكماً بالغة» وقال في نفسه أيضاً: «يا لضعف الانسان أحياناً» وأضاف: «ما كنت أظن أنني ضعيف إلى هذا الحد.. اللعنة على هذه الأفكار التي يولدها المستشفى، والتشييع، وجو المرض الذي يعايشه الانسان» وبقدر ما صغر في عين نفسه، كبر الأطباء والممرضون في نظره، هؤلاء يعايشون المرض والموت كل يوم،

وينتقلون بيسر من جو المستشفى إلى جو البيت، ومن رؤية الاحتضار إلى حفلة ساهرة. إن أعصابهم قوية، أو أنها صارت كذلك بحكم الاعتياد، وهو يحسدهم، لكنه غير قادر، حتى بالاعتياد الطويل، أن يكون مثلهم، ولن يبلغ يوماً، لو كان طبيباً جراحاً، أن يفتح بطناً، ثم يذهب، بهدوء تام، لتناول الطعام.

خرج من غرفته مندفعاً، كأنما يسعى للخروج من أفكاره السوداء دفعة واحدة، مشى بخطى وسيعة. أخذ المصعد ونزل إلى الطابق الأول، وحين صار في الشارع، تنفس الصعداء، تنفس ملء رئتيه، ورأى إلى الدنيا بعين أخرى، متفائلة، شاعراً بأهمية الحياة، وضرورة العيش دون تفكير بالموت، ودون اضطرار إلى ملازمة المستشفى، كما يفعل هذه الأيام التي يعدّها أسوأ أيامه وأكثرها إزعاجاً وقتامة واضطراباً نفسياً. إن قلقه ينفي عنه النوم، ويعكر مزاجه الذي يحتاج، في الأوقات العادية، إلى استعادة صفائه بالمهدئات، وبكثير من الجهد النفسي.

أفاده السير في الشوارع، وشيئاً فشيئاً إستعاد صفاءه، وحين وجد نفسه في مصعد المستشفى نظر إلى وجهه في المرآة، مصطنعاً تلك الابتسامة التي أتقن رسمها، فاطمأن إلى أن أحداً لن يكتشف ما في نفسه، ولن يعرف أنه كان في تشييع مواطن له، أو يكتشف آثار الدمع على وجهه الذي غسله جيداً. كذلك ساعدت كأس الويسكي في عدل مزاجه، فهو جاهز الآن للقيام بالدور الذي كتب عليه أن يلعبه، دور الرجل الخلي، دور الأب الذي أجرت ابنته جراحة ناجحة، وهي الآن في طور النقاهة.

دخل الغرفة دخولاً جريئاً، قدمه ثابتة، ووجهه مشرق، ابتسامته عريضة، ومضى، في خطاً خفيفة رشيقة، إلى ابنته فقبلها، معتذراً عن هذا التأخر القسري الذي اضطرته إليه مشاغل طارئة. بعد ذلك التفت إلى السيدة مارسيل، وإلى ابنتها ليديا، محيياً بكياسة، سائلاً عن الصحة، وعن نتائج الفحوص، مبدياً التفاؤل، متبادلاً مع ليديا نظرة

خاطفة، نظرة تساؤل عن حال أمها، وعما إذا كانت قد تحسنت عن يوم أمس.

كانت ابنته تبتسم، الالتماعة في قرارة العينين السوداوين، والشعر الغزير، الأسود، مسرح وملقى على الوسادة، وأثر خبر سار يلوح في وجهها، كأنما ينطق به قبل شفتيها.

قالت رنا:

ـ أخرجوني اليوم في نزهة!

صاح الأب:

ـ مرحى! إذن تمتّعت بوقتك جيداً؟

ـ كانت الممرضة لطيفة، والنزهة جميلة، لمدة ساعة تقريباً.

ـ أين؟

ـ في حديقة المستشفى، وفي الشوارع المحيطة بها..

ـ غادرت الكرسي؟

ـ ليس بعد.. قالت الممرضة إنني سأغادره في المرات القادمة.

ـ هذا خبر مفرح، معناه أنك في الطريق إلى الشفاء.

ـ لن أصدق بالشفاء قبل أن أمشي على قدمي.

ـ وهذا ما سوف يصير.. كل شيء في وقته..

ـ وعندئذ سأمشي وأمشي ولن أتعب.. اشتقت الى المشي.

ـ ستمشين من كل بدّ.

ـ وأنت إلى جانبي.

ـ أنا لن أفارقك.. سنتجول في الأسواق، ونشترى بعض الهدايا.

ـ بعض الثياب.. وقبل كل شيء سأشتري فستاناً للماما.

ـ في مسألة الثياب تعرفين أكثر مني، هذه متروكة لك.

ـ لكنني لم يسبق لي أن اشتريت ثياباً أو هدايا، خاصة من مخازن كبيرة كما في لندن.

ـ لدينا الوقت الكافي للتسوّق: وسننتقي ما يحلو لنا، ومايناسب الأهل والأقارب.

ـ أمي تقول إنك لا تحبّ التسوّق، لا صبر لك على الانتقاء والمساومة.

ـ هنا ليس من مساومة.. السعر محدود!

ـ هذا أفضل.. وأنت لن تكون ملولاً، هل تَعِدني؟

ـ أعدك.. أخاف أن تملّي من كثرة ما سأتجول معك.

ـ لن أمل أبداً.. سنزور كل معالم لندن.. أم أنك زرتها بمفردك؟

ـ لم أزرها.. أكاد لا أعرف من لندن إلا المنطقة المحيطة بالمستشفى.

ـ وأين تتغيّب إذن؟

ـ في قضاء بعض الأشغال.. الذهاب إلى شركة الطيران، وإلى المصرف، وشراء بعض الفاكهة، وزيارة صديق ما.

ـ زرت كل الذين أخذت عناوينهم؟

ـ ليس كلهم.. المسافات طويلة.

ـ الا تركب المترو؟

ـ ليس كثيراً.. لا أعرف المحطات.

ـ لكنك حدثتني عن اللوحات التي تدلّ الراكب على الجهة التي يريدها، والمحطة التي ينزل بها.

ـ جربت ذلك على خط واحد.. ولكن للمترو خطوطاً كثيرة متقاطعة.. غابة من خطوط!

ـ وأنت لا تعرف الانكليزية جيداً.

ـ أعرف منها ما يكفيني، وأتعلم كلمات جديدة كل يوم.

ـ لو كنت في باريس لم تكن هناك مشكلة..

ـ هذا صحيح.. لكنني، هنا أيضاً، أتدبر أمري.. أتفاهم حول الأشياء الضرورية.

قالها وتحول إلى السيدة مارسيل. كانت هذه خارج السرير. على

مقعد قرب النافذة. كانت تدخن كعادتها، وإلى جانبها ابنتها ليديا.. كانت هادئة قياساً إلى وضعها يوم أمس، لكن قلقاً لا يزال يراودها، فهي تنتظر نتائج بقية الفحوص، تنتظرها بغير كبير رجاء، ثم تعود إلى بلدها لتموت هناك ببطء، وبعد آلام لا تطاق. من أجل ذلك تبدو كأنها تودّع، تمسح بنظراتها الحزينة كل ما تطالعه، تسرح مع خيال أسيف، تفكر بابنتها، بهذه الدنيا التي ستغادرها على هذا النحو الفاجع، ويخفق قلبها من هلع، لكنها تتماسك، تتجلّد، تحاول أن تكون قوية، أن تبدو أمام ابنتها قوية، مستمدة من اليأس بعض الشجاعة، قائلة في نفسها: «وماذا بعد؟ كل الناس سيموتون، وكلهم سيواجهون ما سوف أواجه.»

سألها جهاد:

- آمل أن تكون سيدتي على ما يرام اليوم؟

- وكيف تراني أنت؟

- بخير.. وأرجو أن تكون الأخبار مطمئنة.

- ليس من أخبار.. لا أنتظر أخباراً سارة.. النتائج معروفة، لقد قضي علي.

- نتائج الفحوص لم تظهر كلها كما فهمت من الآنسة ليديا.

- وماذا في هذه النتائج؟ إنها معروفة.. قد يجرون لي جراحة في المعدة.

- هذا جيِّد إذن.. الجراحة تقدمت كثيراً في عصرنا، وعسى أن تكون ناجحة.

- تنجح في أي شيء؟ لو كانت ثمة قرحة لكان هناك بعض الأمل، ولكنه سرطان يا سيدي، سرطان خبيث ومتقدّم.

- قد تزيله الجراحة..

- هذا ما علي أن آمل به، ولكنني أشكّ.

- لماذا تشكّين؟

ـ لأنني أعرف أناساً أصيبوا به فقضي عليهم.
ـ قد تختلف حالتك.
ـ وحتى لو اختلفت، فإن ذلك يؤدي إلى إطالة العمر قليلاً.
ـ ولماذا لا يؤدي إلى الشفاء؟
ـ لأنه كذلك، ولأنني أعرف، ولن أحمل أملاً كاذباً.
ـ الأمل ضروري في كل وقت.
ـ وهذا ما يقولونه.. أما بالنسبة إلي فإنه كقطعة النقد الزائفة.
ـ كلنا، في التعامل مع الأمل، نحمل نقوداً زائفة أحياناً.
ـ هذا لا يفرحني أبداً.
ـ يطمئنك قليلاً.
ـ انتهت الطمأنينة.. إنني راحلة!

ساد الصمت المريب بينهما. صمت لان السيدة مارسيل تعرف مرضها، وتعيش حالة من اليأس الكامل بسببه، وصمتت لأنها قالت ما تعتقده. لم تأبه لشيء، لم تدار الموقف أو حالة ابنتها البائسة، جاهرت بما تعرف، وليديا على اطلاع على حالة أمها، لكنها تحاول، مثل جهاد، أن تكذب، في محاولة لإخفاء الحقيقة أو تمويهها، لذلك لم تقل شيئاً، لم تتدخل في الحديث، بدت كئيبة من جراء صراحة أمها، عاجزة أن تخفف عنها، أو تجعلها تنسى ما بها. وحين لاحظت الأم أن جهاد يشفق من هذا الكلام المخيف بالنسبة لابنتها، ندهتها إليها، ربتت على خدها، قبلتها، ضمتها بين ذراعيها، ولم تندّ عنها كلمة. لو تكلمت لبكت. الدمع يتحير في مآقيها، يبلل كلماتها، لهذا من الأفضل أن تظل ساكتة، وأن تكتفي باحتضان ابنتها وتقبيلها. صحيح أن حفلة الوداع لمّا تبدأ، لكن الذي يعرف أنه سيموت، لديه، كل لحظة، حفلة وداع، فلماذا تشذّ السيدة مارسيل؟

قالت موجهة كلامها إلى جهاد:
ـ كيف صغيرتك؟
ـ على ما يرام.. إنها سعيدة بالنزهة التي قامت بها اليوم.

ـ أرى ذلك.. حين تغيب ليديا تصير هي ليديا.. أتأملها، أحبها، وأذهب فاقبّلها دون أن أدعها تعرف السبب.

ـ أنت جدّ لطيفة يا سيدة مارسيل، أشكرك على ما تفعلين.

ـ هل كانت جراحتها في العمود الفقري ناجحة؟

ـ ناجحة جداً.

ـ تستطيع أن تتكلم معي بصراحة.

ـ أقول إنها ناجحة جداً.

ـ وفي قلبك؟

ـ سعيد بهذه النتيجة.

ـ لا أراك سعيداً في الأعماق.. أنت تمثّل.

ـ وما الداعي لذلك؟

ـ أنت تعرف.. وإنني جد حزينة لأجلها.

ـ هذا تفسير خاطئ.. ابنتي شفيت.

قالت بنبرة شك:

ـ آمل ذلك.. إنها في مقتبل العمر.

ـ وأنتِ؟ ألست في نضج العمر؟

ـ أنا عشت ورأيت.. لولا فراق ابنتي، ولولا وضعي الخاص، كنت أقل جزعاً.

ـ لا مبرر للجزع، صدّقيني.. تحدثت أمس مع الطبيب بخصوصك.

ـ وماذا قال؟

ـ لديه أمل في استئصال الورم.

ـ تماماً؟

ـ تماماً كما يعتقد..

ـ ألا يخادعنا؟

ـ وما مصلحته في خداعي أنا؟

ـ لست أدري.. إذا تم استئصال الورم فقد أعيش بضع سنوات، أعيش حتى تتزوج ليديا وأرتب أمورها..

ـ ستعيشين حتى تري أولادها..

ـ أتعتقد ذلك؟

ـ كل الاعتقاد.. ثقي أنني لا أغشك.

ـ أريد أن أثق... أريد أن يمنحني الله بضع سنوات، إنني أسأله ذلك.

ـ ولن يخيّب الله سؤالك.

قالها وهو يراقب وقع الكلمات عليها. لقد نجح في استدراجها إلى الأمل. كذبة أخرى؟ لا بأس! إنه، بعد كل شيء، يقرر واقعاً، فالجراحة، إذا ما كانت ناجحة، وتم استئصال الورم من المعدة، فمعنى هذا سنوات أخرى من العمر، أما هو فيكفيه، مقابل كذبته البيضاء، انه يمدها ببعض الأمل. إن ما تحتاجه الآن، هو الوثوق بأنها لن تموت غداً، وهي، من جهتها مستعدة أن تثق، أن تخدع نفسها، ما دام الإنسان، حتى في لحظاته الأخيرة، يظل يأمل بفرج ما. وكدليل على ذلك أشعلت سيكارة وراحت تسحب أنفاساً متتابعة، ولكن بتوتر أقل. إنها تفكر، تتساءل ما إذا كان عليها أن تصدق، وهل يحق لها أن تصدق، متمنية في أعماقها أن يكون ما يقوله جهاد صحيحاً، وأن يكتب لها أن تعيش سنوات أخرى.

قالت بعد صمت قصير:

ـ لننتظر إذن نتائج بقية الفحوص.

ـ مهما كانت النتائج، ومهما كان الوضع، فإن الجراحة أسوأ ما فيه، ونحن نتقبل هذه الجراحة، حتى لو لم يكن من شأنها سوى أن تعطينا بضع سنوات من العيش.. أليس هذا جيداً؟

ـ لا أستطيع أن أقول إنه جيد.. خطر الموت يظل قائماً. أبقى محكومة به، لكنه، كما تقول، قد يكون بعد أعوام، وهذا ليس سيئاً.. إنني أتقبله، بل أرغب فيه، إذا كان الشفاء التام متعذراً.

ـ هذا منطق سليم.. إنك، ياسيدتي، تغالين في تقدير الخطر.. بينما أراك أنا في صحة جيدة..

ـ لست في صحـة جيـدة.. أنني أتـألم، لكـن الجراحـة، إذا مـا نجحت، فقد تزيل الألم.. انني أعلق أملي، الآن على الجراحة المنتظرة.

ـ هذا جيد في ذاته.. إنه تقدم بالنسبة ليوم أمس.

ـ كلماتك أنعشتني قليلاً.. لك شكري القلبي، ودعائي لابنتك.

ـ ولك، أنت أيضاً، شكري الجزيل، فقد كنت لطيفة مع ابنتي طوال فترة غيابي.

ـ ليديا هي التي كانت تسلّيها.. كانت تتكلم معها عن أشياء سارة، بينما ابنتك تكتفي بالابتسام.

ـ ذلك أنها تفهم مايقال لها بالفرنسية لكنها لا تقوى على الإجابة.. تخجل ان يكون نطقها غير سليم.

قالت ليديا:

ـ كنا، أحياناً، نتفاهم بالإشارات.. ولكنك تأخرت، وكانت رنا ما تفتأ تنظر في ساعتها، قلقة عليك.

ـ حزرت ذلك.. لولاك لتضاعف قلقها.. شكراً على عنايتك بها.

ـ لم أفعل نصف مافعلته أنت.. حدثت ماما عـن عنايتك بي أمس!

ـ كان ذلك واجباً..

قالت الأم:

ـ كان ذلك لطفاً منك.. لقد تصرفت ليديا أمس برعونة، لأنها خافت علي، ولولاك كانت ستظل مسهّدة طوال الليل.

ـ نحن هنا لنتساعد.. إنني فرح لما طرأ من تحسن على صحتك اليوم.

ـ لذلك تستطيعان الانصراف باكراً.. أعني في وقت غير متأخر.. يجب أن تستريحا قليلاً.

ـ هذا متوقّف على مزاج ابنتي.. أليس كذلك يا رنا؟

قال العبارة الاخيرة بالعربية، وترجم لها ما تقوله السيدة مارسيل.

قالت رنا:

ـ كما تريد .. لكنني لم أشبع منك .. ألم تتصل هاتفياً بالأهل؟

لم يكن قد اتصل منذ أيام، مع ذلك أجاب:

ـ أتصل كل ليلة .. أحمل لهم أخبارك السارة .. حدثتهم عن نزهتك التي كانت مقررة اليوم.

ـ إذا اتصلت بهم الليلة، قل لماما إنني تنزهت وكنت سعيدة جداً، قل لها أن تقبّل أخي أيمن، وأخواتي، وتسلم على الجميع.

ـ سأفعل، وأقترح ان تكتبي لهم رسالة.

ـ سأكتب حالما أستطيع الجلوس في السرير .. لديّ يومياتي أيضاً.

ـ هذا جيّد، سأخرج قليلاً لأتحدث الى رئيسة الممرضات.

ـ أنت لن تنصرف قبل أن تراني، أليس كذلك؟

ـ لن أنصرف طبعاً .. أنا باقٍ حتى يحين موعد نومك.

ـ إذن اشكر رئيسة الممرضات على النزهة، وعلى لطفها معي.

قال مازحاً:

ـ سأقبّلها أيضاً إذا سمحت.

وصاحت به رنا وهي تضحك:

ـ هذه لا تفعلها، إياك ان تفعلها!

كان الانطباع الذي تكوّن لدى رئيسة الممرضات عن ابنته جيداً، إنها تستجيب للدواء، وتملك حباً كبيراً للحياة، وقد أفادتها النزهة كثيراً، لكنها لا تستطيع، لمدة اسبوع على الأقل، ان تبدأ المشي بمفردها. بعد ذلك ستتمرّن عليه يومياً، تمشي، في البدء، داخل الغرفة، ثم في الصالون، وفي المجاز، ويتوقف خروجها من المستشفى على نجاح التمارين اليومية، واندمال الجرح تماماً.

سأل متلهفاً:

ـ إذا نجحت التمارين، يصبح في وسعها ان تمشي دون عرج؟

ـ ليس تماماً .. أحسب أنها ستتمكن من السير بعد العلاج الشعاعي.

ـ وكم يدوم العلاج الشعاعي؟

ـ الطبيب هو الذي يقدر ذلك.

ـ وتتحسّن على العلاج؟

ـ لا بد أن تتحسن.

ـ وإذا توقف العلاج، أعني استكمل مدته؟

ـ هذا سؤال يجيبك عليه الطبيب الجراح.

ـ ومتى أستطيع أن أراه؟

ـ غداً قبل الظهر..

ـ تستطيعين تأمين موعد لي معه؟

ـ سأسأله ذلك، لكنك تستطيع ان تراه حين يعود مرضاه، في الساعة العاشرة.

ـ سيكون الحديث، عندئذ، على الماشي، بينما أرغب في جلسة صغيرة معه، أستوضح فيها عن كل ما يدور في ذهني.

ـ هذه الجلسة ممكنة مع معاونه، وهو الذي يفيدك عن كل شيء.

ـ لكنني أرغب في محادثة الدكتور سايمون بالذات..

ـ أغلب الظن أنه سيحيلك الى معاونه.. لا وقت لديه للحديث الطويل.

ـ لكن معاونه لا يعرف عن مرض ابنتي كما يعرف هو.

ـ بالعكس، معاونه هو الذي يعرف كل شيء، لأنه يشرف عليها مباشرة.. مهمة الدكتور سايمون تنتهي بانتهاء الجراحة.. ثم إن المعاون يتكلم الفرنسية.

ـ في هذه الحال سأكون في العاشرة من صباح الغد هنا.. لا بدّ ان أرى الدكتور سايمون..

ـ كن في هذا الوقت في غرفة ابنتك وستراه.

ـ أشكرك جداً، أنت لطيفة، وأشعر حيالك بالامتنان، وكذلك ابنتي.

ـ ابنتك رائعة يا سيدي.. لفتت جميع الأنظار بجمالها، وخاصة بعينيها السوداوين.

ـ هذا ما يقولونه لي عنها دائماً.

ـ لها عينان نادرتا الجمال.. اذا كانت لديها صورة فسأطلبها منها، وأحتفظ بها للذكرى.

قال بأسى:

ـ لن تبقى منها سوى صورتها، للذكرى فقط.

ـ لكن حالتها ليست بهذه الخطورة..

ـ أفهم.. سيكون لديها بعض الوقت، ستعيش قليلاً أيضاً.. ثم..

ـ لا أريـدك ان تيأس.. ابنتك في وضع جيد.

تحوّل عن رئيسة الممرضات وهو يشكرها، كان عاجزاً عن الاسترسال حول مرض ابنته. إن ذلك يؤلمه، وقد سبق له أن واجه مواقف صعبة كهذه. لقد بلغ أحياناً حافة اليأس، وشعر كأنه بلغ الطرف الأقصى من الحياة، فلم يتبق له سوى الموت، لكنه لم يبك. الآن، وأمام مرض ابنته، أمام موتها المؤكد، يكاد يبكي، متمنياً ان يفتديها، دون ان يجد، ولو للحظة، إمكانية تحقّق أمنيته. لذلـك، في الأماسي، حين يصبح وحيداً، كان يترك نفسه تسقط في الهوة، في الخواء، في اليأس المطلق، دون رجاء. وكلما تكلم مع أحد عن ابنته، وتذكر نهايتها الفاجعة، كان يقع تحت طغيان شعور كاسح بالتأثّر، فلا يستطيع استعادة هدوئه، تماسكه، اتزانه إلا بجهد بالغ، وبعد وقت غير قصير.

لم يعد إلى غرفة ابنته. ذهب الى غرفة الانتظار، ليستعين بسيكارة على وقف نوبة التأثر الكاسحة. هناك، في الغرفة، يكون في وسعه ان يذرف بعض الدمع، أن يذهب ويجيء، في محاولة لتهدئة أعصابه. لم

يعد يأبه لشيء، ولا يخاف أن يراه الآخرون وهو على هذا الجزع، المهم ألا تراه ابنته، وهذا حسبه.

وفي غرفة الانتظار لن تراه، وسيكون لديه الوقت لمغالبة تأثّره، غير أن الغرفة الفارغة ذكرته بما كان يود أن ينساه، ذكرته بالمرأة، زوجة المتوفى ابراهيم خليل النابلسي، وبطفلها، وكيف تركته على الأرض، لتكون الى جانب زوجها المحتضر، وكيف رآه هو، والتقطه، وهدهده، وكم عانى، ذلك اليوم، من ألم وهو يواجه ميتة وهيبة، ميتة رجل وحيد، غريب، يصرخ طالباً أن يعود الى الوطن، بينما هو يسير الى الموت.. ذلك أن من راح لا يرجع. الدرب الذي سلكه ابراهيم مسدود من وراء. لقد سقط في هوة العدم، فانقطعت أسبابه بعالم الأحياء، صار في الطرف الآخر، أصبح على ضفة النهر الثانية، ومن العبث مناداته، من العبث الصراخ أو البكاء كما تفعل زوجته. في أذنيه وقر. لم يعد يسمع، ولن يرجع، والطفل الذي في ميعته ملامح من أبيه، سيكبر غداً، وسيسأل عنه، لكنه أبداً لن يتذكر هذه الساعات التي كان فيها محمولاً على ذراعي رجل غريب، في مستشفى ناء، بينما والده يحتضر، وفي أنّاته، إيماءاته، توسّلاته، ما ينفطر له القلب، لو أن للموت قلباً.

- ٩ -

بعد قليل جاءت ليديا. كان قد هدأ شيئاً ما، تأثّره غاض، مفسحاً المجال لنوع من الذهول، أفاق منه بدخول الفتاة عليه.

قالت بنوع من الاستغراب:

ـ أنت هنا!؟

ـ جئت منذ قليل.

ـ وماذا قالت رئيسة الممرضات؟
ـ هي مسرورة من استجابة رنا للدواء، ومسرورة من تصرفها.
ـ ابنتك رائعة يا سيدي.
ـ هذا لأنك أحببتها.
ـ بل هي رائعة فعلاً.
ـ شكراً لإطرائك هذا.
ـ وشكراً لكلماتك اللطيفة مع والدتي.

وبعد وقفة:

ـ أتعرف؟ كلماتك أقنعتها كما لم تقنعها كلمات الأطباء.
ـ ذلك أنني كذبت عليها.
ـ كيف؟ ألم تتحدث مع الطبيب حول مرضها؟
ـ لم أفعل بعد.. كانت تبحث عن الأمل، عن بصيص من الأمل، وكانت كذبتي ضرورية.
ـ نعم كانت ضرورية.. غير أنني وجدت فيها منطقاً مقنعاً، أنا نفسي.
ـ هذا ما يسمونه الكذب الأبيض، وأرجو ألا يكون كذباً خالصاً، وأن تكون فيه حقيقة ما.. لقد قلت لها إن صحتها ستتحسن بعد الجراحة، وهذا لا يحتاج الى ذكاء، ولا الى مراجعة الطبيب، فما دام الورم في معدتها، يصبح من المرجح، إذا لم يكن من المؤكد، أنها ستخضع الى جراحة ما لاستئصال الورم، وفي هذه الحال، والى ان يخلف المرض، سيكون لديها وقت تعيشه، وهي لا تطلب أكثر من ذلك، آملة ان ترتّب أوضاعك خلال هذه المدة.
ـ ترتيب وضعي هو تزويجي في نظرها.
ـ هذا ما فهمته فوراً.. ومن أجل ذلك عززت الثقة في نفسها بأنها ستعيش وقتاً قد يمتد أعواماً بعد.
ـ وهل ترى أنت هذه الإمكانية؟

ـ لماذا لا ؟ أعرف مرضى أجريت لهم مداخلة جراحية عاشوا بعدها أعواماً.

ـ حين لا يكون المرض في موضع قاتل.

ـ الورم في المعدة ليس قاتلاً سريعاً، ما دام بالإمكان استئصال جزء منها.

ـ تقول ذلك عن ثقة ؟

ـ تماماً، برغم أنني لست طبيباً، وبرغم أن نتائج الفحوص لم تظهر كلها.

ـ يا لك من صديق طيّب!

ـ الحقيقة طيبة أحياناً..

ـ كل ما تريده أمي هو العيش بعض الوقت، وهذا ما أريده أنا أيضاً، اذا لم يكن ثمة إمكان للشفاء التام.. موت أمي هنا، في لندن، يرهبني.

ـ لن تموت أمك بهذه السرعة.. بعد الجراحة ستعود معك الى الوطن، وسيكون لديها وقت لتزويجك والاطمئنان عليك.

ـ لكن الزواج لا يتم بهذه السرعة. لا يمكن ان نضعه في سباق مع الموت.

ـ هذا يتوقّف عليك..

ـ بل يتوقّف على الآخر.. على الشاب الذي يتقدم للزواج مني.. أليس الوضع كذلك عندكم؟

ـ بلى! في زواج الفتاة، كل شيء يتوقّف على الآخر عندنا.

ـ أرأيت اذن؟

ـ لديك كل الحق.. ولكن اسمحي لي بسؤال حول شأن يعدّ من خصوصياتك: أليس عندك، هناك في الوطن، هذا «الآخر» الذي يحبك ويرغب في الزواج منك؟

ـ نعم، هناك من يستلطفني..

ـ أسأل عن الحب، وليس عن الاستلطاف فقط، أسأل عن الحب، بمعناه الكبير، الصادق.

ـ وكيف لي أن أعرف؟

ـ ألا تحبّين؟

ـ المسألة لا تتوقّف على حبي وحده، هناك حبّ الآخر كما قلت.

ـ هذا صحيح، وجود الآخر ضروري.

ـ وجود الأخرى أيضاً ضروري، أنت مثلاً، أليس هناك أخرى لديك؟

ارتعش، فاجأه السؤال، أحس، تحت جلده، دبيباً ناعماً حلواً، تذكر حبيبته التي هناك، في بلده. اعترف، في ذاته، أن ثمة «أخرى»، ولكنها قريبته، والعلاقة، بينهما علاقة حب عذري، لم يبلغ، وقد لا يبلغ ان يكون حباً من نوع آخر، قوامه الجسد. ذلك أنه، في نظرته اليها، يتسامى حتى لا يرفّ في خاطره ظل من السوء، وإذا كان لا يدري علام تنطوي نظرتها هي، فإنه يقدر، من تجربته، أنها لم تتجاوز، وقد لا تتجاوز أبداً، الطهر الذي يرتفع بالحب العظيم عن حضيض الشهوات. لكن سؤال ليديا ظل مع ذلك محرجاً، وعليه ان يكون صادقاً، وان يجيب بموضوعية تامة.

قال:

ـ على فرض أن هناك «أخرى» في حياتي، فأنا، بصفتي زوجاً، أختلف في نظرتي الى الحب، وقد أقرب الأشياء لكن لا أدنسها.. إن ثمة إعجاباً متبادلاً، وهذا كل شيء.

ـ الإعجاب لا يبقى إعجاباً، ينقلب الى حب، وقد صادف أن كان، في حياتي، إعجاب بشاب، لكنه لم يتجاوز حدوده، ظل، حتى الآن، إعجاباً مع الأسف.

ـ وماذا تتوقّعين؟

ـ لا أتوقع شيئاً، يمكن ان ينقلب الإعجاب بيننا الى حب، وقد يتوقف عند حدوده هذه، ويتلاشى..

ـ أنت مصيبة، كل الأشياء تتطور، لا يبقى شيء كما هو، فإذا لم يتطور، إذا لم يدخل في طور جديد، فقد نفسه ومات..

ـ اذن أنت توافقني؟.

ـ أنا من الذين يؤمنون بأن الأشياء التي تولد تموت أيضاً، كالأحياء تماماً.

ـ والحب شيء؟

ـ إنه إحساس متبادل، وهو، بهذه الصفة، شيء من أشياء النفس، يولد، يكبر، يموت.

ـ والحب الكبير، الخالد، كما نقرأ في القصص؟

ـ هذا حب نادر، لكنه، رغم ذلك، لا يبقى على حاله.. يتبدل، يصير حباً من نوع آخر.

ـ مثل ماذا؟

ـ حب قضية ما، فكرة ما، هواية ما، وفي حال الزواج، ينقلب الى حب الأولاد والأسرة..

ـ فكرت في هذا.. قلت إن الحب، بعد الزواج، يصبح حباً زوجياً، حباً للعائلة.

ـ هذا صحيح، تفكيرك، على هذا النحو، سليم، لذلك لا خوف على الحب من الزواج، وليس شرطاً، ان يكون الحب، بالضرورة، قبله.

ـ أنت لا تدفعني اليه رغبة في تحقيق أمنية والدتي، أليس كذلك؟

ـ أنا أقول ما أعرف، وفي مثل وضعك، يصبح الزواج ضرورة.

ـ أرفض هذه الضرورة، ولن أضع رقبتي تحت مديتها.

ـ قد لا تكون ضرورة، بل مصادفة سعيدة.

ـ إذا لم أحبّ فلن أتزوج.

ـ هذا ما يقوله أبناء اليوم.

ـ وأين الخطأ؟

ـ لا خطأ.. لكن الحب لا يأتي بقرار في أي مرحلة من العمر.. ثم هناك ما هو مهم: على المرأة ألا تنتظر طويلاً، وإلا فاتها قطار العمر.

ـ يا إلٓهي! أنت تتحالف مع أمي علي، تتبنى وجهة نظرها.

ـ لم أكن أدري أن هذه وجهة نظرها.

ـ انها تفكر على هذا النحو.

ـ وأين الخطأ في تفكيرها؟

ـ الخطأ أنها لا تقيم وزناً للزواج المبني على حب.

ـ لعل ذلك صادر عن تجربتها.

ـ نعم، هذا هو، إنها تجربتها البائسة.. أحبت أبي قبل الزواج حباً مجنوناً، وها هو يتركها ويرحل..

ـ لا بد أن نحترم تجربتها اذن!

ـ نحترمها ولكن لا نعمّمها.

ـ هذا صحيح من حيث المبدأ.. التجربة الفردية لا تصير، بالضرورة، تجربة جماعية، ولكنها تجربة حياتية، وينبغي الإفادة منها.

ـ لن أستفيد من تجربة غيري.. أنا أنا، أعني لست أي فتاة أخرى، ولا أي امرأة أخرى، ينبغي ان تكون لي تجربتي الخاصة.

ـ وفي الحال التي أنت فيها؟

ـ أصر على تجربتي الخاصة، حتى في الحال التي أنا فيها.

ـ أوافقك على ما تقولين.. لست ضد رأيك، لكنني أفكر: أليس في قولك هذا بعض الأنانية؟

ـ لتكن..

ـ ما دامت هذه مشيئتك فلا سبيل إلى الاقتناع بغيرها.

ـ لكنني أرغب في أن تطمئن والدتي.. أنا لا أستطيع ان أدير ظهري الى رجائها وهي تموت.

ـ وأنا، في كلامي كله، أنطلق من هذه النقطة.

وبعد وقفة:

ـ إنه رجاء امرأة تواجه الموت!

ـ أعرف، أقدر، لذلك فأنا معذّبة مرتين: الأولى لأن أمي تموت، والثانية لأنها ترغب في تزويجي قبل موتها..

ـ لندع الأمور رهن المستقبل..

ـ لكنه مستقبل غامض، مشوّش، لا يدعو الى الاطمئنان.

ـ هناك إمكانية وحيدة للخروج من المأزق.

ـ ما هي؟

ـ التضحية!!

ـ التضحية؟ هِمْ! التضحية تقول؟

ـ نعم التضحية وليس غيرها.

ـ كنت أفكر في هذا.. وصلت الى هذه النتيجة، لكنني لم أعتمدها بعد.

ـ أنا لا أطلب منك اعتمادها.. لكنني أضعها كاحتمال.

ـ إنه احتمال صعب، لكنه غير مستبعد، غير مستبعد أبداً..

ـ لعل مصادفة سعيدة تجعله غير مستبعد بصورة نهائية.

ـ أشك في وقوع مصادفة من هذا النوع.

ـ المصادفة كالمعجزة، لا تأتي وحدها.. ينبغي ان نساعدها نحن.

ـ فهمت.

ـ اذن لنكفّ عن هذا الحديث.. هيا الى مريضتينا.

ـ اسبقني قليلاً.. أرغب بالانفراد بنفسي.

سبقها..

قال في نفسه: «اقتراحي بلبلها. ستفكر فيه. سترتعد حين تفكر فيه، لكنه الوحيد الذي يحل الاشكال، الوحيد الذي يحمل الاطمئنان للأم، ويسمو بعاطفة الابنة. حين تضحي ترتاح. تشعر أنها أقدمت

على فعل غير عادي، تغدو المصاعب، على فرض أنها ستصادفها، مُسوبة سلفاً، فلا يصطدم بها مصيرها بشكل فاجع.. التسامي الذي تولده التضحية سيكون قميناً بامتصاص الصدمة حتى في حال وقوعها. هكذا تكون ليديا متهيئة نفسياً، وهذا أفضل من المباغتة. قد تكون التضحية قاسية، لكن تخييب أمل الأم، في وضعها الراهن، سيكون قاسياً أيضاً. ثم ماذا في ذلك؟ قد يكون زواجها، حتى ولو لم يسبقه حب، ملائماً، مريحاً، وقد تُسعد به.. الحب يأتي تالياً، ومهما يكن، فإن التضحية لا تذهب هدراً، ويكفي شعور التأسي لكي يكون مصدراً للاعتزاز، ومصدراً للإحساس بنبالة ما نقدم عليه، نحن لسنا أمام حركة مسرحية من تراجيديات الاغريق، حيث الموت، أو التنازل، أو الاعتزال، أو كل هذه المعاني التي تجتمع في التضحية، تشكل سبباً للارتفاع عن خساسة الحياة.. نحن حيال واقع، هو في نفسه مأساة، وكل دورنا، في التخفيف من وقعها، ان نجعل الذي نضحي لأجله سعيداً على نحو ما».

ارتاح لهذا الحل. هو نفسه مستعد للتضحية، لو أن تضحيته تسعد ابنته التي ستموت بدورها. بل هو على استعداد، في ما يستشعره من قدرة على التضحية، ومن السمو الذي تنطوي عليه، ان يقدّم نفسه بديلاً، وان يتقبّل الموت عوضاً عن ابنته، لو أن الموت، ولمرة واحدة، يرضى بمثل هذه الصفقة. إن ذلك كان جديراً بأن يبهجه، فهو، رغم كل شيء، إنسان عاش حياته، وما تبقّى يهبه لإطالة عمر ابنته.. لكن الأشياء لا تصير على هذا النحو. الموت، هذا الوحش الشرس، لا يسحب مخالبه التي غرسها في عنق ضحيته، لا يبادل، لا يرحم، لا يقبل مساومة. ما تبقى هو ان يسعد ابنته بأي شكل، أن يفعل كل ما يرضيها، ولو أن لها حبيباً، ونأى عنها في مرضها، لذهب اليه، وركع أمامه، طالباً منه، ان يعود اليها، وان يتظاهر بحبها، حتى ولو كان لا يحبها. إنه، كأب، في النقطة التي بلغتها

المفاداة، سيفادي بكل شيء، فإذا لم يكن ذلك كافياً، فسوف لن يرد لها طلباً، سيجعلها تعيش، ما تبقى لها، بشعور من الراحة، والاطمئنان، والسعادة إن أمكن.

توقف عن ذرع المجاز بعد خروجه من غرفة الانتظار. كان مهتاجاً من أثر هذه الأفكار. وربما كان عليه، وهو في المستشفى، ألا يستدعيها، ان يدعها، يتجاوزها، يلجمها بشكل ما. غير أنه، في حساسيته المفرطة، يقع في مطبها دائماً. تغلبه، تبهظه، فيرضخ لها، ينفعل بها، ويبدو التأثر عليه، حتى ليود ان يهرب من المستشفى كله، فلا تقع عيناه على عيني ابنته المسكينة التي تنتظر أوبته اليها بفارغ صبر.

جاءت ممرضة وأبلغته أن ابنته تطلبه.. رجاها ان تبلغها أنه قادم، ولن يتأخر أكثر من دقائق أخرى. ولم يتأخر، لكنه تأنى، وبكل ما يملك من عزم عمد الى تهدئة شجونه، وحين توصّل الى شيء من ذلك، وطالع وجهه في مرآة المجاز، ارتاح نوعاً ما الى نجاحه، فاصطنع من فوره تلك الابتسامة التي اعتاد اصطناعها، ودخل الغرفة وهو يقول:

ـ ها قد جئت، ولن أغادرك حتى موعد النوم..

ـ ولكنك تأخرت كثيراً..

ـ ذهبت أبحث عن الطبيب، لعله يفيدني بشيء عن تحسن صحتك..

ـ عن الطبيب أم عن رئيسة المرضات؟

ـ هي التي أحالتني الى الطبيب.

ـ وما رأيها هي؟

ـ رائع.. تقول إن تقدم صحتك نحو الشفاء مدهش، ولكن رأي الطبيب يظل ضرورياً.

ـ ومتى سترى الطبيب؟

ـ ما دمت قد فشلت في العثور عليه اليوم، فإن علي أن أحادثه غداً، في مكتبه أو هنا، عندما يقوم بجولته على المرضى..

ـ وإذا كان رأيه جيداً، أعني إذا كنت أتقدم نحو الشفاء، ولا ضرورة لبقائي في المستشفى، فهل تسأله متى نغادره؟

ـ هذا بالضبط ما أريد معرفته.

ـ وفي هذه الحال نسافر الى دمشق، أم نبقى فترة أخرى؟

ـ هذا ما سوف يتضح بعد أخذ رأي الطبيب..

ـ آمل ان يأذن لنا بمغادرة المستشفى وبالسفر.

ـ مغادرة المستشفى ممكنة، أما السفر فهذا شيء آخر، لماذا تستعجلين؟

ـ لأنني اشتقت الى ماما، وأخي الصغير..

ـ وأين وعودك بالتعرف على معالم لندن، وشراء الهدايا؟

ـ يمكن إنجاز كل ذلك في يومين أو ثلاثة.. ثم ماذا نخسر إذا نحن لم نر لندن جيداً.. هل هذه آخر مرة أزورها؟

ـ لا بالتأكيد.. سنزورها في المستقبل.

ـ أنا سأزورها من كل بد.. أشتهي أن أزورها وأنا بصحة كاملة.

ـ وهذا ما سوف يصير.. قد تزورينها مع زوجك مثلاً.

ابتسمت بحياء، قالت:

ـ لا تقل هذا، لن أفكر بالزواج قبل إتمام الدراسة الجامعية.

قال الأب:

ـ وأنا موافق.. وقد تأتين اليها للاختصاص..

ـ من يدري؟ قد اختص في باريس.. أنسيت أن لغتي هي الفرنسية؟

ـ في هذا معك حق.. ولكن ما هي المسافة بين باريس ولندن؟ تكاد لا تذكر..

- مهما يكن.. سأزور لندن في المستقبل، وسأمر على المستشفى للزيارة فقط، وسأذكر هذه الأيام.

- ستذكرينها من غير شك، فالمريض، بعد شفائه، يذكر أيام مرضه كما يذكر السجين أيام سجنه.

- يذكرها بمرارة؟

- ليس بالضرورة.. كل ما هو مكدر يترسّب في الأعماق، فلا يبقى على السطح سوى الذكريات الطيبة.

- ما أظن ذلك، ليس في المرض سوى الذكريات الكئيبة.

أضافت:

- أما أنا فستكون ذكرياتي سعيدة.. كل الآلام تنسى لمجرد أن يُشفى الانسان، أنا نفسي نسيت آلامي عندما شفيت.

- ما أجمل ما تقولين!

- ألست أقول الحقيقة؟

- تماماً!

- أنت لا تشك في أنني شفيت، أليس كذلك؟

صاح بنبرة تعجب:

- وكيف أشك؟ ولماذا أجرينا الجراحة إذن؟

أضاف بعد وقفة:

- ما أعظم فرحي بالنتيجة! ما كنت أصدق أنك ستشفين.

- كيف؟ ولماذا جئنا الى لندن إذن؟

- أفهمك تماماً.. نحن لم نتحمل مشاق السفر، وآلام الجراحة، إلا من اجل الشفاء، وها هو الشفاء، حمداً لله، قد تحقق، لكنني لا أنكر، كأب، أنني كنت في البدء مشفقاً، خائفاً، نهباً للهواجس، كما البحّار في العاصفة، والآن هدأت العاصفة، زالت مخاوف البحّار، انقشع الغيم، صحا الجو، وبانت زرقة السماء، واطمأن الى السلامة.

ـ هل كنت في البحر يوماً ؟ وهل صادفتك العاصفة ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأنك تصف الأشياء، بعد انتهاء العاصفة، وصفاً جميلاً، كأنك عشتها.. أم أن هذا لأنك كاتب ؟

ـ ربما لأنني كاتب، ولكنني عشت العاصفة، عشتها حقاً، وخفت وأنا في قلبها.. نعم خفت، وأقول ذلك بصراحة.. العاصفة مخيفة الى حدٍّ لا يصدق، وقد سررت عندما هدأت، وأيقنت أننا نجونا. كان ذلك في البحر، ومنذ زمن بعيد.

قاطعته:

ـ لا بد أن عاصفة مماثلة صادفتك على البر هذه المرة، حين علمت بمرضي، وحين رافقتني الى هنا في طلب العلاج، ولعل ذروة العاصفة كانت حين كنت في غرفة الجراحة، أليس كذلك ؟

ـ أنت شديدة الفراسة، شديدة الذكاء يا رنا.

قالت وقد سرها الإطراء:

ـ ربما، ربما، ولكن هل يحتاج الانسان إلى ذكاء ليكتشف أنك واجهت عاصفة من الآلام وأنا في غرفة الجراحة، بين الحياة والموت ؟ ما أقوله أعرفه. قرأت كثيراً برغم صغر سني. وقرأت، خاصة، رواياتك عن البحر، أفهمك جيداً،لا تستطيع ان تموّه الأمور علي. في دمشق كنت قلقاً، متوتّراً، حزيناً، ورافقك القلق طوال الرحلة، رغم الابتسام الذي تظاهرت به. وعندما علمت أن جراحة ستُجرى لي، تضاعف قلقك، ولم تطمئن إلا بعد نجاح العملية، وبعد تماثلي للشفاء. هذا ما عرفته عن مراقبتي تعابير وجهك. لك قسمات كشاشة السينما، ينطبع عليها كل ما تستشعره في أعماقك.. أنت صادق، عرفتك صادقاً دائماً.. وإذا سمحت لي قلت إنك ممثل فاشل. أنت لا تحسن التمثيل، وفي الأيام الأولى لوصولنا، وقبل الجراحة وحتى بعدها،

كنت مضطرباً، وعبثاً حاولت إخفاء اضطرابك.. لقد اكتشفته، وأحسست، لذلك، بالخطر.

قاطعها:

- وكيف تجدينني الآن؟

- زال قلقك.

- هذا بسبب اطمئناني الى شفائك.

- آمل ذلك.

- بل تأكدي منه..

- أحياناً أبدو متأكدة.

- تأكدي في كل حين.

- إلا حين أراك صامتاً.. صمتك يحرك الشك في نفسي.

صاح وهو يضحك:

- علي اذن أن أكون ثرثاراً، وهذا ما لا أستطيعه.. أنت تذكرين، أو يجب أن تذكري، كيف كانت حالي قبل مرضك، خاصة حين تكون أفكار ما في رأسي، أريد كتابتها، يقيناً أنني أكون، في تلك الأوقات، صموتاً، مفكراً، ولن تكابري في هذا، أليس كذلك؟

- لا أكابر.. تكون في أفضل حالاتك عندما تخرج من مكتبك، وقد وفقت الى كتابة ما تريد، عندئذ تكون قد تركت الكتابة والتفكير والقلق وراءك. نسيتها جميعاً. وفوراً تنحل عقدتك، تستريح، تعود أنت، تشرب، تتكلم، تضحك، فنعرف نحن، أمي وأخواتي وأنا، أنك أنجزت عملاً طيباً.

اقترب منها. ربّت على خدها. قال بصدق، ولكن بغير قليل من الأسف:

- يا لدقة ملاحظتك! أنت نبيهة يا رنا.. نبيهة حقيقة.. تصفين حالي جيداً، كأنك تقرئين في صفحة.. إنني، قبل الكتابة وبعدها،

أكون تماماً كما تقولين، وكنت أحسب أن أحداً لا يلاحظ ذلك، وربما لم يلاحظه احد بهذه القدرة الفذة على الفهم.. أعترف. شخصيتك حادة، ونظرتك عميقة، صائبة، كأنك تملكين قدرة على تحليل النفس.. أنا سعيد بك، بل أنا فخور، وأعترف أن ما قلته صحيح، فالقلق يلازمني قبل الكتابة، وكذلك الخوف، إنني، كما قلت سابقاً، أخاف الورقة البيضاء أمامي على المكتب.. الكتابة، يا حبيبتي، مهنة شاقة، وانني أشقى بها فعلاً!

ـ لكنك لا تستطيع تركها رغم ذلك.

ـ لا أستطيع..

ـ معنى هذا أنك سعيد بها.

ـ نعم أنا سعيد وشقي بها في آن واحد.. وهذا الصمت الذي يلازمني، قبل مباشرة العمل، هو من طبيعتي، لذلك كوني مطمئنة اليه، فصمتي، أحياناً، هو عادة، عادة هي طبيعة ثانية، لا تعني سوى أنني أفكر بشيء ما يتعلق بالكتابة.

ـ لكنك هنا لا تكتب.. جرّب إذن ألا تصمت.. تكلم معي، تكلم دون توقّف. قل أي شيء. كل ما تقوله يسليني، يبعث السعادة في نفسي، ينفي شكوكي، يعزّز ثقتي بنفسي وبشفائي.

ـ سأجرب ذلك رغم أنه صعب.. يا الهي! من أين آتي بكل هذا الكلام الذي لا أعرف كيف أخترعه؟

ـ كن مسروراً تخترع كلاماً كثيراً، قصصاً جميلة، أعرفك، لا تحاول ان تخدعني.

ـ لن أخدعك أبداً.

وبعد وقفة:

ـ هل خدعتك يوماً؟ بل هل خدعت أحداً من العائلة يوماً..؟

ـ أنا واثقة أنك لم تفعل، ولهذا أصدق تماماً قولك إنني شفيت، وأفرح به.

ـ وفرحي لا يقلّ عن فرحك.. أنـا أعطيـك علامـة جيـدة في التحليل النفسي.. وعلى فكرة، لماذا لا تتخصصين في الطب النفسي مستقبلاً ؟

ـ لا أريد التقيد بشيء محدد مسبقـاً. لـدي البكـالـوريـا الآن، وبعدها دراسة الطب، ثم يأتي وقت اختيار التخصص.

كان يتكلم ويفكر. يقول قولين في آن: أحدهما لها والآخر لنفسه. لقد أدهشته، فوق كل دهشه السابق، أن وراء كلامها عن شفائها يكمن شك. إنه ليس شكاً صريحاً، لكنه نوع من توجّس، مردّه ما يـرفّ، أحياناً، على وجهه من ظلال الحزن الذي لا يرى، لكنها تراه.. بعينها اللماحة تراه، تكتشفه بحاستها المرهفة، تلحظه في صمته الذي لا يكاد يحس به، ولا يدركه، لأنه مثلها، يكره الصمت الذي يكشفه، فيروح يثرثر طوال الوقت، حتى إذا حدث وتوقف لحظة، وبان تفكير ما على وجهه، بدا ذلك الهم الذي حسبه خافياً.

قال في نفسه، وهو يضحك لها، ويتكلم معها دون توقف: « علي أن أكون حذراً. كل ما بنيته قد ينهار لمجرد أنها تشك في مصداقيتي عن شفائها. يجب مراقبة نفسي، ومراقبة حركاتي، وكلماتي، ومسح كل أثر للقلق، للحزن، مهما يكن بسيطاً، لأنه قد يتبدّى، دون إرادة، على وجهي، أو في نبرة صوتي. لقد نجحت، حتى الآن، في إقناعها أنها شفيت، وعليّ تعزيز هذه القناعة، عليّ إظهار البشاشة، والفرح، والكلام بغير انقطاع، ورواية الأخبـار، عما رأيتـه، ومـا سمعتـه في يومي، وعما كان في حياة العائلة، وعن أشياء أتذكرها، أخترعها... وبكلمة، عليّ أن أمثل بإتقان أكثر، إلى أن أجعلها تصل الى قناعة لا يخالجها وسواس في شفائها التام ».

كان يفكر، على هذا النحو، تفكيراً قليلاً، خاطفاً، متقطعاً، دون ان يكفّ عن الابتسام، عـن الضحـك، عـن إبـداء التعجـب، اصطناع الدهشة، إظهار الاعجاب، بكل ما يصدر عنها، وبكل ما

ينطرح، خلال الحوار، من أشياء تبرر مثل هذه الحركات التمثيلية. عليه ان يجاريها وهي تتحدث عن مستقبلها، حتى ولو كان الكلام مكرراً. المهم ان يتكلم، وأن يتجنب الصمت، هذا الذي اشتاقه، الذي أصبح يحن اليه، يريده، يتطلبه، ولا يستطيعه، أو يجب ألا يقاربه إلا في عزلته بعيداً عن غرفتها، بعيداً عن مرمى نظرها، في خلوة يحلو فيها التأمل، لا لأنه حلو، بل لأنه مشتهى، كي يرتب مشاعره التي تضطرب ما دام موجوداً معها، فيبذل طاقته، بل ما هو فوق الطاقة، لإخفاء اضطرابه.

من جهتها، لم تنقطع عن الكلام، كان يسمعها ولا يسمعها، يجاريها مرغماً، مركزاً أقصى انتباهه على متابعتها، والرد عليها، والأخذ والعطاء معها، في وقت يأخذ ويعطي مع نفسه، منشطراً، على هذا النحو الصعب، الى شخصين، الى عقلين: ظاهري، وباطني، مستمعاً، وهو يتفطر أسى، الى كلامها عن مستقبلها، وعما تريد ان تفعله، بعدعودتها، وبعد حصولها على البكالوريا، ودراسة الطب، والتخصص، وافتتاح عيادة، في مركز المدينة.

قال:

ـ قد يكون من الملائم أكثر فتح عيادة في شارعنا، قريباً من البيت.

ـ لا أريدها عيادة جانبية.

ـ شارعنا ليس جانبياً، وليس خلفياً، إنه في منطقة القصور، والاسم وحده يعطي دلالته.

ـ هذا معقول أيضاً.

ـ بل هو معقول جداً.

وجاء صوت من الباب، مع دخول ليديا، وهي تقول:

ـ عمّ تتحدثان؟

ـ عن مستقبل رنا .

ـ كل هذا الوقت ؟

ـ الحديث مع رنا لذيذ ومتشعّب .

وبعد وقفة :

ـ تصوري يا ليديا ، رنا لا تريدني أن أتوقف عن الكلام .

وقالت السيدة مارسيل التي كانت تسمع ما يقال :

ـ وأنت لم تتوقف.. وأنا صامتة ، بانتظار عودة ليديا .

قالت ليديا :

ـ ها قد عدت.. دخنت قليلاً ، واسترحت ، وثرثرت مع الممرضة .

ـ حول مرضي ؟

ـ بل حول عملها في المستشفى..

ـ وأنا ؟ ألست في المستشفى ؟

قال جهاد :

ـ لكن الحديث عنك انتهى.. تقررت الجراحة ، فماذا تريدين بعد ؟

ـ أريد ، يا سيد جهاد ، أن أعرف ماذا ستكون نتيجة هذه الجراحة ؟

ـ ستكون خيراً.. لقد تحدثنا في هذا .

ـ أريد مزيداً من الحديث لأصل الى مزيد من الاطمئنان .

ـ كوني مطمئنة..

وقالت ليديا :

ـ اجل ! كوني مطمئنة ، فالجراحة ناجحة باذن الله . ثقي به ، ثقي بالأطباء ، وكوني مرتاحة ، أريد أن أغادرك وأنت مرتاحة ، فهل أفوز منك بوعد ؟

قالت السيدة مارسيل وهي تغالب هواجسها :

ـ سأكون مرتاحة، بل انني مرتاحة، كلام السيد جهاد مقنع، وأرغب في أن أبقى على قناعة به، وأحاول أن أنام هادئة الليلة.

عندئذ انحنت ليديا عليها وقبلتها :

ـ يا حبيبتي يا ماما.. كوني هادئة، فالله يرى ويسمع، وسيأخذ بيدك.

ـ إنني أدع نفسي بين يديه.

وبعد وقفة قالت لابنتها :

ـ وأدعك، أنت أيضاً، لتستريحي، يكفي ما قلقت ليلة أمس.

ـ هذا لا شيء، قلقي لا شيء، المهم أنت، آمل في نوم مريح يلازمك حتى الصباح.

ـ سأنام.. لم أعد خائفة.. أعني سأجرب ألا أكون خائفة، وأن أنام، ولكن ليس الآن، الوقت ما زال باكراً.

ـ لكن الوقت ليس كذلك بالنسبة الي، قالت ليديا، لا يسمحون ببقائي اكثر.

قال جهاد :

ـ وأنا كذلك مضطر الى الانصراف، انتهى وقت الزيارة.

ـ في أي ساعة نحن؟ (ونظرت في ساعتها) آه، أصبحنا في التاسعة، كم يمضي الوقت سريعاً عندما تكونان هنا؟

ـ في النوم يمضي الوقت أسرع..

ـ صدقت يا سيد جهاد، ولكن النوم لا يأتي بسهولة.

ـ الليلة سيأتي.. حان وقت النوم (وموجهاً الكلام إلى ابنته) أقول حان وقت النوم، أليس كذلك يا رنا؟

ـ ما دامت الساعة هي التاسعة، فهذا هو موعد النوم، يمكنك الانصراف يا بابا.

ـ أنصرف وأنا مسرور .. فقد كان يومك جميلاً .

ـ أجل قضيت فيه نزهة جميلة ، وأرجو ان أحلم أحلاماً جميلة ، مع السلامة .

سار الأب نحوها . انحنى وقبّلها . ربّت على وجنتها ، مسّد شعرها ، ابتسم لها ، سألها ما إذا كانت تطلب شيئاً ، بعض الفاكهة مثلاً .

ـ لدي فاكهة ، وسكاكر ، وقد تناولت عشائي بشهية ، وتحدثنا حديثاً طيباً . كن مطمئناً من جهتي .. اذهب ، اذهب .. ها هي الممرضة تقف في الباب وتشير اليك بأن موعد الانصراف قد حان .

ـ هذا صحيح ، تصبحين على خير .. وقال بالفرنسية : هيّا يا ليديا !

قبّلت ليديا أمها ، استأذنتها بالانصراف ، وتراجعت الى وراء وهي تنظر الى أمها وتبتسم ، وقبل أن تستدير أرسلت لها قبلة اخرى في الهواء ، وتمنّت لها ، ولرنا ، ليلة سعيدة ، وسارت نحو الباب ، هي وجهاد ، وبخروجهما أغلق الباب ، ثم لم يلبث الضوء أن انطفأ ، بينما كان المصعد يهبط بهما وهما صامتان .

- ١٠ -

استقبلا هواء الليل اللاذع البرودة بانتعاش ، كان الجو صحواً ، بعد يوم مشمس ، من أيام نيسان الربيعية . وكانت الأضواء تشع في كل مكان ، وضجيج الحركة ، في الأسواق القريبة ، يسمع واضحاً ، وكانت السماء ، في هذه الليلة من أواسط نيسان ، خفيفة السحب ، وبعض النجوم يبين كقناديل واهنة ، بعيدة ، عالية ، معلقة بالقبة البللورية المكورة ، في جو استثنائي من أجواء لندن الرمادية .

سارا جنباً الى جنب . كان جهاد سعيداً ، تلك السعادة التي عرفت ،

على طريقتها، كيف تزيح حزنه موقتاً، وتبعث فيه الراحة، لأن يوماً آخر أليماً، موجعاً من أيامه في لندن قد انقضى. بذل جهداً غير يسير، كي ينسى كل ما مر معه خلاله. نحّى عنه ذكريات الصباح، والدفن، والجثة التي ترقد الآن في المدفن العام وصورة الأخ، والمرأة وطفلها، وكل تلك الرؤى الفاجعة التي طالعته، كما نحّى عنه ذكريات ليلة أمس وما أحدثته ليديا، بسبب خوفها، من ارتباك، ومن نوم مسهّد، في غرفتها التي شهدت جزع فتاة يافعة، هزت عاصفة الخوف مشاعرها كما تهز أغصان شجرة يانعة.

الليلة إجازة، استقال من همه وتعبه كليهما، سيطر على أعصابه، مستفيداً من الليل، والبرودة، والصحو، والنجوم، وصمت ليديا الى جانبه، وقرر أن يلوذ بالسكينة الداخلية التي تبعث إحساساً مريحاً في نفسه، راغباً عن الحديث حول كل ما يتصل بالموت، والمستشفى، والمرض، والقلق على ابنته التي أفزعه الحديث معها، إذ نبهه الى أنها ليست غافلة عما حولها، وليست واثقة، بعد، بالشفاء التام، وقد اكتشفت بفراستها العجيبة ما وراء صمته، وانتبهت الى لمحات الصمت السريعة، وأدركت أنها لمحات غير طبيعية، كأنما هي عرّافة صغيرة، تطالع في الودع الذي تنثره على الأرض، أن والدها ينطوي على سر، وأن هذا السر يتعلق بها هي، بجراحتها، بصحتها، وبحقيقة شفائها، وبمحاولاته التمثيلية الفاشلة لإدخال الطمأنينة الى قلبها، المحاولات التي كان يظن أنه أتقنها تماماً، فإذا ابنته تصارحه بأنها تلاحظ ما فيها من تمثيل.

كانت ليديا، خلال السير المتأني، تبطئ الخطا متعمدة، متمنية ان يطول مشيها عبر حديقة المستشفى، وان يتكرر، جيئة وذهاباً، في المجازات بين مربعات ومستطيلات الزهور، وبين الشجيرات والأشجار، متنسمة ملء رئتيها الشذى الطيب، الفواح، مستشعرة لذعة البرودة الربيعية بلذة، محترمة صمت صديقها، حريصة على تبادل

الفكرات معه بغير كلام، طالما كانت تعرف أنه يفكر، مثلها، بيومه، وحال ابنته، وحال أمها، وجو المستشفى وليلة أمس، بكل ما فيها من جنون الخوف الذي ألم بها.

هي الآن هادئة. هدوء أمها طمأنها، أو أنها أفادت منه لتهدأ بدورها، ولتنسى كل ما مر معها نهار أمس، مستبعدة، بإصرار، صور الهياج الأليم، الباكي، الذي انقلب الى نوع من هيستريا، كأنما غيلان ذات أشكال مرعبة كانت تتراقص أمام أمها التي تخاف الموت خوفاً رهيباً.

تذكرت ما قاله جهاد من أن تلك الحالة كانت نوبة جنون، ارتعاد حقيقي أمام خطر فناء ماثل، تصيب الإنسان وهو يواجه فكرة العدم القاسي، وتتراءى له ظلمة القبر، تحت طبقات الثرى، في وحدة قاسية، شديدة القسوة. ثم فكرت بقوله إن ذلك لا يعدو الوهم، ما دام الميت لا يحس شيئاً بعد الموت، ومع ذلك فإن المحتضر، أو الذي يواجه الموت، أو يدرك حقيقة مصيره وفنائه، لا يعود يفكر بحقائق الأشياء، ولا بأن الروح، مذ تغادر الجسد، يغدو هذا جثة هامدة، بعيدة عن اللذة والألم كليهما، لأنها إلى انتفاء، وبانتفائها ينتفي الشعور، ويتساوى ما فوق الأرض وتحتها.

كانت الآن، في صمتها، تسترجع أقوال جهاد وتحاول ان تستوعبها جيداً، لأنها كلمات رجل وأب، وصاحب تجارب، يعرف أن الفزع عند الموت، هو أضعاف الفرح عند الولادة، ومهما يكن المرء جريئاً، فإنه يواجه النهاية بخوف شديد، إلا ان يكون قد تمرّس بشجاعة مواجهتها، وأدى دوره في هذه الحياة، وتقدم في العمر الى درجة أن عنصر الموت، أو نداءه الداخلي، قد نما في ذاته، وألفه لكثرة ما سمعه، وبات ينتظره انتظار المؤمن أو المتصوف. إن بعض النفوس، كما قال أيضاً، يستقبل الموت براحة، بإشراقة، بابتسامة

عذبة، فيرحل عندئذ آمناً مطمئناً، مستسلماً الى قدر لا فرار منه ولا فكاك.

لكنها تساءلت: «أيكون مردّ جزع أمي الى أنها غير مؤمنة كفاية، أو أنها ما زالت في نضج الشباب، ولم تشبع من الدنيا بعد، ولم تؤد دورها الحياتي على نحو ما ترغب، أو أنها تخاف علي، لأنها ستتركني وحيدة، أواجه الحياة بمفردي، دون أم، دون أب، دون عائلة، ومن هنا مبعث رغبتها في ان تعيش أيضاً، بضع سنوات أخرى، حتى تزوجني، وتطمئن الى مصيري؟» وأجابت قائلة بغير صوت: «في هذه الحال يكون جهاد قد وضع اصبعه على الجرح، على مصدر الألم والخوف، ونجح في تهدئتها حين أكد لها أن الجراحة ستزيل الورم، وحتى لو أخلف فإن ذلك يستغرق أعواماً، والى ذلك الحين تكون قد رتبت أموري، أو تم اكتشاف دواء ما لهذا الداء الخبيث الذي لا سبيل الى مقاومته في الوقت الحاضر».

انتهى تجوالها في الحديقة. جهاد هو الذي كان يتقدم، وهو الذي يحدد وجهة السير، ولا تفعل هي سوى أن تتعبه أو تحاذيه، ولو أنه أخذ يدها بيده لما مانعت، ولرضيت مسرورة بهذه الملامسة التي تشعرها أنها مع الآخر، الذي وجوده ضروري كي لا يستوحش الإنسان، أو يشعر برهبة الفكر الأليم، المنشب أظفاره في الروح المستوحدة، المبعدة، المنفردة بذاتها وهواجسها.. لكن جهاد لم يفعل. لم يلامس يدها، تراه لا يريد؟ يحرص على مسافة ما بينهما؟ يخشى ان تفسر ذلك تفسيراً سيئاً؟ يعيش الرجل الشرقي في أعماقه، فيقيم هذا الوزن الكبير لفارق السن بينهما؟ يحاذر ان يلامسها لئلا تراوده فكرة ما لا تستقيم وعلاقة الصادقة البريئة؟ مهما يكن فإنها تود لو أمسك يدها، لو وضع ذراعه على كتفها، لو شدّها اليه حتى تستشعر الدفء والاطمئنان أكثر، وهي، في ذاتها، لو أتى ايًّا من هذه الحركات

لكانت مسرورة، ولظلت خالية الذهن من كل خاطر سوء، بعد أن جربته ليلة أمس واطمأنت اليه.

غير أن جهاد كان مستغرقاً في عالمه الخاص، يفكر مثلها بأشياء حول الحياة والموت، ولا يستشعر وجودها كأنثى، بدليل أنه يسير ولا يلتفت اليها، يسير دون ان يلامسها، دون ان يسترق حتى نظرة اليها، كأنها معه وليست معه، وكأنه مرتاح الى صمته فهو لا يريد ان يعكّره بأي كلمة أو نبسة.

خرجا الى الشارع العامّ. سارا على الرصيف نفس سيرهما البطيء، الذي يعطي لتجوالها صفة النزهة. وكانت ليديا تجاريه قائلة في نفسها: «عليّ ألا أخدش ملاسة الصفحة التي يتأملها، عليّ أن أدعه وشأنه، ما دام يألف ما هو فيه، ويؤثره على الكلام، أو لا يجد كلاماً يقوله، بعد أن استنفذ، في تهدئه أمي، وفي الحديث معي، ونحن في غرفة الانتظار، كل كلام يمكن ان يقال، فهو يكره استعادة الكلمات وتكرارها، ويكره، الليلة بالذات، ان يلمح ولو تلميحاً الى ما جرى ليلة أمس، الليلة الفريدة، المرعبة، التي لن تتكرر، ولا يريد، كما لا أريد، ان تتكرر بأي شكل».

كان الشارع العام يعج بالناس، بين رائحين وغادين، والأنوار تسطع من المصابيح وواجهات المخازن، وثمة رجال ونساء وأطفال، برغم أن المساء ابتعد قليلاً، وليس من عادة الشارع الذي يقطعه جهاد كل ليلة، ان يكون مزدحماً على هذا الشكل. لذلك ارجع الازدحام الى جو الربيع، والدفء النسبي الذي يشيع من حواليه، والى رائحة عطرة تنبعث من خضرة الحدائق، فتنفذ الى ذاته وتنعشها. وزاد في ذلك منظر الزهور عند بائعيها، بألوانها الحمراء والبيضاء والقرنفلية، وبعض أحواض السمك الصغير، الملون، يسبح في الجامات، ويرسل وراءه فقاعات ناشئة عن تنفسه، وهو يتابعه بنظرات فرحة،

ويستعرض، في تأمل جذل، حركاته الرشيقة، المرحة، السعيدة على طريقتها الخاصة.

وبرغم أن صمت جهاد، وانصرافه الى عالمه الخاص قد أزعج ليديا في البدء، إلا أنها ظلت تسير الى جانبه، محاولة ان تلتصق به، وان تكون فرحة مثله، تتابع الحركات اللـولبيـة للأسماك الصغيرة بعينين انتفى منهما قلق ليلة أمس. انها، الليلة، تريد ان تكون سعيدة، وأن تستبعد كل تفكير بالمرض والمستشفى، وقد ارتسم على محياها سرور طفولي، ودخل كلاهما عباءة الليل الجميل، العباءة المنسوجة من ضوء باهر، فوق رصيف الشارع المضاء.

استأذنها فدخل حانوت الزهور. ابتاع لها غصناً من «الكليّول» ذي الزهرة الاسطوانية المتفتحة على ساقها الأخضر، وهي تصعد إلى أعلى ممشوقة معه، راسمة في صعودها شكلاً طولانياً لقلب ينكشف غلافه الخارجي. فعل ذلك دون ان يدري كيف ولماذا؟ لم يفكر بأي معنى لفعلته التي جاءت عفوية، تماماً كما يفعل أب حين يشتري لعبة راقته لطفلته الصغيرة. قدمها لها بصمت، دون ان يرفقها بأيما كلمة، وتقبلتها منه شاكرة، شاعرة بأن عاطفة جديدة، دافئة، تنبعث من هذه الزهرة التي تنسجم، بلونها ورائحتها، مع بهاء الطبيعة، ومع الرغبة في إسعادها، الرغبة التي اتخذت لديها معنى المودة، فحيرتها وأربكتها، وأزالت ترددها في ان تمسك بيده، وتضغط عليها، معبرة على هذا النحو عن عرفانها بجميله. وحين التفت اليها، وطالع، لأول مرة، في عينيها نظرتها الأليفة، اللطيفة، المشعة بألق الصبا، قال لها وهو يبتسم:

ـ هل أنت على ما يرام؟

ـ جداً.. وأنت؟

ـ أنا سعيد.. كأنني وصلت لندن للتو.

ـ هل هذا بسبب روعة هذه الليلة الربيعية؟

ـ وبسبب هذه النزهة القصيرة.

أضاف:

ـ لقد تنفست، في هذا الجو الطلق، تنفساً عميقاً منعشاً.. طردت من رئتي كل رائحة الأدوية، وأبعدت عن ناظري الأردية البيضاء، ولوحات «الهدوء»، ومشاهدة الأسرّة، وصور المرضى الذين عشت بينهم زمناً قصيراً، لكنه، بالنسبة إلي، زمن طويل، مبهظ غاية الإبهاظ.

ـ أنت لا تحب المشافي، أليس كذلك؟

ـ ليس هذا تماماً.. المشفى هو المشفى، لكن طبيعة وجودنا فيه تختلف، فأن يكون المرء طبيباً، غير ان يكون زائراً أو مريضاً، وعلى العموم، فإن الحياة خارجه جميلة. لقد اجتهدت، الليلة، ومنذ غادرنا المستشفى، أن أنساه، ونجحت، وآمل ان أنجح في نسيانه تماماً، لولا أن لي ابنة ترقد فيه، وعلي، غداً، أن أعود اليها.

ـ وهذه حالي أيضاً. هناك امي، وعلي، منذ الصباح، ان أكون الى جانبها.

ـ لندع التفكير في هذا.

ـ ولكنك تفكر فيه... لقد كنت صامتاً طوال الوقت.

ـ كنت في إجازة من الكلام والتفكير معاً.

ـ حين لا يتكلم الانسان يفكر.

ـ أو يتأمل.

ـ والتأمل تفكير.

ـ تفكير ظاهري.. ينزلق فيه الشعور على سطح أملس لأيما مشهد يراه.

ـ لنقل إنه تفكير محبّب.

ـ بل هو رياضة.. رياضة روحية، كثيراً ما لجأت اليها، تخلصاً من مشاعر كدرة.

ـ قد تكون رياضة روحية كما تقول، لكن المرء يمارسها في خلوة.. أم أنني مخطئة؟

ـ اعتدت التأمل حتى وأنا بين الناس، أدخل، هكذا، ذاتي، وأنظر في داخلي.

ـ وماذا وجدت في داخلك؟

ـ الشوق إلى مبهم، إلى شيء بعيد، إلى كائن ما، في هذا الوجود، الى إنسان حبيب، أفتقده هذه الأيام.

ـ وهل يكون ذلك الانسان صديقة مثلاً؟

ـ من يدري؟

ـ ولكنك تدري، تدري ولا تريد ان تقول، أنت غامض على نحو ما.. وفي داخلك شيء لا أعرف كيف أصفه.. قد يكون السكينة، الطيبة، العذوبة. أنت غريب بعض الشيء، وفي هذه الغرابة يكمن سر يجعلك.. كيف أقول؟ ربما.. ولكن لندع هذا..

ـ لندعه.. ولكن علي أن أعترف أن العذوبة بعيدة هذه الأيام عني. إني حزين، برغم اجتهادي في أن أبدو مرحاً.. أرجوك.. تقبلي مزاجيتي اللعينة، اعذريني إذا كنت أخلد الى الصمت، في وقت عليّ فيه أن أتكلم وأنت الى جانبي.

ـ لا ألومك في شيء.. إنك رائع معي.

ـ أحاول ذلك.. نعم أحاوله.. أسعى لإدخال البهجة الى نفسك.. أنت فتاة طيبة، ومن حقك علي، ما دمنا في وضع واحد، أن أكون لطيفاً معك.

ـ أنت لطيف معي ومع سائر الناس؟

رازها بنظرة جانبية خاطفة، محاولاً في ومضة الالتقاط، ان يركز في بؤرة الضوء على تقاطيع وجهها، جامعاً في اللقطة نفسها كل الانفعالات التي على هذا الوجه، مستخلصاً، من جرس الصوت، ماذا

تريد بسؤالها، وإلام ترمي؟ هـو لا يجهـل الأشيـاء تمامـاً. يحدس، يستشف، يقرأ، يفهم من التصاقها به، من ضغط يده في يدها، من هذه اللهفة الواضحة، الصارخة، للبقاء معه، أنها تقصد أبعد من مدى السـؤال، وأعمـق مـن المعـاني التي تحملهـا الكلمات في براءتها الظاهرة، لكنه يتأبى عليها، يرفض ان يجاريها، يلجم مشاعره الآخذة في تكوّن غريب نحوها، راغباً، في كل خطوة، لو ينفصلان، فتذهب هي الى غرفتها في الفندق، حيث تستريح، تقرأ، تنام، تفعل ما يحلو لها، وتدعه وحيداً، متسكعاً على النحو الذي يرغب، دونما ارتباط بأحد، ودونما إزعاج من أحد، ليتاح له أن يتابع تأمله، هدهدة عواطفه، ترتيبها، فرزها، وإبعاد ما فيها من سيئ، اعتاد ان ينفيه، ان يبعده عن ساحة الشعور، لأنه لا فائدة من تذكّره.

أسف لأنه، وهو معها، قد غاص في ذاته، مسلطاً الضوء على عالمه الداخلي المضطرب والمشوش. إن ستارة التمويه للطمأنينة الكاذبة، التي ارتسمت على محياه، كانت باطلة. وعبثاً حاول، وهو يسير الى جانبها، ان يمحو من ذاته أولاً، ومن ذاتها تالياً، ذكريات الوضع الصعب لوجودهما في عاصمة غريبة، إلى جانب مخلوقين ميئوس من شفائهما.. غير أنه كان في هذه النزهة، محمولاً على الصمت، بقوة لاإراديـة، وها هو، بعد حديثهما القصير، يعود الى صمته، تاركاً لها ان تعود الى استنتاجاتها المجانبة للحقيقة، عـن هذا الصمت الذي لا مبرر له في نظرها، سوى ميله الى الفرار منها.

وتساءل فوراً وباستغراب: «أفر منها؟ هل حقاً أنشد الفرار منها لأختلي بنفسي، أم أنني في لعبة مخادعة مع الذات، أريد، كعهدي دائماً، أن أبتعد، أو أتظاهر بالابتعاد، كلما اقتربت الأخرى مني؟ في هذه الحال لا أعدو أن أكون ناصب فخ ليمامة، كأي صيّاد دنيء، استيقن من غفلة الطريدة، فهو يعد لاصطيادها، واثقاً أنها تتمنى تلقائياً ان تقع في الفخ، وان يقبض عليها الصياد الذئب» أضاف:

« لا ، لن أكون صياداً ، ولا ثعلباً ، ولن أستغل طهارتها ، عفويتها ، حاجتها إلي ، ولن أخفي ، تحت قفازين غير موجودين ، أو غير مرئيين ، أظافر وحش يختبئ في ثوب رجل كيّس ، لطيف ، وعذب كما وصفته ، لينقض من بعد ، حين تسنح الفرصة ، التي هي الآن سانحة ، على الفريسة الوادعة المستسلمة اليه ، لأنها واثقة من كياسته وعفّته » .

هكذا انبعث الرجل الشرقي فيه ، مرتعشاً أمام مشاعر تخادع ذاتها وتنخدع بها . « انني معقد ، قال في نفسه : أفترض أشياء غير صحيحة ، غير واقعية ، وأخاف من التصاق ليديا بي ، وأفسرها تفسيراً قد لا يكون خطر في بالها » أضاف : « مع ذلك ، علي احترام الحزن الذي نحن فيه ، الحزن النبيل ، والذي أريده نبيلاً ، ولهذا فإن علي أن أكون حذراً ، لطيفاً ، مقدّراً أن ثمة اختلافاً في العقلية ، وفي الحياة الاجتماعية ، وأن ليديا تتصرف كفتاة غربيّة ، بينما أنا أتصرّف ، ومحكوم في تصرّفي هذا ، بعقلية الرجل الشرقي ، الذي لا يستطيع الانسلاخ عن المجتمع الذكوري ، بينما الحياة في الغرب تختلف اختلافاً كبيراً » .

جلسا في مقهى صغير لبعض الوقت ، تناولا خلاله كوبين من البيرة ، وقد حافظ ، ههنا أيضاً ، على صمته ، كأنما بات يخشى الحوار ، يدفعه ، يؤجله ، على أمل أن يفترقا ، فلا يكون بينهما حوار الليلة ، ولا يكون سهر ، كليلة أمس ، لأنه ، مثلها ، بحاجة الى الراحة ، بعد يوم مترع بالعذاب النفسي . إلا أن ذلك لم يحل بينه وبيني أن يتأملها وهي جالسة قبالته ، وهكذا لم تغب عن ناظريه حركاتها ، لفتاتها ، صرخاتها المكتومة في ان يقترب منها أكثر ، وأن يكون رفيقاً أدنى اليها ، متجاوباً معها ، حتى في الحدود الدنيا ، الحدود التي توحي اليها ثقة ما بنفسها ، بجاذبيتها ، بقدرتها على التأثير ، في رجل مهما يكبرها ، فهو رجل ، وعليه أن يتأثر .. وبعد هذا فلتقف الأمور عند هذا الحد ، فلا تتجاوزه ، وليكونا صديقين ، وليفترقا ، غداً وبعده ، كصديقين ،

لكن ليس قبل أن تختبر وقع جمالها، ملاحتها، تأثيرها، وتطمئن إلى أن الأنثى فيها كفيلة بأن تمارس هذا كله عليه.

هكذا تضافر عاملان خفيان، على نسج علاقة غير عادية بينهما، إنه لطيف، وقد يكون عذباً كما وصفته، لكنه غير مذنب في لطفه وعذوبته. هذا هو العامل الذاتي، العفوي، من جانبه، أما العامل الآخر، العفوي أيضاً، من جانبها، فهو جمالها. المرأة الجميلة، دون إرادة، تريد، بل وتصرّ، على أن يكون لها تأثيرها، وهي تتطلب هذا التأثير عليه، وتتقصده بقدر ما يتأبّى عليها. اذن هما بريئان. غافلان، يداعبان إحساساً ظاهرياً، وراءه إحساس باطني، هو الرغبة في التحقق، في الانتصار، في ان يكون ذكراً، وان تكون أنثى، وان يجري الاعتراف بذلك، من قبلهما معاً، على صورة ما، وبعد ذلك يكف كل منهما عن استشعار الجنوح الى التملك، السيطرة، الفوز، وينتفي الذنب بانتفاء مسبباته، ينتفي بعد ان يثبت ذاته، لا قبل ذلك. الخطيئة، هنا، لا خطيئة. طبيعة إنسانية، البشر هم الذين دفعوا بها باتجاه ما هو محرّم، فغدت إثماً بعد أن كانت طهراً.

عادا إلى السير وإلى التفكير. هي بما لا يدري تماماً، وهو بما يدري ويرفض. قال في نفسه: «ملامسة اليدين، بيننا، إلام تؤدي لو تابعناها، وانسقنا مع لذاذتها، ورضينا ان تنبت في صدرينا تلك الرغبة الملعونة التي تشد كلاً منا الى الآخر؟ إنني أفترض أنها تأنس إليّ، وهذا ما أصبح واضحاً منذ ليلة أمس، وتأكد في ملامسة اليدين الليلة، ولكن ما نوع هذا الاستئناس الذي قد يكون، بالنسبة اليها، بريئاً تماماً؟ إنها طفلة، وهي خائفة، وضائعة في المدينة الكبيرة، وكل ما يبدر منها تجاهي قد لا يعدو التماس الحماية والطمأنينة، فما بالي أندفع في تأويل كاذب، يزيّنه لي طبع مألوف، مصدره غروري كذكر، يفسّر كل حركة تصدر عن أنثى تفسيراً لصالحه؟ وحتى لو كان ذلك كذلك، فما الموقف الذي ينبغي اتخاذه، إذا ما أردت أن

أكون شريفاً، وإذا ما كان علي ان احترم براءة فتاة وضعتها مصادفة غريبة في طريقي؟ ألست، إذن، وبرغم كل مشاعر العفة، أصوّر لنفسي، وأصوّر نفسي، بصورة الرجل المحبوب، والمرغوب معاً؟»

كانت يدها ما تزال في يده. كانت دافئة، رخصة، تنثّ، في ملامستها، ما يشبه التيار المكهرب، أو هكذا خيّل اليه، وكان يعرف أنه سيضعف أمام هذا التيار، وأن الغواية التي في وسع رجل آخر، في مثل عمره، أن يقاومها، عاجز هو عن مقاومتها. لذلك ترك يدها، وأبعدها بحركة أرادها طبيعية ففشل، وانتبهت هي الى هذه الحركة، فتطلّعت اليه متفرسة، وأبعدت يدها بدورها، كأنما لفتها الى ما لا يجب، وأيقظ فيها شعوراً كان للبراءة فصار الى الريبة.

ولقد كان من عادته، في مثل هذه الحالات، ان ينقم على نفسه، يراها تافهة، عاجزة، تبتعث مشاعر هي، على غير إرادة منه، نوازع بعيدة عن الطهر والاستقامة اللذين يريدهما، ويحرص عليهما في كثير من المواقف، دون ان ينجح إلا نادراً، وبمجهود مضن.

ليلة أمس، مع كل ما حفلت به من أشياء، كان هادئاً، هانئاً، بسبب من أنه كان خلياً، يتقمص دور الأب، ويرعى الفتاة رعاية بريئة، حتى دون ان يفكر بذلك. كان على سجيته، وقد ضرب مثلاً في الأمانة والاخلاص، ورأى مظاهر عرفان الجميل في عينيها، ورصد ما عبرت عنه حركاتها من وثوق به واطمئنان اليه، ويجب أن يحافظ، الليلة، على كل ذلك أيضاً.

ولم تكن ليديا، وهي تسير إلى جانبه، تقدر أنه نهب لأفكار سخيفة كهذه. كانت طبيعية، بسيطة، أليفة، ترى الأمور من حولها بفرح فتاة يافعة، وبتفتح أنثى تتطلب، من أيما رجل، أن يكون في الدائرة الصحيحة، دائرة الانجذاب، الاعجاب، التأثر، أو على الأقل الشعور أنها إلى جانبه، وأن من حقها عليه أن يدع هذه اللامبالاة

حيالها، ويعاملها كما ينبغي، سواء كانت هذه المعاملة بريئة أو مدخولة، شريطة أن يرسل نفسه على سجيتها. لقد أدركت، بإحساس أنثى، أنه يفكر فيها، برغم إنكاره، أو مقاومته لهذا التفكير، ولولا ذلك ما استغرب أن تضع يدها في يده، وأن تلتصق به، وتكون هي ذاتها معه، دون حرج أو افتعال. وعندما سحب يده من يدها، بوغتت بهذه الحركة، تنبهت إلى أنه فسر موقفها تفسيراً مغايراً لما كانت عليه من عفوية صادقة. هذا الخاطر أزعجها، ارتد بها إلى واقع تجاهلته، حين اندفعت نحوه بعاطفة مودة وإعجاب خالصين. لقد تصرف معها الليلة الماضية تصرفاً شريفاً، ودوداً، بحجم الحالة النفسية التي كانت عليها، ولولا ذلك، أو لو أنها في غير الوضع الحزين، الفاجع، الذي كانت فيه، لبدا موقفه منها غريباً، وغير مقبول، إنها تتطلب شيئاً غير العناية الأبوية، وكانت سترفضه، وتفر منه، وتهزأ به، لو عاملها تلك المعاملة الفائقة الرعاية في ليلة غير ليلة أمس.

طبعاً هذا الاستنتاج كان منطلقاً، حتى في الباطن من شعورها، من منطلق استشعار الاهانة، لأنه يتجاهل أنوثتها، يهملها حتى كأنها ليست كائناً من لحم ودم، وينصرف عنها إلى تفكير بما لا تدري، بينما هي تنطوي على رغبة في الكلام، في المرح، في الاحتفاء، وفي قضاء ليلة طيبة معه، قد لا يكون فيها حب، ولا جنس، ولكن فيها تعبيراً عن المعزة، وعن شيء من التفاتة خاصة، هي التفاتة الرجل السوي، أمام صديقة أولته هذا القدر من الاهتمام. صحيح أنه أهداها زهرة، وأنه كان طيباً كريماً مع أمها، ولطيفاً معها، غير أن ذلك لم يتعد حدوداً رسمها العقل، في غياب تام للعاطفة التي تنشدها، وتفتقدها فيه.

باخت الفرحة التي تملّكتها في الحديقة عند خروجها من المستشفى. كرهت فيه جفافه الذي ينم عن خواء داخلي. لم تستطع أن تفهم دافعه

المسلكي، الصادر عن قناعة بضرورة الجدية والبعد عن العبث الذي يرى فيه طيشاً كما يبدو. لقد كانت من عالم، وكان من عالم آخر، ولم يوفّق أي منهما، أن يشرح نفسه للآخر، وما حسبه فضيلة كان صدوداً في نظرها، كان إساءة تقتضيها، هي الأنثى، أن ترد بمثلها، لولا أن صديقها كان مبهماً في نظرها، وكان مجهولاً تريد اكتشافه، حتى لا تظلمه من جهة، وحتى ترد ثقتها بفتنتها من جهة، ولهذا فإنها تريّثت، وفي نزوة غير إرادية، عادت فأمسكت يده، وضغطتها هذه المرة.

فهم الإشارة المعزوفة بالأصابع. وهو ليس جافاً ولامبالياً، ويعرف انه على بقية من شباب تبيح له أن يغازل، وأن يتقبل غزل فتاة مثل ليديا. لكنه متعب، مثقل بالهموم، يرتهن فلذة كبده في المستشفى، ويعرف أنها ستموت، وهذا ما يضفي على كيانه كله انغلاقاً أمام المسرات، إضافة إلى أنه يحرص على الفتاة حرصاً مبالغاً فيه، برغم كل نزواته في الماضي. ولقد فرح لأن الفتاة استطاعت أن تتخطى حزنها، أن تنسى مصابها بأمها، أن تحتفل بالربيع في قلبها كما من حولها، لكنه أصر، حتى أمام تبدلها، أن يتمسك بموقفه. وقد أدرك أنه لو تركها الآن، وافترق عنها كي تذهب حيث تشاء، لانصرفت ربما، إلى البحث عن متعة، عن مغامرة صغيرة، إلا أن هذا، كما قرر، لا يخصه، ولا يعنيه في شيء..

لذلك تظاهر بعدم فهم حركة يدها في يده. اعتزم أن يسوسها على مهل، أن يروض جموحها ويطامن منه، وقال في نفسه إن هذا ليس عفة، ولا فضيلة، لكنه هو، وببساطة، لا يريد أن يتمادى في علاقته بها، مهما يكن نوع تفكيرها في هذه العلاقة. ولأنه كان يحسن ضبط مشاعره، برغم ميله الطبيعي إلى اللهو، فقد استشعر وازعاً يحدوه إلى احترام موقف الأسى الذي هو فيه، كي يتفادى، غداً،

حين يعود إلى المستشفى، أن ينظر بخجل إلى عيني ابنته، أو أن يرى إلى السيدة مارسيل بعيني إنسان مدنّس.

ولكم ودّ، في هذه اللحظة، أن يفترق عنها، أن يعود إلى غرفته في الفندق، فيتناول فنجاناً من القهوة يعده بنفسه، ويدخن سيكارة كما اعتاد، ثم يفوز بكأس من الويسكي المثلوج، ويدع أعصابه تسترخي، وهو يفكر، ويتأمل، لا في مرض ابنته، ولا في موتها المحتوم، ولا بالسيدة مارسيل، وجراحتها التي ستتم غداً أو بعده، بل بهذه المسألة التي طرحت نفسها عليه، وهي: ما علاقة الموت بالحياة؟ ما علاقة المرض بالحب؟ وهل يقوى الإنسان، وقد مات عزيز عليه، أن يمارس الحب في ليلة موته ذاتها؟ لو كانت ليديا في مثل عمره، أو أصغر قليلاً، وقد جمعتهما المصادفة في فندق واحد، فهل يسمح لنفسه بأن يحبها، متجاوزاً بقحة ذلك «الموقف الصعب» الكئيب، المكرس للأسى؟ ألن يكون وحشاً عندئذ؟ وبماذا يختلف، في حال كهذه، عن أي رجل يضحك وجهان فقيده العزيز مسجّى أمامه؟

إنها لمفارقة! الوجه خائن، فهو ينفرج عن ابتسامة، حتى عند تشييع أقرب إنسان إليه. الحياة، في هذه الحال، تعبر عن نفسها، تحقق وجودها، تنتصر لأنها أقوى من الموت، ومن الخير أنها كذلك، فلو لازم الحزن أهل الميت لماتوا بدورهم. الغم قاتل، ومن الأفضل أن يزول، أن ينسى، أن يهزمه السرور، هذا العنصر الذي يؤكد إرادة العيش، ويجعل أشياء الوجود تعاود السير في طريقها المعتاد.

كانت هذه التأملات، وما يتوالد خلالها من أفكار، تتم بسرعة، تجري كما لو أنها شريط فيلم يكرّ كلمح البصر، تماماً كما هي حال المحكوم بالإعدام، الواقف على منصة الخشب، وعقدة الحبل في عنقه، وهو يذكر ماضيه كله بومضة استرجاع لا حد لسرعتها.

ولأن العقل مرن، وقادر، في كل لحظة، أن يبرر الفعل لصاحبه، فقد برر له عقله أن يرى في الحب حادثاً طبيعياً، مثل تناول الطعام

تماماً، وأراحه أن ذوي الميت، حتى وهو مسجى في البيت، يتناولون الطعام، وربما الشراب أيضاً، واستنتج من كل ذلك أن الحب حقيقي كالحياة، كالموت، كسائر الأشياء المتفرعة عنها، وأن الفعل الآخر الذي هو تصعيد للحب إلى ذروته، فعل طبيعي، لا يدنس الحزن، ولا يجانبه، وأن وجود ابنته في المستشفى، لا يجانف وجوده خارجه، وأن الحزن هناك، لا يتعارض مع السرور هنا، وأن ليديا، دون اللجوء إلى مثل تأملاته، قد أدركت الجوهر الذي فاته إدراكه، وأنها، بصفاء ذهن، وطهارة قلب، وانسجام مع الطبيعة، نشدت ما هو حقها، وفي نشدانها هذا كانت حقيقية، بينما هو كان مزيفاً، مدخولاً بمشاعر تخشى التعبير عن نفسها، وتتقنع بوجه مستعار، وجه شمعي اللون، قبيح التقاطيع، بسبب من التشوهات التي ألحقتها به أفكاره المتصارعة في ذاته.

أفاق على هذا الواقع وليديا تسحب يدها من يده. تفعل ذلك بحركة قرف واستنكار، وحين حاول أن يقوم هو، بإمساك يدها، انتهرته بانامله، طردته من عالمها، وعبّرت اليد ببرودتها عن قطيعة، لم تلبث أن أفصحت عن نفسها، حين أعلنته أنها متعبة، وأنها تريد الراحة في غرفتها، ولا حاجة إلى مرافقتها حتى الفندق، فهي تفضل أن ينفصلا حيث هما، ويتجه كل منهما الوجهة التي يريد.

قالت ذلك وغادرته دون وداع، دون تواعد على اللقاء، دون تحية، واتجهت مسرعة نحو الرصيف الآخر من الشارع، وغابت في زحمة المارة، دون أن تستجيب لندائه، لتوسله، لكل رغبته في بقائها معه.

- ١١ -

هربها المفاجئ أغاظه. أنبت شوك صبّار في داخله. جعل من القهر

حجراً في كبده، فدخل، لدقائق، في ذهول عما حوله وعن نفسه، حتى أنه رفض، في البدء، تصديق أن تلك المودة بينهما، قد انقلبت، بغتة، إلى كره. لم يفهم بماذا أساء اليها. تصرفها الغريب، جعله يشك في أنه فهم المرأة كما ينبغي، هو الذي كان يزعم، بينه وبين نفسه، أنه يعرف المرأة جيداً.

كل ما استطاع استخلاصه من الموقف أنه مغفل. وإمعاناً في تجريح الذات وصف نفسه بالبهيم. كان بهيماً حقيقياً لأنه، كما خيل إليه، كان شريفاً حقيقياً.. لعن الشرف الذي صيره حماراً في نظرها. ليس في رقبته مخلاة، لكنه يأكل النخالة، يمضغها ويلوكها دون أن يستطيع ابتلاعها. حماقته أنه انصرف إلى التأمل في غير أوانه. التأمل يصير في خلوة، بينما هو كان في الشارع، وكانت إلى جانبه، وعلى رؤوس أصابعها، في اليد التي لامست يده، انقدحت أكثر من شرارة، وكان عليه أن يستشعر ما بها، وأن يدع نفسه على سجيتها، فيلتفت إليها، ويبادلها حرارة المشاعر بمثلها، يستجيب، بقدر معين، لعاطفتها، فيبادلها حناناً بحنان، ويقول شيئاً فيه إطراء لجمالها، وفيه ذلك الذي تطلبه الأنثى، وهو الاعتراف بأنوثتها.

لقد اتخذ موقفاً متصلباً، في حين كان عليه أن يكون مرناً. فجأة غيّض في نفسه حتى مظهر الشفقة التي أبداها لها في الليلة السابقة. افترض، في وهم ذاتي، أنه محبوب منها، مطلوب من قبلها، مع أن الفتاة، في توددها إليه، ربما كانت لا تقصد هذا، أو لا تقصده تماماً، بل تتطلب رقة، كياسة، اهتماماً تراه واجباً حيالها، من رجل جمعتها به الظروف، وربطت بينهما المصيبة الواحدة. إن الكلمة، الحديث، النظرة، كانت كافية، لتشعرها بأنها قريبة منه، وموضع إهتمامه، فماذا فعل هو؟ صمت طوال الوقت، ارتمى في داخله وبقي هناك، سلك مسلك الخلد الذي ينقب الارض، وينسرب تحت قشرتها الرقيقة.. سار إلى جانبها وكان بعيداً عنها، ظل بعيداً عنها، لم يسرّ همّاً، ولا

أدار حديثاً، وحتى احتكاكها به تجاهله، فكأنها خشبة، وكأنه عود يابس، بل إن الاحتكاك بين عودين يابسين يولد شرارة ما، في حين سيطر العقم في حالته فلم ترتعش أصابعه وهي مشبوكة بأصابعها، كل هذا مرده سبب واحد، هو أنه يريد الانسجام مع الحالة النفسية التي تفرض عليه أن يخرس صوت الحب في داخله، لأنه في حال أخرى، لا تسمح مشاعرها بأن يداخلها ما يريب، أو ما يسيء إلى حرمتها. غير أنه كان يخادع نفسه، في هذه الطهرية الناجمة عن عقدة ما، لا يبررها كون ابنته في المستشفى، وفي حال ميئوسة الشفاء، فيحزن هذا الحزن، أو يفتعله، ويجسمه، ويتلبسه، ويغوص فيه كمن يغوص في بئر.

سار على امتداد الشارع الذي يقع فيه فندقه، وقد تعمد أن يسير ليتابع محاكمة نفسه وتصفية الحساب معها. أمل أن يتخلص من ذهانه، وأن ينتصر على اعتكاره فيصفو مزاجه ويعود إلى الفندق محاولاً أن يصلح خطيئته، يصلحها في حدود لا تتجاوز الملاطفة، لأنه، في توالد العقد النفسية من بعضها، كان يستشعر أنه غير قادر على الاساءة إلى الأمانة الموكولة اليه، بسبب من أنه كان يعتبر الحب، في مثل حاله، من المحرمات.

تمنى، الآن، لو لم تأت السيدة مارسيل إلى المستشفى، ولم توضع في غرفة ابنته، ولم يلتق بابنتها ليديا، ثم لم تقم تلك العلاقة الودود بينهما، إذن لكان، في هذه الحال، خلي البال تماماً. وبدلاً من رباطة الجأش، وامتلاك الجرأة على الثبات، عمد إلى الهرب إلى أمام، وقرر أن ينتقل من الفندق، وأن يسكن في نزل ما، بعيداً عن مكان شكلت ذكراه ندبة في جمجمته، ندبة بغيضة، كريهة، مرفوضة، حاول، دائماً، أن يقاوم تأثيرها ففشل.

وحين تعب من السير، ورغب في العودة إلى الفندق، مغلفاً رغبته في تناول كأس، ومتابعة الحوار الأخرس مع نفسه، كان يمارس

خداعاً آخر مع ذاته. ذلـك أن رغبتـه تلـك مـدخـولـة، فهـو، في اللاشعور، كان يريد أن يلتقي ليديا، وأن يشرح لها نفسه، معتذراً عن جفائه الذي تسبّب في نفورها منه، معيداً هذا الجفاء إلى مصدره الحقيقي، المصدر النابع من حزنه على ابنته، ومن حرصه عليها، هي ليديا العزيزة، العزيزة جداً، إلى درجة أنه مستعد أن يعتذر إذا ما كان ذلك كافياً لكي تفهم، وتقتنع، بأنه يودها، وأنه ينشد رضاها، لأنها غدت كائناً غالياً عليه.

هكذا تورّمت عقدته القديمة، القائمة على نـزعـة لا تقـاوم بـأن يصالح من يخاصمه بأسرع ما يمكن. ولم يكن هدفه من العودة إلى الفندق سوى أن يسترضي ليديا، وأن يعيد علاقته بها إلى طبيعتها بحجة أنه بذلك يحول دون ابنته وأي شك يخامرها في خلافه هذا، وبحجة أن يبقى موضع ثقة السيدة مارسيل التي أوكلت إليه أمر ابنتها. لقد اعتاد أن يسوي علاقاته بالآخرين، على نحو يطامن من خوفه من القطيعة، وحين تعود الأمور إلى مجاريها، يقوم بحركة تعويم لخيبته، فيلتف، من الجانب الآخر، على موضوع الخلاف، ويحاول الانتصار بالهرب، مشعراً الآخر أنه غير مكترث بـه، وغير مبـالٍ بـالاتصـال الودّي الذي كان بينهما.

إذن عاد إلى الفندق وفي نيته أن يتصالح مع ليديا، يتصالح معها من جهة، ويهجرها من جهة ثانية. ينتقل من الفندق الذي هو فيه، إلى حيث يستطيع العيش بسلام، والتوحد مع نفسه، وتأمل أشيائه وترتيبها على نحو يعيد الانسجام إليه. ومن الواضح أنه كان يخادع نفسه إذ يزين لها أنه راغب في مصالحة ليديا التي جرحته. كانت الإساءة، بالنسبة إليه، لا تغتفر بسهـولـة، ومـع أنـه سيصـالحهـا في الظاهر، فإنه في الباطن سيظل على خصام معها، إن لم يكن على كره. فتصرّفها كان، في نظره، تصرفاً أرعن، ليس من السهل أن يتسامح به إزاء أيما كائن. لقد أهانته، بتشوّفها عليه، أو بعدم تقديرها صداقته

حق قدرها، وأمام وضع كهذا، كان يرغب، كعادته، في تسوية الخلاف، ثم الانتقام باظهار اللامبالاة.

في الفندق استراح قليلاً، تناول كأساً من الويسكي، مستشعراً الخطأ في أنه، بعد جولته القصيرة مع الفتاة، لم يدعها إلى العشاء معه. قدر أنه أخطأ في هذا النقص في الجنتلمانية، وأن ليديا، إلى جانب استيائها من صمته وجفائه، قد استاءت أيضاً من نقص لباقته الواجبة. فقد كان عليه أن يتناول العشاء معها، وأن يعرض عليها الدخول إلى إحدى دور السينما، أو ربما التطواف في حي سوهو، الذي سمعت بغرائبه، وأزمعت زيارته برفقته، لتعذّر القيام بهذه الزيارة بمفردها.

بادئ الامر أمل أن تأتي هي إليه. أن تمل انحباسها في غرفتها وتأتي إليه لائذة به. توقع أن تخاف وحدتها، ولو بدرجة أقل من الليلة البارحة، وتنتحل أيما عذر لقرع بابه، غير أن توقعاته طاشت كلها، فقام في ذهنه أنها ليست في غرفتها، وأنها لم ترجع إلى الفندق بعد، وتريث وقتاً ما قبل أن يقرر الذهاب اليها، في محاولة للاسترضاء، للتفاهم، لدعوتها إلى زيارة حي سوهو، وإغرائها بذلك، وهناك، في أحد مطاعم هذا الحي المتناثرة عند كل زاوية، يمكن أن يتعشّيا، وأن يدخلا، طلباً للفرجة والتسلية.

مضى إلى غرفة ليديا بعد أن استعاد شيئاً من الوثوق في نفسه، وبعضاً من هدوئه المفقود، وقرع الباب متردداً، راجياً، ففتحت له وهي ممتعضة، شاحبة، وبادرته، حتى قبل دعوته إلى الدخول، بهذا السؤال الجاف:

ـ ماذا تريد؟

ـ أن نتحدث قليلاً.

ـ لقد تحدثنا طويلاً.

ـ متى؟

ـ ونحن نتنزه.

ـ أنت لا تريدين تأنيبي، أليس كذلك؟

ـ لا أريد شيئاً، ولا أفكر بشيء.

ـ أما أنا فأريد.

ـ ماذا؟

ـ أن أشرح لك نفسي.

ـ وماذا بقي في نفسك لكي يشرح؟

ـ أنت فهمتني خطأ.

ـ ربما..

ـ ولكننا ما نزال واقفين في الباب.

ـ أن تدخل أو تنصرف فذلك سيّان عندي.

ـ اسمحي لي أن أدخل إذن..

ـ على شرط الا تمكث طويلاً، فأنا متعبة وأريد النوم باكراً.

قال وهو يدخل:

ـ لكننا سنتعشى معاً.

ـ تناولت وجبة خفيفة.

ـ في هذه الحال نتحدث قليلاً، وإذا كانت لديك الرغبة، يمكن أن نخرج لبعض الوقت.. ما رأيك في أن نتجول في حي سوهو؟

ـ وماذا في هذا الحي مما يغري؟

ـ تريدينني أن أصدق أنك ترفضين زيارته، وأنت التي حدثتني عنه؟

ـ نعم أرفض، وأكتفي بما سمعت عنه.

ـ ألا يستحق زيارة منا؟

ـ سأزوره بمفردي، أو مع صديق آخر.

ـ حسبت ألا أصدقاء لك في لندن سواي.

ـ كنت واهماً.

جلس على المقعد ولم يجب. لقد صدم. إنه لم يأت إثماً يستحق إزدراءها هذا، وموقفها المعادي شائن، حتى بمقياس المعرفة البسيطة بين شخصين، فكيف وقد كان قريباً منها، أمس وقبله، إلى درجة الصداقة الحميمة، وقد تحمّلها، دون تذمر، ليلة البارحة، ولم تبدر منه حركة مسيئة، ولا أبدى رغبة جارحة، أو اشتط في طلب. كل ما فعله أنه أهملها الليلة قليلاً، وتجاهل ميلها إلى اللهو، ولم يجب على ضغط يدها بمثله، واكتفى بأن سحب يده، مبدياً تحفظاً تجاه ميلها إلى احتوائها.

قدر أن تركها له، وابتعادها عنه، ثم هذه المقابلة الجافة، كل ذلك ينم عن مزاج عصبي، إذا لم يكن سوداوياً، أو مرضياً، فهو على الأقل، مزاج مراهقة نزقة، طائشة. وراح يفكر فيها، وفي سلوكها، وفي الطريقة التي تركته فيها واندفعت مسرعة لا يدري إلى أين، وأسف لانه اضطر إلى مصادقة فتاة حسبها عاقلة، فإذا بها تتكشف عن رعونة وطيش. وكأنها أدركت من صمته ما يفكر فيه، وقررت الاندفاع في عدوانيتها تجاهه، فقالت وهي تشعل سيكارة:

ـ هل انتهيت من تحليلي؟

ـ لست محللاً نفسانياً ولا أجيد ذلك.

ـ حزرت هذا، وفهمت، في الوقت المناسب، أننا من طبعين مختلفين.

ـ لكن ذلك لا يمنع أن نكون صديقين، وان نبقى على مودة كما كنا ليلة أمس.

ـ آه! لا تذكرني بليلة أمس، الا إذا كنت تتعمد إشعاري بأنني كنت جبانة إلى حد لا يطاق.

ـ لم يخطر ذلك في بالي. ليس من إنسان إلا ويكون، في لحظة ما، ضعيفاً أو خائفاً. كل ما قصدته أنني احترمت حزنك إلى أبعد حد، ولم أكن أتصور أن في هذا ما يسيء.

كل ما بدر منك ليلة أمس كان طبيعياً، ومنسجماً مع تعبنا وحزننا وخوفنا، أنا وأنت.

ـ أفهم من ذلك أنك كنت راضية عن سلوكي ليلة أمس؟

ـ كنت راضية حتى تأكد لي أن موقفك كان أمس ناشئاً عن شعور غير الذي قدرته.

ـ كيف؟ صاح مستغرباً.

أجابت:

ـ حين تكرر اليوم..

أضافت في غير ميل إلى المصالحة:

ـ أرجوك، لندع هذا الحديث.. وآمل الا تفهم أنني لم أقدر، أو أعترف، بموقفك الطيّب من والدتي.. غير أنّ شيئاً ما جديداً طرأ اليوم، غيّر رأيي فيك، فعزمت أن نبقى كمعارف، نتبادل التحية حين نلتقي في المستشفى، ونبقى عند هذا الحد.

ـ أنا لم أطلب منك تجاوز هذا الحد.

شزرته بنظرة فيها غير قليل من الهزء وخيبة الأمل وقالت:

ـ أنت، حتى لو أردت، لا تستطيع تجاوز هذا الحد..

ـ كيف؟

هزت كتفيها وأجابت بنبرة مشبعة بعدم الاكتراث:

ـ هكذا!!

قال وقد انفعل قليلاً:

ـ ماكنت أستحق ذلك منك.

ـ أعترف بذلك..

ـ لماذاإذن تتعمدين إهانتي؟

ـ ليس في ما أقوله إهانة.. أنت، كيف أقول، من طائفة الطهريين.

ـ هل كان عليّ أن أخون ثقتك فيّ؟

ـ عن أية ثقة تتكلم؟

ـ عن الثقة التي استشعرتها حين لجأت إلى، وأعتبرتني كأخ أو كأب.

ـ كان ذلك ليلة أمس.

ـ وماذا جدّ اليوم!؟

ـ غير ملزمة بتقديم تقرير عنه.

ـ وإذا كنت أرجوك، كي أصلح خطئي؟

ـ لوعرفته لقلته..

وبعد وقفة:

ـ كل ما في الامر أنني افتقدت فيـك مـا تفتقـده الصـديقـة في صديقها.

ـ وما هو؟ لقد كنت مهذباً معك..

ـ وأنا أرفض هذا التهذيب..

صاح بعصبية:

ـ هذا فظيع.. ترفضين التهذيب، وهو مايليق بالرجل تجاه المرأة؟

ـ أنا أرفضه.

ـ أنت غريبة الأطوار!

ـ كنت كذلك دائماً..

ـ أكان عليّ أن أكون نذلاً معك!؟

ـ كنت في هذه الحال سأوقفك عند حدك.

قال فارغ الصبر:

ـ اسمحي لي.. لم أعد أفهمك..

ـ من الصعب عليك، أنت بالذات، أن تفهمني.

ـ لماذا؟

ـ لأننا من عقليتين مختلفتين كما سبق أن أفهمتك.

قالتها ونهضت:

ـ أرجوك، دعني وحدي.. أريد أن أستريح.

لم يأسف على شيء وهو يغادرها. لم يكن، أصلاً، يريد شيئاً. لكن انقلابها المفاجئ حيّره، فدخل غرفته واستلقى على سريره، يتناوبه شعوران: الأسى والاستنكار! أيقن أنها في ليلة امس كانت خائفة، وكانت، الى جانب خوفها، أو لعلها بسببه، تتوقع منه ألا يكون كما كان معها. بعض النساء، المتقلبات المزاج خصوصاً، يحلو لهن أن يمارسن لعبة ما صغيرة مع الرجل، أشبه بعلبة الفأرة والقط، لكنه، هو، يرفض ذلك. ولم يفكر، منذ تعرف بالسيدة مارسيل وابنتها، إلا بأن يكون إنساناً يحترم نفسه في المواقف العصيبة، بصرف النظر عن احترام الآخرين، وحين كانت السيدة مارسيل تصرخ: « لا أريد أن أموت »، كان يسمع صوتاً آخر يصرخ نفس الصرخة، هو صوت ابنته، وفي مثل هذه الحال، كانت إنسانيته ستهان، ستبتذل، لو فكر بعاطفة رخيصة، في وقت يتألم فيه إنسانان عزيزان، وهما يواجهان الموت.

استوى جالساً على السرير. انتفى أساه. تحول كله الى احتقار. لعن الضعف البشري الذي يؤدي إلى حماقة كهذه التي تطلبتها ليديا، قرر ألا يبالي بها، وان يشيح بوجهه عنها إذا ما صادف ووجدها غداً في المستشفى. تبدّل بياض الزنبقة. ذوت أوراقها. تصوّحت. حل مكان تلك المودة ازدراء زاد في حدته أن الفتاة رفضت ان تتبين الفارق بين كونه مشاركاً لها في الأسى، وبين ان ينساق مع نزوة للهو لا يجد لها داعياً أو مبرراً.

ساعده في كل هذا التلاعب بالحقائق ان عقله، في المرونة المعتادة منه، هرع الى مساعفته في تنقية ضميره، واستجلاب الراحة المطلوبة له، وفي مدّه بالقدرة اللازمة على استهجان موقف ليديا، واستحسان موقفه، وهذا ما بعث فيه شعوراً بالراحة، فأشعل سيكارة، وأعد فنجاناً من القهوة، وتذوق بعدها جرعات متتابعة من زجاجة

الويسكي التي أتى عليها في يومين، لشدة اهتياجه، وحاجته الى السلوان.

إن ما مر معه، رغم كل ما فيه من عقوق، إذا جاز له ان يسمي ذلك عقوقاً، لن يحول بينه وبين ان يكون لطيفاً مع السيدة مارسيل، وان يعتني بها ما استطاع، ويواسيها قدر طاقته، مشجعاً فيها الأمل على تجاوز خطورة المرض، بالجراحة التي ستُجرى لها. غير أنه، في اليوم التالي، عندما فرغ من نقل حقيبته الى مسكنه الجديد في نزل جميل، هادئ، بعيد عن المستشفى، وهرع لزيارة ابنته، لفت نظره، منذ دخوله، أن كرتونة السكائر التي أهداها الى ليديا موضوعة على الكومودينة قرب السرير. لقد أعادتها في حركة رفض غير لائقة، قاطعة بذلك كل طريق للمصالحة. لم يبق له إلا تحمل حركتها غير الودّية، بتجاهل تام. ولما قالت له ابنته ان الآنسة ليديا وضعت له كرتونة السكائر، لم يجب بشيء، مدارياً في نفسه شعوراً بالمقت من تصرفها الذي ينطوي على ولدنة حمقاء.

أنبأ ابنته أنه انتقل من فندقه الى شقة صغيرة، مجهزة بكل ما يلزم، وفيها سريران، استعداداً للسكن فيها عند خروجها من المستشفى. أضاف أنه سيقابل الدكتور سايمون، ويسأله ما إذا كان الوقت يسمح بمغادرتها المستشفى، ومتى سيكون ذلك. وقالت ابنته إنها تنتظر ساعة مغادرة المستشفى بفارغ الصبر، وتساءلت عما إذا كان عليها ان تخضع الى علاج إضافي وهي في البيت، فأجابها أن الطبيب هو الذي سيقرر كل شيء.

لقد ارتدى، مرة أخرى، قناع الغبطة التي لم يكن لها من أثر في نفسه. كان قد ابتسم وهو يدخل إلى ابنته، وكذلك قبّلها، ومازحها، حاملاً اليها آخر أخبار الأهل في دمشق، ثم استدار الى السيدة مارسيل وحياها بحرارة، مغيّباً في أعماقه كل رواسب سوء التفاهم بينه وبين ابنتها ليديا. كانت السيدة مارسيل اليوم أفضل منها بالأمس، نتائج

الفحوص والصور الشعاعية أكدت حاجتها الى جراحة عاجلة، ومع كل ما بذلته للتماسك، فقد كانت بحاجة الى كلمة تشجيع، وقد نقلت خبر الجراحة اليه وهي تتساءل:

- أتظن أن الجراحة ستكون ناجحة كما قلت أمس؟

أجابها بوثوق:

- ستكون ناجحة قطعاً.

- يسعدني هذا التأكيد، ولكن الطبيب لم يزرني بعد، ولم أبلّغ بموعد العملية الجراحية.

أضافت:

- وعدتني ان تسأل الطبيب حين يقوم بزيارة المرضى.

وقال:

- كوني مطمئنة، سأستفسر منه عن نوع الجراحة، والنسبة المئوية لنجاحها.

- سأكون شاكرة لو فعلت هذا، شريطة ان تصارحني بما يقوله لك.

- سأصارحك تماماً، لكنني أقول لك، منذ الآن، إن الجراحة ستكون ناجحة، وأن الجزء المعطوب في المعدة سيستأصل وينتهي كل شيء بسلام.

- أرجو ذلك.. آمل.. لقد صليت أمس، طلبت من الله ان يساعدني، ان يشفيني، أو يمد في عمري، لا لأجلي فقط، بل لأجل ابنتي أيضاً.

في هذه اللحظة دخل الغرفة الطبيب سايمون ومساعده. كان سايمون مستبشراً كعادته دائماً، أو كما تقضي واجباته كطبيب يعود مرضاه، وقد اتجه من فوره إلى سرير رنا، وقال شيئاً وهو يبتسم، وربت على خدها، وتفقد لوحة الحرارة المعلقة في سريرها، وسر للنتيجة،

فالجراحة لم تحدث مضاعفات، والحرارة عند معدّلها الطبيعي، وكل شيء على ما يرام. خرج بسرعة كما دخل، فلحق به جهاد واستوقفه ليطرح عليه بعض الأسئلة بواسطة الطبيب المساعد الذي يتكلم الفرنسية. كان الأستاذ سايمون على عجلة من أمره، ومع ذلك توقف ليجيب عن الأسئلة، فأعلن أن الفتاة في صحة جيدة، وأن الجرح قد التأم، ويمكن ان تخرج من المستشفى بعد أسبوع، وعليها، بعد الخروج، ان تجري بعض المعالجات الشعاعية، ثم تستكمل ذلك في دمشق. ولما سأله عما إذا كانت قدماها شبه المشلولتين سيتحسن وضعهما، وأنها ستتمكن من السير بمفردها، رد بالإيجاب، واعتذر متجهاً الى الغرف الأخرى، لإتمام جولته على مرضاه، فلحق جهاد بالطبيب المساعد يمطره بالأسئلة، لكن كل ما فهمه منه هو ان تحسناً ملحوظاً سيطرأ على حالة ابنته، نتيجة المعالجة بالأشعة النووية، غير أن التحسن لن يدوم طويلاً، فبعد شهور على انتهاء العلاج الشعاعي سينتكس المرض، وأن الشفاء الكامل مستحيل، فهي مصابة بالسرطان في النخاع الشوكي، والورم يمتد على طول العمود الفقري. أضاف الطبيب: أن لمرض السرطان قوساً واسعاً، وفي مثل حالتها فإن الداء سيتدرّج صعوداً، وأن أمامها سنوات من الحياة، وستُعطى، عند خروجها، تقريراً مفصلاً، يحتوي كل التعليمات اللازمة للمعالجة بعد عودتها الى الوطن».

كان هذا كل ما استطاع الحصول عليه من معلومات، ولم تكن هذه المعلومات جديدة، لكن وقعها عليه كان أليماً، فالموت المؤكد، حتى ولو بعد عامين أو ثلاثة، ذكره بالنهاية الفاجعة، النهاية التي هو وحده يعرفها، وهو وحده سيحتفظ بسرها، وعليه، طوال هذه المدة، أن يمثل دوره بإتقان، وان يؤكد الشفاء، ويغذي الأمل فيه، لا بالنسبة للمريضة فقط، بل بالنسبة لوالدتها وإخوتها وعائلتها أيضاً.

وكما توقع أمس، أفاده طبيب السيدة مارسيل، أن الجراحة ستتم

غداً صباحاً، وأنها لا تنطوي على أية خطورة، لكن جزءاً غير قليل من المعدة والامعاء سيبتر، بسبب انتشار الورم، والتجارب السابقة ترجح أن يخلف الورم، وأن يعاود الانتشار، وأنه لا أمل بالشفاء التام، لكن الحياة ستكون مضمونة لبعض الوقت، والموت، في الحد الأدنى المتوقع، لن يكون قبل سنتين، وقد تعيش المريضة أكثر، وربما احتاجت الى جراحة ثانية.

حين عاد جهاد الى الغرفة كانت ليديا قرب سرير أمها. لقد حضرت الى المستشفى باكراً، وكانت في الإدارة لإنجاز بعض الأوراق المتعلقة بالجراحة، وهذا هو السبب في أنه لم يجدها عند حضوره الى المستشفى، وقد حيّاها كأن شيئاً لم يكن بينهما، ولم يرفع نظره اليها، بل اكتفى بالحديث مع والدتها، ونقل اليها أخباراً مطمئنة، وأكد أنه سيكون غداً صباحاً في المستشفى، عند إجراء الجراحة لها. وبعد أن أفضى بما علمه من الطبيب عن انتفاء الخطر أثناء العملية الجراحية، ذهب باسماً الى ابنته ليخبرها أنها ستغادر المستشفى قريباً، وعلى الأبعد خلال اسبوع واحد.

إن بعض الإساءات يمحي من الذاكرة لذاته، وبعضها، أو أكثرها، يكون من الخير للمرء ان ينساه. غير أن أفضل النوايا، حين تقابل بالإساءة، يشعر صاحبها كأن شيئاً ما مرغه في الوحل. إحساس جهاد، تجاه ليديا، كان من هذا القبيل. تملكته النقمة للوهلة الأولى، ثم استعاد صفاءه وارتاح لأنه تصرف بتعقل، فلم يقل لها كلمة نابية. تركها وشأنها، غير أنه لم يستطع تصورها، بعد ذلك، على البهاء الذي كانت عليه في اللقاء الأول. كانت، في نظره، مثالاً للخلق القويم، للطهارة، وللبر بوالدتها المريضة ثم غامت هذه الصورة، تبدلت، تشوهت مساء امس، بعد أن خرج من لدنها مغاضباً. أما في هذا الصباح فقد نسي الإساءة، غفرها، وكما اعتاد أن يرتفع بالمرأة دائماً الى مواضع الطهر، فقد استبعد شناعة ما تصوّر، ولام نفسه، وتوهج

في داخله خيط ذهبي من العذوبة، وفي مهجته الصافية كدموع الطفل، حل شعور بالرضى، فقرر ألا يجافيها، ولكن ألا يشاكلها، ولا ينظر في عينيها نظرة تنم عن كره أو ود، بل يتخذ وضع الحيدة التامة تجاهها.

انصرف الى العناية بابنته المريضة. أدار ظهره لها، وتحاشى النظر الى حيث يقوم سرير أمها في الطرف المقابل من الغرفة. كان الآن مسروراً لأنه انتصر على نفسه، فأزاح غمه وألمه كليهما، وأقبل على الصغيرة المريضة يحدثها عن المسكن الجديد، ويزين لها جمال الإقامة فيه، ويعدها بنزهات طويلة في شوارع لندن ومرابعها وأسواقها، خاصة وأن أحد أصدقائه تكرّم ووضع سيارته تحت تصرفه، بل إنه زاد في الكرم وعرض نفسه ان يكون السائق والدليل.

وإذ استنفد ما لديه من أخبار، ومن نوادر ونكات، فقد اشتهى ان يدخن، وأعلن ابنته أنه ذاهب الى غرفة الانتظار، مبدياً أسفه لأنه ليس ثمة فنجان من القهوة، يتناوله مع سيكارة لذيذة عزيزة، تعرف ابنته كم يؤثرها، وكم يعبّها بنهم. لقد رغب، في ذات نفسه، ان يفكر بما قاله الطبيب، مستوعباً في خلوته التفاصيل الدقيقة، ومرتباً على مهل أشياء المرحلة المقبلة، حين تخرج ابنته من المستشفى، وتسكن معه، ريثما يغادران عائدين الى الوطن.

كان يتلقى رسائل عديدة كل يوم، من زوجه، وأصدقائه، ومن صديقته ليلى التي كان يقرأ رسائلها مرة ومرة ومرة، ويكتب اليها كل يوم، وما أن استأجر شقة جديدة، حتى أبرق اليها بالعنوان، متلهفاً على رسائلها الصباحية، التي اعتادت، كما اعتاد، ان يرسلاها بالبريد الجوي السريع.

لقد اعتادته صورة ليلى وهو في غرفة التدخين. تبدّت في هالة من دخان يرتفع الى أعلى مع كل سحبة من سيكارته، وفي خطوط من تهاويل لا أبهى ارتسمت له في سقف الغرفة. كانت كما عهدها سمهرية

القوام، سمراء البشرة، في تكوين وجهها شيء معجز كما في تكوين وجه السيدة العذراء، وفي صوتها جرس هو أغنية فيروزية لا حدّ لسحرها.

انه يعزّ زوجته. يعزها كنور عينيه، لكنه يحب ليلى حب مجنون من الأساطير. وكان يسعى، بجهد كبير، كي يحتفظ بمعزة زوجه وحب حبيبته. ولقد امتنع على النساء قبلها، وامتنع على النساء بعدها، وهذا هو، ربما، السبب في أنه كان لامباليـاً بأيما امرأة في لندن، حتى دون أن يتقصّد هذه المبالاة. كانت هي، ليلى، كل وجوده، بل أكبر من وجوده، وبرغم أن حبها، غير العذري، كان مستحيلاً، باعتبارها قريبته، فقد كانت هذه الاستحالة بالذات هي التي تؤرث شوقه، وتولعه، وتجعله قانعاً ولو برؤية طيفها.

فجأة دخلت ليديا غرفة الانتظار. ارتبك للوهلة الأولى، لكنه أطرق كي لا تقع عيناه في عينيها، والخاطرة التي عنّت له هي ان ينسحب ويتركها، غير أنه وأد هذه الخاطرة بسرعة. قرر البقاء، كأي زائر، مع أية زائرة، ما داما في غرفة الانتظار. وحين وضعت في فمها سيكارة، لم يتحرك لإشعالها لها، تجاهلها، وأظهر برودة عجب هو نفسه كيف واتته. ذلك أنها كانت صادرة عن قلة اكتراث لا عن انعدام لياقة. لقد تركها وشأنها، واستغرق في تدخينه وأفكاره، وقد أسف لأن صورة ليلى تبدّدت، ولم تعد تهاويل مرتفعة مع دخان سيكارته الى اعلى.

في البدء لم يتبادلا أيما كلمة. كان الكلام، بينهما، قد انتهى منذ ليلة أمس، وفي الصمت المحيط بهما، كان يستشعر إشفاقاً عليها، ونوعاً من التسامح حيالها، ردهما الى طبعه الذي يتلمس في المرأة الجانب الطيب، مقروناً باحترام يليق بها، مهما كان تصرفها. لقد كان تصرف ليديا يخصها وحدها، وهو، بالنسبة اليه، تصرف سويّ، لأنه اعتاد ألا ينظر الى التصرف المغاير كشيء معيب، ذلك أنه ألف أن

يعذر الناس في كل ما يبدر منهم، وإذا مر به طيف امرأة، مر الطهر والعطر، لأنه، كما كان يردد في ذاته، قد يقرب الإثم لكنه يتحاشاه، والإثم الكبير في نظره أن يفرض نفسه على أيما امرأة، بل أكثر من ذلك، ان يرغب في ما لا تتطلبه، وحتى في حالة التطلب، تلميحاً أو تصريحاً، كثيراً ما كان يعفّ.

وعلى نقيض من هدوئه، كانت ليديا مضطربة، وقد عزا ذلك الى الجراحة التي ستجرى لأمها، والتي تحدد موعدها، إلا أنه اكتشف، من عصبيتها، ومن تتابع إشعال السكائر، الواحدة من الأخرى، أن في دخيلتها ضغينة تكاد تنفجر، وقد اعتزم ان يتقبل انفجارها برد فعل ساكن، لاجماً كل ميل الى الانفعال الذي قد يُستجرّ اليه.

قالت مكفهرة الوجه، شرسة النبرة:

ـ أرى من واجبي أن أشكرك على موقفك الطيّب من أمي.

وقال لامبالياً:

ـ أنا أيضاً أرى من واجبي ان اشكرك على كرتونة السكائر التي رددتها الي، هذا لطف منك، لا في ردّ الهدية فقط، بل في الطريقة التي استخدمتها في ذلك.

ـ لا حاجة بي الى سكائرك إذا كنت تظن أن مثل هذه الأشياء ترضيني.

ـ سأتقبل هذه الإهانة، كما تقبلت غيرها، ولن أرد على استفزازك.

ـ أنا لم أتعمد إهانتك.. تصرّفك هو الذي شكل هذه الإهانة.

ـ أشكرك اذن، وأعتذر.

ـ لا حاجة للاعتذار.. يكفي ان تخرج من جلد اللامبالي غير اللائق بك.

ـ لا تحاولي تجريحي، ليس ذلك من الحسّ السليم في شيء.

ـ وهل تعرف الحس السليم أنت؟ أهكذا تقابل صديقة لك؟

ـ ماذا كان عليّ أن أفعل ! ؟

ـ أن تصافحني ، أن تمسح هذا العبوس الذي طالعتني به .

ـ قولي ما شئت .. أنا لا ألومك على شيء .. واذا كان لديك مجال لتصديق ما أقول ، فإنني أكنّ لك الاحترام ، برغم كل ما بدر منك أمس .

ـ لم يبدر مني أمس ما يستحق سحب احترامك .. جفافك أثارني .. مشيت الى جانبك طويلاً فلم تبادلني حديثاً ، بماذا كنت تفكر ؟ لا أرغب في إلقاء محاضرة عن أصول السلوك ، لكنك ، أنت ، كنت متعالياً ، فظاً ، منصرفاً الى الشيطان ، بينما كنت أمنّي نفسي بقضاء سهرة لطيفة معك .

ـ اذا كان للجرأة الأدبية مكان لديك ، أعترف بأنني كنت فظاً ، ومنصرفاً الى الشيطان ، وقد أثرتك ، واستحققت استخفافك ، فماذا بعد ؟

ـ لا شيء .. وثق أنني لا أكرهك .

ـ أمس أم اليوم ؟

ـ اليوم .

ـ وما بدر منك أمس ؟

ـ كان نزوة ..

ـ أما بالنسبة إلي فكان قراراً ..

ـ وإذا اعتذرت اليك ؟

رازها بنظرة طويلة ، محاولاً اختراق الحجاب الحاجز لما في رأسها من أفكار . هل حقاً ما بدر منها كان نزوة ؟ وهل مجرد انصرافه عنها الى تأمل حياته في لندن ، وما مر معه من أمر ذلك الرجل الغريب الذي أرمضه موته ، وأوجعه حال زوجه وطفله ، ثم تعبه من جراء الدفن ، وحزنه بسبب معرفته أن ابنته سائرة الى حتفها ، هل كان ذلك يستحق نزوتها المعربدة تلك ؟ إنه لا يعرف كيف قضت ليلتها ، ولا

أين، ولا يهمه في شيء ان يعرف، ولكن هذا التقلب المزاجي أمر لا يحتمل، فهو، بعد كل شيء، ليس مسؤولاً عنها، ولا معنياً بها، وليس مستعداً ان يفتح الصفحة التي أغلقتها معه.

قال:

ـ لا أرى موجباً لاعتذار أيّ منا. كان تعارفنا مصادفة. ولم تكن ثمة إلا بداية صداقة، لذلك ومهما يكن الوقت الذي سنلتقي به في المستشفى أو في الشارع، فإنه وقت لا شأن له لدي، وسأكون خلاله طبيعياً جداً، محاولاً جهدي نسيان نزواتك، والحماية التي دفعتك الى طردي من غرفتك.

قالت:

ـ هذا سيّان لديّ. أنا غير مغرمة بك، ولست مستعدّة لتقديم حساب لك عن تصرفاتي. أنا صاحبة نزوات كما قلت، ولا ضير في هذا الوصف، فقد يكون صحيحاً، وقد لا يكون، ومهما يكن فإننا سنعود الى بلدنا قريباً، وسأكتب اليك اذا رغبت أمي في معرفة ما آل اليه حال ابنتك. أما بالنسبة إلي فانك كما لم تكن.. أشعل لي هذه السيكارة من فضلك، فقد نفدت علبة ثقابي.. ودعني وشأني..

أشعل لها السيكارة، ودون أن يلتفت الى وراء، تركها وشأنها، حتى دون أن يخبرها أنه انتقل من الفندق.

- ١٢ -

غادر المستشفى دون أن يودّع ابنته. كان في حال جهمة رغب في حجبها عنها، وبدلاً من ذلك اتصل بها هاتفياً، معتذراً عن خروجه بسرعة، لأمر طارئ، واعداً أن يزورها منذ صباح الغد.

أخذ المترو إلى مسكنه الجديد . ابتاع بعض الأغراض لإعداد وجبة بسيطة لنفسه . وفي غرفته الجديدة تنفس الصعداء . لقد انتهى فصل مقيت من علاقة لما تكد تبدأ . لم يحكم على ليديا بالسوء ، بل بالزعونـة ، ووجد طبيعياً أن تتسلى في لندن ، وأن تتردد على حي سوهو أو غيره ، وأن تعاشر من تريد ، وقال في نفسه : « انتهى ما بيننا » ووضع نقطة على السطر .

كتب ، في الليل ، رسالة الى زوجته ، ضمّنها كل التفاصيل المطمئنة عن ابنتها ، وحدّثها عن مسكنه الجديد ، وعن سروره لانتقاله من الفندق ونأيه عن الضجيج ، وروى لها ، ممازحاً ، كيف أعدّ طعامه ، وهو حساء دجاج ، وكيف أخطأ فوضـع كميـة زائـدة مـن الأرز ، جعلت الحساء أشبه بكتلة واحدة ، وكيف أضاف الماء لإماعة الحساء ، وقال لها إنه سيتعلم الطبخ ، وستساعده في ذلك رنا حين تغادر المستشفى بعد أيام ، أو بعد اسبوع على الأكثر .

وبكثير من التهيُّب ، وبعد أن تناول قدحاً من الويسكي ، وأشعل عدة سيكارات ، كتب رسـالـة قصيرة الى ليلى ، انطـوت على شـوق مبرح ، راجياً أن تكتب اليه بسرعة ، وكل يوم ، وعن كل تفاصيل حياتها اليومية ، وبعد أن طالع فصـولاً مـن روايـة « أنـا كـارنينـا » لتـولستوي ، أغفى والكتاب على صدره ، دون أن يطفئ الضوء في غرفته .

ذلك أن الجهد الجسدي والنفسي الذي بذله في الأيام السابقة ، والتعب الذي أضناه ، والهموم التي تراكمت ، أبهظته ، طرحته ، أسلمته الى نوم عميق ، لمجرد أنه استرخى بعد توتره ، واستراح من علاقته مع ليديا ، وخلف وراءه كل تلك الارتباكات المزعجة ، الناشئة عن وضع وجد نفسه فيه برغمه ، فاندفع فيه ، ظناً منه أنه يفعل خيراً ، وأن من واجبه ، عند موت ابراهيم خليل النابلسي ، أن يواسي زوجه وأخاه عمر ، ويساعدهما في إجراءات الدفن ويدخل بعض الطمأنينة الى قلب

السيدة مارسيل الخائفة الى درجة الذعر، وأن يداري ابنته التي تجهل كل شيء عن مرضها الخطير الذي قرّر مصيرها التعس.

ومن بين كل تلك المزعجات التي تخلّص منها دفعة واحدة، كان الازعاج الذي رمته به ليديا، في تقلب مزاجها، ونزواتها الجنونية، وقد حمد ربه أنه انتهى منها، وأنه لم يرتكب أيما حماقة معها، وسرّه أنه استطاع أن يقنع ابنته أن المريض الفلسطيني، الذي يعيش في الخليج، ابراهيم خليل النابلسي، قد نقل الى جناح آخر، لعلاج معدته، وأن السيدة مارسيل تشكو من مرض داخلي، وبذلك أبعد رعب الموت، والذعر الهستيري الذي ألمّ بجارتها المريضة، عن أن يشكلا نكسة ما في صحتها، ويتركا أثراً سيئاً في نفسيتها اليافعة، المتفتحة، المغتبطة بوهم أنها شفيت، وستخرج من المستشفى وتعود الى دمشق معافاة عافية كاملة.

كان يحب، عندما يستيقظ، أن يبقى في الفراش، وأن يتناول قهوته وهو في سريره، ويدخن بضع سيكارات يعتدل لها مزاجه، ويعدّ نفسه لعمل اليوم، أو يتمدد متكاسلاً كسلاً ملوكياً، إذا لم يكن ثمة شغل عاجل يضطره الى الخروج باكراً.

بعد أن تناول قهوة الصباح، وقطعة خبز مع قليل من الجبن، أسرع الى ارتداء ثيابه وركوب المترو الى المستشفى. ينبغي له أن يزور ابنته، ويكون الى جانب السيدة مارسيل عند إجراء الجراحة، وسيرتّب، بعد فروغه من ذلك، بعض الضروريات للعيش في المسكن الذي يعدّ فيه طعامه بنفسه، وفي مقدمة تلك الضروريات التبغ، وبعض زجاجات من البيرة يضعها في الثلاجة، وكذلك بعض البيض والجبنة والمعلبات، وهذا كله سيقوم به عصراً، لأنه أزمع ان يبقى الى جانب ابنته، وأن يتناول طعام الغداء في مطعم قريب من المستشفى.

كان أكثر ما يضايقه أن يقدم لابنته مبررات لغيابه كلما تأخر عنها. وهكذا اضطر أن يكذب عليها من جديد، زاعماً أنه خرج من

المستشفى مسرعاً لمقابلة صديق له، واللحاق بالمصرف قبل أن يغلق أبوابه. وبكل براءة الطفولة، وما في ذاتها من ثقة بأقوال وأفعال والدها، صدقت ابنته روايته، وطلبت منه ان يساعدها على الجلوس في السرير، وأن يرفعه لها من وراء قليلاً، فلما فعل واستقام السرير، أسندت ظهرها اليه، وانصرفت الى تسريح شعرها الأسود، حالك السواد، المسبل، في طيّة خفيفة عند الخد، من جهة الفرق الذي أبرز وجهها الجميل، بعينيها السوداويـن، وتلك الميعة التي أكسبتها شفافية المرض بهاء خاصاً.

كانت السيدة مارسيل قد نقلت الى غرفة العمليات، فاستأذن ابنته وأسرع الى هناك، حيث وجد ليديا وحيدة تنتظر، لأنه ليس لها في لندن من ينضم اليها، ويشد من أزرها في تلك الهنيهات الصعبة، حيث يكون المريض تحت مبضع الجراح، وأهله ينتظرون على نار أمام باب الغرفة، وكلما انشق الباب، وخرجت ممرضة، أو أطل المخدّر برأسه، يهرعون مستفسرين عن سير العملية، وعن نجاحها، وانتفاء الخطر الملازم لها.

إن الأريحية، وفعل الخير، والمواساة، وكل ألوان التعاطف الإنساني، تفعل فعلها في النفوس، وتعود على من يقوم بها بشكر قلبي من الآخرين. ولقد عبرت ملامح ليديا عن هذا الشكر، لانضمام جهاد اليها. ردّت على تحيته بودّ، وبدت له كسيرة، تعبر حركاتها عن أسف لما بدر منها. كذلك أجابت بإقبال عن كل استفساراته حول سير العملية، وموعد بدئها، والوقت الذي تتطلبه، وبحياء يمازجه العتاب، سألته قائلة:

ـ لماذا تركت الفندق؟

ـ من قال لك ذلك؟

ـ ذهبت الى غرفتك فوجدت ساكناً جديداً يقيم فيها.

ـ استأجرت شقة في نزل صغير يبعد قليلاً عن المستشفى.

ـ أتحسب أن ذلك أجلب للراحة ؟
ـ لا شك في ذلك، فوق أنني كرهت الفندق.

راودتها فكرة أن تسأله لماذا ؟ وأن تعاتبه على فراره منها، غير أن كبرياءها حالت دون ذلك، فاكتفت بأن سألته عن عنوان مسكنه الجديد، وأبدت رغبة في تبادل عنوانيهما في الوطن، ومن كل كيانها، كما أحس، كان أسف ظاهر يعبر عن نفسه في دماثتها ولطفها معه. كان من الطبيعي أن يتبادلا الحديث، ويتقاسما القلق، من جراء تطاول وقت العملية الجراحية، ولما لم يكن لديهما ما يتكلمان عليه، لاذا بالصمت، وراح جهاد، على عادته، يقطع المجاز جيئة وذهاباً، الى أن خرجت الممرضة، وأبلغتهما أن العملية ستستغرق وقتاً طويلاً، وعليهما أن يستريحا في غرفة الانتظار، ويدخّنا إذا رغبا، ولا يقلقا أبداً، لأن كل شيء، في العملية الجراحية، يسير على ما يرام.

عندئذ وبغير كلام، اتجها الى غرفة الانتظار، ودخّنا صامتين، احتراماً للموقف الذي هما فيه من جهة، ولعدم وجود ما يقال بينهما من جهة ثانية. غير أن ليديا، العصبية بطبعها، لم تستطع صبراً على صمته، فسألته عما به، وعما إذا كان وجودها يضايقه، فلما نفى ذلك، أجابته:

ـ إذن لماذا هذا الصمت ؟
ـ وماذا أقول ؟
ـ أي شيء، وخاصة السبب في انتقالك من الفندق.
ـ أحسب أنني ذكرت السبب.
ـ لكنه غير مقنع.. أنت تفرّ مني، ولو علمت برغبتك في الابتعاد عني، لكنت تركت الفندق حتى لا أزعجك واضطرك الى الانتقال.
ـ أنا لا أفر منك، وانت لا تزعجينني أبداً..
ـ في هذه الحال يكون هناك ما لا تريد أن تتحدث عنه..
ـ قلت لك ألا سبب هناك غير ما ذكرت.

سكتت ليديا وساد الصمت من جديد. انسلّت خصلة من أشعة الشمس ونفذت الى الغرفة. كان ذلك بسبب ثغرة بين الغيوم، ما لبثت أن غامت، وظل ضوء الكهرباء وحده يلقي بأشعة باهتة على شخصيهما المتباعدين، في طرفي الكنبة الجلدية المستطيلة. وفجأة، ودون مناسبة، ذكرته ليديا بما قاله عن وجود صديقة في حياته، في بلده البعيد، وقالت إن هذا هو السبب في بروده حيالها، وفي هربه منها، ورحيله عن الفندق الذي كانا ينزلان فيه. عندئذ لجأ الى التمويه، قائلاً إن ما ذكره كان تباهياً، أو ربما زلة لسان، وأنه هنا، في لندن، لا يفكر بسوى ابنته.

لم تقتنع ليديا، كانت تحدس بأنه يخفي الحقيقة، لذلك أجابته بتوكيد صارم:

ـ لا تحاول خداعي، أنا على يقين بوجود صديقة ما.

ـ وما مبعث يقينك؟

ـ تصرّفك، سهومك، حال الرجل المحبّ التي لا تخفى على الأنثى.

ـ على فرض أن هناك أخرى، فهل نمّ سلوكي عن ذلك؟ وهل أساء اليك في شيء؟

ـ لا، ولكن كان علي أن أفهم ذلك، وأحترمه، فأجنّبك بعض ما أزعجك مني.

ـ تقصدين أن النزوة التي بدرت منك كان مصدرها الغيرة؟

ـ ليس تماماً، ولكن انظر.. حين يكون الرجل مع امرأة، ويفكر في أخرى غيرها، يشعرها بهامشية تمسّ، ولا أقول تجرح، عزّة نفسها.

ـ لكنني، تلك الليلة، لم أكن أفكر في هذه الأخرى، كنت راغباً عن الكلام، وهذا كل شيء، وأعترف أن ذلك لم يكن من اللياقة، ولكن ما حدث قد حدث، ولا فائدة من تذكّره.

ـ لنقل إنه تصفية حساب..

ـ ما كنت أقدر أن بيننا حساباً من هذه الناحية.

ـ ليس حساباً بالمعنى الحرفي للكلمة، لكنه عتب.

سكت راغباً عن الكلام. لقد أصبح سوء الفهم ذاك من الماضي، بينما اندفعت هي في الكلام تريد أن تفهم سرّ بروده حيالها، هذا البرود الذي آلمها أكثر مما كان يظن. أضافت:

ـ قد تقول: وما هذا العتب؟ ومن أين لي الحق ان أعتب عليك؟ إلا أن بودي، وقد افترقنا في المسكن، وغداً تخرج ابنتك من المستشفى ولا نلتقي ثانية، ان أصارحك بشيء، هو أنني ألفتك. الألفة غير الحبّ، أفهم هذا، ولكنها نوع منه. كنت أمنّي نفسي بأوقات سعيدة معك، وكان يلذ لي أن نتنزه، ونتحدث، ونتسكع ما استطعنا، وما سمح لنا الوقت، في شوارع لندن، وأن أتذوق قهوتك التركية، وأشرب بعض الويسكي معك، وأسهر في غرفتك، وأسمع منك أشياء جديدة وطريفة عن بلدك، وأقصّ عليك أشياء مماثلة عن بلدي، لكنك انصرفت عني الى التفكير بما لا أدري، وأهملتني وأنا أسير الى جانبك، وأحاول أن أتبادل الحديث معك. الخلاصة أنني حردت، ونرفزت، وأحسست، لبعض الوقت، بكره نحوك، لكنك لم تبادلني الكره، لم تحتدّ علي، وكان موقفك المتسامح، أو تلك الصفات الرجولية التي أظهرتها، سبباً في ندمي، الذي أفقد مبررات نزقي مرتكزاتها، فوجدت نفسي مجنونة صغيرة، وآلمني أنك انتصرت علي بخبرتك، بتجاربك، بصبرك، وأنني خسرت صداقتك برفضي الأحمق لها.

قال جهاد وقد استشعر، بدوره، ندماً لإسرافه في اتهامها، ولقصوره عن فهم تلك الأحاسيس الدقيقة، الصغيرة في حجمها، الكبيرة في معناها، وفي ملامستها للروح المرهفة:

ـ لا تسرفي في لوم نفسك، ولا في تعذيب ذاتك. أنا اكتئابي المزاج، ولك أقول هذه الحقيقة دون تحفّظ، ثم إنني مازوشي على نحو

ما، وقد تعذبت وعذبت نفسي، ولكن انظري كم يجهل الانسان الانسان الآخر، وهو يظن أنه يعرفه تمام المعرفة. النفس البشرية عجيبة، غريبة، وهي، من هذه الناحية، تشبه السمات الشخصية، فلكل إنسان عينان وأنف وفم وشعر وذقن، ولكن الملايين، بل المليارات الذين لهم نفس هذه العلامات، يختلف أحدهم عن الآخر، ولطالما تساءلت: «بماذا يختلفون؟» وحرت في الجواب، وكان أن اكتفيت بمفهوم عام، غير دقيق، غير محدد، هو أن لكل إنسان شيئاً ما، غير معروف، يميزه عن الآخر، وأن هذه أعجوبة الخالق في خلقه. وما نقوله عن ملامح الوجه، والجسد، ينطبق أيضاً على الأخلاق والمشاعر، وعلى النوازع التي لا عدّ ولا حصر لتباينها.

- ولكنك واسع الاطلاع، جمّ الثقافة إذ تعرف هذا كلّه، وترصده، وتملك القدرة على شرحه، فمن أنت، وماذا تعمل، وما هو اختصاصك؟

- أنا رجل عادي، موظف بسيط، أقرأ بنهم، وأملك دقة الملاحظة، وحين أجد نفسي مع فتاة غضّة، طيبة، قليلة التجربة، أروح، كما فعلت الآن، أعرض عضلاتي الثقافية، فلا تخدعنّك في شيء. إنني جاهل، وقد عجزت عن إدراك حتى الأشياء البسيطة، الواضحة في نفسك.

عادا الى جناح غرفة العمليات ولبثا صامتين كرة أخرى، وبعد وقت بدا طويلاً جداً، انتهت العملية الجراحية. خرج الطبيب الجراح، أعلن أن الجراحة كانت ناجحة. وبعد قليل فتح الباب، ودرجت عربة النقل خارجة منها، والسيدة مارسيل في غيبوبة البنج، فرافقها حتى الغرفة، وساعد في نقلها الى سريرها، وقالت رئيسة الممرضات: «دعوا المريضة تستريح، فهي لن تفيق قبل ساعات، ويمكنكما الانصراف، فقد تم استئصال الورم، ونأمل ألا يخلف ثانية.. تهانينا يا آنسة!»

بان الارتياح في وجه ليديا، وأقبلت على « السيروم » المعلّق قرب السرير تصلح من وضعه، وبسطت يد أمها فوق الملاءة البيضاء، وقررت البقاء الى جانبها، فقدم جهاد تهانيه بنجاح العملية، وانصرف الى ابنته يبشّرها، ويمازحها، ويطري تسريحة شعرها، وهي تبتسم في قرارة عينيها السوداوين، ثم غادر المستشفى، حيث اعترضته ليديا التي كانت تقف على باب غرفة الانتظار قائلة:

ـ آمل أن يكون السيد جهاد قد تفهّم حالتي النفسية وقدر دوافعي في ما أتيت من ولدنات.. إنني أعتذر!

قال جهاد:

ـ لا داعي لذلك. عذرتك، وآمل أن تعذريني.. الحياة جميلة، أليس كذلك؟ لنعشها برغبة، بعمق، بمحبة، ولننسَ كل ما عدا ذلك.

ـ لكنني سأراك أيضاً، أليس كذلك؟

ـ طبعاً!

ـ وبعد خروجنا من المستشفى وعودتنا الى الوطن سنتراسل.

ـ أعدك بذلك.

ـ أنت لطيف وكريم يا سيدي.

ـ وأنت طيبة، وفاتنة، ولن أزيد (وأضاف وهو يضحك): أنا لن أغازلك، ولا أجيد الغزل حتى لو أردته، وداعاً!

ـ الى لقاء.. الى صداقة دائمة.

ـ الى لقاء.. الى صداقة تدوم طويلاً، ولو عن بعد.

- ١٣ -

صفا قلبه تماماً. الاعتكار والموجدة وفكرة السوء التي تكونت في ذاته عن ليديا زالت تماماً. كان لا يستطيع أن يحقد، ولا أن يحمل

الحقد طويلاً، ومن طبيعته، أن يرضى بكلمة اعتذار، أو إيماءة أسف، فيفرح كطفل، لأن الآخر، الأخرى، وكل ما تسبّب في إزعاجه، أو حتى غضبه، قد سوي، فهو ينشد السلام الداخلي، ويسعده أن الخلاف، مهما يكن بسيطاً، كفّ عن تفكيره، أو أراحه، بعد انتهائه، من العصاب الذي يصيبه، إذ هو في نزاع، مهما يكن سخيفاً، يشغله ويؤرقه، ويحفر في ذاته، قارضاً كفأر مشاعره الرقيقة، المرهفة الى درجة المرض.

مضى يطوف في الشوارع وحيداً، شاعراً بوحدة، بوحشة، بعزلة لا يرتاح اليها، حين يكون عازفاً عن التأمل الذي اعتاده في خلوة. إنه في المدينة، وهو غريب، وليديا بقيت في المستشفى، وأمها لن تصحو من البنج قبل العصر، وابنته تكتب شيئاً ما في يومياتها كما اعتادت، وليست به رغبة أن يجلس في مقهى، أو يرتاد داراً للسينما تعرض، في مثل هذا الوقت، بل وعلى مدار اليوم، أفلاماً جنسية تتكرر هي ذاتها، وقد شاهدها مرة فانفعل، ثم تأذى، كأن غثياناً ألمّ به، مثلما تقزز وهو في صالة للعري، ولم يجد تجاوباً مع أجساد النساء العاريات، ولا مع ممارسات الحب أمام المشاهدين، فخرج مزمعاً ألا يعاود دخول هذه الأمكنة الموبوءة التي تثير القرف في نفسه.

تمنّى أن يلقى عربياً يأنس به، يتحدث اليه، يجالسه في بار أو مقهى، وحين عز ذلك، فكر بأنه ربما أخطأ لأنه خرج من المستشفى، فربما كان الى جوار ابنته، يتسلى قليلاً، وربما لو بقي في غرفة الانتظار، وهو يدخن وليديا معه، تنتفي وحشته، وأمام اعتذارها كان يجب أن يتسامح أكثر، وألا يدعها وحيدة، أو يدعوها، على الأقل، الى نزهة في المدينة، أو يصطحبها الى مسكنه الجديد، فتتعرف عليه، ويشربان القهوة، أو شيئاً من الويسكي، ويعدّان معاً، طعاماً خفيفاً للغداء، ثم يعودان الى المستشفى، حيث

تكون السيدة مارسيل قد أفاقت من المخدر، فيقول لها أشياء طيبة، مسلية، مشجعة، تحتاجها برغم الجراحة التي أجريت لها.

وفي محاسبة صارمة مع النفس، اعتادها منذ اليفاعة، وجد أنه كان قاسياً. ودّع ليديا وداعاً كأن لا لقاء بعده، وحين سألته، راجية، عما اذا كانا سيلتقيان ثانية، أجاب بما يشبه الصدّ، ولو أنه غلّفه بكلمات مؤاسية. كان تلك اللحظة، تحت وطأة بقايا كدر من فعلتها معه، وربما كان في حالة تشوّف لأنها هي التي عمدت الى استرضائه. كان ذكراً أمام أنثى، وأطمعه أن هذه الأنثى خضعت بعد تمرد، فاندفع، بلا وعي، الى إيلامها. إنها العنجهية التي تتستر بلياقة مدخولة، وهو يعرف نفسه جيداً، ويعرف أنه يحمل موجدته في أعماقه، كأي انسان يعجز أن يكون إنساناً كريماً، حليماً، نازعاً من صدره كل رواسب الغضب المكتوم، الغضب الذي لا يليق بما يزعم، بينه وبين نفسه، من سماح، وخلق قويم.

ورغبة في تلطيف ندمه على ما بدر منه من جفاء، راح يعلل فعلته بأنها كانت ضرورية لقطع كل صلة بليديا. لقد ودّعها بكلمات معسولة، مغسولة جيداً بماء الرضى، ووعدها بالمراسلة، وكان هذا، في وهم التعالي، كافياً كما قدر في نفسه. كان كرماً منه أو هكذا أراد أن يصوره، وأن يقنع به، غير أنه، في حقيقته، كان ازوراراً عن فتاة تحتاج الى نوع من رعاية منه.

على هذا النحو قصد مسكنه وفي نفسه شيء من الحنق على تصرفه المدفوع بدخيلة غير صافية، دخيلة أفسدت عليه موقفاً خلقياً يزعم أنه أصيل في ذاته، إزاء فتاة، مهما بدر منها، فهي خليقة بمعاملة ألطف وأكرم.

في مسكنه الصغير أعد فنجاناً من القهوة، دخن معه بضع سكائر وهو غائص في أفكاره، معتكراً من جراء ما حصل، نادماً على فظاظته التي يعرف، بحكم الاعتياد، أن يخرجها مخرجاً حسناً، مهذباً، لكنه

لا يستطيع، حين يتفحص ضميره، إلا أن يعترف أنه غير حسن وغير مهذب، ما دام لا يقوى على امتلاك فضيلة اللطف الحقيقي الذي ينبع من الأعماق، ويستقر فيها جوهراً، وروحاً لا تشوبه شائبة.

وفي محاولة لاطراح أفكاره هذه، والتماس وسيلة لنسيانها، عمد الى إعداد قدح من الويسكي المثلوج، تناول بعده شطائر من اللحم البارد أعدها مما في ثلاجته، واستلقى في سريره كدر المزاج، وراح يتقلب الى أن أغفى ونام نوماً مضطرباً الى العصر، معانياً في نومه المتقطع، الأسف والندم المتولدين عن أحاسيس معذبة، فلما استفاق ارتدى ثيابه على عجل، وغادر بيته الى السوق القريبة، فابتاع بعض المجلات العربية لابنته، وبعضاً من الفاكهة الطازجة، بينها عنب أسود مستورد من منطقة دافئة ما، لأنه في غير أوانه، ولأنه نادر، وهذا ما سيجعل ابنته تفرح به. كما انتقى باقة من الزهر، حسب أنه في تقديمها الى السيدة مارسيل، التي لا بد أنها أفاقت من البنج الآن، يكفّر عن ذنب كان لدى غيره، لدى انسان لا تعذبه حساسية مفرطة، لا ذنب، إلا أنه هو، في صدقه مع نفسه، حيال نبالة يصرّ على أن تكون من صفاته، كان يعتبر نفسه مذنباً، ويريد أن يتدارك الأمر ليستريح.

فرحت به ابنته رنا.. كانت إطلالته عليها مبعث سرور وراحة وطمأنينة، وحين عرض عليها ما يحمل من فاكهة، وبينها العنب الأسود اليانع، هتفت ضاحكة:

- من أين عثرت على هذه الهدية الملوكية؟

- عثرت عليها مصادفة، في السوق المجاورة للمسكن الجديد، وحملت اليك مجموعة من المجلات العربية المسلية، أما هذه الأزهار فللسيدة مارسيل، بمناسبة نجاح العملية الجراحية.

قال ذلك وتحول سائراً على استحياء نحو سرير السيدة، وكانت قد أفاقت من غيبوبة التخدير، لكنها ما زالت تعاني عقابيله، وما يزال

السيروم معلقاً في ظاهر كفها اليسرى، تغذية لجسمها المنهك بما نـزف من دم.

تناولت ليديا باقة الزهور بارتياح ظاهر، وشكرته مع ابتسامة صريحة، صافية، ثـم سعت في طلب إصّ تضع فيه الزهور، وهي مرتبكة قليلاً أمام بادرة غير متوقعة، هو وحده يحسنها، لأنه هو وحده يعرف أن يكتشـف خطـأه ويحاسـب نفسـه عليـه في الوقـت المناسب.

كان أول ما سألت عنه السيدة مارسيل:

ـ هل نجحت العملية الجراحية؟

قال جهاد مؤكداً:

ـ نجاحاً كاملاً.

ـ استؤصل الورم كله؟

ـ تمام الاستئصال.

ـ ألن يخلف ثانية؟

ـ ما أظن..

ـ قل الحقيقة..

ـ هذه هي الحقيقة، وهذا هو رأي الطبيب.

كان قد تحدث الى الجراح، عقب العملية، وعلم منه أن الورم منتشر، وأن حظها في النجاة ضئيل، لا يتجاوز الواحد في الألف، لكن الموت لن يكون سريعاً، وربما احتاجت، بعد شهور، الى عملية ثانية، وأخيرة.. كلام الطبيب هذا أحزنه، فقد كان يأمل ألا يكون الورم منتشراً الى هذا الحد، وأن يكون في مقدور الجراحة استئصاله، وأن يكتب للسيدة مارسيل أن تشفى، او تعيش بضع سنوات أخرى، وهذا ما أكده لها، دون أن يكون، في قرارته، واثقاً مما يقول، ولكن دون أن يكون، في قرارته أيضاً، مقدراً أن المرض قد بلغ بها هذه الدرجة المتقدمة.

لقد أجريت العملية الآن، ظهر انتشار الورم وتأكد، فماذا بوسعه أن يقول لها بعد؟ يكذب؟ والى متى يظل يكذب؟ ولماذا كان عليه ان يورط نفسه، قبل الجراحة، بالتأكيد على أن العملية ستكون ناجحة تماماً، وأن الورم سيستأصل كلياً؟ هل يندم لأنه فعل ذلك؟ هل تسرّع في كلامه وغشّها؟ ألم يكن ذلك ضرورياً؟ بلى! كان ضرورياً، وعليه أن يمضي به، وأن يخفف ما بها، ويطامن روعها، حتى بعد كل ما قاله الطبيب.

وهكذا، أمام إلحاحها في السؤال، أجابها مندفعاً في كذبته البيضاء، زاعماً أن الورم قد استؤصل تماماً. لقد أجاب إجابة مريحة، وهي إجابة لازمة حتى من الوجهة النفسية، لدفع شبح الموت المتماثل أمامها، فالمريض الميئوس من شفائه، يجب أن يتدرج في معرفة مصيره المحتوم، والأفضل ان يظل جاهلاً به حتى أيامه الأخيرة إن أمكن.

عادت السيدة مارسيل تسأله:

ـ تظن أن الطبيب واثق مما يقول؟

ـ ليس في وسع الطبيب إلا الكلام على ما رأى، وما رآه يدعو الى الطمأنينة، فالورم محصور، وهذا ما سهّل استئصاله كلياً.

ـ إذن سأشفى تماماً؟

ـ كوني على يقين من ذلك، فالمعجزة التي يصنعها الرب متوقّعة دائماً.

ـ تمجّد اسم الرب، أحب أن أومن أنه سيصنع لي معجزته المنتظرة.

لم تشارك ليديا في الحديث. ربما سألت الطبيب الجراح هي الأخرى، وعلمت منه ما علم هو. إنها عاجزة أن تقول الأشياء، في مثل حال أمها، بتوكيد حاسم.. هي لا تقوى على ذلك، لأنها تعرف أنه غير حقيقي، والكذبة البيضاء التي تؤاتي جهاد لا تؤاتيها، فنبرة صوتها تفضحها، ولهذا تمسك عن الكلام.

قالت السيدة مارسيل وقد اطمأنت قليلاً :

ـ إذن سيكون في وسعي السفر الى الوطن بعد التئام الجرح ؟

قال جهاد :

ـ هذا مؤكد ..

ـ وسأكتب اليك من هناك ..

ـ هذا يسرني جداً ، وسأكتب بدوري ، تبادلت عنوانينا مع الآنسة ليديا .

هزت ليديا رأسها مؤمنة على كلامه ، وأضافت سائلة :

ـ هل هذا وعد ؟

وضحك جهاد مصطنعاً المرح وهو يهتف :

ـ لماذا لا يكون وعداً ؟ سأكتب من كل بدّ .

قالت السيدة مارسيل :

ـ آمل أن تحمل رسائلنا أخباراً طيبة .

قال وقد وجد ثغرة لينفذ منها الى المزيد من طمأنتها :

ـ ستحمل أخباراً سارّة من كل بد ..

ـ أنت تبعث فيَّ ثقة غير عادية في الشفاء ؟

ـ وهي ثقة في موضعها .. قريباً نغادر المستشفى .

ـ متى تخرج ابنتك ؟

ـ بعد أيام ..

ـ وستبقى في لندن فترة أخرى للمعالجة ؟

ـ ستخضع لمعالجة أولية بالأشعة .. بعد ذلك نعود الى دمشق ، وهناك تتلقى علاجاً منتظماً بالأشعة لمدة شهر او اكثر .. ثم تعود الى المدرسة .

هتفت السيدة مارسيل :

ـ آه ما أحسن ذلك .. معنى هذا أنها شفيت تماماً .

ـ تماماً .

ـ كم سيكون هذا مفرحاً لأمها!

ـ سيكون مفرحاً لنا جميعاً، نحن أهلها..

ـ ولماذا تعود بهذه السرعة الى المدرسة ما دام العام الدراسي في نهايته؟

ـ هي تريد ذلك.. تقول إنها ستتعالج وتداوم على المدرسة، لا تريد أن يضيع مستقبلها..

ـ برافو! ابنتك رائعة يا سيدي.. ليس فقط لأنها جميلة، بعينيها السوداوين ووجهها الأسمر، الخلاب، وابتسامتها العذبة، المنبعثة من القلب، إنها رائعة بسبب من ثقتها الكاملة في الشفاء، وإصرارها على الدراسة.. (وبعد وقفة) انا أيضاً سأحاول، متى سمحت حالتي الصحية، مزاولة عملي، سأكتفي بالإشراف فقط، وربما حاولت، إذا قبلت ليديا، ان أدربها على ادارة العمل.

قال جهاد:

ـ أخبرتني ليديا بذلك، وهي تعتزم التعلم منك، حتى يكون في وسعها أن تتابع الإشراف بنفسها.. أليس كذلك يا ليديا؟

ـ هذا ما سأفعله.. يجب ان ترتاح ماما.. لقد أرهقها العمل.

قالتها ونظرت، خفية، الى جهاد. لقد فطنت الى لعبته. إنه يمعن في طمأنة أمها، كأنما ينفذ تعليمات الطبيب، أو يمضي في خطة رسمها لنفسه. إنه يريد أن يريح هذه الأم التعيسة، يعدّها على مهل لتقبّل فكرة الموت، غير انه، هناك، في الوطن، لن يكون موجوداً الى قربها، وعليها هي ان تفعل ذلك. انها لعبة ذكية، وأمها بحاجة اليها.. الانسان ضعيف. الانسان يتمسك بالحياة، لا يريد ان يفارقها، وفكرة الموت مخيفة، وأفظع ما يواجهه شخص ما ان يعرف مسبقاً أنه سيموت.. لقد ذعرت أمها في اليوم الأول لدخولها المستشفى، كانت تصيح في هستيرية: «لا أريد ان اموت!» ووحده جهاد استطاع إقناعها انها لن تموت، وهذا ما حمل اليها السكينة.. ترى تستطيع

هي، ابنتها، ان تحمل اليها هذه السكينة في اللحظات الحرجة؟

قال جهاد للسيدة مارسيل:

ـ أمس كنت في حالة قلق وترقب. كنت خائفة من الجراحة، وها أنت، وقد تمت الجراحة، هادئة.. وكذلك هي الأمور في كل شيء. إن نخزة الإبرة، تبدو صعبة قبل حدوثها، ولكنها يسيرة جداً عندما تحدث.

قالت السيدة مارسيل:

ـ ليست الاشياء كلها على هذا النحو.. انها لا تبدو سهلة عند حدوثها كما تقول.

ـ بل هي كذلك يا سيدتي، هي كذلك.. خوفنا وحده هو الذي يجعل من الطبيعي غير طبيعي، يدفعنا الى نوع من تضخيم الألم قبل حدوثه.

ـ وعند حدوثه؟

ـ ينتهي الألم، أو لا يعود موجوداً.

ـ أنت لم تجرب ذلك، وتتكلم كأنك جربته.. هل درست الطب في حياتك يا سيدي؟

ـ قرأت كثيراً من الكتب الطبية، او من الدراسات المتخصصة في الطب.

ـ اذا فهمتك جيداً فإن ألمي انتهى الآن؟

ـ هذا ما أردت قوله بالضبط.

ـ والقلق؟

ـ هذا نوع من ألم نفسي، ناشئ عن سبب يزول بزواله.. لقد كنت قلقة قبل إجراء الجراحة، وبحدوثها زال القلق، أي زال السبب..

ـ ومتى يزول قلقي الناشئ عن شكّي في عدم الشفاء؟

ـ عندما تشفين تماماً.

ـ وهل سأشفى تماماً؟

ـ أستطيع ان أقول نعم.. ولكن كفى كلاماً، أنت مرهقة!

جاءت رئيسة الممرضات وقاست حرارتها.. كانت طبيعية تقريباً. هذا يعني الاّ اختلاطات. انه شيء جيد جداً، وغداً أو بعده تستعيد السيدة مارسيل قواها، ويسمح لها بالجلوس في السرير، وفي السير قليلا، ثم يلتئم الجرح، وبعد ذلك تخرج من المستشفى.. لقد انتهت المتاعب. لا ألم ولا قلق، بل تحسن تدريجي الى أن تستعيد عافيتها كاملة.

هذا ما استنتجته السيدة مارسيل من تطمين رئيسة الممرضات، وكان جهاد يوافق على استنتاجها، ويزيد فيؤكد أنها ستشفى بعد الجراحة، مؤجلاً الكلام على الأشياء الأخرى، الأشياء المؤلمة، حين يخلف الورم، فالمهم في نظره كان وثوقها، ولو مؤقتاً، بالشفاء، وعندما تواجه، في المستقبل، حالة أمل جديدة، أو حينما تتدهور صحتها، يكون على من حولها ان يساعدها في تقبل فكرة الجراحة من جديد، ثم فكرة تقبل الموت كشيء محتوم بالنسبة للانسان. إنه نوع من التحليل النفسي، يُعالج به الذين يصابون بالسرطان، وقد اطلع عليه في احدى المجلات الطبية التي أخذ يكثر من قراءتها، لأنه سيكون عليه، في الآتي، ان يعالج به ابنته ايضاً، حين يتفاقم مرضها، وتعرف أنها ستموت لا محالة.

تُرى يأتي يوم وتعرف فيه ابنته أنها مريضة بالسرطان، وأنها ستموت لا محالة!؟

عندما خرجا من المستشفى، في نحو الساعة التاسعة ليلاً، كان حذر متبادل يقوم بينهما، هو وهي، جهاد وليديا. لقد ترافقا، ومرا سريعاً بالحديقة، وخرجا الى الشارع، دون ان يدري أي منهما كيف يبدأ الحديث، وإلام سيفضي بهما السير، وهل يفترقان ام يبقيان معاً.

العاصفة، وآثارها، وتوتراتها النفسية، زالت كلياً. كان ينبغي ان

يقع كل ما وقع بينهما من سوء تفاهم. نوبة « النوايا السيئة أو الحسنة » كفت عن إثارة أي مشاعر متضاربة. لم يعد أي منهما يتطلب من الآخر سلوكاً معيناً، كأنما قام اتفاق غير معلن بينهما حول هذه النقطة، علاقتهما الآن طبيعية جداً، فلا خبث ولا براءة، بل نوع من صداقة، يعرفان أنها ذات علاقة فريدة، لا هي بعلاقة مماثلة لما بين أخوين، أو بين شابين، أو بين صديقين او عدوين. ثمة مسافة، قررا احترامها والاحتفاظ بها. ذلك أن كلاً منهما يعرف ان ما بقي له في لندن لا يتعدى الأيام القليلة، وعليهما معاً ان يمضيا هذه الأيام المتبقية في وئام، وان يحتفظا بالمشاعر الخاصة، أو يغيّضاها في قرارتيهما، ما دامت العاطفة تطامنت، وتحولت الى رفقة، ولم يكتب لها ان تنمو، أو تعبّر عن نفسها تعبيراً حاراً، يتعدى بها تخوم الصداقة.

وليس معنى هذا أن علاقتهما تأطرت بدائرة من الفتور، فالفتاة معجبة بجهاد، وهو معجب بها، غير أن الاعجاب المتبادل توقف عند خط أحمر غير مسموح بتجاوزه، وعلى جانبي هذا الخط قامت معزة، استشعرها كل منهما، وقنع بها، والتزمها، وبموجبها صار التصرف طبيعياً من قبل الطرفين، كأن هذه المعزة لا تحتاج لتؤكد ذاتها، في الحديث أو المعاملة، إلا الى شيء من نفي الحذر، ومباشرة الكلام، للاتفاق على كيفية قضاء هذه الأمسية، وما سوف يليها من وقت قبل ان يفترقا نهائياً.

وكعادة المرأة، كانت ليديا هي الأجرأ في المبادهة، فقالت وهي تبتسم:

ـ وماذا بعد؟ هل نظل نسير، وهل نظل صامتين؟ وهل يعقل أنه ليس لدى أي منا كلام يقوله؟

ـ تعبت من السير؟

ـ ومن الصمت.

ـ لم أتقصد ذلك. لست صموتاً بل أنا مفكر.. أحس في أعماقي

بنوع من سأم يمازجه الهم، وأرى ضرورة، بهذه المناسبة، ان أنتقد نفسي. فحين يكون المرء مع صديق أو صديقة ويصمت، فإنه يجانب حسن السلوك.. ولقد وقع مني ذلك في الماضي واعتذرت عنه، والآن أكرر الاعتذار.. آمل ان تتقبلي وضعي وتفهميني.

ـ أحاول ان افهمك.. في المرة الماضية حسبت صمتك بَرَماً أو تعالياً، وقد آلمني ذلك، ثم اكتشفت أنني كنت على خطأ.. الاعتذار اذن متبادل، ولا حاجة بنا للعودة الى الكلام عما حدث.

ـ أوافقك على ما تقولين، وسأحاول ان اكون طيباً بقدر ما استطيع.. ما رأيك في ان نجلس في أحد هذه المقاهي؟

ـ اقتراح معقول.. لكن في نفسي كلاماً، ليس المقهى مكانه، فأنت تعرف ضجيج الشارع وجو المقهى.

ـ أعرفهما، ويسرني أن أسمعك في مكان هادئ، وما تبقى هو ان يتوفر لنا هذا المكان.

ـ في مسكنك!

هتف جهاد مبغوتاً:

ـ في مسكني؟ انه بعيد قليلاً، وعلينا ان نأخذ المترو.

ـ هيا الى المترو إذن، اذا كان ذلك لا يضايقك.

ـ أبداً.. يسعدني أن تزوريني في مسكني، وهو متواضع على كل حال.

ـ أليس أفضل من الفندق؟ ألست حراً فيه؟

ـ تمام الحرية، ولكن علي، في المسكن، ان أخدم نفسي بنفسي.. أصبحت أعدّ وجبات طعامي.. تأملي حالي وأنا أعمل في المطبخ.

ـ وماذا في ذلك؟

ـ لا شيء.. لا تفهميني خطأ.. أقصد أنني أجهل كيف يعدون الطعام، وأبدو أخرق في تصرفاتي.

ـ لست بأفضل منك في هذا المجال.. وعلى كل سنتدبر ما نأكله

اذا كنت جائعاً، أو نشتري بعض الأشياء ونحن في الطريق..

ـ لدي جبن ولحَم بارد وبيض.. وكذلك لدي البيرة والويسكي، وسنتذوق القهوة التركية و...

قاطعته:

ـ يكفي، لديك ثروة صغيرة من الأشياء، فلا تزد في إغرائي.. قطعة خبز وقليل من الجبن يكفينا.. انني أريد ان نتكلم، اذا كان هذا لا يضايقك.

ـ بعد كأس من الويسكي، لا يعود هناك ما يضايقني.. انظري، أصبحت أكثر من الكحول، وهذا غير جيد.. قد اصبح مدمناً، لكنني مضطر.. أشعر بظمأ شديد، وبحاجة الى أن أشرب.. التماساً للنسيان.

ـ وتنسى؟

ـ غالباً لا.. استرخي فقط.. وأروح أفكر، وكي أنام أتناول حبوبا مهدئة.

ـ لكنك، في مظهرك الخارجي، هادئ جداً، وفي سلوكك شيء من الحكمة، حتى أنني أحسدك وأنا أسمعك تتحدث مع والدتي..

ـ أنا، يا ليديا، مضطر الى اصطناع الهدوء.. لست حكيماً، وأكره الحكمة، أمقتها، أدعو إلى قتلها.. غير أنني ألوذ بها، كي أحسن التصرف أمام ابنتي التي تعرفين مصيرها البائس..

هتفت ليديا بنبرة مؤاساة:

ـ آه كم انت معذب اذن! وكم كنت غبية حين لم أكتشف ذلك في وقته!

أضافت:

ـ لقد كنت أنانية..

ـ لا عليك.. ها هو مدخل المترو.

حين استقرا في مقعديها متجاورين، كان إعجابها به يرشح من نظراتها وحركاتها.. انه ليس كما تصورته، وليس جافاً أو عاجزاً، وهي تشفق عليه، وتتخذ شفقتها طابعاً من المودة الخالصة، ولقد غدا عزيزاً عليها، أثيراً لديها. أصبح صديقاً ترغب، لولا اختلاف الموطنين، ان يبقى الى جانبها، خاصة في الظروف الصعبة التي ستواجهها بعد عودتها الى بلدها.

ومضى المترو سريعاً بهما، وهو يهدر في النفق الذي ينطلق فيه، وقد لاذا الآن بالصمت عن رضى. كان يفكر بكل ما مر معهما، ويحاول ان يحزر ما تريد ان تقوله له، وقد أشفق عليها بدوره لأنها حزينة، بعد أن عرفت أن مصير والدتها قد تقرر، وأن الورم الخبيث منتشر في المعدة بشكل تعجز الجراحة عن استئصاله كاملاً. لذلك سيخلف من جديد، وستضطر السيدة مارسيل الى جراحة ثانية، ولن تعمر بضع سنوات كما قدر، وسيكون على ليديا ان تواجه مصيراً بائساً كمصيره، لأن أمها، وقد عرفت حقيقة مرضها، ستكون في حالة تشنج واضطراب دائمين.. ان مهمة عسيرة، رهيبة، تنتظر ليديا، وهذا ما يؤلمه، فهي لا تحسن كما يحسن مداراة الموقف، وليس في وسعها إعداد أمها إعداداً نفسياً لتقبل فكرة الموت، وسيكون عليها، بعد موت هذه الأم، ان تواجه صعوبة البقاء وحيدة، إذا لم يكتب لها ان تتزوج قبل ذلك.

أعجبت ليديا بمسكنه دونما تحفظ. كان مسكناً صغيراً، مؤلفاً من صالون صغير، وغرفة نوم فيها سريران، والمطبخ يكفي لإعداد طعامه، والديكور من الخيش الذي يغطي الجدران، وقد علقت عليها بعض اللوحات، وهناك حمام صغير ازرق نظيف، وهذا كل شيء.

وبعد ان عاينت ليديا البيت، عادت لتجلس في الصالون، وانصرف هو لإعداد وجبة خفيفة، وصب لها كأساً من البيرة، ولنفسه كأساً من الويسكي المثلوج.

وبانتظار ان يصبح كل منهما في الجو ويـألفـه، راحـا يثرثـران، ويتذوقان الشراب، ويحاولان المرح ما استطاعا. وبرغم ذلك لم يكن الجو فرحاً أو حزيناً. كان حيادياً، ودياً الى حد ما، وكان الفضاء، من حولهما، مسربلاً بضوء مريح، غير باهر وغير مضب، ورائحة جدة المسكن، بديكوره الخيشي، والسكينة الناعمة، الهامسة من خلل الجدران واللوحات، وطعم المشروب السائغ، كل ذلك يدب كخدر ناعم في أوصالهما التي تسترخي مع كل دقيقة تمر. لقد عرف كل منهما الآخر. النزوة تراجعت الى وراء، وفي نفس جهاد انتفت تماماً. لم يعد ثمة ما يثير المشاعر، أو يعكر صفاء الجو الذي له رائحة جوز الهند، ولون البرتقالة الزرقاء. ما بقي هو المجرى الذي سيتخذه الحديث، وقد اعتزم، كل منهما، أن ينأى به عن الانزلاق على قشرة ايما فكرة خبيثة. وكان جهاد، كعادته، يحرك الكأس في يده لإذابة الثلج، بينما ليديا تترشف كأس البيرة ترشفاً هيناً، كأنما تخشى، لو تجرعته على دفعات كبيرة، ان تفسد النشوة عليها ما تريد ان تقوله وان تعرفه. وحين سألها جهاد عما إذا كانت جائعة، كي يعد لها مزيداً من الجبن واللحم البارد، أجابت أن ما أعده يكفي، وأنها سعيدة، ورغبت في ألا يفتح التلفاز، كي يبقى الحديث رائقاً، مركزاً، لأنه يدور حول مرض أمها.

فوجئ جهاد بهذا الاعلان.. ما كان يتوقع، أو يتقبل، العودة الى حديث المرض والمستشفى. غير أنه لم يرفض، ولم يقاطع، بل قال وهو يبتسم:

ـ حسبت أن لديك ما هو خطير، وبعيد عن المرض والمصيبة التي ينبغي لنا ان نتناساها ولو مؤقتاً.

قالت ليديا:

ـ سأحاول ان أتناساها، ولكن ليس قبل ان أعرف ما هو شعورك امام موت شخص عزيز عليك.

فكر جهاد قليلاً، وأجاب:

- الارتباك!!

- ثم ماذا؟

- الارتباك أيضاً!!

- ولكنك، في المستشفى، لا تبدو مرتبكاً، وتقوم بلعبة ذكية مع والدتي. كأن مسألة الموت مفهومة ومحلولة لديك.

تجرّع كمية أكبر من المعتاد من كأسه، وقال هادئاً: ـ لا أحد، في هذا الوجود، بلغ تلك الدرجة من اليقينية التامة حول الموت. انه، الموت، رهيب ومخيف، ومما يزيد في رهبته أنه لغز الانسان منذ الأزل، وسيبقى كذلك إلى الأبد، هذا ما خرجت به من قراءاتي وتأملاتي..

- ولكن يبدو أنك لا تخافه، في الوقت الراهن على الأقل، ودليلي أنك تتخذ منه موقفاً بارداً، حتى وأنت تعرف أن ابنتك ستموت قريبا!!

- لقد خفت الموت طوال حياتي، هذه حقيقة خالصة، لكنني كافحت ضد هذا الخوف، رغبة في تجاوزه، فإذا القدر يمتحنني، لا بموتي أنا، بل بموت ابنتي، وهذا ما يسبب لي الارتباك، إذ علي أن أواجه، بتدبر مسبق، كيفية سلوكي حين تعرف ابنتي أنها ستموت.

- من الخير أنها لا تعرف، ويجب ألا تعرف، لئلا تقع فيما وقعت فيه أمي.

- هذا صحيح.. يجب ألا تعرف، ولكن كيف السبيل الى ذلك؟ أنا أخفي عنها حقيقة مرضها، وسأخفيه عن أمها وإخوتها، سأحتفظ بالسر لنفسي، ولكن ما هو الثمن الذي علي أن أدفعه مقابل ذلك؟ أي ألم يعتصر القلب سأكابده؟ ان علي، في هذه الحال، أن أصبر، وهذا ما سوف أفعله، وعليك، أنت أيضاً، ان تصبري، ومنذ الآن، وأن تعدّي امك نفسياً لتقبّل فكرة الموت، رويداً، رويداً، لأن

المرضى الذين لا أمل في شفائهم، وخاصة مرضى السرطان، يعانون معاناة شديدة، إذا ما عرفوا مسبقاً أنهم سيموتون لا محالة.. أعدّي نفسك لمهمة صعبة، تدرّبي على برودة الأعصاب.

هتفت ليديا وهي تشرب ما تبقى في كأسها دفعة واحدة:

ـ ولكنني عاجزة، عاجزة تماماً.. أنا لم أفكر بالموت قبل الآن، ولم أقرأ عنه، وليس لي العمر الذي يكسبني خبرة في هذا المجال، لذلك قررت أن أتكلم معك عن الموت، وأن أعرف ما اذا كان صعباً الى الدرجة التي تجعل الانسان يصاب بالذعر كما وقع لوالدتي.

ـ هوّني عليك.. خذي كأساً أخرى من البيرة.. وأنا سآخذ كأساً أخرى من الويسكي.. هذا مفيد لكي نتكلم بهدوء، ونتقبّل الحقائق بهدوء أيضاً.

قال ذلك وصب كأسين. أشعل سيكارة. دارى انفعاله. تريّث كي يرتّب أفكاره، ينتقي كلماته، يعرض الموضوع بقدر ما يعرف، وبأمانة، من غير أن يخيف الفتاة، أو يخدعها. تذكّر أنها لجأت اليه تحت وطأة إحساس مبهظ، وأنها تريد ان تعرف، كي تستطيع، مقبلاً، ان تتصرّف، كما تذكّر أنه هو نفسه يريد ان يعرف أكثر، ليقتنع أكثر، وليتعلم ان يتصرّف بحكمة، حين تتردى صحة ابنته، وتقترب من تلك الساعة الرهيبة: ساعة الاحتضار!

كانت ليديا تراقبه وتنتظر. كانت تفكر وتنتظر، وكانت، في اللاشعور، تتمنى ان يقول لها أشياء لطيفة ومريحة، واثقة أنه يعلم أشياء كثيرة، وله خبرة عريضة، وأنه قادر ان يتابع لعبته الذكية، التي راقبته وهو يدير خيوطها حين كان يتحدث الى والدتها، راغبة، بصدق، ان تتعلم منه، وأن تواجه الأشياء مباشرة، كما يواجهها هو، وببرودة أعصاب مثله.

قال جهاد:

ـ ليس من مريض، حتى لو كان مصاباً بالسرطان، إلا ويخادع

نفسه في أمر الموت. إنه يظل يأمل، ولا ينقطع أمله إلا بانقطاع مجرى حياته، لذلك علينا، في مداراة مريض ما، مصاب بمرض لا شفاء منه، ان نغذّي أمله في الشفاء، ان نقوّيه، نساعده عليه، حتى لو اضطررنا الى الكذب.

ـ وهذا ما تفعله أنت!

ـ وهذا ما يجب ان تفعليه أنت، ويفعله كل منا، نحن الأصحاء الذين كتب علينا ان نواسي المرضى، ونعدّهم نفسياً لتقبّل فكرة أنهم سيموتون، ويواجهون عدماً، لا يعرفون ما فيه، وما بعده، ومن هنا كان العزاء في الدين، وفي فكرة الآخرة.

ـ أمي مؤمنة، متعلقة بفكرة الآخرة والجنة.

ـ وهذا ما سوف يخفف عنها، ويسهل إعدادها نفسياً.

ـ وبالنسبة إلينا؟

ـ سنظل نرتبك، كما ارتبك الناس قبلنا، وسيرتبكون بعدنا، بمن فيهم الفلاسفة والباحثون.

قالت ليديا بنبرة رجاء:

ـ آه لو يُكتشف دواء ضد الموت!

ـ هذا محال.. إن ما يهم الباحثين الآن، هو الاهتداء الى دواء يؤخر الشيخوخة.

ـ لماذا؟ هل الشيخوخة صعبة أيضاً؟

ـ إنها الانحدار الطبيعي نحو الموت.. وفيها تنمو غريزة عجيبة!

سألت ليديا متلهّفة:

ـ أية غريزة هذه!؟

نهض وأخذ يذرع الغرفة ببطء، وقال مبتسماً:

ـ غريزة الموت!

ـ كيف!؟ وغريزة الحياة!؟ أي صراع بينهما سيكون إذن!؟

ـ في البدء لا يشعر المرء بهذا الصراع. تضمر غريزة الحياة ببطء، وتبرعم غريزة الموت ببطء أيضاً. الصراع يكون عند الاحتضار.

ـ ولهذا يكون الاحتضار مؤلماً؟

ـ يكون قاسياً بأشد مما نتصور، وتلك هي المأساة! لقد راقبت المحتضرين، إنهم يقاسون أهوال النزع قبل الدخول، أو قبل الوصول، الى راحة الموت.. يحتبس لسانهم، يتسارع نبضهم، وتغيم الدنيا من حولهم شيئاً فشيئاً، فإذا طال احتضارهم، صلى الذين من حولهم، ودعوا لهم بسرعة الخلاص..

قالت ليديا فزعة، وهي تشعل سيكارة من أخرى:

ـ ويطول الاحتضار عادة؟

ـ هذا يختلف من شخص لآخر.. إنها المواجهة التي خافها حتى الفلاسفة، فقد قرأت عن فيلسوف أصيب، في شيخوخته، بعقدة الخوف من الموت، حتى شارف الجنون، ولم يكن خوفه من الموت بذاته، فهذا راحة، بل كان خوفه مما يسبق الموت، وهو النزع.. لذلك فإن الموت بالسكتة القلبية أفضل الميتات.

قالها وتوقف عن السير، ثم سأل وهو ينظر الى ليديا مشفقاً:

ـ أليس من الأفضل ان نكف عن هذا الحديث؟

ـ نعم، من الخير أن نمسك عنه، لولا أنني أريد أن أعرف.. أنت لا تستطيع أن تتصوّر ما سوف أقاسي، إذا طال احتضار أمي.. يا ليتها تموت بالسكتة القلبية، فلا تتعرض للعذاب.. السرطان، كما قال الطبيب، سينتشر بورمه الخبيث ببطء، وسيرافقه، في المرحلة الأخيرة، كثير من الألم.. وعندئذ تحتاج الى المورفين!!

ـ هل قال الطبيب كل هذا؟!

أجابت حزينة وهي ترتعش:

ـ نعم.. قاله استجابة لإلحاحي.. رجوته ان يصارحني ففعل.. قال

إن علي أن أكون شجاعة ولكن، يا الهي! كيف أكون شجاعة وأنا وحيدة!؟

عاود جهاد سيره البطيء وهو يقول في نفسه: «ما كان للطبيب ان يصارح هذه الفتاة الصغيرة بكل هذا.. أكاد لا أفهم عقلية الأطباء هنا.. إنها صورة بالغة الهول تلك التي رسمها هذا الطبيب بكلماته المحايدة وغير الضرورية.. عندنا لا يفعلون هذا.. الأطباء، عندنا، لا يصارحون المريض بمرضه، ويخفون الحقيقة عن طفلة كهذه».

لكن «الطفلة» كانت قد عرفت ولم تعد ثمة فائدة: «أي جحيم، وأي نعيم، هو هذا الوجود؟» كذلك فكر وهو يتحرك، والكأس في يده، وطلعة ابنته تتراءى له، في اصفرارها الزعفراني الذي ستصير اليه، عندما ينهشها المرض، نسيجاً بعد نسيج، ويأكلها الداء، قبل ان يأتي الموت ويريحها.

ساد الصمت لفترة. تدلى الضوء عنكبوتياً من السقف. تفتحت الأرضية الخشبية أشواكاً سوداً. نبت للشبح الذي في خياله نابان بارزان عن طرفي الفم. خاف. سيطر على خوفه. خاف من جديد، ومن جديد سيطر على خوفه. تغير طعم الويسكي في فمه، رغب عن الحديث، ندم لأنه تحدث أصلاً.. ما كان له ان يُستجر الى ما لا يريد. هو أيضاً سيواجه ما ستواجهه ليديا.. هي ستفقد أمها وهو ابنته، سيعانيان معاً، في بلدين مختلفين، وبعيدين، وفي زمنين متباعدين، ومختلفين أيضاً، لكن المعاناة ستكون واحدة.. معاناتها ومعاناة الآلاف أمثالها واحدة، في كل بلد، في كل حي، مرضى بالسرطان، وكلهم سيعانون، وذووهم سيعانون، وليس ثمة مفر.. هذا المرض الرهيب، ما زال رهيباً، قاهراً، فتّاكاً، والطب يقف عاجزاً.. ما أفظع كل هذا!

توقف عن الكلام الداخلي. تكلمت الغرفة بكل ما فيها. خيل اليه أن كل ما حوله، حتى ليديا المطرقة، يردّد: «ما أفظع كل هذا!

عجـزان اقترنا معاً: عجز الطب عن قهر الداء، وعجز الانسان عن فك لغز الموت، إنهما يفكران على مستويين معاً: ظاهري وداخلي. في الظاهر كانا يفكران بموت عزيزتين عليهما، وفي الداخل كانا يفكران بموتهما نفسه. ألم الآخرين لا يُستشعر إلا بمقدار ما نخاله ألمنا. مرض الآخرين يتمدّد في المخيلة ليغدو مرضنا نحن، برغـم أننـا نتظـاهـر بالعكس. كانا، في أعماقهما، يطرحان هذا السؤال: «وإذا أصبنا نحن بهذا الداء!؟» الكيفيـة التي يواجه بها الآخرون المرض، تغدو الكيفية التي نواجهه بها نحن.. الارتباك واحـد، في حـالـة الأنـا والآخـر، والعذاب، والألم، ومواجهة الموت، نعانيها بالنسبـة للطـرفين معـاً، ويظل طرف «النحن» هو الأشد ارتعاداً أمـام المواجهـة المحتملـة، مواجهتنا نحـن، لو كنا، لو صرنا، في نفس الموقف، وهذا ما نستبعده، رغبياً، لكننا لا نستبعده واقعياً، ومن هنا ينشأ الإشكال، فالمشيعون، الماشون في جنازة ما، قد لا يفكرون بأنهم في يوم ما قريب أو بعيد، سيكونون الْمُشيَّعين، سيكونون في التابوت المحمول على الأكتاف أو في سيارة نقل الموتى، لكنهم لا يقوون، حتى في نسيانهم هذه الحقيقة، إلا أن يتذكروها في اللاوعي على نحو ما، ولو عبر تساؤل عابر وبسيط.

ظلت ليديا مطرقة، باكية بصمت، بخوف، برجاء، وظل جهاد يسير ببطء، مبهظاً بالتخيلات التي أثارتها كلماته وتصوراته.. وفي هذا الموقف البائس، الرائن بثقله على كل منهما، اتفقا دون ان يتفقا، قررا، بغير كلام، أن يكفا عن الحديث في موضوع المستشفى والمرض والموت، وكذلك انتهت جلستهما دون ان تسمع كل ما كانت تريد سماعه، ودون ان يقول كل ما لديه ليقوله، فالطاقة النفسية لها حد على الاحتمال، يصعب ان تتجاوزه، والارتباك الذي يحسانه أمام مشكلتهما المتماثلة ظل ارتباكاً قائماً، وتلك هي تراجيديا الحياة حين توضع في مواجهة الموت!

في الصباح أفاق جهاد مصدوعاً: من الويسكي والتفكير معاً. نام نوماً مضطرباً، معجوناً بالهم، مدفوعاً بالهواجس، رأى خلاله أحلاماً كوابيس، لم تنفع في درئها الحبوب المهدئة. فقد جاشت، وعلت رغاءً مزبداً فوق الهدوء المطلوب، وسيطرت على الذهن القلق، المكدود، وأحدثت أثراً سيئاً، مصدره التفاعلات الكيميائية للدواء، وفسدان إيجابيته المصدومة بسلبية القابلية على الاستجابة من قبل الحواس.

نهض متثاقلاً، جاراً نفسه نحو مغسلة الحمام، حيث وضع رأسه تحت صنبور الماء البارد، ليطرد ما ظنه خماراً وما هو بخمار، فابترد الرأس، ولم تزايله الدوخة، وظل شيء ما يطن فيه، يغلي، يفور، يحدث حالة من عدم الصفاء، لم يألفها من قبل، أو لم يألفها بالشكل الذي كانت عليه الآن، فاستلقى على فراشه ثانية، ناشداً إغفاءة ما، إغفاءة قليلة، كفيلة بأن تريحه، وتعيد اليه صفاءه الذي كانت فرحته به، عند الاستيقاظ، فرحة غامرة، نادرة، ليس ثمة ما يماثلها، بين كل أفراح يومه. وعندما لم يستجب له النوم، جلس على حافة السرير، واضعا رأسه بين راحتيه، في حالة إطراق، وأعطى نفسه لتداعيات الخواطر المستذكرة، حول كل ما وقع له يوم أمس، وبالتخصيص في سهرته مع ليديا، هذه السهرة التي خيمت عليها كآبة قاتلة، فانتهت نهاية تشبه المأساة في بعض جوانبها.

قال في نفسه: «ماذا فعلت بها المسكينة؟ أنا لم أزد على أن أخفتها. كان يجب أن أتكلم في المطلق، فإذا بي أنساق الى الحديث على حالة بعينها، هي السرطان الذي سيودي بابنتي وأمها معاً. لقد أخافها ذلك الطبيب الثرثار، فنشدت عندي الطمأنينة، وبدلاً منها ثرت أنا الآخر وأخفتها بدوري. أرادت ان تعرف أشياء عن الموت، هذه الطفلة، وفي وقت مبكر من حياتها، لأنها ستواجهه في صراع والدتها معه، أما أنا فقد اندفعت، تحت وطأة شعور خفي، في الكلام على

الموت من خلال مواجهة ابنتي له، أو بالأحرى من خلال مواجهتي أنا، في المقبل من أيامي. لم أستطع إمساك لساني. أفرطت في الشراب فقلت أشياء غبية، وهي المسكينة استمعت واجمة، ثم خائفة، فمضطربة، وانصرفت الى غرفتها، في ذلك الفندق الذي ليس لها فيه أحد، لتواجه، في وحدتها، أشباه الصور التي رسمتها لها باللون الأسود، كأنما لأعذبها إذ أعذب نفسي. كنت سادياً ومازوشياً في وقت واحد. لم أرحم نفسي ولا رحمت غيري. ومن كان هذا الغير؟ فتاة في أول العمر، قد لا تكون رأت محتضراً أو ميتاً وجهاً لوجه، في حين رأيت أنا وخبرت، ولدي من التجربة ما يكفي لكي أتماسك، دون أن أفطن الى انهيارها المحتمل، بسبب الإبهاظ المتولد عن كلماتي القاسية، المأتمية، الصارخة في فجيعتها، الممعنة في تفصيلات دقيقة، ربما لن تواجهها، ولن تقع على مثلها، حتى في حال وفاة أمها، إذ سيكون ذلك، حتى لو حدث في يوم قريب، في مستشفى ما، بين أطباء وممرضات، لن يدعوها تشهد هول تلك اللحظات الرهيبة».

نقم على نفسه، ردّد أكثر من مرة «الويل لي!» كان، في اللاوعي، ينساق، مرة اخرى، مع حالته النفسية الميالة الى ممارسة التعذيب الذاتي. طبيبه في دمشق لفته الى هذه الحالة. نهاه عنها، لكنه، حتى مع المهدئات، ظل يقع في حبائلها ويمارسها. فعل ذلك ليلاً، وها هو يعود فيفعله صباحاً، وأخشى ما يخشاه ان يعاوده الاكتئاب وهو في غربته، بعيداً عن طبيبه وبيته وزوجته التي دأبت على التخفيف عنه، عندما تنتابه حالة من الوهن العصبي فلا يقوى معها على امتلاك القوة للتغلب على الأزمة.

لجأ مضطراً الى الحبوب المنومة، تناول حبتين دفعة واحدة، استلقى على السرير، كرة أخرى، وراح يعد الى المئة، ثم الى المئتين، وظل يعد حتى أغفى، فلم يعد يحس بشيء. مات دون ان يموت، كان ذلك نوماً ثقيلاً، خالياً حتى من الأحلام. انتهى التشوش، والحيرة،

والارتباك، وتعذيب النفس. ارتاح من تفتت الأعصاب، ومن الندم، والدوار، وغاص في سبات عميق، لذيذ، لم يفق منه حتى العصر، وعندئذ، وبمجرد أن صحا، تذكر كل ما مر معه، فاستطاع، بجهد، ان ينحي ومضات الاسترجاع، خجلاً من ضعفه، ناشداً إصلاح وضعه النفسي، مردداً كلمات «أنا قوي» «أنا قوي» «أنا قوي»، «أنا سعيد»، «لا أخاف» «لا أخاف»، وأجرى بعض التمرينات الرياضية، وغسل وجهه ملتمساً الانتعاش، ثم سار الى الثلاجة فتجرع زجاجة من الماء البارد.

كان متمرّسا بمثل هذا الهبوط النفسي. فقد عرفه كثيراً في حياته، وارتفع عليه كثيرا أيضا. كان يقول إنني أيأس في المساء، لأعود الى التفاؤل في الصباح. أهمد، خائر القوى، حيناً، ثم أنتفض فإذا أنا قوي العزيمة حينا آخر، لقد عالجت نفسي بنفسي، بأكثر مما عالجني الأطباء والأدوية. لحظة القوة، في ذاتي، أقوى من لحظة الضعف، وهذا الذي انتابني مساء أمس، كان ضعفاً طارئاً، اغتالني، أو حاول اغتيالي، فلم يفلح، كعادته، وها أنا، من جديد، أغتاله، أنفيه، أبدده كما يتبدّد الظلام، أمام نور ينبلج عن صباح يحمل بين جناحيه الهدوء والسكينة.

كان يندم ليس إلا.. يتساءل، وهو يستعيد السيطرة على أعصابه، «كيف حدث ذلك؟ لماذا سمحت بوقوع ما وقع؟ اكتأبت؟ ولكن لماذا؟ أي شيء، في هذه الحياة، يستحق أن أكتئب لأجله؟ مرض ابنتي؟ وأي إنسان غير معرّض للمرض؟ موتها، كلنا سنموت. السرطان مخيف، غير أن ثمة أمراضاً أخرى مخيفة أيضاً. السيدة مارسيل تعاني، وابنتها تتعذب، وغداً تواجه ما هو أسوأ: الاحتضار، إلا أننا جميعاً نعاني، وقد نعاني ما تعانيه، ويتعذب ذوونا، ونواجه الاحتضار بدورنا، وكل هذا من طبيعة الأشياء، من طبيعة الحياة، والمهم ألا ننهزم، المهم أن نواجه، ألا نخاف الحياة، فالعيش جميل،

حتى ونحن نتشظى نفسياً، ونتألم من الفقر والجوع والبطالة والمرض، إنه جميل، عيشنا الذي نقرره نحن، ونملك القرار فيه نحن، ولا ندع سفينة عمرنا تتلاعب بها الأمواج، وتحطمها، فتغور بها الى اللجة، أو تقذف بها على أيما صخر أو جبل».

هذه الأمثولة حفظها جيداً.. ينساها أحياناً؟ يتذكّرها ولا يستطيع العمل بها؟ ينوء تحت وطأتها؟ كل هذا صحيح، جائز، واقع، لكنه صحيح أيضاً أنه يقوى، بفعل إرادة مستعادة، ان يزحزح عن صدره حجر الرحى، فلا يسمح لها بطحنه، جاعلاً ما هو جائز، ما هو واقع، غير جائز، وغير دائم الوقوع، وهكذا ينهض مثل أليعازر. ينهض دون مسيح يأخذ بيده وينهضه. يفتح القمقم بنفسه ويخرج منه مارداً جباراً، ثم يعود الى إدخاله القمقم وحبسه، يعود، مرة أخرى، الى جهاد النفس، وينتصر، ينتصر لأنه يريد ان ينتصر، لأنه إنسان.

أطفأ سيكارته، وأزاح ركوة القهوة جانباً، وقال بتصميم: «كفى!» لقد عاد من ضياعه.. كان ضائعاً فوجد، كان رخواً وها هو يشتد، يستعيد لياقته النفسية، يمتلك طاقته الجسدية، يستنبت، من بذرة المقاومة، شجرة للمقاومة، يفتح، في عالمه الداخلي، ألف نافذة للأمل، يخترق القمة بضوء استولده من الضوء، هو ضوؤه الخاص. فحين تحيق به ظلمة اليأس، أو الخوف، أو الارتباك، يأتي هذا الضوء وينير له سبيل الفرج، فيطرح، حتى ندمه على ما حل به، لأنه تعلم ألا فائدة من الندم، ولامن تذكر الأشياء السيئة، ولا من تجريح النفس وتعذيبها، فليس هو وحده، في هذا الوجود، الذي تعتريه لحظة ضعف، وليس هو وحده، من يرزح تحتها، الحصان يكبو، الحصان ينهض، وقد كبا، ونهض، وليس ثمة ما يشفيه مثل أن يواجه، ويتحدى، ويتخطى، ويخرج الى الناس، ويعيش بينهم.

خرج من بيته الى الناس.. الى الدنيا. الى حديقة هايد بارك القريبة. رأى عجائز على المقاعد، ورأى شباناً، ورأى أطفالاً يلعبون، وتحت شجرة، وقف عاشقان، في حالة عناق، غير مبالين بمن حولهما. كانا يتمتعان بالعناق، بالحب، بالشباب، فقال في نفسه: «تبارك الشباب!» وعندئذ فكر بليديا، هذه الشابة التي اكتأبت أمس، وبكت، وذعرت، وذهبت الى فندقها، أو الى مكان ما لا يعرفه، ولا يدري ما حل بها، غير أنه واثق أن شبابها سيساعدها على تجاوز محنتها، وعليه، هو أيضاً، ان يساعدها، فلا يظهر أمامها غداً إلا وقد استعاد كامل عافيته النفسية، وإذا سألته عما حل به، سيقول لها كل شيء بصراحة، ودونما خجل، فليس هو بالسوبرمان، ولا بالانسان الحديدي، وهو يخاف كثيراً، ويتألم لمرض ابنته، ولمرض أمها السيدة مارسيل، ولألم جميع المرضى، لكنه يتألم لنفسه أكثر، إذا تركها فريسة لذئب الخوف النائم داخلها. هذا الذئب موجود دائماً، وفي الذات دائماً، ومستعد للوثوب، حالما تتهيأ له الفرصة، لكن تقييده، من جديد، ليس صعباً، أو ليس مستحيلاً، وحتى الراعي، وهو أعزل إلا من عصاه، يواجه هذا الذئب، يواجهه عياناً، وفي البرية، وعلى المنحدرات الثلجية، ثم ماذا؟ يهرب؟ يدع غنمه ويلوذ بالفرار؟ يتنازل له عن قطيعه؟ أبداً.. إنه يتصدى له، يصبح ذئباً مثله، يخرج من جلد الكلب الذي صار فيه ساعة الراحة، الى جلد الذئب الذي يتخلق به ساعة الخطر.

جلس على مقعد بعيد، جلسة استمتاع بالجو الربيعي، وبالشمس المنحدرة عن سمتها، في رحلة عمرها اليومية، هذه الرحلة التي تتخفى وراء الغيم، أكثر أيام السنة، ثم لا تظهر إلا نادراً، فتكون الشمس فتية في الصباح، ناضجة في الظهر، عجوزاً في الأصيل، وتتعلق بأطراف السماء، من جهة الغرب، وتتدلّى أشعتها، مقيمة نولا للخيوط الضوئية، الذهبية، بين طرف القبة المكور، وطرف الأفق المنحني،

وتظل كذلك حتى المغيب، حيث يتلقفها شدق حوت غير مرئي، حوت كبير، مجلبب بالسحب المحترقة، ويأتي الليل، معتماً أولاً، كالحاً ثانياً، ثم أسود يحجب كل شيء، باسطاً جناحيه الأسحمين على الكون، مرفرفاً فوق المدينة الكبيرة، رفرفة طائر تتخلل ريشه الأسود التماعات كهربائية ذات قوة اختراقية بالغة القدرة على التمزيق، وهكذا تتبقع وتختلط العتمة بالنور، وتسطع الأضواء في الشوارع، وعلى الواجهات، وفي رؤوس الأعمدة، وتلتمع، في وهن بالغ، نجمات بعيدات في السماء.

لقد رصد هذه الحالة الولوجية لليل في النهار، راقبها برقّة، وأسى، وودّعها بحزن شفاف، ثم سهر ونام وهو على أمل اللقاء مع الضوء في الصباح التالي. ولم يتغير عليه شيء في لندن، سوى أن مغيب الشمس لا يكون له هذا التدرج، وهذا الوقع في المدينة الكبيرة، فهي عبوس أكثر الأيام، وهي مضببة حتى كأن نهاراتها الرمادية وشاحات من الضباب لا حد لاتساع رقعتها.

وعندما جاءت الأمسية الربيعية، ولملمت الشمس آخر أشعتها، وهبطت الأردية الرمادية عليه فغمرته، قطع تأملاته المتلاحقة، المتفرقة، ونهض فخرج الى الشارع العام، وأسلم نفسه للسير، يتبع قدميه على غير هدى، وغير عجلة، ويرى الى المخازن من على جانبي الشارع، رؤية سائح يكتشف الأشياء على مهل، ويراقب حركة الناس من حواليه مراقبة من يريد ان يختزن في ذاكرته صور الحياة الليلية في تفصيلاتها، ومفارقاتها، وتمايزاتها عن صور الحياة في ليالي المدن الكبيرة الأخرى التي زارها.

هذا أول يوم له في لندن لا يزور فيه ابنته. وقد آلمه ألا يفعل، وقدر مدى القلق الذي أصابها من جراء غيابه، لكنه قدر أيضاً، مدى الأذى النفسي الذي كان سيلحقه بها لو زارها وهو على غير ما يرام، فقد اعتادت أن تراه فرحاً، مستبشراً، هادئاً، واثقاً، ويأبى إلا ان

تراه على هذه الحال، خاصة وهما في الغربة، وفي وضع المرض.. من الغد سيذهب اليها، وسيقول لها إنه كان مشغولاً، وسيخترع ما يراه مناسباً من وقائع هذا الشغل غير المعروف بعد، وغير المبرر، ولديه، في الليل وقت طويل للتفكير بذلك، وسيعلم من ليديا، ما كانت عليه حال ابنته في غيابه، وما كان وضع أمها التي تتعافى شيئاً فشيئاً بعد العملية الجراحية التي أجريت لها.

إنه مسرور رغم كل شيء. فقد اجتاز بيسر ما حسبه أزمة نفسية. كانت هذه مجرد قلق واعتكار مزاج. مجرد وهن في رباطة جأشه، لم تلحظه ليديا، وحتى لو لحظته فإنها لم تزد على اعتباره تأثراً بالحديث الذي كان يدور، فهو يذكر كيف استأذنت بالانصراف، وكيف ودعها، وأوصاها ان تطرح عنها الأوهام. ومع أنه على استعداد لمصارحتها بالحقيقة، انسجاماً مع عادته في عدم الكذب عليها، إلا أنه لن يقول لها أيما شيء عن حالة الاكتئاب التي مر بها هذا الصباح. يكفي ان تعلم أنه أفرط في الشراب، وفي الكلام على المرض، والموت، وكل تلك الأفكار السوداء، وأنه ذهب، أو ذهبا معاً، الى حد المبالغة، فالأمور، في واقع مجراها، لن تكون بالسوء الذي تصوراه.

لا يدري كيف وجد نفسه في حديقة المستشفى. طفق يتمشى فيها وهو يفكر بزيارة ابنته، ولو كانت الزيارة متأخرة. لكنه تردد، وفكر بليديا وراح يتمشى أيضاً بانتظار خروجها، لن تتأخر كثيراً، ففي الساعة التاسعة، أي بعد قليل، تنتهي الزيارات، ولدى خروجها سيقترح عليها جولة صغيرة في المدينة، ويسمع منها، خلال ذلك، كل شيء عن أمها وابنته. إن المساء الربيعي يغري بنزهة كهذه، فقد كان جميلاً كما لم يعهده من قبل، ومن عادة السماء في لندن أن تغيم أكثر في الليل، غير أن الليل اليوم استثنائي في بهائه، ولذعة البرد الخفيفة محتملة، بل هي منعشة، وهذا الصحو البديع، الذي سمح برؤية النجوم، كان مؤاتياً لحالته النفسية الرائقة، حتى أنه اعتزم ان يدعوها

للجلوس معه في أحد مقاهي الرصيف، وتناول فنجان من القهوة، ما دام يود الثرثرة قليلاً، ليخفف من أسف يعتاده لأنه لم يزر ابنته اليوم.

ولم تتأخر ليديا في مغادرة المستشفى، لكنها فوجئت به في الحديقة، وقد هتفت منذ رأته:

ـ أنت هنا!؟ وماذا تفعل!؟ ولماذا لم تدخل!؟ كانت ابنتك بانتظارك اليوم كله.

ـ وأنا كنت مشغولاً اليوم كله، كتبت بعض الرسائل، وقصدت شركة الطيران، ثم البنك، ولقيت بعض المعارف مصادفة، وكان علي أن أساعدهم ففعلت.. لم أفرغ من مشاغلي سوى في المساء، وكان الوقت قد تأخر كثيراً على الزيارة.. كيف هي والدتك؟

ـ أفضل من يوم أمس. لا حرارة، لا اختلاطات، الجرح يلتئم، وظني أننا سنعود الى الوطن قريباً..

أضافت:

ـ سأل الطبيب المساعد عنك.. ابنتك حرة في مغادرة المستشفى ساعة تشاء، أبلغوها ذلك، لكن الطبيب يريد ان يتحدث اليك.

ـ سأكون في المستشفى غداً صباحاً.. أية أنباء سارة هذه التي تحملينها؟

ـ حقاً؟! وهل أنت مسرور؟! كنت أمس على غير ما يرام..

ـ أفرطت في الشراب قليلاً، وكذلك في الحديث. كنت سوداوياً قليلاً..

ـ أنا هي السبب.. أردت أن أعرف منك أشياء كثيرة عن المرض والموت.

ـ وأنا أفضت في الكلام عليهما فأخفتك.. أليس كذلك؟

ـ بصراحة نعم.. لم أنم ليلة أمس. أبقيت النور مشتعلاً حتى الصباح...

ـ حتى الصباح؟ وكنت خائفة إلى هذا الحد؟
ـ نعم وقد فكرت أن أتصل بك هاتفياً.
ـ ولماذا لم تفعلي؟
ـ خشيت أن أزعجك.. أنا لا أريد أن يبدر مني أيما شيء يضايقك.

قال مبتسماً وهما يسيران في الشارع المقابل للمستشفى:
ـ لن أكون أحمق مرة أخرى، ولن أتضايق أبداً.. أنت صغيرتي العزيزة، العزيزة جداً يا ليديا..
ـ يا صديقي الطيب.. المصيبة المشتركة طهرت نفسينا.. انني سعيدة بك.. وكنت أفكر أن أقصد منزلك..
ـ كان هذا تصرفاً طيباً منك لو فعلت، لكننا تلاقينا على كل حال، ولن نتكلم اليوم على أيما شيء يسيء إلى صفاء هذه الليلة الربيعية.. إنني مفتون ببهاء الطبيعة..
ـ دعنا نستمتع بالطبيعة إذن.. كان اليوم مشمساً، وقد خرجت ابنتك في نزهة قصيرة، حول المستشفى، دون حاجة إلى عربة.. سارت على قدميها بمساعدة الممرضة، وكانت مسرورة جداً..
ـ يا حبيبتي.. لكم اشتقت إليها.. هذه الصغيرة أحب أبنائي إلى..
ـ هل ذلك لأنها مريضة..؟
ـ ربما.. بل من المؤكد.
ـ آمل أن تشفى.. لقد أصبحنا صديقتين.
ـ نحن أصدقاء.. وسنفترق أصدقاء، وسوف نتراسل.. هل ستكتبين إليّ دائماً يا ليديا؟ افعلي كرمى لله.. ابعثي بأخبار مطمئنة.. لكم أتمنى الشفاء لوالدتك والتوفيق لك.. قال شاعر: من الأيام السود إلى الأيام البيض، وستكون لنا، نحن أيضاً، أيام بيض..
ـ برغم ما ينتظرنا؟

ـ برغم ما ينتظرنا.. الزمن يشفي الجراح.. وسيندمل جرحانا.

ـ ما أحسن ما تقول.. إنني سعيدة بلقائك.. لقد نمت بعد الظهر.. وأشعر أنني على مايرام.. ولكن إلى أين تمضي؟

ـ إلى أحد مقاهي الرصيف.. سأبقى مع هذا الليل الربيعي.. أحسب أن فنجاناً من القهوة، في جلسة هادئة، سيكون متعة، ويزيد من صفاء مزاجنا، ما رأيك؟

جلسا في أول مقهى صادفاه. تناولا القهوة، ودخنا، واندغما في لطف الطبيعة، تذوقا الطبيعة، استشعرا الهناءة، نسيا حزنها.. ومن جديد نبتت في قرارة كل منهما هذه الامنية: ما أجمل أن يعيش الانسان في عالم بغير أحزان!

- ١٦ -

كان الدكتور فيليب، الطبيب المساعد الذي يتكلم الفرنسية قد طلب فعلاً، في اليوم السابق، أن يجتمع به. ذلك ما أبلغته رئيسة الممرضات إلى رنا، وبشرتها بالخروج من المستشفى، فالجرح قد التأم نهائياً، وتستطيع، لمدة أسبوع واحد، أن تتردد على مستشفى آخر، لاجراء معالجة بالاشعة، وبعد ذلك تعود إلى الوطن.

هذا النبأ الطيب، كان قد تفتح كوردة في ذات الفتاة. ليس في ذاتها فقط، بل على وجنتيها أيضاً، والضوء الوردي الأبيض، شع كذلك من عينين سوداوين، في الوجه المتوج بالليل، الملون بسفرجلية خفيفة، تعطي لتقاطيعه المرسومة رسماً اسبانياً، قدرة على التأثير المضاعف، الذي أدهش والدها بسمرته الحلوة، المحببة، الفاتنة في أكثر من أيما وجه آخر رآه، فكأنما ابتسامتها، واستدارة ذقنها، وأسنانها البيض، اللامعة، قد أكسبته بهاء فنياً، مما في رسومات فنانين غجر.

ولم يكن جهاد، بسبب من فرحة ابنته التي نسيت معها كـل شيء، بحاجة إلى اختراعات عن تغيبه نهار أمس بطوله. قبلته حين انحنى عليها، أخذت يده وشدت عليها، صاحت مزقزقة، كيامة تهدل:

ـ شفيت يا بابا.. سأخرج من المستشفى!

وصاح جهاد مندفعاً في تمثيل فرح حقيقي، عجب هو نفسه كيف واتاه:

ـ ما أروع ما تقولين يا حبيبتي.. سأهتف الليلة لوالدتك بالنبأ السعيد!

ـ وددت لو كنت أنا من ينقل إليها النبأ.

ـ أنت ستنقلين لها التفاصيل.. غداً مساء، في البيت، نتصل بها هاتفياً..

ـ كم أنا مشتاقة لسماع صوتها.. ولصوت أخي أيمن...

ـ وكم هم مشتاقون لسماع صوتك.. وللاطمئنان عنك، ومن فمك بالذات.

ـ لذلك لن أكتفي بالهاتف.. سأكتب رسالة، رسالة طويلة.. سأقول كل شيء، سأتحدث عن أيامي الحلوة في لندن.. سأنقل بعـض ما دونته في دفتر يومياتي..

ـ كم أنا مشوق إلى قراءة ما في هذا الدفتر.

ـ هذا إذا أعجبك.

ـ سيعجبني من كل بد.. أعرف قدرتك على التعبير (وبعد وقفة) ولكن كيف هي صحة السيدة مارسيل..؟ أخذنا الحديث.. سأذهب إليها..

قال ذلك وتحول إلى الطرف الآخر من القاعة. كانت السيدة مارسيل تدخن. كانت ترى إلى فرحة الصغيرة وتتأملها بكثير من الحب والحنان، وليديا تقف جانباً وتبتسم، واليوم كله منذور للبهجة، فلا أحد منهم يريد أن يقول ما يسيء إليها، وحتى هما، جهاد وليديا، اللذان يعرفان الحقيقة تناسياها. ولد النسيان نسياناً. فارق الذاكرة.

والشمس المنيرة في الخارج، لليوم الثاني على التوالي، تضفي على القاعة وضاءة ودفئاً، والذكريات تنثال، فالسيدة مارسيل، منذ الصباح، وهي تتذكر، تعيش طفولتها وصباها، تتصور مدينتها، وحيها وبيتها وأيامها الخوالي، وتود، برغبة موجة تترقرق على ساحل رملي، أن تصير موجة متوّجة بالزبد، وتتهادى، مدفوعة بنسمة خفيفة، نحو شاطئ أحلامها التي اعتادتها هذا الصباح المشرق، الصباح الذي يذكرها باصباح بلدها البعيد، كأنما شفيت هي الأخرى، وتستعد، في رحلة حلم، أن تعود، وأن تغادر السرير، وتتناول قهوة الصباح وهي في بيتها الجميل، الذي تتطاير عصافير الدوري بين قرميده الأحمر، وتزقزق وهي تحط، مرحة، على افريز النافذة.

قال جهاد:

ـ أنت في صحة جيدة اليوم يا سيدتي، هذا مفرح لنا جميعاً.

ـ إنني أتمتع بالشمس.. هل تحب الشمس أنت؟ نحن، أنت وأنا، من بلاد الشمس، ونجد فيها أنسنا ونجد ماضينا، وذكرياتنا.. الذكريات حلوة ياسيدي، ومرّة أيضاً!

ـ ذلك أنها حياتنا.. ولكن، في مثل هذا اليوم الجميل، تأتي الذكريات الحلوة فقط، أليس كذلك؟

ـ ماذا ترى أنت؟ من جهتي، أفكر تفكيراً أسيفاً بهذه الشمس.. يحزنني غيابها..

ـ ولكنها ما تزال في رائعة النهار..

ـ أعرف .. لكنها، بالنسبة إليّ، إلى غروب.. أتخيل يوماً ما، بعيداً أو قريباً، أنها ستصبح كشمعة، ومثلها تنطفئ رويداً رويداً، ثم يكون الظلام.. أو يكون لا شيء.. الظلام، يا سيدي، ثم لا شيء..

ـ وبعد الظلام، النور، بعد الليل الفجر.. لنفكر بالفجر، إنه فجرنا، لنا..!

ـ انه لكم.. أما بالنسبة لي.. رأيت في وجه الطبيب شيئاً.. لا

أقدر أن أحدد ما هو، لكن في وجهه شيئاً.. وهذا الشيء هو.. ماذا أقول؟

- ليس في وجه الطبيب سوى البشرى.. الجراحة نجحت، وقريباً تخرجين من المستشفى وتعودين إلى الوطن. كم هو رائع هذا!

- نعم، إنه رائع، لكن روعته زائلة.. سأرى مغيب الشمس، هناك، في بلدي، ولن أعود إلى لندن.. لدي إحساس أن شمعتي لن تظل تشتعل طويلاً.. ومع ذلك أرفض هذا الاحساس. أكذبه.. أريد أن أقتنع أنني شفيت.. أخادع نفسي في أمر شفائي.. أستنبت الأمل، وأتمسك به.. آه لو كان أملاً حقيقياً.. لو أشفى، لوينتفي الموت، وتبقى الحياة.. ما أطيب الحياة يا سيدي، أن أعيش، أن نعيش، دون شعور بالموت، ودون موت.. هل يأتي يوم يجدون فيه علاجاً للموت، فيعيش المرء، ويعيش، ويستمتع بعيشه إلى ما لا نهاية؟

- وماذا نصنع، عندئذ، بالشيخوخة؟ عدم الموت هو الخلود.. تعرفين اسطورة جلجامش؟ كان قوياً وكان له صديق يدعى أنكيدو، وحين مات حزن عليه، وفكر بالموت فخاف، وعندئذ قرر أن يبحث عن الخلود، فسافر في طلبه، واستطاع، بعد جهود، ومشقات، ومغامرات، أن يحصل على عشبة الحياة، عشبة الخلود، وفي طريق عودته تعب، فنام عند بئر، وأفلتت عشبة الخلود من يده، فجاءت أفعى وأكلتها..

- ملعونة الأفعى.. لولاها! لماذا أفلت جلجامش عشبة الخلود من يده؟ لماذا لم يضعها في عبه؟ في مكان ما أمين من ثيابه أو جسده؟»

- لأن الأسطورة، عندئذ، تبطل أن تكون أسطورة.. تبطل دلالتها، يكون ثمة خلود، وكل ما في الحياة، يقول إنه ليس هناك خلود، ولا يمكن. حين نشيخ، نعرف أنه لا خلود، ولا ضرورة له.

- ومع ذلك، أريد أن أعيش حتى أشيخ..

- أرجو ذلك.

ـ تراني أعيش؟ قل أنت، ولكن لا تكذب، لا تخدعني.

ـ أتمنى لك أن تعيشي.. وهذا كل ما أستطيع قوله.

ـ إذن أنت لا تقول شيئاً.

هتف جهاد وهو يصطنع الضحك:

ـ كيف؟ وبعد كل ما قلته؟.. إنني لا أكذب، صدقي ذلك يا سيدتي، أتمنى لك أن تعمري طويلاً..

ـ وأنا أتمنى.. ولكن الواقع.. المهم.. ها هو الطبيب!

دخل الطبيب سايمون ومساعده.. وتوقف عند سرير رنا وربت على خدها كعادته، وقال:

ـ غداً ستخرج!

ترجم الطبيب المساعد، وقال جهاد لابنته:

ـ الطبيب يقول غداً ستخرجين.

صفقت رنا من فرح وسألت:

ـ انتهت المعالجة!؟ شفيت تماماً!؟

قال والدها:

ـ شفيت تماماً.. وإلا لماذا يخرجونك؟

وقال الطبيب المساعد فيليب:

ـ أعددنا تقريراً عن حالتها.. ولديّ ما أقوله لك، في مكتبي.

ـ متى؟

ـ بعد انتهاء الزيارة إذا شئت.

ـ ولكن لديّ ما أستفسر عنه.. وسيكون كرماً منك أن تفسح لي مجالاً كافياً.. الا تكون مستعجلاً أو مشغولاً.

ـ فهمت.. تريد أن تعرف أشياء غير التي في التقرير.

ـ أشياء كثيرة.. تفيدني في المستقبل، بعد العودة إلى دمشق.. وأشياء أخرى، لا أجد جواباً لها.

إبتسم الطبيب:
ـ وتعتقد أن لها جواباً عندي؟
ـ هذا ما آمله.. أرجوك يا سيدي، امنحني وقتاً كافياً، فأنا أب، وأريد أن أعرف..
ـ كل ذوي المرضى يطلبون مثل هذه المعرفة، ولكن لدينا شغلاً قبل الظهر.
ـ ليكن موعدنا إذن بعد الظهر، أو في المساء.. أرجوك، امنحني بعضاً من وقتك.

فكر الطبيب فيليب، وتأمل هيئة الأب الضارعة، وتكلم شيئاً ما بالانكليزية مع الطبيب سايمون، وقال:
ـ سيكون لديّ وقت في موعد الشاي، عند العصر، وتستطيع أن تأتي إلى مكتبي، وسأعطيك التقرير، وإذن الخروج، ويمكنك الآن أن تدفع الحساب، وتنهي المعاملات المطلوبة، وإلى اللقاء...
ـ إلى اللقاء دكتور..

انتهت الاقامة في المستشفى، رنا جالسة في سريرها تبتسم. الأب يتنازعه شعوران: مشاركة ابنته فرحتها، والأسى على مصابها. قال في نفسه: «كم كان رائعاً، رائعاً فعلاً، لو أنها شفيت؟ لماذا بعض الأفراح لا تكتمل، ولماذا بعضها يشوبه حزن أليم دفين كهذا الذي أنا فيه الآن؟ الوداع يا سيدة مارسيل، أنت أيضاً ستخرجين قريباً. أنت لن تفرحي لخروجك من المستشفى كما تفرح ابنتي. أنت تعلمين وابنتي لا تعلم. من الخير أنها لا تعلم، لتعش أياماً أخرى سعيدة، ولتكن أيامك الباقيات مريحة أنت أيضاً. ليديا لا تشارك في الفرح، تعرف أنه مصطنع، تعرف أنه كاذب. وهي تتأملني بنظرات خاصة، أنا وحدي أفهمها. نظراتها تقول ما لا يقال. يتبطنها حزن على هذه التمثيلية التي نحن أبطالها، يزداد حزنها لأننا سنفترق. ستبقى وحيدة. كتب عليها أن تبقى وحيدة، فهي تسأل بغير سؤال: ألن نتلاقى؟ تسأل

صادقة، لا كما تساءلت من قبل وهي غاضبة وأنا لا أحير جواباً. قد لا أعود إلى المستشفى. لا تحتمل أعصابي العودة إلى المستشفى. سأتصل هاتفياً. وقد تأتي هي لزيارتنا، ربما في يوم السفر يلوّح بعضنا لبعض بالأيدي. يكفي أنني لا أودع السيدة مارسيل كما ودعت جثة الفلسطيني إبراهيم خليل النابلسي. هذا دفنّاه هنا في لندن. دفن في مقبرة الغرباء، وسيظل غريباً. كل ما بقي منه، وكل ما عادت به امرأته من لندن، قميصه وبنطاله وحذاؤه. ولماذا الحذاء؟ القميص والبنطال يكفيان. انها ذكرى! الذكرى تكون صورة، تكون منديلاً، تكون كلمة تنطوي على اسم من نحب. من كنت تحب يا إبراهيم؟ زوجتك؟ أولادك؟ طفلك الرضيع؟ أخاك؟ أمك؟ أهلك؟ وما كانت كلمتك الأخيرة؟ ليس هذا مهماً، لم يكن إلى جانبك، وأنت تلفظ أنفاسك، سوى زوجتك، ابنك كان على ذراعي، كان يبكي علناً، كان صريحاً، كان طفلاً، بينما كنت أنا كهلاً، وكنت خجولاً، أبكي سرّاً، أبكي دون أن أدع أحداً يرى أنني أبكي.. وقد شيعناك، خرجناك من المستشفى، كما ستخرّج غداً ابنتي، وكما ستخرّج بعدها السيدة مارسيل. الفارق الوحيد بينكم أنك كنت جثة، وأنهما سيكونان، بدورهما، جثتين برسم المستقبل، فالمرض واحد، والقدر واحد، والفجيعة واحدة.

انسحب إلى غرفة الانتظار، جف حلقه، كيف يبل حلقه؟ ليس في الغرفة ماء، وهو لن يطلبه من الممرضة. يكفي أن يدخن. الدخان يزيد الحلق جفافاً، والفم مرارة، لكنه يخدر، وهو بحاجة إلى ان يتخدر، إلى أن يهدأ، إلى أن يبتعد عن ابنته الفرحة، كي لا ترى حزنه المسحوب على مأتمها، يوم تتحول ابتسامتها إلى تكويرة ألم بشع، بشع ومرعب.

جاءت ليديا إليه مؤاسية. من منهما الأحق بالمؤاساة؟ دخلت على رؤوس أصابعها، جلست قربه صامتة ودخنت، قالت له عيناها:

« أفهمك! » ودخن وعيناه تجيبان: « أفهمك! » إذن لا حاجة إلى الكلام. كل حاجتهما، الآن، إلى رباطة الجأش، وهما يحاولان أن يكونا رابطي الجأش. فالكلمة فضاحة، والكلام قد يفضحهما، لذلك قررا، دون قرار، أن يلوذا بالصمت، أن يعبرا عن بؤسهما بالتدخين، وأن يرسلا، مع دخان السيكارة الأزرق، المتموج، شكواهما إلى الفضاء، بكل ثقله، خرسه، كآبته، وأن يبلعا دمهما ريقاً، ويخربا دورتهما الدموية بما يمزجان في سائلها من ملوحة الدمع المسفوح إلى الداخل.

لماذا، يا جهاد، كان وقع الفراق، حتى قبل أن يقع، شديداً عليك إلى هذه الدرجة؟ ولماذا، يا ليديا، كان صدأ اللعاب، في مزجة اللون القرميدي، كريهاً إلى هذا الحد؟ ما كان بينكما كلام على الحب. وما كان بينكما كلام على الهوى. كل ما كان نزوة، لكنها كانت أكبر من نزوة. كانت تعبيراً، اعتذرت أنتِ عنها، وتظاهر هو أنه يرفضها، لكن المودة التي هي أغلى من مودة، طالبت الآن بحقها في أن تقول ذاتها، وقد قالتها، وسمعتماها جيداً، ولهذا أنتما في حزنين: حزن على المصاب، وحزن على الفراق.

أيها الطفلان المعذبان، أيها القلبان اللذان وحدهما في الطفولة يبقيان، انتهت الحفلة التي كانت موسيقاها طبيعة صامتة. اللحم لا يصير قشرة دلب. الدم لا يتحول إلى يود، اليقظة لا تخرج منها يقظة تظل تحمل اسمها. الحلم نبتة لا تزهر في الثلج، كل ما كان، كل ما صار، كل الكلمات، وكل العتابات، وكل الرضى، وكل الزعل، ذاب الآن في دمع مسفوح يجري في قصبة تخرشها آهة مكتومة، فسلام على أمس، وسلام على الغد، وسلام على يوم سيصبح في ذمة الذكرى.

نهضا وافترقا، عادت إلى أمها، وعاد الى ابنته. دخلا كما خرجا بغير كلام، ومن جديد، اصطنعا ابتسامتين، ومن جديد تجعدت الابتسامة كسطح ماء راكد، فقرر، بعد قليل، أن يفر.. وفر من

المستشفى إلى البيت، وهناك، باندفاع كأنما نحو الخلاص، نحو مزجة ما عرفتها دنان معتقة، نحو رائحة ليس لعطرها مثيل، ولمذاقها بدل، اندفع إلى علبة القهوة، وَضَعَ قهوة، وتنشق شذاها، وتذوق نكهتها، وأشعل سيكارة وسيكارة وسيكارة، ثم صب كأساً من الويسكي، مزجه بالثلج، وراح يفكر بما سيقوله للطبيب، واضطرب لانه، بعد قليل، سيكون أمام الطبيب، وسيتحدث معه عن الموت.

- ١٧ -

كان قد قرأ كثيراً عن الموت. كان يخافه، لذلك قرأ كثيراً عنه، وكان في تذكره يحاول أن يوطن نفسه عليه، أن يستعد له، حتى إذا جاء، قال له: «أهلاً، إنني بانتظارك!» غير أن الموت لم يأته هو، أو أنه، كما يقدر، لن يأتيه هو، بل سيأتي ابنته، وفي هذا مفارقة، سخرية، قصاص، وفيه، أيضاً، ردع، فكأن القدر، الذي يخشى جهاد أن يطيل في عمره، يتعمد أن يطيل في عمره، وعليه أن يعتبر، وأن يسلم أمره، ويرضى، ولا يعارض قدره، ما دامت هذه مشيئته.

نموت حين يأتينا الموت. هذا هو السلوك العاقل، المعتاد، للناس. ولكن بعض الناس، أشجع الناس، يذهب بنفسه إلى الموت، فلماذا لا يكون هو من هؤلاء الشجعان؟ لماذا يتحدى، وليس ثمة ما يحول بينه وبين التحدي؟ تلك هي مشكلته. السلحفاة لا تصبح نسراً، الجبل لا يصير سهلاً. الماء لا ينقلب ناراً. وهو، في الأمنية، يريد أن يكون نسراً وسهلاً وناراً، يريد أن يخرج من جلد السلحفاة، ولو فعل لتمجد، لاضحى نسراً، وكم من عظمة في حياة النسر!

وكم قال لنفسه، وفي نفسه: «في الوقت متسع!» وها هو يتأمل العبارة يقلبها على وجوهها فلا يرى فيها سوى تسويف مبعثه الجبن،

وهذه الكلمة تبعث على الحنق، فليس هو، عند نفسه، بجبان، لكنه لا يقدم على التنفيذ، لا ينتحر، ويدع الأيام تمر، بطيئة، ثقيلة، رصاصية، ويحس تبقع الزمن على جلده، فكأنه، في احساسه المعذب به، جسد تترك سياط الساعات عليه آثارها التي لا تمحى.

ويعود إلى نفسه فيحاورها: «إنني أحب الحياة. أحببتها دائماً، عشقتها، عشتها بجد، فلماذا يبهظني شعور بضرورة التخلص منها؟» ويجيب على نفسه قائلاً: «من فرط حبي للحياة، أريد أن أفارقها وأنا أحبها. تباً للشيخوخة، هذا المنزلق الذي عليه تنحدر الصحة والشباب إلى الموت، لكن على طريقة الموت، ووفق مشيئته، وليس على طريقتي ووفق مشيئتي أنا».

ولم تكن هذه الحوارات الداخلية تنتهي به إلى قرار، كان عجزه مركباً يمضي به إلى كهولته، وفي هذه الكهولة امتحن، لا في نفسه بل في ابنته، وشيطان هذا الامتحان يغتاله، يهزأ به، يطل عليه من السقف والجدران وأرض البيت، مقهقهاً على نحو ما يفعل شبح بالغ القباحة والتشوه في القصص الصينية، وعندئذ كان يضع يديه على عينيه ويبكي. يبكي دون دمع. يبكي عذاباً، تردداً، خيبة، ويجد نفسه مضطراً أن يعيش، مرة لاجل زوجه، ومرة لاجل أولاده، ومرة ثالثة لاجل عمله، وها هو، الآن، مضطر إلى العيش في سبيل ابنته، هذه الصبية الصغيرة الجميلة التي من غير الممكن أن يبتليها باليتم فوق ما هي مبتلاة بالسرطان.

إنه سيقابل الطبيب، ولديه ساعات بعد تفصل بينه وبين الميعاد، وهو لا يجد نزوعاً إلى النوم، ولا إلى الخروج، ولا إلى الراحة، وفي انتظار الوقت المحدد، يتلهى بشرب القهوة، والتدخين، وتناول كأس من الويسكي، دون أن يوغل في ذلك، خشية ألا يكون في صحو تام، خلال تلك الدقائق التي سيبلغه الطبيب فيها قراراً بالإعدام، قراراً يعرفه، لكنه يخادع نفسه في أمره، آملاً أن يكون في التقرير فرجة

تعطيه ما يرجو من بصيص في أن يتعلل في شفاء محتمل عن طريق معالجة ابنته في بلد آخر ومستشفى آخر، وبطريقة أخرى للعلاج.

تناول غذاءه على غير شهية. لم يكن أكولاً بالطبع، أما هنا فقد انعدمت شهيته إلى حدّ أنه يمضغ اللقمة كثيراً قبل أن يتمكن من ابتلاعها. هزل تدريجياً، ولم يأبه لذلك، ولم يكترث للأكل، لولا أنه مضطر إليه، بحكم الاستمرار في الحياة. القهوة، السيكارة، الكأس، هذا هو الثلاثي من طيباته، وما عداها فقد كان يتناوله بحكم العادة، أو بحكم الضرورة، ولم تكن الفاكهة مستثناة، وقد اعتادت زوجته، في مدينته، أن تقشرها له، وتحمله على أكلها حملاً، مثلها مثل الحلوى، وتقول له معاتبة: «تكاد تعيش على القهوة والسيكارة»، فيجيبها: «أنا عفيف أمام الأشياء، إلا السيكارة، حتى أنني قادر، لو لم أجدها، أن أشحذها على قارعة الطريق».

ومن حسن حظه أن القهوة والسيكارة والويسكي كانت متوفرة، وغالباً ماكان يشرب الكحول ترفاً، أما القهوة والسيكارة فهما ضرورة. ودونهما لا يجد للعيش معنى. وبعد أن أكل قليلاً، أعد لنفسه، بعناية طقسية، ركوة من القهوة، وراح يدخن وهو يتأمل وقائع حياته في لندن، ويرى إليها، في نحو من صفاء ذهن، كأنما يتأمل قاع البحر، في فجوة صخرية، فيرى الماء رائقاً حتى لتبدو الحصى، هذه التي دوّرها الموج تدوير صانع موهوب، وجعلها أشكالاً رائعة، مدهشة، كما هي في أشعار نيرودا: «أحجار تشلي أحجار السماء».

على هذا النحو من الهدوء، راح يتأمل، كما اعتاد، الاشياء التي يفكر فيها. وكان الموت قد استأثر هذا اليوم بتفكيره، شأنه أكثر الأيام التي عاشها في لندن، كأنما يريد، في تهيئة للنفس، أن يتعلم كيف يعايشه. وإذا كان، قبل الآن، يستهين بالمرض حين يلم به، لأنه مرض لا يشكل خطورة، ولا يدنيه بسرعة من الموت، فإنه، أمام

مرض ابنته، كان يعرف، ويعترف، أنه مرض مميت، وأنه سهم موجه إلى غير هدفه المطلوب. لهذا كان، في نوبات حزنه، يحقد على هذا المرض الخبيث، ويصيح به في عتب غضوب: «أنا، لا هي، من كان يجب أن تنشب مخالبك فيه. لقد أخطأت العنوان، والمرمى، والضحية، وتحديتني، كرة أخرى، تحدياً لا أستطيع، حياله، إلا أن أكون مغلوباً، وهنا أرفع رايتي البيضاء، على قصبة من بامبو، لا تستطيع، حتى الريح، أن تكسرها».

ذلك أنه كان يرى في الموت راحة. وكان يريد أن يرتاح، ويردد مرثية أبي العلاء كنوع من تعويض، معترفاً أن الحياة تعب، وأن ضجعة الموت رقدة ليس إلا، ويأسف لانه لم يحصل عليها، ولا يقوى على مبادلة ابنته مرضها، ويتنهد، كأنما يزفر ناراً: «ليتني أنا لا هي! ليتني أنا لا هي!.»

وفي نوع من تفلسفٍ، أو نوع من تأمل فلسفته هو حيال الموت، كان يرى البدوي، في تاريخه الطويل، قد تعامل مع الموت بطريقة بدائية وصائبة، فهو، البدوي، يقبل على الموت مرتاحاً، ويرى عيباً أن يموت على فراشه وليس في ساح المعركة، ويعجب للشعراء الصعاليك، هؤلاء الذين كان الموت بالنسبة إليهم، طبيعياً كما الماء والهواء، وهم يخرجون إليه، في غاراتهم، كما يخرجون في نزهة.

إن مسألة الموت، لم تغدُ شائكةً، إلا مع تقدم الحضارة، حين وعى الانسان أن الموت هو الفناء. وليس البوذيون، والهندوسيون، والرهبان، إلا أصحاب فلسفة جميلة، فهم، عن إدراك أو غير إدراك، عن إيمان ديني أو احتقار للحياة، يعدون أجسادهم للموت البطيء، الموت الذي يطال أجسادهم، جارحة جارحة، فلا يبلغهم إلا وقد أضحت هذه الاجساد ميتة قبل أن تموت، وبذلك يتخلصون من الألم والعذاب، وتخرج أرواحهم بيسر، كأنما هي حمامات تنطلق من مسامهم دون أن يحسوا بها، وتطير غير مرئية في فضاء اللانهاية

الرحب. إنهم يبلغون الطرف الأقصى من العالم، ولا يبقى لديهم ما يفعلونه إلا إشباع رغبتهم الأخيرة، وهي ترك النفس تسقط في الخواء.

هؤلاء لا يصدرون عن يأس، انهم حجاج تائهون، يبلغون حافة الحياة، ومنها يلقون بأنفسهم في الموت، ناشدين الراحة، العدم، الخواء، الفناء، بيسر، أين منه الانتحار الذي هو دافع قسري، بغيض إليهم ومرفوض منهم.

الموت، في مثل حالتهم، يصير أشياء عديدة، لا ينقصها اللون والنور والبهجة، فهي تحمل تهاويلها، تزاويقها، وأفكارها العذبة، حتى أن اليأس معها، يصير مقبولاً كألم جسدي حادّ، يطلبونه لأجسادهم، كما لنفوسهم، في رغبة على درجة عالية من اللذة المشبوهة في شذوذها، المريحة في لطفها، الهيّنة في مأتاها ومغداها، دون تذمر، دون شكوى، وبصبر خارق. وبقدر ما يكبر ألَمهم ويشتد، يصير له فضول، هادئ أو هائج، جدي أو ساخر، لكنه فضول يحاول أن يسبر غور الألم، وإلى أي مدى يمكن أن يصل، وإلى أي مدى يمكن أن يظل محتملاً، وحلواً.

التصالح مع الموت. هذا هو التعبير المناسب. هؤلاء النسّاك كانوا يتصالحون مع الموت، بخلاف الانسان الحديث، الذي يرفض حقيقة أساسية، هي الضرورة المحتومة للتقدم في السن والانحدار إلى الموت. إن إنساننا الحالي، يدرك أن الموت لا مهرب منه، لكنه يراوغه، دون وعي منه، يقاوم الشيخوخة، ويظل يأمل بأن تبقى خلايا الجسم، ووظائفه، على درجة من القوّة، بحيث تضمن استمرار الحياة، مدة أطول، متناسياً أن الحياة هي الموت، وأن الموت هو الحياة، وأن هذين النقيضين متلازمان، في وحدة لا تتجزأ، هي الوحدة التي نعرفها، نتجاهلها، وننساها، وننفي التفكير بها، أو نستبعده، كي لا نقع في الهوة الجهنمية.

على هذا النحو، كان في وسعه، وفي وده، أن يستمر في تأملاته هذه وهو يشرب القهوة ويدخن، غير أن ساعته أنبأته بالزمن، فغسل وجهه، وسرح شعره، وأصلح من هندامه، كي يكون في وضع لائق وهو يقابل الطبيب فيليب، الذي اعتزم أن يستمع إليه، ويدير معه حديثاً حول التطورات المقبلة لمرض ابنته، ويتزود منه ببعض النصائح حول كيفية التصرف معها، وما هو الدواء الذي ستأخذه، وهل يوجد منه في سورية، أم يبتاع كمية كافية من لندن قبل السفر.

ومثلما توقع، كان الطبيب في انتظاره، وقد قدم له فنجاناً من الشاي، وناوله تقريراً أعده الدكتور سايمون بالانكليزية، وفيه شرح كامل لمرض رنا، وكيفية المعالجة بالأشعة النووية، وضرورة الكتابة إلى المستشفى عن كل تطور جديد في المرض، والمعالجة، والدواء، وعن أيما عشبة يمكن أن توصف لها من قبل أطباء يداوون بالأعشاب في بلدان الشرق، لأن مركز البحث الطبي في المستشفى يحرص على الاطلاع، ومعرفة كل جديد في مجال الطبابة الشرقية.

أضاف الطبيب فيليب:

- يمكن أن تخرج ابنتك غداً، ولكن عليها أن تتلقى معالجة بالأشعة في مستشفى آخر، إليك عنوانه، والطبيب المختص هناك يعرف الحالة المرضية، فقد أرسلنا إليه بكل التعليمات اللازمة.

- وما هو الدواء الذي ستتناوله خلال مرضها؟ إنني لا أرى بين الأوراق أيما وصفة طبية.

قال الطبيب فيليب:

- لا دواء يا سيدي.. المعالجة بالأشعة فقط، ولمدة محددة.

- وبعد ذلك؟

- ستتحسن صحتها خلال المعالجة الشعاعية، ويمكن أن تقوى على السير البطيء، لكن حالتها، بعد فترة، ستسوء، وتبدأ مرحلة الانحدار، وينتقل الورم ببطء، متصاعداً نحو الدماغ.

ـ وهل سيرافق ذلك ألم شديد ؟
ـ لا بد من الألم..
ـ وما هو الدواء المسكن على الأقل ؟
ـ بالنسبة للوقت الحاضر لا دواء ، أما في المستقبل فيمكن تناول أي دواء مسكّن.

قال جهاد وهو يحاول التغلب على تأثّره :
ـ وهل ستعيش ابنتي طويلاً ؟
ـ مرضها من النوع البطيء.. يمكن أن تعيش سنتين أو أكثر..
ـ وبعد ذلك ؟
ـ الموت..
ـ أليس من سبيل إلى المعالجة في بلد آخر..؟
ـ أين مثلاً ؟
ـ في فرنسا..
ـ ولماذا ؟
ـ لعلها تشفى..
ـ جرِّب.. المعالجة ، عندنا ، انتهت ، وهذا كل ما أستطيع قوله.
ـ يعني لا أمل ! ؟
ـ الأمل يظل موجوداً.. الأبحاث جارية ، والطبّ يتقدّم.

قال جهاد بأكثر ما يستطيع من هدوء :
ـ أعرف أن لديك ، يا سيدي الطبيب ، مشاغلك ، ولكن لدي بعض الاسئلة إذا أذنت.
ـ ما هي أسئلتك ؟
ـ هل تعتقد أنه سيكون في وسع الطب ، في حال اكتشاف دواء ما للسرطان ، أن ينقذ ابنتي ! ؟
ـ طبعاً سيكون بإمكانه إنقاذها ، في حال اكتشاف الجرثومة التي

تسبب الأورام السرطانية.. ولكن هذا متروك للمستقبل.. الدواء الشافي متروك للمستقبل..

ـ وهو مستقبل بعيد..

ـ من يدري؟

ـ وإذا لم يكتشف مثل هذا الدواء تموت ابنتي؟ يقف الطب عاجزاً ويدعها تموت؟

ـ نحن فعلنا كل ما نستطيع.. الطب، حتى الآن، عاجز عن شفاء مرضى السرطان.

ـ يا لها من حقيقة جارحة!

ـ هناك كثير من الحقائق الجارحة.. لا حيلة لنا مع الموت أمام مرض خبيث كالذي تشكو منه ابنتك.

ـ ولكن الموت رهيب يا سيدي الطبيب.. موت صبية مثلها رهيب، أليس كذلك؟

نهض الطبيب فيليب عن مقعده وراح يتمشى في الغرفة وهو يقول:

ـ نعم يا سيدي، الموت رهيب، ولكنه الوجه الآخر للحياة.. الناس يموتون ولكن الحياة تستمر.. الموت حتمي، وبالنسبة لجميع الكائنات الحية، إلا أن شرارة الحياة لا تنطفئ، نورها يستمر من جيل إلى جيل.. إن الكلام على الموت، قد كان منذ كانت الحياة، لكن كل ما قيل في الموت لم يجعله يختفي، الكائن الحي، كما قال الباحثون «ساعة ممتلئة في داخلها قانون تفريغ الامتلاء» الموت إنجاز للزمن، وهذا الموت يأتي لأن الحياة صيرورة، فدون موت لا تكون حياة، ودون حياة لا يكون موت، إنها سلسلة متتالية الحلقات، وإلى ما لا نهاية، وأسباب الموت كثيرة، منها السرطان، والسل، والاحتشاء، وأمراض أخرى كثيرة، متنوعة، في سياقها الشيخوخة، أو يمكن،

بكل بساطة، أن يأتي الموت لأن بعض الناس يضعون حداً لحياتهم بالانتحار.

قال جهاد مقاطعاً:

ـ اليوم، بعد الظهر، كنت أفكر بالانتحار.. فكرت فيه بصورة مجردة.

ـ إنه نوبة جنون!

ـ ولماذا لا يكون علامة شجاعة؟

ـ قد يكون كذلك أيضاً، لكننا، نحن الأطباء، نعتبره نوبة جنون، بسبب ما يرافقه من يأس.. لماذا الاستعجال يا سيدي؟ لماذا نستعجل الرحيل ما دام الموت تطوّراً يحدث في الكائن الحي مع الزمن، وهذا ما يسميه فرويد نزعة الموت، وأنت تعرف ذلك ولا شك؟

ـ نعم أعرفه!

ـ إذن الموت ليس شيئاً يحدث لنا دون أن يتطور فينا، إنه شيء حيّ ينمو في داخلنا، يقبع، منذ البداية، في عظامنا.

ـ إنه كارثة في مثل حالة ابنتي!

ـ هو كارثة بالنسبة لجميع الناس، ويمكن جعله أيسر علينا، إذا اقتنعنا أنه الوجه الآخر، وفي هذه الحال نتقبله دون تذمر.

ـ لكنني أرتعد، وربما مثل غيري، من ألم الاحتضار.. أنا لن أقوى على رؤية ابنتي تحتضر أمامي.

ـ لكن هذا الألم ليس أبرز ما يقترن بالموت. إن العلم يساعد في تخفيف ألم الاحتضار، لكنه يعجز، أي العلم، أن يبعث فينا العزاء حيال الموت نفسه.. التفكير في الموت، يا سيدي، هو الذي يقهر الأنسان، وخاصة في الشيخوخة، التي هي طليعته، فإذا فكرنا بالمقابر، ومن فيها، عرفنا عبثية الحياة، وانتفى قليلاً قلقنا حيال الموت. لنؤمن يا عزيزي بالخلود البيولوجي، وعندئذ نرضى..

قال ذلك ونظر في ساعته، ثم مد يده مصافحاً، وهو يقول:

ـ غداً تخرج ابنتك، ولديها سنوات بعد، وعليك أن تشجعها، لكن عليك، قبل ذلك، أن تكون أنت شجاعاً، ليس أمامها فقط، بل مع نفسك أيضاً، طاب يومك..

ـ طاب يومك يا سيدي، وشكراً على المعالجة، والحديث، وكل شيء.

- ١٨ -

أحس جهاد، وهو يحمل تقرير المستشفى، بأنه يحمل نعش ابنته. فالطبيب فيليب قال كل شيء بوضوح، وصراحة، وحسم، ولم يعد ثمة مجال للتأويل، ما دامت كلمات الحكم الذي نطقه بموت رنا المحتوم، هي كلمات علمية، طبية، من النوع الذي ينتفي فيه الاجتهاد والامل وكل أنواع الخداع النفسي.

الحقيقة التي كان يعرفها، سمعها الآن شفهية، وحملها مكتوبة في تقرير، وقد اهتز لها من فرط تأثر، وترك لتأثره أن ينداح دوائر، ويرتسم خطوطاً، ليشكل على قسمات وجهه لوحة للتعاسة، قالت نفسها بصوت عال لا يسمعه إلا هو، فيما كان يخرج من غرفة الطبيب متجهاً إلى مسكنه، ليفكر بما عليه أن يفعل، بعد أن بلغت الأمور نهايتها، وكادت قصة وجوده مع ابنته في لندن تتم فصولاً.

مع ذلك قبض على الريح ليصنع منها قبساً. هو يعرف أن قبض الريح باطل، بل هو باطل الأباطيل، غير أن القلب الملتاع جنح إلى ومضة رجاء، في البرق الخلّبي الذي تنطوي عليه غيوم ساعاته السود القادمة. راح يرتقب، وهو يتفرس في التقرير الطبي، أن تصطدم من خلاله غيمتان، تولدان شرارة مضيئة، تنير دربه المعتم الذي يسلكه على عجل وهو يتجه إلى مسكنه، حيث الحبوب المهدئة، والقهوة، والسيكارة، وكل العدة اللازمة لتفكير متأن لا ندم فيه.

لقد ترك ابنته مع فرحتها، تركها وهي واثقة من الشفاء، تعدّ الدقائق وترتّبها في ساعات، متمنية أن تنقضي بسرعة، حتى يحين موعد مغادرتها المستشفى. وإذا كان خروجه من المستشفى، بعد مقابلته الطبيب مباشرة، ودون أن يعرج على غرفتها، سيقلقها على نحو ما، فإن هذا القلق سيتلاشى في غمرة فرحتها بالخروج غداً. وهو، على كل حال، أفضل من أن تراه على الهيئة البائسة، المعذبة، التي كان عليها، حين تلقى من الطبيب حكمه في مصيرها، وغادره، ونظراته سادرة، كأنما يمشي في منامه، ويخطو آلياً، باتجاه محطة المترو التي استقل منها القاطرة التي توصله إلى مسكنه.

هناك، في المسكن، ارتمى على المقعد، والتقرير ما يزال في يده. نظر إليه بكره، ببغض، كما ينظر السجين إلى قرار اتهامه الذي يحتوي مواد قانونية تطالب بإعدامه. وكان أسفه الوحيد أن هذا الاتهام ليس موجهاً إليه بل إلى ابنته،عليه، الآن، أن يفعل ما يفعله السجين، حين يستدعي محاميه على عجل، ليعرف منه ما إذا كانت العقوبة الرهيبة واقعة، أو يمكن تبديلها، ولو بتخفيف الحكم قليلاً.

صنع لنفسه فنجاناً من القهوة، وراح يترشفه وهو يدخن، دافعاً عنه بيدين غير مرئيتين، غيلاناً شبحية تحيط به، وتدور من حوله، في حفلة غريبة من الترويع الناجم عن قهقهات ساخرة، تنطلق من أفواه مشوهة الأشكال، تنفغر لتنهشه، لا بأسنانها الحادة البارزة وحدها، بل بمخالب وقرون وأذناب تتراقص، وتنفصل، وتلتحم، وتقترب، وتبتعد، كأنما لتقتله خوفاً، قبل أن تجهز عليه تمزيقاً.

أغمض عينيه كي لا يرى. كي يبعد تلك الأشباح عنه، ثم جهد لأن يفر منها، فقام إلى الضوء وأشعله، وبمنديله مسح العرق البارد المتصبب على جبينه، وقصد النافذة ففتحها، مستقبلاً هبّة من الهواء البارد المنعش، وأرسل بصره في الحديقة التي أمامه، متملياً الخضرة، مستنشقاً الرائحة الشذية، مستجمعاً، بجهد بالغ، ماتبقى من قواه كي

يعود إلى حالته الطبيعية، بانتظار أن تفعل الحبوب المهدئة فعلها، ويقوى على اتخاذ ما ينبغي من إجراءات.

ظل وقتاً طويلاً أمام النافذة. تسمّر عندها، دخل إطارها، صار جزءاً من خشبها وزجاجها، وبكل ما يستطيع من قدرة على التنفس، راح يعب النسمات التي تهب منها، حتى إذا توقف التعرق البارد، وزايله الدوار، هرع إلى مكتبه الصغير، وراح يفكر بالكلمات التي سمعها من الطبيب، محاولاً إيجاد ثغرة فيها للنفاذ إلى مسرب أمل، يعيد إليه طمأنينته المفقودة، مركزاً على فكرة واحدة: أن يعالج ابنته في بلد آخر، فرنسا مثلاً، موهماً نفسه بأنه في باريس، قد يجد ما ضاع منه في لندن، وبأن المدرسة الفرنسية في علاج السرطان، قد تختلف عن المدرسة الانكليزية،وأن الأطباء الفرنسيين، قد تكون لديهم طريقة ما لاستئصال الورم من العمود الفقري، أو وقف انتشاره وقفاً نهائياً. لكن كان عليه، أن يعرض هذه الفكرة على طبيب ابنته في دمشق، الذي أوصاه، ساعة رحيله، بأن يستشيره، قبل أن يقدم على أيما عمل، أو يتخذ أي قرار يتعلق بالمعالجة.

كتب رسالة بسرعة، عرض ما قاله الطبيب فيليب، بسط فكرته بمتابعة العلاج في باريس، ووضع التقرير الطبي الذي تسلمه من المستشفى الوطني في لندن مع الرسالة، ثم انطلق مسرعاً إلى شركة الطيران السورية، كي يبعث بالرسالة مع أحد الطيارين، وهي الطريقة التي اتبعها في المراسلة مع الطبيب «هـ» في دمشق.

حين عاد إلى مسكنه كان قد انتهى من الجزء المهم والعاجل في مهمته لهذا اليوم. لقد فعل كل ما كان عليه أن يفعله، ولن يتصرف الا وفق الارشادات التي ستأتيه، وبانتظار ذلك، انصرف إلى ترتيب مسكنه، وتهيئة سرير رنا التي ستخرج من المستشفى غداً، وأعد لنفسه كأساً من الويسكي، وجلس ليستريح، ويلتقط أنفاسه، ويدخن في جو هادئ، بعد أن زايلته نوبة الكآبة العنيفة التي رجّت أعصابه رجاً،

وكادت تمزقها لفرط ما أرهفه الاحساس الفاجع، وأرهقه تصور أن ابنته ضاعت إلى الأبد.

وبعد أن شرب كأسه، مضى إلى المطبخ وأعدّ لنفسه فنجاناً آخر من القهوة، حمله إلى مكتبه، وجلس يدخن، ويكتب رسالة إلى زوجته، أخبرها فيها أن معالجة رنا انتهت، وانها شفيت، وستخرج غداً من المستشفى، ثم تتلقى علاجاً شعاعياً لمدة أسبوع في مستشفى آخر، وبعد ذلك يعود بها إلى دمشق عن طريق باريس.

وكي يستعد نفسياً لكتابة رسالة أخرى، مختلفة، إلى ليلى، أعدّ كأساً جديدة من الويسكي، تذوقها على مهل، ثم تناول قلمه، وراح يخط كلمات خاصة، حارة، ضمنها تفصيلات عما وقع له اليوم، وعن قرب خروج رنا من المستشفى.

بعد هذه المقدمة توقف عن الكتابة قليلاً، ريثما استجمع أفكاره حول ما يريد أن يقول لها، وقد طال توقفه وهو يمارس إحساساً بالانشطار، بين حبها الذي يعذبه، وبين رغبته في أن يتحرر من هذا الحب وهذا العذاب كليهما. إن أعماقه تمور بمشاعر ود يتجاوز نفسه. هو ليس الحب بل المعزة التي تملك عليه عاطفته وعقله ووجوده، وهي، في ذات الوقت، الطهر الذي يسمو بهذه المعزة إلى مستوى الخوف من أي نزعة مادية قد تخالجها، فتنأى بها عن العفاف الذي يتمسك به، لأنه يريد، ويصر، أن تظل العلاقة مع حبيبته في إطار الحرمة الواجبة تجاه قريبة، عليه أن يحميها من الغير، ومن نفسه أيضاً.

لم يكن مثالياً، ولم يكن طهرياً كما اتهمته ليديا، غير أن المسافة، بين ليلى وأية امرأة أخرى، طويلة جداً، فهذه القريبة، التي هي بمثابة الأخت، جديرة بأن تنسج سمعتها بالبياض والتكرمة، وأن تصان كحدقة العين، فلا تؤذيها كلمة سوء تقال في حقها يوماً، ومن أجل هذا فإن حبها كان مصدر سعادة وشقاء له: سعادة لانه يجد البهجة

والدفء والطمأنينة إلى قربها، وشقاء لأن هذه البهجة يعقلها واجب عائلي فيحول بينها وبين أن تتفتح وتزهر.

كتب رسالة طويلة، وحين قرأها ضحك من كلماته. حسد الشعراء.. كيف يؤاتي الكلام الشعراء؟ أي إلهام وأية معجزة؟ إنه لم يفعل سوى أن خربش كلمات بريشة من خشب، ثم طوى الرسالتين، وغلّفها، وغادر مسكنه الى البريد، وعندما وضع رسالتيه في الصندوق، تنهّد كمن أزاح عن كاهليه جبلاً، وفكر بما سوف يكون الرد، وقال في نفسه مازحاً: «هذه الكلمات الركيكة، القبيحة، خليقة بأن تجعلها تصفعني لو كنت أمامها» وعاد الى بيته نادماً، خائباً، فاستلقى على سريره، وراح يستحضر صور زوجه، بناته، ابنه، أهله في مخيلته، ويتأمّلهم تأمل زوج وأب مشوق.

في اليوم التالي خرجت ابنته من المستشفى، كان لديها منذ الساعة العاشرة، وكانت هي قد أفاقت باكراً واستعدت. لبست ثيابها، وفوقها معطفها بسبب من اعتكار الطقس، وسرحت شعرها كطالبة جدية، دونما أي مكياج، لم تعرفه ولم تستعمله بعد. وتجمعت حولها الممرضات مودعات، فراحت هي تسير في الغرفة جيئة وذهاباً، فرحة بنفسها، مبتسمة، معدة كيس حاجياتها، دون ان تفارق عيناها الباب، بانتظار والدها الذي أنجز كل شيء، وجاء اليها كنسمة، خفيفاً، مستبشراً، مصطنعاً البهجة اللائقة، وهو يحمل معه باقة من الزهور، جديرة بهذه المناسبة السعيدة.

ألفى السيدة مارسيل تتمشى في الغرفة أيضاً، جاءت مراراً الى رنا وقالت لها كلمات بالفرنسية وهي تبتسم. قبلتها. هنأتها بالشفاء وبمغادرة المستشفى. تبادلت معها الصور كتذكار، بينما وقفت ليديا جانباً، تحاول ان تخفي ارتباكها، وحين وصل جهاد، تأملته بعينين غائمتين، ولم تقل شيئاً، كأنما لا كلمات لديها تقولها، وبدا عليها حزن

رقيق، لحظه جهاد، وعرفه، وتأثر له، لكنه لم يقل، هو أيضاً، أية كلمة، فعِشرة الأيام الماضيات، عزّت عليه، وقد خاف ان يفضحه تأثره، فلاذ بالصمت، وشغل نفسه بالكلام مع ابنته، وقال للسيدة مارسيل وهو يشد على يدها:

ـ أخيراً حانت ساعة الوداع.. آمل وقد تحسنت صحتك ان تغادري المستشفى، أنت أيضاً، قريباً، وأن أتلقى منك، ومن ليديا، أخباراً طيبة.

قالت السيدة مارسيل:

ـ سأشعر، بعد الآن، بالوحشة.. لقد أحببت ابنتك يا سيدي، وأتمنى لها حظاً طيباً.

قال جهاد:

ـ وابنتي ستفتقدك.. كنت لها أماً.

قالت ليديا:

ـ فراقكم يعز علينا، فقد اعتدنا أن نلتقي كل يوم، ونشأت بيننا علاقات صداقة.

قال جهاد بنبرة انفعال:

ـ أكثر من علاقات صداقة.. صرنا أهلاً، وأنا مدين لك يا آنسة ليديا بأوقات طيبة، فقد وقفنا، بعضنا الى جانب بعض، في الساعات الصعبة.. تقاسمنا الهم والفرح، ويعز علي هذا الفراق.

وقالت رنا:

ـ كانت السيدة مارسيل، بالنسبة إلي، ملاكاً أرسلته السماء.. سأتذكرها دائماً، ولن أنساها..

ترجم جهاد ما قالته ابنته، فاغرورقت عينا السيدة مارسيل بالدموع، واحتضنت رنا مقبّلة وهي تقول:

ـ يا حبيبتي الصغيرة، كم أنا سعيدة بشفائك، وكم أنا متأثرة

لفراقك.. كنت أنسي، سلوتي، وكانت ابتسامتك تشجعني، لقد أحببتك كابنتي ليديا..

وقالت ليديا وهي تمد يداً حارة، مرتعشة:

ـ الى اللقاء يا سيدي.. آمل ان نراك قبل مغادرة لندن.

ثم احتضنت رنا وعانقتها، وقبلتها، وقالت بادية التأثر:

ـ أنا سعيدة بشفائك، آسفة لفراقك.. ولست أدري كم سنمكث في لندن بعد، لكنني سأذكرك كثيراً، وسأكتب اليك، وداعاً!.

هكذا مرت دقائق الوداع طويلة، قصيرة، سريعة، بطيئة، وقد عاشها، كل منهم، بطريقته الخاصة: رنا بسعادة، السيدة مارسيل بتأثر يشوبه الحزن، ليديا واجمة، جهاد يرتجف صوته من فرط انفعال، بينما وقفت رئيسة الممرضات وقفة حياد، وقد اعتادت لحظات كهذه، فلم يكن لديها ما تقوله سوى:

ـ وداعاً يا آنستي!.

وخرج جهاد ورنا من الغرفة متوجهين الى المصعد، وقبل دخوله التفتا، ولوّحا بيديهما، وخيم صمت ثقيل، لم تفهم رنا سببه، لكن جهاد الذي يعرف كل شيء، كان كمن يخرج من مأتم، كمن يودع أناساً الوداع الأخير، فهو حزين لأجل السيدة مارسيل، وهو متأثر لفراق ليديا، وهو يحمل، في كيس الحاجيات الذي في يده، حاجة غير مرئية، هي الخيبة، هي ورقة النعي التي لم تطبع بعد، لكنه يراها، ويقرؤها، ويطالع اسم ابنته واسمه فيها، ويمضي مهيضاً، منكسراً، مدارياً ألمه الذي صار منذ الآن علة، حجراً معلقاً في الجانب الأيمن من الصدر، مقابل القلب تماماً، وعليه، دون ان يشكو، ان يحمل علته، ويتبدى صحيحاً، سعيداً، مردّداً كلمات التشجيع التي لا يؤمن بها، لكنه مضطر الى ترديدها الى ان ينفذ سهم القدر.

ركبا التاكسي وهما يلقيان نظرة أخيرة، شاملة، على المستشفى،

وتبدت رنا سعيدة وهي تحمل باقة الزهور، وتنظر، من نافذة السيارة، إلى واجهات المخازن، والأبنية، والأرصفة، والمارّة، الذين أسعدها الحظ، أخيراً أن تراهم، وأن تتعرف، من خلالهم، على لندن، هذه المدينة الكبيرة التي لم يتيسر لها، وهي في المستشفى، ان تطالع منها سوى الأسطحة، والجدران الكالحة، والمداخن، والانتينات، وأسراب الحمام، وان تحاول، في يومياتها التي كتبتها، ان تشرح مشاعرها حيالها، أن تصورها كما انطبعت في ذهنها، وان تطرح بعض هذه الرؤى على شكل خواطر وأفكار، لا يدري جهاد حتى الآن كنهها، لأنه تريث في الاطلاع على ما كتبته الى حين خروجها من المستشفى، حيث سيطلع، من خلال الكلمات، وما فيها من معان، وما تحتمل من تأويلات، على ما أمسكت عن البوح به، ويكشف عن نوازعها النفسية، وعن فهمها للعالم المحيط بها، وتفسيرها له.

كان، وهو في السيارة، نهباً لأحاسيس متضاربة. وبأكثر ما في وسعه، حاول ان يضمد جرحه، يبقيه داخله، يحول دماءه الراعفة الى نزيف في الأحشاء، يؤلمه، يحرقه، لكنه يظل مغيباً، بألمه وحرقته، في حناياه، فلا يتبدّى منه على وجهه شيء. وأمام فرحة ابنته، راح يصطنع الفرح، بأشد مما كان يفعل في المستشفى، لأن عليه، بعد الآن، ان يكون معها ليلاً ونهاراً، وجهاً لوجه، فلا تتاح له، بعد، تلك الأويقات التي كان يهرب منها، فيدخن في غرفة الانتظار، أو يسري عن نفسه في التطواف عبر المدينة، أو يداوي شجنه بتناول الويسكي، هذه التي لم يجد من سلوى سواها في لندن.

ولقد سرّه أن رنا وجدت المسكن جميلاً، وأنها عبرت عن سعادتها بالإقامة فيه بكلمات، وزقزقات، غامرة الفرح، وكانت وهو يطلعها على غرف المسكن ومرافقه، تبدى إعجاباً غير متوقع، مرده إلى أنها، بعد الإقامة في المستشفى بين المرضى، وفي دائرة من روائح الأدوية،

وفي ما يشبه الحبس، تجد كل شيء رائعاً، بهياً، يبعث على سرور وراحة عبرت عنهما نظراتها وحركاتها وكلماتها التي لا اقتصاد فيها.

اختارت الغرفة الصغيرة. « هذه ـ قالت وهي تضحك ـ حصتي. سريري مريح، الكومودينة من لون السرير، المصباح فوقها ملائم للقراءة، ديكورها جميل، اللوحات ذات مناظر لندنية خلابة، والخزانة تكفي لملابسي وحاجياتي. إنني مسرورة، مسرورة جداً، ومعجبة بذوقك في انتقاء هذا المسكن، وسنعيش فيه المدة المتبقية لنا في لندن. يا حبيبي يا بابا! كل هذا أعددته لأجلي. كنت أقدر أنك تحبني، وتسعى لتهيئة بيت جميل لإقامتنا، ولديك هنا كتب ومجلات، وسنتعاون في إعداد طعامنا ».

قال جهاد:

ـ يا صغيرتي الحبيبة، يسعدني أن المسكن أعجبك، لا مطمح لي إلا أن أفعل ما يرضيك..

ـ ولكنك، على هذا الشكل، تدللني أكثر من اللازم، تفسدني بكل هذا الترف، وتغريني بالحياة المريحة، هل نسيت أن عليّ، منذ عودتنا، ان أعود الى حياة الطالبات؟

ـ لم أنس هذا، ولكن ما المانع ان تكون إقامتنا مريحة، وأن نستمتع بالأيام الباقية لنا في لندن. وأن أصحبك الى بعض الأماكن الشهيرة، وأشتري لك ما تحتاجين اليه، وما ترغبين من هدايا لأمك وإخوتك.

ـ أول هدية، وأجمل هدية، ستكون لأخي الصغير أيمن.

ـ وهدية أمك، وهدايا أخواتك، وهديتي أنا.. ثم الهدايا للأصدقاء!؟

ـ ولكن هذا سيكلف مبلغاً كبيراً من المال..

ـ لا بأس! أنت تنتقين وأنا أدفع، وفي المستقبل، حين تتخرجين

وتعملين، تسدّدين ديونك.. إنني أسجل كل شيء.. وأزيد المبلغ قليلاً، لأربح شيئاً ما، لقاء أتعابي.

صاحت رنا:

ـ هذا معقول وجيد.. هكذا أكون راضية ومسرورة.. أنفق من حسابي.. أم أنك تظن أنني لن أستطيع يوماً وفاء كل هذا الدين؟

نظر اليها وهو يبتسم. هي هكذا دائماً. حادة الشخصية، ذات كبرياء، ذكية، جميلة، عقلها أكبر من عمرها، وتأمل يوماً ان تسدّد ديونها.. فكيف يقول لها إن ما يبذله ليس ديناً، وأنها بحل من التسديد، وأنها لن تدرس ولن تتخرج ولن تعمل، وأن كل شيء قد ضاع؟ أدار وجهه، وهرب من الغرفة ليداري حزنه، ويمسح دمعة تحيّرت في العين، وقال بصوت عالٍ لتسمعه:

ـ ابتسامة منك تعادل كل ما أنفقته.. ابتسمي أكثر وخذي أكثر.. إذا ابتسمت أصبح أنا المدين..

ـ هل ابتسامتي غالية الثمن الى هذا الحد؟

ـ غالية أكثر مما تتصورين.. والآن هيّا لإعداد الطعام..أريني شطارتك كربة بيت صغيرة.. هل تحسنين طهو الطعام؟

ـ أستطيع إعداد «السلطة» وما تبقى عليك..

ـ إذن اعتمدي علي، أصبحت طباخاً ماهراً.. أعرف أن أعدّ البيض مسلوقاً ومقلياً!

ـ وهذا كل شيء؟

ـ تقريباً.. علامتي في الطبخ صفر..

قالت ضاحكة:

ـ صفر ومع الرحمة!.

صاح ضاحكاً:

ـ الى هذه الدرجة..؟ ما رأيك بأرز مع الدجاج؟

ـ رائع.. ولكن ليس الآن.. لنأكل أي شيء.. انني سعيدة، وسنخرج بعد الظهر للنزهة، أليس كذلك؟

ـ سنتنزه في حديقة هايدبارك القريبة.. ستستندين علي قليلاً ولا حاجة الى الكرسي ذي العجلات.. الطبيب قال هذا.

تناولا طعاماً خفيفاً، من اللحوم الباردة والأجبان، شرب كأساً من الويسكي، وشربت كوباً من الحليب المعقم، المحفوظ بزجاجات خاصة، واقترح عليها كوباً من الشاي فرفضت، عندئذ أعد لنفسه فنجاناً من القهوة، وراح يدخن، بينما دخلت هي غرفتها، وراحت تقرأ وهي مستلقية على السرير.

خرجا عصراً الى النزهة. كانت حديقة هايدبارك قريبة، وقد مشت وهي تستند على ذراعه. كانت مشيتها بطيئة، فيها خمع ظاهر، غير أنها كانت مسرورة لأنها تخلصت من العربة ذات العجلات، وقالت لوالدها:

من يراني يظن أن ساقي تؤلمني قليلاً، لكنه لن يظن أنني مقعدة كما لو كنت في عربة المقعدين.

ـ لا تكترثي بنظرات الناس.

ـ اعتدت ألا أكترث.

ـ أنت فتاة شجاعة.!

ـ هكذا قالت لي رئيسة الممرضات.

ـ إنها الحقيقة.

ـ كم يسرني هذا؟ وكم تشجعني بكلماتك!؟

ـ أنا لا أقول سوى الحقيقة..

ـ وأنا أصدق ما تقول..

كانت نزهتها جميلة. دهشت رنا لسعة حديقة هايدبارك، وضخامة أشجارها، وخضرة عشبها، وطول الممرات فيها، وكثرة المتنزهين، وتراكض الأطفال وتقافزهم، وجلوس العجائز والعشاق

على المقاعد، واعتلاء بعض الخطباء صناديق خشبية أو طاولات وشروعهم بإلقاء خطابات تترافق وإشارات فيها حماسة، وغضب، وسخرية، وتساءلت عن كل ذلك، فشرح لها والدها، أن حرية الكلام في لندن مكفولة للجميع، ويستطيع كل من له قضية ان يقف في الناس خطيباً في هذه الحديقة، وهي مشهورة بهذه الظاهرة.

دامت نزهتها حتى الغروب. كانا يتمشيان حيناً ويجلسان حيناً، وقد اشترى لها شيئاً من الحلوى التي تحبها، ولفتها أن هناك لوحات كثيرة معلقة على سور الحديقة الحديدي، وإلى جانبها رساموها، فتساءلت عما ترى، وهل اللوحات للبيع؟ قال والدها: «إن الرسامين الشباب، والفقراء، وغير المشهورين، يأتون الى هنا ويعرضون لوحاتهم، على أمل أن يوفقوا إلى بيع بعضها، وهذا هو مصدر رزقهم» فطلبت رنا ان تمر بهذه اللوحات، وكانت تتوقف وتتأملها، وفي نهاية النزهة أبدت هذه الرغبة:

ـ بعد عودتنا سأتعلم الرسم.. سأشتري من لندن الأصباغ، من جميع الألوان، وفي دمشق أجهز حاملة قماش، وأتدرب على الرسم تحت إشراف رسام تحضره لي.. قد أصبح رسامة.. من يدري، أحب أن أكون فنانة.. ألا توافق على ذلك؟

ـ كل الموافقة!

- ١٩ -

كان جهاد يحاول ان يكون هو هو، رافضاً ان يكون اثنين في واحد، أو شخصيتين في شخصية واحدة، تعيش ازدواجيتها في غير انفصام، مصدره الحالة النفسية التي تؤدي إلى الاختلاط أو الجنون. ثمرة التين تبقى ثمرة تين، والعنب لا يستحيل إلى كرات بيضاء أو

سوداء من زجاج. إن ماهية الأشياء تستقيم مع عدم التجزؤ، وإلا فقدت ان تكون ذاتها وغير ذاتها في آن، ومهما حاول ان يتقنع بوجهين، واحدٍ يراه لنفسه في المرآة، والآخر تراه ابنته المريضة في سحنته التي يغتصب لها الابتسامة اغتصاباً، فإنه لن يفلح أن يلعب هذا الدور طويلاً، دون ان ينكشف أمره في حركة، في نأمة، في لحظة ضعف ما، يقع فيها بغتة.

ها هو ساهر أمام مكتبه الصغير، المكوّن من خشبة ضيقة ظاهرة من الجدار وأمامها كرسي، وفوقها بضعة كتب وصفحة بيضاء. لقد شرب من القهوة ما جعل دمه أسود كلونها، ودخن من السكائر ما ملأ المنفضة أمامه، وعبثاً كان يحاول، في سكينة الليل ذات العيون الرمادية الباردة، المحدّقة اليه من السقف والجدران، ان يمتلك الجسارة على فتح دفتر صغير كتبت ابنته المريضة على غلافه هذا العنوان: «أيام من العمر» وفي زاوية الدفتر العليا كتبت اسمها، وفي الزاوية السفلى كتبت كلمة «مذكراتي».

لقد رجته ألا يمسه، ولا يفتحه، ولا يقرأ ما فيه، لكن الدفتر الموضوع على الكومودينة الى جانب فراشها، كان ينظر اليه نظرة إغراء واستعطاف، نظرة من يقول: «ها أنا ذا.. خذني وتصفحني»، وقد نهض من مكانه، ومشى الى باب الغرفة أكثر من مرة، وارتد في كل مرة فاقد الشجاعة كما أمام جثة مغطاة، إذا كشف عنها فسيبين الوجه المشوه لإنسان يعرف بهاءه ويخشى، إذا نظر اليه ميتاً، ان يطالع بشاعة ما انتهى اليه.

أخيراً قرر ان يفعل، ان يتناول دفتر المذكرات، ويرى الى ما كتبته ابنته تحت عنوان «أيام من العمر»، هذه القصة، أو هذه الأيام المسيجة بالسر، التي دونتها، وصورتها، وهي تعاني الآلام، ورغبت ألا يطلع عليها أحد، كي لا يقف على ما تريد إخفاءه من حالتها النفسية أثناء مرضها وإقامتها في المستشفى.

دافع جهاد الذي لا يقاوم، كان معرفة ما إذا كانت تدرك نوع مرضها، ومدى خطورته، او هي جاهلة به، غافلة عنه، تحسبه مرضاً بسيطاً، شفيت منه لمجرد إجراء تلك الجراحة في الظهر، لإخراج ذلك الشيء الصغير الذي يسبب لها الألم كما قال لها الطبيب. كان الدفتر الصغير، الذي أخذه خفية وابنته نائمة، أمامه على المكتب، كان يستلقي هناك كناووس من حجر، فيه، على صغره، شيء كبير، هو السر الذي سيطلع عليه ما ان يرفع الغطاء الحجري، وكان يتردد في رفع هذا الغطاء لئلا يندم، ولئلا يتألم، وكانت رغبة تتآكله لأن يفعل، ففي ضوء ما في هذا الدفتر، وعلى نور كلماته، كان يرجو ان يعرف كيف يتصرف مع ابنته حاضراً ومستقبلاً.

وفي حركة خائفة، وبيد مرتعشة، أمسك الدفتر وفتحه. خيل اليه وهو يفعل ذلك أن شجرة ما في داخله ستهوي مقطوعة الجذع، فقد صارت القراءة، بالنسبة اليه، عملية تحطيب، فالفأس الحادة للمعرفة المحرمة، ستقطع شجرة البتولا البيضاء، وتجعلها تترنّح وتهوي وهي ترسل صريراً حاداً، هو البكاء الأخرس الذي يعبر به الشجر المقطوع، عن جزع اليباس. لكنه وقد فتح الدفتر، وهوت الشجرة الجميلة، ولوّث نسغها المائي فأسه رهيفة النصل، فإنه لم يعد يبالي، وسيقضي الليل مع هذا الدفتر، متحملاً كل تبكيت الضمير أمام خيانة الثقة التي أولته إياها ابنته. بهذا فقط تنتهي ازدواجية الشخصية، ويرجع الى ذاته المفردة، الفضولية، الحريصة على ان تقرأ وتقرأ كل ما هو مكتوب في المذكرات، ما دام وحده، والباب مغلق، وسحابة الدخان الأزرق تلفه وتغيبه حتى عن نفسه، فلا يشعر بالقشعريرة الباردة للخجل المؤلم مما يفعل.

كانت الصفحة الأولى مناجاة بين الصبية المريضة وربها. وقد وضعت لها العنوان التالي: «رسالة الى الله»، وكتبت بخط صغير، منمنم، خال من الخطأ تقريباً، الكلمات التالية:

«رباه! أكاد لا أصدق، ألهذه الدرجة أنت تحبني؟ إنني لا أكاد أنتهي من طلب أمنية ما حتى تستجيب لي وتحققها في اليوم ذاته أو في الأيام المقبلة. إني أشكرك يا إلهي على النعم التي أسبغتها علي. إن أموري ما كانت تتيسر بهذا الشكل لولا إيماني بك، لقد شفيتني من مرضي الذي داهمني. لبيت دعائي ورجائي. أرسلت ملاكاً وعدني بالشفاء، وكان ان شفيت. رباه أطلب منك ان تشفي كل مريض وتعيده إلى أهله سالماً كما ستعيدني أنا أيضاً. وإن شئت لي رجاء آخر هو ان تقدرني على مكافأة والدي الحبيب، ووالدتي العزيزة، اللذين ضحيا براحتهما في سبيلي، أنا التي أتعبتهم منذ ولادتي، وبذلك أستطيع أن أسعدهم وأريحهم في شيخوختهم، رباه، أنا عبدتك الخاطئة، اغفر لي كل ذنوبي، سامحني يا الهي، وارشدني الى طريق البر والأمان».

التي تؤمن بك وتعبدك ـ رنا
يوم الاثنين الواقع في ٣١ نيسان ١٩٧٢

كان واضحاً من تاريخ هذه المذكرة، ومن كلماتها حول الشفاء، واطمئنانها أنها ستعود الى البيت سالمة، أنها كتبت بعد إجراء العملية الجراحية، وأن رنا كانت واثقة بالشفاء، لا يخالجها شك في أمره، ولا تعرف عن مرضها شيئاً، وهذا يعني أن الدور الذي لعبه والدها في إيهامها أن مرضها بسيط، وأنه سيشفى بعد الجراحة، بمجرد إخراج ذلك «الشيء الصغير» قد نجح، وأنها كانت في حال نفسية طيبة، كأنها تمتلك الصحة، وترتديها مع قميص نومها، وأن المرض الذي سرقها، قد استطاعت، بقوة إيمانها أن تتفلت منه، وأن مدية الاغتيال، الموجهة اليها من مرض خبيث، قد خبأتها في جيبها، بعد ان انتزعتها من شبح السرطان الذي شهرها عليها، وأن لديها الأمل، بل والثقة، أن كل شيء قد انتهى نهاية طيبة.

قرأ جهاد هذه المذكرة بألم، وكان عاطفياً، عجز عن المقاومة،

فازداد ألمه. كان محاصراً بانفعالاته، والليل في منتصفه، وكان الباب مقفلاً، وهذا ما أتاح لنهر الأسى ان يتفجّر في ذاته، وان ينطلق من عينيه ويجري على خديه في سكينة الليل. إنه، الآن، يواجه حقيقة سافرة، وقد ارتعد في لحظة التعاطي مع هذا الأمل الكذوب، الذي استحال في ذاته الى شجرة سوداء، ذات فروع وأوراق وأزهار فحمية. إنها شجرة من جهنم، وعليه، في متابعة لعبة التمويه، أن ينسى أنها من جهنم، وأن يتقبل منطق ابنته ويحسبها من الجنة، وأن يؤمن أن الله شفاها، وأنه أرسل لها ملاكه ليبشرها بهذا الشفاء، وأن يعود طفلاً، وساذجاً، ليصدق كل هذا، وليقيم من الجدران حوله سياجاً مربعاً لحديقة مزهرة، تنمو غراسها، وتتفتح أزهارها تحت شمس دافئة، مستعارة من جو الشرق، ولا صلة لها بشمس لندن الغائمة، المضبة سماؤها، ولا بالعوسج الذي يدمي أنامل الصغيرة المريضة، فتظن، في براءة اليفاعة، أنه صباغ على الأظافر، يمدها بفرح مخادع، مصدره رؤياها المنبعثة من قلب فتي ومؤمن، بل شديد الإيمان.

ويبدو أنها، بدفع من هذا الإيمان الذي أمدها بعزيمة خارقة، عادت فكتبت، مساء اليوم نفسه، مذكرة أخرى، يتطاول فيها فرحها كعنق زرافة، ويتعالى كشجرة سرو نبتت في التربة اللحمية للقلب الذي ضخ دماءه بسخاء، فتسارعت الدورة الدموية لصبية قادرة على استشعار حرارة أوقدتها شمعة كبيرة اشتعلت وأنارت عالمها الداخلي.

« اليوم كان من أسعد أيامي، أحسست فيه بشعور غريب، بعث في ذاتي سعادة بيضاء كالفل، عذبة كنسمة باردة، غامرة، غامرة، غامرة. إن قلبي يرقص رقصة فراشة في صدري، ولعله هو نفسه قد تحول الى فراشة ملونة، مخملية تطير وتحط على زهوره التي تفتحت فجأة، وعيناي تشعان ببريق لامع، يوحي بفرح النفس وارتياحها. جسدي كله فاض بحيوية نشطة. قدماي الضعيفتان اشتدتا. أحسست بقوة تسري فيهما. شعرت بنفسي أكاد أطير من على الكرسي ذي

العجلات. أشعر الآن بسعادة لم أعرفها من قبل، انني سعيدة سعادة كنت أترقبها طوال الاسبوع، ألا وهي الشفاء والعودة الى الوطن.. نعم إنني سأعود الى وطني، وهناك أتابع جلسات الأشعة. سأجريها في بلدي، بين أهلي وإخوتي، أحباء قلبي، بين صديقاتي اللواتي سيزرنني. نعم، كل هذا سيحدث بعد خمسة أو عشرة أيام إن شاء الله.

ولشدة فرحي لم أعد أعرف ماذا أفعل، تارة أنهض عن الكرسي، فأتجول قليلاً، وتارة أخرى أعود فأجلس، ثم لا ألبث أن أستدير الى الجانب الآخر، وفيما أنا أدير رأسي نحو الباب لأرى من المارّ بقرب الغرفة، لمحت رسالة صديقتي لينا، فسحبتها بسرعة، ورحت أقرأها للمرة الثالثة خلال ساعة.. هكذا علمت، وأيقنت، أن لي صديقة مخلصة، فراحت أفكاري تسرح وتمرح في الهواء مع كل نسمة تخترق النافذة بقربي.. رحت أتخيل نفسي أهبط سلم الطائرة في دمشق، أقبل أمي واختي صونيا وصغيرتي رغدة، وحبيب قلبي أيمن.

يا إلهي! انني في حلم جميل سأصحو منه بعد قليل، أم أنني في حقيقة؟ هذا ما فكرت فيه طوال اليوم، لكن ثمة شيئاً استطاع أن يسيطر على فرحتي، وهو الدرس والمدرسة، التي تذكرتها قبل أن أنام، رغم أنني دائماً أتجنب التفكير في أي شيء يزعجني ويفقدني فرحتي التي لا أبيعها بمال الدنيا وثرواتها».

أشعل جهاد سيكارة بعد قراءة المذكرتين، ومضى حذراً، خفيف الوطء، الى المطبخ، لإعداد فنجان قهوة لنفسه. تنازعه شوق الى الشرب، غير أنه كبح شهوته بإصرار، لرغبته في الاحتفاظ بوعيه كاملاً. كان حزيناً إلى درجة الموت. كان الموت أمنية، لو أنه يفتدي ابنته المريضة. أشعل البوتوغاز، وملأ ركوة بالماء، وفتح علبة القهوة التي أنعشته رائحتها الى حد الخدر. لقد اعتاد ان يصنع قهوته بيده، حريصاً على دقة العيارات، كي تأتي القهوة مضبوطة، وفق ما يحب ويرغب. كان هذا طقساً بالنسبة اليه، فمذاق القهوة، يعطي نكهة

خاصة، جيدة أو رديئة، وصنع القهوة بإتقان، هو الذي كان يوفر هذا المذاق اللذيذ السائغ، حتى كأن رشفة منها، حين تكون على ما يرام، مع شفطة من السيكارة، تفتح له باباً يوصل الى الفردوس، فيسير فيه متمهلاً، مترشفاً قهوته، والسيكارة مشرعة في الفم، على رأسها تلك النجمة التي تتوهج وهو يعب أنفاساً متتابعة، فيحس بالراحة، والانتعاش، وبنشوة مخدرة تجلو عن نفسه بعض همومها.

القهوة والسيكارة! يالهما من لذتين موصولتين بالمركز الحساس للفرح الإنساني، الفرح الذي تزيده رائحة البن نشوة. وفي مثل حاله، حزنه، ودموعه التي كانت تنثال على خديه وهو يطالع مذكرات ابنته الحبيبة، المريضة، الجاهلة نوع مرضها، المؤمنة بالشفاء إيمانها بوجودها نفسه، كانت القهوة والسيكارة ضروريتين إلى حد لا يصدق.

لقد قرأ دفتر ما دعته ابنته بـ «أيام من العمر» من آخره. حرص أن يطلع أولاً على حالتها النفسية الراهنة، كانت الكلمات، وهو يقرأها، تتفتح جراحاً راعفة في داخله، جراحاً ليلكية، لها لون الليلك، وطعم الحنظل، وقد خيل إليه، أن صدره ينشق، ويخرج القلب من مكانه تحت الثدي الايسر، ويتخذ له مكاناً على مكتبه. كان القلب بنفسجياً، مسيجاً بالغشاء الحاجز، وكان يخفق بعنف خفقاناً متتابعاً، يجعل تنفسه سريعاً، وزادته القهوة انفعالاً، فهو يدق دقات ساعة منبهة موضوعة قريباً من السمع، وليس من سبيل إلى تجاهل دقاتها، أو نسيانها، أو الانصراف عنها إلى ما هو فيه من شأن المذكرات التي عاد إليها من البدء، حيث تسجل تلك المشاعر التي انتابتها وهي تركب الطائرة من دمشق إلى لندن.

الأحد في ٢ نيسان ١٩٧٢

« هبطت بنا الطائرة في مطار لندن حوالي الساعة الثانية والنصف ظهراً، بعد سبع ساعات من الطيران المتواصل الذي تخلله فترة استراحة قصيرة في مطار روما. وكما حدث هنا، حدث في لندن، إذ

كنت أهبط درجات سلم الطائرة بصعوبة لعدم سيطرتي على قدمي اليمنى. وفي الدرجات الأخيرة أحسست انني لم أعد أستطيع الوقوف، وترنحت حتى كدت أقع، لولا أن المضيف انتبه إلي، وسارع، في الوقت المناسب، إلى إسنادي، فتابعت السير حتى أول مقعد في قاعة المسافرين.

جلست هناك حزينة، متألمة، بينما والدي منصرف إلى إنهاء معاملة جوازي السفر، وقد طال ذلك لأن والدي لا يعرف الانكليزية، وموظف الأمن الانكليزي لا يعرف الفرنسية، وكنت أراقب كل ذلك من بعيد، خائفة من عدم السماح لنا بدخول بريطانيا، وإرجاعنا إلى سورية.

أخيراً نزلنا إلى الطابق الأرضي لاستلام حقائبنا، ويبدو أن الخالة أم عمر، كانت قد أرسلت برقية إلى شقيقها في لندن، ليكون في أستقبالنا، وكانت البرقية غامضة، وهكذا لم نجد أحداً في المطار يسأل عنا.

جاء عامل المطار ونقل الحقائب على عربة، إلى مكان جلوسي على المقعد، وأراد أبي أن يدفع له أجرته، فلم يعرف المبلغ المناسب، لأنه ليس معنا سوى جنيهات إسترلينية، وتلفت حواليه حائراً، وإذ به يرى شاباً بشعر طويل، معه فتاة شقراء، تبدو من ملامحها أنها إنكليزية، وفي نوبة اليأس، ولاشتباه أبي بالشاب الجالس قربي على المقعد، سأله عما إذا كان يتكلم الفرنسية، فرد الشاب: «إنني عربي، وأتكلم العربية، وأنتظر زائراً من سورية اسمه غير واضح في البرقية التي وصلتني.» قال ذلك وعرض البرقية على والدي، فصاح الوالد فرحاً: «الشخص الذي تنتظره هو أنا، وقد كتب الاسم خطأ» لقد كانت مصادفة غريبة وطريفة، وبعد ذلك عرفنا الشاب باسمه فقال: «أنا مروان خلف، شقيق السيدة أم عمر، وأنا بانتظاركم». هكذا لعبت المصادفة دورها، فنقلنا السيد مروان بسيارته إلى المستشفى

الوطني في لندن حسب العنوان الذي نحمله على رسالة التوصية التي معنا.»

كان جهاد متلهفاً لادخال ابنته المستشفى في نفس اليوم، فنزلا من السيارة وعبرا حديقة المستشفى الوطني، وأدخلت رنا إلى الطابق الأرضي فاطلع الطبيب المناوب على الرسالة التي تحملها وأمّن لها سريراً، استلقت عليه من فورها، مستشعرة الراحة،وطلبت من والدها أن يقترب منها ففعل. قبلته وهي تقول: «ياحبيبي! كم أتعبتك في هذه الرحلة.» ولم يتفوه جهاد بكلمة. غص فلم يتفوه بكلمة. استحالت الغرفة وجدرانها وأسرتها وكل ما فيها إلى كتل من الأحجار البيضاء. صارت مغارة، صارت زنزانة وعز عليه، هو الذي يعرف مرض ابنته، أن تصل إلى هنا، في رحلة طويلة لا يعرف كيف وإلام تنتهي. مدّ يده ومسد شعر ابنته. تناولت الابنة اليد وقبلتها. وبصوت مفعم بالتفاؤل قالت: «الآن ستبدأ المعالجة. كنت أفضل أن تجري في دمشق، ولكنهم فضلوا أن تكون في لندن. الأطباء عندنا فضلوا لندن. لست أدري، ربما كان زيادة في الحرص على الشفاء، وها نحن في لندن، وفي المستشفى الوطني، وبين يدي أطباء ماهرين، والشفاء أصبح مضموناً، أليس كذلك؟» وقال الأب: «هو كذلك.. وإلا لماذا قطعنا هذه المسافة؟»

كانت الساعة تقارب السادسة مساء. جاء الطبيب وقاس درجة الحرارة، وسألها عما بها، ومم تشكو، ولأنه يتكلم الانكليزية فقد كان التفاهم صعباً، إلى أن تدخلت ممرضة، وترجمت ما قاله إلى الفرنسية، وهكذا تلقى الأجوبة على أسئلته، ودوّنها في دفتر خاص، وأمر لها بدواء مسكن للألم، وأحضروا لها العشاء، لكنها أجّلت تناوله. كان جهاد يرى ولا يتكلم، مدية صدئة حزت بلعومه. شوكة نبتت في حلقه. تجمّل بالصبر. رغب في اعتياد وجوده في المستشفى. راح يدور حول ابنته مرتبكاً، باحثاً عن كلمة لطيفة، وعندما تمالك نفسه،

وإستبعد تلك الدمعة المتحيرة في عينيه، وتغلب على الغصة في صوته، جاء وجلس قربها على السرير، متوسلاً إليها أن تأكل عشاءها. لكنها رفضت بسبب انتفاء الشهية، ولما ألح عليها أكلت قليلاً، فسألها عما إذا كان الطعام سائغاً، فابتسمت وأجابت:

ـ إنه طعام مستشفى!

أضافت:

ـ آه كم سأشتاق طعام ماما!

ـ ولكنك لن تمكثي هنا طويلاً حتى تشتاقيه.

قالت وهي تضحك:

ـ أنا منذ اليوم مشتاقة إلى الوطن.. وإلى كل شيء فيه.

ـ هذا لأنك في المستشفى، ولم تألفي الغربة.

ـ آمل الا تطول هذه الغربة.

ـ لن تطول.. إنه اسبوع ويمضي.

ـ وربما كان شهراً..

ـ وماذا في ذلك؟المهم أن تشفي من مرضك.

قالها ونظر في ساعته. كانت الساعة الثامنة، وكان قد حجز، بواسطة الصديق الذي استقبلها في المطار، غرفة في فندق بيدفورد» القريب من المستشفى، فاستأذن ابنته في الانصراف، على أن يكون عندها غداً صباحاً، وتمنى لها ليلة طيبة وهو يقول:

ـ لا تفكري بشيء.. أنت الآن في المستشفى، وقد بدأت المعالجة، وسيكون كل شيء على ما يرام.. نامي جيداً، واحلمي أحلاماً ذهبية!

استعاد جهاد، مع ذكريات ابنته، بدايات مرضها، ودخولها المستشفى الوطني في لندن، والفحوص التي أجريت لها، والجراحة في العمود الفقري، وقبلها الإبرة الظليلية في النخاع الشوكي، وما تحملته من آلام بسبب كل ذلك.خرج من نفسه ودخل فيها. جاءت موجة من الحزن، من أعماق اليم، وارتطمت على ساحل وعيه المثقل بالأحزان. تجلد. إنه والليل، والسيكارة، ودفتر «أيام من العمر» وحريق على شفتيه، وارتعاش في أنامله، دمعته كانت تتحير، وكان يريد أن يرتدّ بها إلى النبع الداخلي الذى نزحها الأسى منه، ويلعن رقة عواطفه هذه التي تليق بأمّ، ولا مسوّغ لها عند أب، رجولته جديرة بان يتذوق ملوحة البحر، فلا يتخرش لها الحلق، ما دامت الرجولة صبراً على الأذى والأسى، ودفعاً لهما..

قلب ورقة جديدة من المذكرات، مؤرخة في ١٢ نيسان ١٩٧٢، وضغط على مشاعره، مثلما يفعل ياباني وهو يغرس خنجره في معدته، منتحراً على طريقة هيراكيري.. كان عليه، وهو يقرأ، أن يظل يضغط على المدية، وهي تغوص في لحمه، إنه الانتحار المجازي، الذي عليه أن يمضي به، ليتعلم ذلك التصميم المدفوع برغبة من التحدي ترتفع أبداً إلى أعلى.

«هذا اليوم - قالت رنا في مذكرتها - من أسوأ الايام بالنسبة إلي، مللت مللت مللت، زهقت من الاستلقاء في الفراش، والجلوس على الكرسي ذي العجلات، شعرت أن معنوياتي العالية بدأت تنهار. أتألم، ياربي! متى يتوقف الألم؟ ان حالتي اليوم كحالتي بالأمس، حين أجلستني الممرضة على الكرسي الخاص بالمشلولين.. مجرد رؤية هذا الكرسي تبعث الرهبة في نفسي. أنا إذن مشلولة؟ رفضت في البدء. قاومت، لكن الممرضة أصرّت عليّ، فنزلت عند إصرارها، جلست في كرسي المقعدين، صبرت على البلوى، حاولت تناسي وضعي،

كابرت، وأخيراً طلبت أن أعود إلى السرير، وما أن جلست فيه حتى بدأت بتدوين خواطري. ماذا أقول؟ كيف أصف عذابي؟ أنا لست كاتبة. لم أمر بتجربة مماثلة. أشعر بأشياء لا أعرف كيف أعبر عنها بالكلمات، مع ذلك استنجدت بقوتي الباقية، لأصف إحساسي بالمرارة من جراء الألم والسرير وكرسي المقعدين.

« وبينما أنا أكتب، سمعت وقع أقدام تتقدم من باب الغرفة. نظرت فإذا هو والدي. أبي الحبيب جاء لزيارتي، تمالكت نفسي بسرعة. حاولت أن أخفي ألمي وحزني. أردت الا تظهر أية علامة على وجهي تدل على أنني حزينة. ذلك أنني لا أريد أن أزيد من حزن أبي، فهو كلما رآني ابتسم وضحك يبدو عليه الفرح، لكنني، هذه المرّة، لم أنجح في محاولتي، خانتني أعصابي المرهقة وأنا أسمعه يقول لي « صباح الخير ». لم أرد التحية. أحسست بغصة في حلقي، وترقرقت الدموع في عيني عندما اقترب مني وبدأ يسألني عن حالي. لقد فهم كل شيء بنظرة. قال لي: « لماذا تبكين يا رنا، هل لانهم أجلسوك في هذا الكرسي؟ يا خيبة أملي فيك، أنت الشجاعة، الجريئة، تبكين وتحزنين؟ أنت بخير يا حبيبتي وغداً ستشفين، وما عليك سوى أن تصبري قليلاً. أريدك شجاعة، تواجهين الحياة دون خوف. أريدك أن تكوني مثل عمتك، هيا! ابتسمي، دعيني أرك مبتسمة ». قالها ومسد على رأسي، ربت على خدي، قبلني، جعلني أستعيد ثقتي بنفسي، فلما حان موعد الغداء أكلت دون شهية، وأمام مللي وضجري، أحضرت الممرضة جهاز (التلفزيون) فسررت بعض الشيء، برغم أنني كنت أرى الصور ولا أفهم الكلام.

« أجلستني بمساعدة أبي على كرسي المشلولين، كي أعتاد، ولا يتقرح جسمي من الاستلقاء، ودام ذلك حوالي ساعة، ووالدي يقص علي أخباره، وما رّأى في المدينة، وبعض أخبار الاهل، لكنني شعرت، حوالي الواحدة والنصف، بالنعاس،فنقلوني إلى سريري،

وقد تألمت قليلاً، لكنني نمت بفضل حبة دواء منوم، ولم أستيقظ إلا في الرابعة والنصف، وفي تمام الخامسة عاد أبي لزيارتي، وكان وضعي قد تحسن، ففتح لي التلفزيون، وكان البرنامج مشوقاً، ثم عرض فيلم وثائقي عن عدة بلدان أفريقية، ومنها السودان ونيجريا وارتيريا، يصور نماذج من حياة السكان وتقاليدهم وألبستهم والحرف التي يزاولونها، وكنت مستلقية على السرير، أتابع المناظر باهتمام، فأنا أحب أن أتعرف على حياة الشعوب في إفريقيا، وجاءتني الممرضة بطعام العشاء، في حوالي السابعة، فأكلت قدر استطاعتي.»

تخيلها جهاد وهي في السرير، أو على الكرسي، تكتب هذه المذكرات، وفي عينيها زورق ليل يشق العباب بعيداً بعيداً، حاملاً أمانيها في الشفاء والعودة ومتابعة الدراسة، وتراءت له أصابعها الطويلة، الجميلة، النحيلة، تمسك بالقلم وهي ترسم عصافير ملونة من بلاد الشمس والسماء الزرقاء، كما تراءت له، قبل ذلك، ترسم عناكب سوداً تمثل آلامها وما تقاسي، ورأى إلى الورق أمامه وقد تبلل بدموعه، فتنازعه شعوران معشوشبان كما لو أنهما ينبتان على جدران قلبه. كان الشعور الأول يدعوه إلى الكف عن قراءة المذكرات. التوقف عن تعذيب نفسه المصلوبة على مقطع عرضاني من جبل التعاسة، والشعور الثاني يحثه على المتابعة، كأنما تعذيب النفس قد غدا، في غرفته اللعينة، هواية يمارسها طقساً يومياً.

كانت المذكرة التالية تتحدث عن إبراهيم خليل النابلسي، الفلسطيني المريض في الغرفة الثانية الذي لا تعرف رنا عن مرضه شيئاً، فهي تكتب قائلة:

« جاءت أم عبده مع طفلها الصغير عبده. انها زوجة رجل مريض في الغرفة المجاورة، وهي فلسطينية الأصل وكذلك زوجها، إلا انهم رحلوا عن فلسطين، بعد نكبة ١٩٤٨، إلى الدوحة في قطر، بعد نزوح وتشرد وإقامة في المخيمات التي كانت تمزقها ريح الشتاء، وتدلف

منها مياه الأمطار، وترتعد أجسامهم من البرد، ويفتك بهم الجوع والمرض.

« سررت بمجيئها لأنني مللت الوحدة والتلفزيون والرطانة الانكليزية التي لا أفهم منها شيئاً. جلست أم عبده إلى قربي وطفلها في حضنها. كان طفلاً رضيعاً، جميلاً، لا يعرف شيئاً مما يدور حوله. وكانت أم عبده تتغذى على السندويشات، وقد كرِهَتْها، فراحت تتحدث عن ألوان الطعام عندنا، عن اللحم والزيت والزيتون والبرغل والكبة. هذه الأشياء التي لا وجود لها هنا، وإذا وجدت فهي نادرة، والأكل الذي يتوفر لها هو اللحم البارد في العلب، والبطاطا، وشوربة السمك التي تعافها نفسها عندما يأخذها شقيق زوجها إلى أحد المطاعم.

« قالت لي: الآن عرفت قيمة بلادنا. قيمة خضرتها وفاكهتها الرخيصة وخيراتها. ثم تحدثت عن الديانة والأنبياء والقرآن الكريم، وتحدثت أنا عن الانجيل وعجائب السيد المسيح، وعن اليهود الذين صلبوه، فبدأت المرأة تلعنهم، لأنهم سبب كل ما لحق بالفلسطينيين من عذاب وقتل وتشريد.. أم عبده من غزة وهي تحن إليها، وتأمل بالعودة، إلا أن ذلك حلم بعيد التحقق، فالاسرائيليون يحتلون فلسطين، ويطردون العرب، ويرتكبون المجازر بحقهم.

« بكى طفلها فأرضعته، تأملته بحنان وشفقة، وكدت أبكي لعذاب الأم والطفل ومرض الزوج، وحاولت تشجيعها وتعزيتها، ورأينا بعد ذلك برنامجاً للرقص على الجليد، ولما قاربت الساعة الثامنة والنصف انصرفت، فحاولت أن أنام، لكنني شعرت فجأة بالألم في جسدي، ومن جسدي راح يسري إلى قدمي اليسرى، فقرعت الجرس وأنا أتلوى من الألم، وهرعت الممرضة إلي وأعطتني حبوباً مسكنة، لكن الألم اشتد، فطلبت أبرة مخدرة، ورحت أصرخ من الوجع، وبعد أن أخذت الأبرة هدأت، ورحت أفكر بأم عبده، هذه المرأة المسكينة التي عندها ثمانية أولاد، أكبرهم فتاة بعمري، والأب

مريض، وغريب، ولم أجد ما أفعله لأجلهم سوى الصلاة، والدعاء إلى الله أن يشفي الأب ليعود إلى أولاده.

« هذه الصلاة بعثت الراحة في نفسي، والرضى عما بي، وارتحت لأنني أديت واجباً، فقد توجهت إلى الله، وأودعته قلبي، وأسلمت إليه مصيري، وتشفعت لديه لأجل الرجل المريض، وقنعت من الدنيا بالقليل، فأنا لا أريد سوى استعادة صحتي، والأطباء يقولون إنني سأشفى، وهذا الألم سيمر وينقضي.

هكذا عاودتني السكينة، وتخففت من همومي، لأنني أفضيت بها إلى خالقي، وكنت أسبح على أجنحة الخواطر الطيبة، عندما اقتحمت علي الباب جيفانا، وارتمت علي تقبلني، وبادلتها القبل، وكدت أطير من الفرح، لأنني لم أتوقع مجيئها هذه الليلة. إنني أحبها كثيراً، فهي فتاة إيطالية تعمل مساعدة ممرضة في المستشفى، وتداوم ثلاثة أيام أسبوعياً في الطابق السادس، وكانت أيام قد مرت ولم أرها، وقد اشتقت إليها، بسبب طيبتها، ومحبتها، وإخلاصها في خدمة المرضى. إنها جميلة، ذات عينين واسعتين، وأهداب طويلة، وأنف دقيق، وفم صغير، وشفاه رقيقة، وهي طويلة القامة، تتناسب صحتها مع طولها، وأنا أحبها لا لجمالها، بل لطيبتها، ولطفها، وكلماتها الرقيقة.

« بقيت عندي مدة كافية. لبت جميع طلباتي، وتركتني مضطرة لأن عليها أن تعتني بالمرضى الآخرين، وبعد ذلك جاءت الممرضة، وأشارت إلى ساعة يدها: إنها الحادية عشرة! وكان مفروضاً أن أنام منذ التاسعة، فأعطتني الدواء، وداعبت وجهي، وقالت لي بالانكليزية « سليب » وأطفأت الضوء، وأغلقت باب الغرفة وانسحبت بهدوء تام. »

بعد هذا تتقطع سلسلة المذكرات. تكتب في كل صفحة كلمات وتعود فتشطبها. الخط نفسه تغير، صار غير مقروء. الصفحات مبللة بالدموع. تذكر فيها مثلاً وصول السيدة مارسيل وابنتها ليديا. لكنها

لا تعبر عن شعورها حيال مجيئها بأية كلمة. تقول إنها أخافتها بصراخها وبكائها. وبمرضها الذي لا تعرف ما هو. تلاحظ انهم حجبوا سريرها بستارة (بارافان) وتحار في تعليل ذلك، لكنها تقول إن والدها تعرف إليها، وتكلم معها بالفرنسية، وكان يذهب مع ابنتها ليديا إلى غرفة الانتظار للتدخين، وان الممرضة أعلمتها أنهم سيجرون لها عملية جراحية.

بعد ذلك تصف رنا السيدة مارسيل بالجبن، والهستيريا، وبالخوف من الموت، وتكتب أن الجراحة قد أجريت، وأن حال المريضة تحسنت، وأنها بدأت تتمشى في الغرفة، وتأتي فتجلس قربها، وتلاطفها، وأن ليديا كانت تحمل إليها هدايا صغيرة، وتتكلم معها بالفرنسية، وأنها أحبتها، وكانت تنصرف مع والدها مساء، وعلمت أنهما ينزلان في فندق واحد، ثم طرأ فتور بينهما، وزال الفتور بعد أيام، وكان الوالد يهتم بالسيدة مارسيل، ويتحدث إليها طويلاً، لكنها لم تكن تعرف حول ماذا يدور الحديث، وتشير، في مذكرة أخرى، إلى أنها عانقت السيدة مارسيل وابنتها ليديا عند خروجها من المستشفى، وأن والدها قال لها في الطريق، إن هذه السيدة مسكينة، وإنها مريضة بانتفاخ المرارة، وإنهم أجروا لها العملية الجراحية لاخراج الحصى منها.

استغرب جهاد موقف ابنته رنا من السيدة مارسيل، عزاه إلى خوفها من مزاجها المتقلب، وذعرها، وبكائها، وصراخها. لقد أدركت رنا، بغريزتها، أن هذه المريضة غريبة الأطوار، وانها تخاف المستشفى والمرض والموت، وهذا ما كان يبعث فيها إحساساً بالإشفاق الممزوج بالكآبة، في وقت كانت تحتاج فيه إلى من يشجعها، ويواسيها، وإلى مريضة هادئة، شجاعة، مبتسمة، تنفي جو الوحشة، وتبدّد الحزن، وتشيع الهدوء والمرح والرجاء الذي تتمسك به، وإذ تتألم لحالها، فهي تتجنب التفكير فيها أو الكتابة عنها، أو ربما كتبت شيئاً وشطبته، لأن في الدفتر صفحات كثيرة مشطوبة.

« إنني جالسة الآن لوحدي، أنا والجدران والأسرة والباب والمنضدة والدفتر والقلم. ماذا تفيدني كل هذه الأشياء؟ إنها جماد. ليتها تتحرك وتتكلم لتشغل فراغي وتنفي مللي، لا أحد يفيدني سوى الدفتر والقلم. جلست أفكر وأكتب. تذكرت المدرسة. حننت للعودة إليها، ازداد شوقي إلى كتبي ودفاتري ومقلمتي ومحفظة المدرسة. أتذكر زميلاتي. إنهن سعيدات، يواظبن على الدراسة استعداداً للامتحان في آخر العام. إنني أتحسر على الأيام التي انقضت وأنا هنا في لندن.. زميلاتي سيصبحن في الصف التاسع العام المقبل، وأنا يتعذر عليّ أن أترفع من صفي هذا العام. لقد فاتتني دروس كثيرة. فاتني حفظها والتمرن على حلها مثل الرياضيات والفيزياء والكيمياء، وهذه مواد صعبة، لا تستطيع الطالبة أن تدرسها لوحدها في البيت. لذلك سأرسب في صفي، وأعيد الصف الثامن، وتضيع علي سنة كاملة، أنا التي بلغت الخامسة عشرة من عمرها، لا.! أنا لن أرضى بذلك. من المستحيل أن أعيد سنتي الدراسية. لقد درست وسهرت وكنت مجتهدة، وقدّمت الفحص النصفي ونجحت بعلامات جيدة، ولكن، لأسباب قاسية وظروف صعبة، تحتم علي أن أترك المدرسة قبل نهاية العام، وأضيع سنة من عمري لأجل شهرين متبقيين من الدراسة.. أليس حراماً هذا، أليس حراماً أن أضيع مستقبلي!؟ عندما أفكر بذلك أشعر بغصة في حلقي تكاد تخنقني، وتزيد من تعاستي، ومن إرهاق أعصابي، إن دمعتي جافة، قاسية، فأنا لا أستطيع أن أبكي، ولا أن أذرف الدمع. إنني أصمد، وأصمد، وبكل قواي، أمام هذه المحنة العارضة التي تخللت حياتي، والتي لم أفكر فيها يوماً. كم يصعب علي أن أرسب في صفي، وأتخلف عن زميلاتي، دراسة وعمراً؟ إنني لا أرضى بهذا. من المستحيل أن أعود في العام المقبل إلى الصف الثاني الإعدادي، لقد اتخذت قراراً بعد تفكير طويل وهادئ: إذا لم يرفعوني إلى الصف

التاسع فسأترك المدرسة، وأدرس الإعدادية في البيت، وأتقدم للامتحان مع الطالبات الأحرار. إن هذا ليس سهلاً، لكن الإنسان الطامع إلى شيء يستطيع تحقيقه ولو تعرض لأقصى الصعوبات. وأنا فتاة طموح إلى العلم، والنجاح، والتفوق، ولا أريد أن يضيع علي عام بكامله. سوف أصمد أمام الصعوبات، فالذي لا يصمد لا يكون إنساناً خليقاً بإنسانيته كما قال أبي، وسأحل أموري بنفسي. وأتقدم آخر العام للشهادة الإعدادية، وأنا واثقة بنفسي، مؤمنة بأنني جديرة بتنفيذ ما قررته.

« بعد أن انتهيت من كتابة كل هذا، ودونت على الورق ما كان يجول في خاطري، كدت أبكي، ترقرقت الدموع في عيني، أحسست أن رأسي يكاد ينفجر لشدة ما ثارت مشاعري.. لقد ازداد شوقي إلى المدرسة، والمعلمات، ولكتابة وظيفة مدرسية، ولحفظ أي من دروسي.. حننت إلى زميلاتي، حبيبات قلبي، وإلى الأقرباء، والصديقات، وإني لأسأل القدر الذي أبعدني عنهن، متى يعيدني إليهن؟ متى؟ وأرد على نفسي قائلة: اصبري أيتها المسكينة، تحملي، وها أنا أصبر، وأتحمل، وأنفذ ما أمرني به القدر ».

في ١١ نيسان

« بينما أنا جالسة قرب النافذة المطلة على الشارع، وقفت عدة حمامات على حافة النافذة من الخارج. ما أجمل منظرهن! فقد كن يطرن تارة، ويحططن طوراً على شرفة من شرفات الأبنية المجاورة.. كنت أود لو أستطيع أن أتحدث مع أحداهن، لأبثها همومي، وأحملها سلامي، ورسالة شوق وتحية نابعة من قلب أضناه البعاد، رسالة إلى بلادي الحبيبة التي عرفت قيمتها الآن، وأنا في الغربة، في بلاد بعيدة، يحلم بعض الناس بالمرور في سمائها، ليلقوا نظرة على ما فيها من أبنية فخمة، وحدائق خلابة، وليدخلوا إلى مطاعمها الفاخرة، ومخازنها

ذات الطوابق المتعددة، التي تتكدس فيها مختلف أنواع البضائع كما عرفت من والدي، وتنتصب في ساحتها التماثيل، وفيها المتاحف الخالدة، والشوارع العريضة، وبيوتات الأزياء، والملابس الجاهزة، كل هذا في لندن، مدينة الضباب هذه التي أنام في أحد مشافيها، ومنها أبعث بأحر أشواقي مع هذه الحمامة لتوصلها إلى بلدي سورية.. ويا ليت الحمامة تفعل، وتنقل رسالتي إلى بلادي وتعود منها بجواب..تعود إلي بأي شيء، ولو بقشة من أحد بيادرها، تحملها في منقارها، أو بنسمة ترف بها جوانحها، ولكن ما فائدة التمني.. لو أن كل شيء يحلم به الإنسان يتحقق، لكانت الدنيا على غير هذه الحال البائسة التي هي عليها.

« إنني أفضل أن أطير مع هذه الحمامة إلى بلادي، أسكن كوخاً صغيراً، آكل كسرة خبز وبصلة، أنام على بساط من قش، أتدفأ على نار الحطب، وأعيش مع أبناء شعبي، مع أخلاقهم الفاضلة، ونفوسهم المتواضعة، وسيادتهم التي ضحوا لأجلها بدماء الأبرياء من أبنائهم، أفضل كل هذا على العيش في لندن ولو في قصر الملكة اليزابيت، رغم أن هذا محال.

« كل هذه الخواطر راودتني بمجرد نظرة ألقيتها على الحمامة الطائرة، ورحت أردد في نفسي مقطعاً من أغنية سمعتها يوماً: « يا طير سلم لي عَ سوريا وعَ أهل ودعتهم في أراضيها، بلادي الحنونة لها صليت، بطْلب يا ربي تظل حاميها ».

١٢ نيسان ١٩٧٢

بماذا أملأ وقت فراغي، بماذا؟

فكرت خلال وقت لا بأس به فلم أجدْ رداً على سؤالي، وأخيراً اهتديت إلى إنشاد قصائد كنت حفظتها في المدرسة، قصائد من كافة الأنواع، غزلية، عاطفيّة قومية، المهم أن أنشد الشعر.

تذكرت قصيدة عنترة العبسي الغزلية في عبلة فرحت أرددها :

ياعبل كم يشجى فؤادي بالنوى
ويروعني صوت الغراب الأسودِ
كيف السلو وما سمعت حمائماً
يندبن الا كنت أول منشدِ
وسألت طير الدوح كم مثلي شجا
بأنينه وحنينه المترددِ
ناديته ومدامعي منهلة
أين الخلي من الشجي المكمدِ
قالوا اللقاء غداً بمنعرج اللوى
واطُولَ شوق المستهام إلى غدِ

ثم رددت أبياتاً من قصيدة رثاء للشاعر جرير في زوجته :

لولا الحياء لهاجني استعبار
ولزرت قبرك والحبيب يزارُ
ولهت قلبي اذ علتني كبرة
وذوو التمائم من بنيك صغارُ
كانت مكرمة العشير ولم يكن
يخشى غوائل أمِّ حزْرَةَ جارُ

« ثم قلت في نفسي لا بد أن يكون لفلسطين الحبيبة في مذكرتي نصيب ، فهي تشغلنا جميعاً ، وأبناؤها المشردون ، أليسوا شعباً له حق تقرير المصير ؟ أمتنا العربية تضع طاقاتها في سبيل المعركة ، لتحرير فلسطين من أيدي الإسرائيليين . أنا نفسي مستعدة للمشاركة في هذه المعركة التي على انتصارنا فيها يتوقف كبح طمع الغرب في بلادنا وخيراتها ، وبذلك نثبت أننا شعب واعٍ لقضاياه ، وأننا لسنا متخلفين كما يزعمون ، انني متحمسة جداً لهذه القضية ، قوميتي وعروبتي تدفعانني إلى ذلك .

لقد عشت دقائق مع هذه القصائد ، شاعرة بسعادة حقيقية ، وذلك لأنني لم أنس ما حفظت في المدرسة ، ولأن للشعر وقعاً ساحراً في نفسي . »

٢٥ نيسان ١٩٧٢

« كان الوقت ظهراً ، حين جاءت الممرضة وألبستني معطفي ، وكنت قبل ذلك ، قد ارتديت ثيابي منذ الصباح ، وبعد الحمّام ، انتظاراً لهذه الساعة . فقد أخبرتني الممرضة أنها ستنزلني في عربة المشلولين إلى الشارع ، لأتفسح بناء على أمر الطبيب .

« جلست على الكرسي وهي تدفعها أمامها ، ومعنا ممرضة أخرى ، وسرنا على الرصيف ، نتفرج على المخازن وأرى حركة الناس ، وتوقفنا قليلاً عند مخازن الألبسة الجاهزة ، ثم ذهبنا إلى مكان يعرض فيه تمثال مصري اكتشف حديثاً . وقد اكتفينا بمشاهدته من وراء الزجاج ولم أحفظ اسمه .

« لفت نظري الشبان الهبيون ذوو الشعر الطويل ، الذين يظن الناظر إليهم من وراء أنهم فتيات . كان من العسير علي أحياناً أن أميز الشاب من الفتاة ، خاصة وأن هذه المناظر غير مألوفة عندنا نحن العرب .

« كان الجو بارداً والهواء يسفح الوجه . الجو في لندن هكذا معظم أيام السنة ، وقليلاً ماتشرق الشمس ، ورغم شروقهافهي قليلة الدفء . مررنا في طريقنا بحديقة جميلة يشعر الانسان الجالس فيها بارتياح نفسي ، فالارض بساط من سندس أخضر ، والازهار الملونة يفوح عبيرها .

« بعد ذلك عدنا إلى المستشفى . لقد سررت بهذه النزهة ، ولو أنها قصيرة ، ولكن شيئاً أزعجني ، فاضطربت أعصابي له بعض الاضطراب : إنه نظرات المارة التي شعرت بها محملة بالشفقة .. إنهم ينظرون إلي كفتاة مقعدة ، لا أقوى على السير ، وأتنزه مع ممرضات

المستشفى، وكنت أتحاشى نظرات الناس، فأدير وجهي، ثم لا ألبث أن أرفع رأسي، فثقتي بنفسي لم تتزعزع. أنا أحب الحياة، وسأكون شجاعة كما يريدني أبي، أواجه كل الصعوبات بالتحدي. إنني لم أيأس من الحياة، ولن أيأس، فأنا أحبها، أريد أن أعيش، أؤمن بنفسي، وبثقتي على مواجهة كل شيء، فصعوبات الحياة ومشاكلها هي التي تعلم الانسان كيف يجب أن يعيش، وكيف يجب أن يتحمل، ويكافح، ولا يخفض رأسه مهما تعذب، أريد أن أكون مثل أبي، فأنا فخورة جداً بنفسي، وبأن يقال إنني ابنة فلان..

« دخلت الغرفة فإذا والدي ينتظرني، وقد أحضر لي معه كيساً من الشوكولا وكيسا آخر فيه عنب.. إنه يأتيني كل يوم بشيء جديد، ولا يدعني أحتاج شيئاً، ويحاول بأقصى جهده أن يبقى بقربي وقتاً أطول.. إن نصائحه تجعلني أشعر بنفسي مزهوة، فأجتهد أن أكون مثله في المستقبل، عميقة التفكير، واضحة الرؤية، لا أتلفظ بالكلمة قبل أن أفكر بها.

« جلس عندي وقتاً لا بأس به ثم انصرف لقضاء أشغاله، فأنا أعرف أن لديه مسؤوليات البيت، من غسيل وتحضير طعام، إضافة إلى عمله في الكتابة والقراءة، وهذا أمر طبيعي، لا سيما وأنه أديب معروف.

« بعد انصرافه جلست أكتب، ثم تركت الكتابة وتصفحت المجلة، وحان موعد العشاء فأكلت بشهية، وبعد ذلك جلست أفكر. أحسست بملل كبير، وقد آلمني صراخ المريضة السيدة مارسيل، ومع انها تتقن الفرنسية فإنني أتجنب الحديث معها، خوفاً من الحرج، فهي تتكلم الفرنسية بطلاقة، أما أنا فأتكلمها قليلاً، والكلمات التي أعرفها لا تتناسب مع سيدة قد لا تفهم علي، فلذا أتجنب الحديث معها.

« وبينما أنا أفكر بعمل يبدد مللي، تذكرت فجأة السيد أحمد، الصحفي الليبي الذي زارني هذا الصباح، وقال إنه في الحجرة الأخيرة

من الطابق، فمددت يديّ بسرعة إلى عجلات الكرسي، واتجهت عبر الممر الطويل إلى غرفته، فرأيته جالساً، وأخذنا نتحدث، وخاصة أنني بشوق للكلام بالعربية، لأنني أبقى معظم ساعات النهار صامتة بسبب جهلي باللغات الأجنبية.

« قضيت في غرفته وقتاً لا بأس به، وتبادلنا مختلف الأحاديث، وسألني عن كتب أبي، وعن رأيي في لندن، وعن مرضي، فأخبرته أنني أجريت عملية جراحية في العمود الفقري، وأنني شفيت، وسأخرج من المستشفى قريباً، وأعود إلى وطني الحبيب.. ثم تحدثنا عن الرياضة، وكرة القدم التي أحبها، والموسيقى الكلاسيكية الهادئة التي أفضلها على الموسيقى الصاخبة، كما تحدثنا عن الموسيقى الشرقية التي أنا مغرمة بها، وسألني عن مطربي المفضل فأجبت دون تردد: « انه فريد الأطرش! » وسألته عن مطربه المفضل فقال انه صباح فخري، فاستغربت ذلك، وسألته عما يعجبه به فقال أغانيه التي هي قدود حلبية.

« في الثامنة والنصف استأذنته وانصرفت، وقد استعرت منه مجلة ليبية اسمها « جيل ورسالة ». اتجهت فوراً إلى غرفتي، أحسست بتعب، خاصة وأنني جلست طوال النهار على الكرسي، فطلبت الممرضة لتساعدني في خلع ملابسي فوراً، وحين استلقيت على سريري أحسست بالألم يسري في جسدي، من ظهري إلى قدمي، فجاءتني الممرضة بحبوب مسكنة كالعادة، وبعد قليل شعرت بالراحة، ونمت حتى الصباح، ولما أفقت كانت يد جيفانا تداعب خدي بلطف ».

١٨ نيسان ١٩٧٢

« استيقظت هذا الصباح على صوت الممرضة التي جاءت تسقيني الدواء، وتريد أن تقلبني إلى الجهة الثانية بناء على أوامر الطبيب، كي لا يتقرح جسمي من النوم على الظهر، فأخذت أصرخ وأبكي وأتوسل

إليها أن تبقيني كما أنا، لكن دون جدوى.. إنني أدري مقدار الألم الذي سأعانيه، ولما أيقنت ألا فائدة هدأت وشرعت بتنفيذ الأمر، ولم أنجح في المرة الأولى ولا الثانية، وكانت الممرضة محتارة، فأنا أرفض أن تمس جسدي، لانني أريد أن أديره بنفسي، وحين استطعت شعرت أنني فقدت الوعي، وأسرعت الممرضة بإحضار الحبوب المسكنة، وحبوب للنوم، فتناولتها وصليت، وبعد قليل أغفيت.

« كان الزمن منتصف الليل، وكنت مستيقظة أتحمل آلام ظهري، بعد العملية، بصبر وإيمان وتفاؤل بالشفاء، وإذا بجسدي كله يرتعش، وأضاءت الغرفة وظهر أمامي بثوب أبيض ناصع البياض..

أخذ يتكلم بصوت منخفض جداً فخفت خوفاً شديداً. ولما هدأت ظننت نفسي في حلم، ولكن الملاك ما لبث أن تقدم نحوي، وتحققت أنني في حالة اليقظة، فنظرت إلى ما حولي في الغرفة، وإذا كل شيء بجانبي: الكأس، وعلبة المناديل، والمجلة كما تركتها مساء، فاردت دق الجرس لتأتي الممرضة، لكن جسدي أخذ يرتعش، وتجمدت بلا حراك، حين سمعت صوت الملاك الذي أرسله الله سبحانه وتعالى، يصلي ويقول: « لا تخافي، ستشفين قريباً. » قال ذلك وغاب، وكنت أريد أن أطلب منه أشياء وأمنيات أريدها أن تتحقق، لكنني لم أستطع، فقد انعقد لساني، وبعد انصرافه شعرت بسرور، وآمنت بالشفاء، ونمت وأنا أبتسم من فرط السعادة، وهذا ما حدث معي في تلك الليلة الخالدة التي ستبقى في ذاكرتي طوال حياتي ».

٢٨ نيسان ١٩٧٢

« دخلت الغرفة بعد نزهة قصيرة تجولت فيها مع الممرضة في الحديقة القريبة، فلفت نظري وجود بطاقة بريدية وعليها طابع بريدي من فرنسا.. آه، لقد تذكرت، إنها من مرغريت التي جاءت إلى لندن للمعالجة، وكانت في غرفة مجاورة لغرفتي.

قبّلت البطاقة. لم أنظر إلى الصورة، حاولت جهدي قراءة الكلمات الفرنسية المكتوبة فيها. لقد أحببت مرغريت هذه التي كانت تقضي معظم أوقاتها بجانب سريري.. عمرها، كما قدرت، عشرون سنة، تتقن اللغتين الانكليزية والفرنسية، إضافة إلى الاسبانية، ولم تقم أي علاقة بينها وبين والدي، الذي استلطف ليديا، ابنة السيدة مارسيل.

« مرغريت هذه فتاة لطيفة جداً، وجميلة، كانت تقف إلى جانب سريري وتخاطبني بصوتها العذب، ولهجتها الفرنسية الحلوة، وكنت أتمنى أن تبقى معي، كما كانت تفعل ليديا، ولا تغادرني أبداً. لقد تمنيت ألا تفارقني، لكن حظي التعس شاء أن يبعدها عني، فقد غادرت المستشفى، بعد دخولي إليه بأيام، ولما أبلغتني مرغريت خبر سفرها، أحسست كأنني جرحت بسكين في صدري، واغرورقت عيناي بالدموع.

« بعد سفرها ذرفت دمعة بغير ارادتي. نعم لقد بكيت على فراقها. وبعد ذلك ضبطت أعصابي، وحاولت أن أنسى الموضوع، لكنني فشلت، وتجدد بكائي لشعوري بالوحدة، وتذكرت قولها: « لن أنساك يا صغيرتي، وسأرسل لك بطاقة منذ وصولي » فصرخت دون صوت، لا أريد بطاقة بريدية، أريدك أنت يا عزيزتي، يا صديقتي، أريدك أن تبقي في لندن، لكنها سافرت، مع الأسف، فقد انتهى علاجها، وقالت لي إنها شفيت، مما جعلني أعتقد أن هذا المستشفى يصنع المعجزات، فكل الذين يدخلونه يشفون، وأنا سأُشفى بدوري!

أمسكت البطاقة بيدي، قلبتها، شممتها، قبلتها، وقلت في نفسي إن مرغريت وفت بوعدها، وعلي أنا، حين خروجي من المستشفى وعودتي إلى الوطن، أن أفي بوعدي، وأرسل بطاقة إليها وإلى جيفانا.

« وحين جاء والدي قرأ لي البطاقة، فاذا هي حميمة، تقول فيها إنها تفكر بي دائماً، وتود أن تضمني إلى صدرها بقوة، وتقبلني بحرارة. إنها لم تنسني رغم أنني نسيتها، واتخذت ليديا صديقة من بعدها، لكن

سروري بشفائها كان كبيراً، وقد قال لي والدي إن السيدة مارسيل ستشفى أيضاً، كما شفي ذلك الفلسطيني وخرج من المستشفى وعاد إلى بلده.

كانت صورة البطاقة مقسمة إلى ثلاثة مناظر، بينها منظر الغروب على شاطئ البحر، نعم الغروب الذي أحبه إلى درجة العبادة، وأحس حياله بارتياح شديد، وربما قرأت مرغريت في عيني حبي هذا، فأرسلت منظر الغروب لأتمتع به في لندن، حيث لا شروق ولا غروب أكثر الأيام.

« قلبت البطاقة فلم أجد عنواناً عليها، كذلك لم أجد عنواناً في البطاقة الأولى، وهذا ما بعث الكدر في نفسي، فهوّن والدي الأمر علي، وقال قد تكون نسيت، أو أنها لا تملك عنواناً مستقراً، فعدت أفكر بهدوء، ودرست الموضوع من جميع جوانبه، ووجدت الحق مع والدي، فلو أنها لا تحبني لما أرسلت البطاقتين، ووجدت مبرراً في ما قاله والدي، ولعنت ظني كما قال الشاعر كامل الشناوي في قصيدته المشهورة: « لا، لا، لا تكذبي ».

٢٩ نيسان ١٩٧٢

« سألتني الممرضة عما إذا كنت أوافق على نزهة في الحديقة، هززت رأسي بالايجاب، لانني ضقت ذرعاً بالبقاء طوال النهار في الغرفة صامتة، وهكذا جلست في العربة ونزلنا إلى الحديقة، وسرنا في الشارع العريض، أتفرج على المعروضات الجميلة، وأستنشق هواء نقياً. لم أُلْقِ بالاً إلى الناس.. انهم سينظرون إليّ وأنا جالسة في كرسي المشلولين، والممرضة تدفعني، ويتساءلون عن مرضي، وهذا لا يضيرني في شيء كما قال والدي.. لا شك انه لم يقرأ المذكرة التي كتبتها عن النزهة الاولى، فكيف حزر انني تضايقت. أبي يفهم نفسيتي جيداً، أو ربما قال له ذلك الأستاذ أحمد، الصحفي الليبي المريض، الذي

سمحت له أن يقرأ ما كتبته عن تلك النُزهة، إذ أن والدي، بعد رجوعه من غرفته، قال لي إن الجلوس في كرسي المقعدين لا يعني شيئاً، فالرياضي الذي تتمزق عضلات ساقيه، أو الانسان الذي يصاب بكسر في رجله، أو الذي أجرى جراحة في قدمه، كل هؤلاء يجلسون في كرسي كهذا، ثم أضاف: «على الانسان أن يصمد، ويصمد، ولا ينحني أمام مصاعب الحياة» قال كل ذلك بطريقة لبقة لا تجرح شعوري. ان نصائح والدي قيمة ومفيدة، وأنا أستقبلها بسرور، وقد تنبأ بشفائي، وها أنا أسير نحو الشفاء، وأنا على غاية السرور والانشراح، وليس في خاطري أي كدر أو حزن، وسأصبر حتى أصبح قادرة على المشي على قدمي، لكنني وأنا مؤمنة بالشفاء، وأنتظره بفارغ الصبر، عزمت وقررت شيئاً واحداً: ألا أسمح لأحد بقراءة مذكراتي، سوى أبي أو أقرب الناس إلي.»

٢٩ نيسان ١٩٧٢

«تذكرت اليوم أن عيد ميلاد أخي الصغير أيمن يصادف في ٢١ من هذا الشهر، وتذكرت كيف احتفلنا به في العام الماضي، بحضور أحبائي: أمي وأخواتي، واستبعدت أن يحتفلوا به هذا العام في غيابي، بل سينتظرون عودتي.

آه كم اشتاق إليهم جميعاً، كم أذوب شوقاً كلما تخيلت وجوههم، ولكن الحزن الذي سببته لهم سينتهي بفرحة كبيرة، فرحة شفائي.»

٣٠ نيسان ١٩٧٢

لقد شفيت، الحمدلله، شكراً لك يا الله، لقد أكرمتني. شفيتني كما تشفي جميع الذين يدخلون هذا المستشفى، يا له من مستشفى رائع! لا يموت فيه أحد، أليس هذا عجيباً؟ أليس كرامة؟ إن الله يرعى هذا المستشفى، ويمن بالشفاء علي.

« اليوم سمعت أعظم خبر في حياتي. قالت الممرضة ستخرجين غداً. صفقت فرحاً. قبلت الممرضة، وسأخبر والدي عند مجيئه، لقد كان أبي يتوقع خروجي، لذلك استأجر بيتاً وترك الفندق، إنه رائع، رائع، رائع! ».

- ٢١ -

« بالحزن حبلت بي أمي وبالألم ولدتني » فما أضعف الإنسان، في سيرورة الحزن والألم، حين تكون هذه السيرورة طريقاً بين المهد واللحد. « أنت يا جهاد، بين نقطتين، هما البداية والنهاية، وخط أسود بينهما، خط سطره قدر، ولا مفر، والصليب على الكتف، والجلجلة جبل، وأنت تصعد، لأن جنود الذي غسل يديه من دمك، يشهرون الحراب في ظهرك، وعلى رأسك إكليل من العوسج، وبين قدميك أحجار وأشواك، والشمس من فوقك موقد ملتهب، والفضاء الذي يحيط بك لهب جهنم، وفي القلب كثير من العزم، ولكن فيه كثير من الأسى، وابن الانسان يساق إلى الموت، حيث المسامير ستخترق الراحتين وظاهر القدمين، والدماء تسيل، والظمأ شديد، واسفنجة الخل برسم الفم الجاف، الذي أيبسه الألم، كأنما الدنيا، حتى في الفداء لاجل الخلاص، تتقاضى ضريبة مروعة ورهيبة ».

لماذا يكون على الإنسان، بين نقطتي السير الحياتي، أن يعاني عذاباً لا يطاق، ثم هو لا يستطيع فكاكاً، لأنه مقرون إلى هولة خطيئة، وفي رقبته نير، ومنذ آدم يتشظى، واللحم المتناثر من جسده المدمى، متروك لأنياب ذئاب، تنهش بغير رحمة؟ إن الف نسر يمزق الكبد السيزيفي، والنهاية بعيدة، والصخر في القاع، والصخر في القمة، وما بينهما يتدحرج، وسيزيف منهك، بين صعود وهبوط، في هذا الجهد غير المحتمل، الجهد العبثي الذي يضني المحكوم به، لأنه تجرأ على الآلهة، وأفشى سر النار، هذه التي أرادها للخير، فإذا بها للشر، بما

كان لها من أثر في ألمه الجسدي، وفي كفاحه الروحي، الراعف عرقاً مالحاً، كطعم ماء البحر.

«أنت يا جهاد سيزيف العصر، لا بصفتك كائناً فرداً، بل بصفتك إنساناً، كتب عليه أن يشقى تأدية لحساب عن خطيئة ترقى إلى الأزل، اصبر إذن، تحمّل، وسر في طريق الآلام التي لا نهاية لها، ولا جلجلة تفضي إليها، حيث الصلب، على مأساويته، راحة، لأنه ملاقاة للموت الآتي على جناح حلم عذب، فيه خلاص ومجد وبهاء».

نهض جهاد عن مكتبه وتلفت كلص يخشى أن تكتشف سرقته. الدفتر أمامه، والسيكارة في فمه، ودوار في رأسه، واحتقان في دماغ لا يريد أن ينفجر.

كان، الآن، حزيناً إلى درجة الموت، والحزن، حين يصبح المرء مسكوناً به، يترمد، يتراكم، يصبح قشرة صدئة حول القلب، يصبح قلباً داخله قلب يضخ دماً يلون الشرايين بحبر أسود، ويصعد إلى الرأس فيملأ خلاياه بكآبة خرساء.

جهاد كئيب، وكآبته عميقة، وفي عينيه يتجمد التعب والسهر والقهر، وفي نظراته قتام، تصطبغ رؤاه بالضباب، فتبدو الأشياء كالحة، شوهاء، باردة، حيادية، فاقدة المعنى، لذلك فهو يترنح، فضربة الفجيعة أقوى منه وأكبر. إنها سهم يخترق الأشياء، ويبقى فيها عصياً، غير قابل للنزع.

حمل جسده، تحامل على جسده، خرج من مكتبه وبخطا خفيفة، خطا امرأة تنسل من مخدع عشيقها، سار إلى الغرفة التى ترقد فيها ابنته، فوضع الدفتر على الكومودينة، متأملاً، للحظات، الوجه البريء النائم، الوجه الذي للتراب، وصاحبته تظنه للعافية، والجسد الذي لظلمة القبر، بينما فتاته تحلم ببشرى الملاك، وتحسب انها شفيت، وصارت للضوء.

ندم لانه اطلع على دفتر المذكرات. الندم توالد فصار ندماً آخر

وآخر. وعندئذ صرخ بغير صوت: «بماذا أذنبت يا الله!؟.» وجاء الجواب صدى، كأنه يقف على جرف واد. «أنت موطوء بصخر، مخترق بسهم، مدان بالسرقة، فقد كشفت ما كان يجب أن يظل سراً، هكذا اصطدمت براءة الكاتبة بأسى القارئ، وصار العجز عكازة تتوكأ عليه وأنت تجر نفسك إلى السرير.»

كان الفجر يوشك أن يطلع، والأمنية المستحيلة هي النوم، وفي مغارة الظلمة التي يتقوقع فيها، راح يفكر بما قرأ. قال في نفسه ملتاعاً: «إنها لا تعرف!» كان هذا يكفيه، والندم الذي يفري الأحشاء، أصبح محتملاً لانه عرف أنها لا تعرف. كل الذين دخلوا المستشفى شفوا كما شفيت. خرجوا إلى الحياة وساروا في الطريق الذي تسير فيه، ونهاية الطريق إلى حفرة ما تزال مموهة بأغصان ملاحة هي خضرة كاذبة. عليه إذن أن يتقبل الواقع. الكفّ لا تصد ضربة سيف، وكفه لا تصد ضربة الموت، لكنه وحيد في مواجهة المأساة، ويجب أن يبقى وحيداً دون الأهل كلهم.

أغفى مع الفجر، ومع الصباح استفاق، ومن تحت وسادته، أخرج قناعه، فالمسيرة طويلة، وعليه اليوم، كألامس، وما قبله، أن يخفي وجهه الحقيقي، وفي كرنفال المآتم، المرهون للمستقبل، عليه أن يتستر بعباءة المأساة. لكنه حين نظر في المرآة، أخافه أن التقنع لم يكن محكماً. هرع إلى المغسلة، ومن بعدها إلى زجاجة الويسكي، فالعصر سكران، ولا غرابة إذا سكر، والعصر تعب وهو ينوء بالتعب، والمفارقة البلهاء، أنه مضطر إلى الابتسام، وهذا هو الشيء الوحيد الذي عليه أن يستجديه.

أعد الإفطار. استيقظت رنا. أخفت دفتر مذكراتها، ساعدها في النهوض، جعلها تتكئ عليه في طريقها إلى الحمام، وأمام الباب توقف، خشية أن تخونها قدمها فتسقط. سأل ربه أن يعينها فلا تسقط، وحين

سمع مغلاق الباب يفتح، تنفس الصعداء، ومن جديد اتكأت عليه وهي تقول:

ـ كم أنا خجلة منك! كان يجب أن تكون أمي معنا.

ـ ألا أصلح أنا للخدمة؟

ـ لا أقول هذا. أنت تبذل ما هو فوق طاقتك، ولكن لا بد للمرأة من امرأة.. هناك أشياء لا تقال للرجل.

ـ لكنني أبوك!

ـ مع ذلك أنت رجل.. كيف أطلب منك ما لا أستطيع طلبه!؟

ـ أتخجلين مني؟

ـ بل أكاد أموت من الخجل.. ومع ذلك سأصبر، سأعتمد على نفسي، لم أكن أعرف أنك حنون إلى هذه الدرجة.. آه كم أنت طيب، وكم أحبك.

ـ وأنا أحبك.. سأقضي لك حوائجك كلها.. وسأغمض عيني عند اللزوم.

ـ أشعر اليوم بتحسن، فاطمئن.. كم تدوم المعالجة بالأشعة في لندن؟

ـ ليس أكثر من أسبوع.

ـ ومتى نتجول في المدينة قليلاً، ونشتري بعض الهدايا؟

ـ غداً.. إنني أنتظر رسالة من دمشق.. والآن هيا إلى الإفطار.

أفطرا جبناً وبيضاً وحليباً. نفس الطعام الصباحي الذي كان يقدم لها في المستشفى، لكنه، هنا، أطيب مذاقاً. تناولته بشهية، ورجت والدها أن يدعها تنهض وتسير لوحدها. قالت إن الطبيب أوصى بذلك، وفيه تمرين للساق شبه المشلولة. وافق جهاد. تركها تسير إلى المغسلة ببطء، ثم تدور في البيت، فرحة بنفسها، مبتهجة بسيرها، مشرقة كإشراقة الصباح التي تطل عليها من النافذة، وبعد أن تأملها بحنان الأب، ورجاء القلب المفتوح للأمل، نزل الدرج ركضاً ليفتح

صندوق البريد ويرى ما فيه من رسائل. وجد كمية منها. من الأهل والأصدقاء وزميلات المدرسة، وفيه، ويا للفرحة، الرسالة المنتظرة من ليلى.

لقد اعتاد، كل صباح، أن يفعل هذا، كانت رسالة ليلى بقعة الضوء التي تنير عتمة أيامه. وكان يحملها إلى مكتبه ككنز، متردداً في فضها وقراءتها. لو فعل ذلك لانتهى من مطالعتها في وقت قصير، وهو يريد أن تطول تلك المتعة، أن تدوم النهار كله، وكان يقرأها مرة ومرة ومرة، ثم يقرأها ظهراً وعصراً وليلاً إلى أن تأتي رسالة أخرى.

أسعدته الرسالة. ابتسم لنفسه رغم أساه. كيف تمنى، في إحدى رسائله، أن يفقدها؟ في حال كهذه فقط يتخلّص منها. عبودية؟ شيء من هذا القبيل. عبد هو في حبه. لكنه عبد يؤثر حريته على حبه، ولكي يتخلص منه يريد أن ينفيه. ولا سبيل إلى نفيه إلا بأن يدخل جلدها أو تدخل جلده، يتوحدان. يصبح هي، وتصبح هو، في كل واحد. هذا هو الحب أو لا حب. فالغزل مرحلة، الصبابة مرحلة، لكن غاية المسافر هي الوصول، هي أن تتحقق الأمنية ليتحقق الحب، وإلا ظل كل شيء سراباً.

خبأ الرسالة وتوجه إلى ابنته. كانت رنا تقرأ الرسائل التي أعطاها أياها. كلها تعبر عن الحب. عن الشوق، عن التمنيات بالشفاء السريع، والأم، في رسالتها، ترفع آيات الشكر لله لان ابنتها شفيت، وهذا ما عزز إيمان رنا بالشفاء، فالكلام الذي يقال في الرسائل هو نفسه الذي يقال لها في البيت والمستشفى، إذن لا كذب، بل شفاء قريب.

سألها ما إذا كانت ترغب في فنجان من القهوة فابتسمت:

ـ منذ متى كنت أشرب القهوة؟

ـ إذن أعد لك كأساً من الحليب..

ـ هذا أعده بنفسي.. إنني قادرة على ذلك. اصنع قهوتك أنت.

أعدّت كأس الحليب، تناولته واقفة، عادت تحاول المشي بمفردها. نجحت في التطواف بالغرفة. زقزقت من الفرح. أعلنت انها ستجلس في سريرها وتطالع الصحف والمجلات، كان هذا ما يتمناه، فهو يريد أن يختلي في مكتبه، لكنه دخل، قبل ذلك، المطبخ، وراح يصنع قهوته، فلما فرغ من مهمته الأثيرة على نفسه، واطمأن إلى أن قهوته نضجت على نار خفيفة، وصارت وفق مقاسه المزاجي، حملها إلى مكتبه، وأغلق الباب بالمفتاح، وأخرج الرسالة فقرأها، وبسط ورقة بيضاء أمامه وراح يكتب الجواب.

بعد ذلك طوى الورق ودسه في أحد كتبه، ثم أخفى الكتاب في مكان أمين، ريثما ينتهي من بعض أعماله ويقصد مركز البريد. في هذه الأثناء كانت رنا مستغرقة في القراءة، فدخل عليها يتفقدها، ولما نصحها بحل الكلمات المتقاطعة، أجابته مداعبة:

ـ سأفعل ذلك عندما أتقاعد.

ـ عندما تتقاعدين؟

ـ نعم! هذه اللعبة السخيفة تمضية لوقت الذين لا يهمهم الوقت، أما أنا فلدي دروسي.. نسيت أن لدي دروسي، وأن علي أن أنجح في الكفاءة؟

لوى عنقه بلا شعور. هذه الطفلة تمتلك كلمات تحفر كالمثقب، فتفجر الدمع بغير شفقة في عينيه. انه يخافها، يخشى المثاقب في كلماتها، لذلك يقتصد في إدارة الحديث معها، ويهرب متذرعاً كي لا تخونه أعصابه فيتورط.

غادرها إلى السوق القريبة، ابتاع بعض الأغذية والفاكهة، وعاد مسرعاً فأودعها البراد ثم استأذنها في الغياب قليلاً، وهرع إلى البريد، حيث أودع الرسالة، واتجه إلى شركة الطيران، ليسأل ما إذا كان جواب رسالته قد وصل.

في الشركة ناولوه رسالة قرأ فيها الكلمات التالية: « انتهى كل شيء، عد مع رنا في أول طائرة! ».

كانت هذه كلمات الطبيب المشرف على معالجة رنا في دمشق، وهي جواب على تقرير المستشفى، يختصر القول، كما تختصر الشفرة عنق الضحية المسند إلى خشبة المقصلة.

ضربة واحدة وفصل الرأس. الدم يجري فيلوث القاعدة، ولكن المقصلة، في نهمها إلى المزيد، وفي حركتها الظمأى إلى الري، تتابع الصراخ في طلب الضحايا، والحديد المسنون يغري، وليس من يقدر على وقف المجزرة.

اليوم، يا جهاد، قطعت مقصلة اليأس كل ما تبقى لك من أمل. عد إلى دمشق فقد انتهى كل شيء! لا المرور على باريس مفيد، ولا المعالجة بالاشعة تنفع، ولا البقاء في لندن يجدي. العودة إلى الوطن كل ما تبقى. لقد تخرجت ابنتي كأمثالها، من المستشفى الوطني في العاصمة البريطانية، ومثلهم تعود إلى الوطن، فالطرق جميعها تؤدي إلى طاحونة تراب، تحت طبقاته تبلى العظام، ويأكل الدود الجسم، وتبقى الشاهدة وحدها تذكر بالذي ينام في الراقدين.

أحس، فجأة، أنه شاخ، كان يعلم، ومع ذلك أحس أنه شاخ، فالضربة النهائية، المسمار الأخير، في التابوت المحمول على الأكتاف، قد دُقّ الآن، ومنذ اليوم، وفي كل صباح ومساء، وكل ساعة من ليل أو نهار، سيظل يرى هذا التابوت، يتخيله، يمشي وراءه سائراً في الموكب الذي يسير فيه البشر إلى المنفى الذي لا عودة منه.

نسي الرسالة في يده. كانت كتابه الذي في يده. طوّف في الشوارع، تجرجر حيث قادته قدماه، وبغير تفكير اتجه نحو المستشفى الوطني، ليودع السيدة مارسيل، وابنتها ليديا، ليقول لهما إنه راحل، فقد شفيت ابنته، كما شفيت السيدة مارسيل، كما شفي قبلهما ذلك الفلسطيني الغريب، وكما شفي وسيشفى العشرات الذين يخرجون من

هذا المستشفى ويسلكون درباً وحيدة، تؤدي إلى غياهب حفرة تردم بالحجارة والتراب.

بقيت لديه مهمة وحيدة، أن يحقق رغبة ابنته في التطواف عبر شوارع لندن، والاطلاع على بعض آثارها، وشراء بعض الهدايا، لتكتمل الحفلة بكل مراسمها اللائقة، فيكون الإخراج متقناً، والمسرحية مقنعة للفتاة والأهل وجميع الذين ينتظرونهما في دمشق.

هكذا، بعد انصرافه من المستشفى، عرج على شركة الطيران، وحجز مقعدين في أول طائرة سورية مسافرة، واتفق مع أحد أصدقائه من موظفي الشركة على تنظيم جولة في لندن، فتطوع الصديق، كرماً، ووضع نفسه وسيارته تحت التصرف، ومنذ صباح التالي قاموا بالنزهة المنشودة، النزهة التي استقبلتها رنا بفرحة غامرة، وتمتعت بها كثيراً، وابتاعت خلالها بعض الهدايا، مسوقة بذلك الفرح الذي أرقص فؤادها طرباً لأنها عائدة إلى الوطن.

حتى الآن انتهى الفصل الأول من الرواية. نجح في أن يمثل دوره بإتقان، تجمد التعب في أجفانه، رقد الأسى داخله، اعتصر بقية قواه وتماسك، ابتسم، شارك في فرحة العودة، دخن، تناول القهوة بكثرة، عب كل ما بقي لديه من كحول، وضب أغراضه، جمع ثيابه وأوراقه وأقلامه، ساعد ابنته في حزم حقيبتها، بذل المسؤول عن شركة الطيران السورية ومعاونوه كل مساعدة مطلوبة، وفي المطار أُجلست رنا في مقعد المشلولين الذي تخافه وتكرهه، ودفعه أحد الأصدقاء، وسار جهاد مع الموكب الصغير، إلى طائرة الكارافيل المنتظرة على المدرج.

وداعاً يا لندن، يا أنت التي، في الحضور اليك، ترتسمين أملاً للمرضى الوافدين، وفي الانصراف عنك تلصقين على ظهورهم أوراق نعوتهم، مكتوبة بخط يراه الذين يرافقون موتاهم الأحياء.

وداعاً يا سيدة مارسيل، وداعاً يا ليديا، وداعاً يا قبر ذلك الذي

دفن غريباً في أرض غريبة، وداعاً للأرض والسماء والشمس والضباب وكل تجليات الحياة الغاربة في بحر أحزان لا نهاية له ولا قرار.

شكراً على الضيافة، انتهت الضيافة، دق ناقوس الرحيل، المعالجة بلغت نهايتها، والطبيب أصدر قراره، لا دواء، لا نفع في الدواء، المرض قوس كبير، في أحد طرفيه موعد مع رجاء خائب.

هكذا اختتمت الزيارة، وأقلعت الطائرة، والوالد يغتصب الابتسامة، وقائد الطائرة يعلم بالمأساة، فقد أخبروه ليبذل مساعدته عند اللزوم، جهاد يشرب لينسى، ليتحمل، ليفرح، ليشارك ابنته فرحتها في شفائها، والكرافيل تحلق، تطير، تندفع بهيكلها الرشيق كعصفور، وتمرق بين السحب كصاروخ، والفجر، بعد ساعات، يبين، فقد اقتربت الطائرة من مطار دمشق، وها هي تهبط، هبطت، كرجت على المدرج، وفتح الباب، وتقدم الطبيب المشرف من الطائرة يدفع أمامه عربة المقعدين، والأم الناذرة أن تركع أمام الطائرة، شكراً لله، تركع وهي تبكي من فرح وشوق، وحشد غير قليل من الأصدقاء، بينهم الأطباء، والمهندسون، والأقارب، والأهل، والإخوة، كلهم جاءوا ليستقبلوا رنا العائدة، رنا التي شفيت، لكنهم، كلهم، والأم قبل الجميع، تسأل لماذا هي في كرسي المقعدين؟ والأب لا يجيب، غص، اختنق، ضغط بكل قواه على أعصابه كيلا تنفجر، كي لا يبكي، والطبيب الذي أرسل الرسالة، والذي أعلن النهاية، والذي يدفع العربة بالفتاة، يجيب على التساؤلات بتبريرات أرادها مقنعة، وربما أقنعت، لكنها لم تبدل من جهمة الجو، ومأساوية الاستقبال، ولم يصدق جهاد أن الشكليات الرسمية في المطار انتهت، حتى انطلق في السيارة إلى البيت، وهناك، بهدؤ، أفهم الجميع أن رنا ستخضع بعد لمعالجة بالأشعة، وبعد ذلك تشفى، وتستغني عن الكرسي اللعين.

رغب جهاد، بعد عودته من لندن، أن تجري الأيام كما ينبغي أن تجري، لو لم تكن رنا مريضة. فليس له، في أساه الذي تجمد مترسباً في الأعماق، أن يخلع هذا الأسى على الأشياء من حوله. ليدع الشمس تشرق، والليل يهبط، والفصول تتعاقب، والحياة البيتية تأخذ مدارها المعتاد، بحيث يألف الجميع الحياة الجديدة، التي تشكل الصبية المريضة نقطتها المركزية، دون أن تكون لهذه النقطة انعكاسات تشوش النظام العائلي، وتنأى به عن العادية إلى ما هو خارجها، أي أن لا يكـون ثمة تبدل دراماتيكي يجعل الوجود من حوله عرضة للمساءلة الدائمة، الملحاحة، عن المرض والشفاء وكل التطورات اللاحقة في صحّة رنا.

ولكي يكون قدوة قرر، في اليوم التالي، أن يذهب إلى عمله، فيستأنف شغله الوظيفي، من الصباح إلى نهاية الدوام، وأن يعود ليتناول طعام الغداء ويستريح، ثم يدخل مكتبه ليقرأ أو يكتب كما كانت الحال قبل المرض وقبل السفر إلى لندن. ذلك أن الحياة، من وجهة نظـره، لا ينبغـي أن تتـوقـف، ولا أن تتخلى عـن سيرورتها وتجددها، لعلمه أن الفلك لا يتوقف عن الدوران، لمجرد أن إنساناً ما، في عائلته أو غيرها، يواجه الموت، أو أنه سيموت لا محالة قريباً أو بعيداً، ففي سلوكه العام، كان يعرف أن يعطي كل شيء نصيبه من الاهتمام، ما دام الكفاح قانون بذل في سبيل ما هو أبقى وأفضل وأدعى إلى الاهتمام، وما دام الغد يتطلب منه أن يرتفع على الشدة، ويتابع بجهد وابتسام ودأب عمله في الوزارة والبيت على حد سواء.

المشكلة الوحيدة التي اعترضته، خاصة في الأيام الأولى لعودته، هو حمل زوجته على أن تكون مثله، تقوم بالسهر على البيت، وتصرف شؤونه، وتعنى بالأسرة، ويتابع بقية أولاده دراستهم، ويتقبلون فكرة أن أختهم مريضة، وأنها ستشفى، وأن هذا الشفاء يحتاج إلى زمن، وأن يزيل من رؤوس جميع من حوله القلق والوسواس، كيلا تبقى ثمة

شكوك، ولا أحزان، وتعود البسمة إلى الوجوه، ويمارس كل منهم ما أعتاده من مداومة على المدرسة، وكتابة الوظائف، ورؤية التلفاز، واستقبال الزائرين، ومعاملة رنا معاملة أخت كانت مريضة وشفيت، أو هي في الطريق إلى الشفاء.

ولقد نجحت خطته هذه، وكان من حسن حظه أن زوجته، بطيبتها، تؤمن بما يقول، وتصدق ما تسمع، وقابلية الشك أو التساؤل ضعيفة لديها، فهي ترجع إليه في كل أمر، وتبحث معه كل مشكلة، ثم تأخذ ما يقوله مأخذ الصدق الذي لا يرف عليه أثر من مظنة.

لكن الصعوبة التي واجهته كانت فور عودته. فالأم صدمت لان رنا شبه مقعدة، وقد اختلت به واستحلفته، فحلف أن كل شيء على ما يرام، وأن المعالجة الشعاعية ستشفيها تماماً، وأن عليها، هي الأم، أن تساعد في هذا الشفاء، بالابتسام الدائم، والعناية اللازمة، دون أن تلتفت إلى ما يقوله الناس، على فرض أنهم قالوا أشياء مخالفة لما يقوله، لأنه هو، الأب، يعرف أكثر من الجميع، ولا سبب يحملها على مساءلته كل يوم، وإفساد ما يحتاج إليه من صفاء يتطلبه عمله في الوظيفة وفي الكتابة.

لكن الأم، عند دخولها مكتبه، كانت تحرص على أن تضعه في صورة ما يجري في غيابه، وكانت تبكي أحياناً، زاعمة أن بكاءها من فرح بشفاء رنا، فكان يستعجل إنهاء الحديث معها، وعند انصرافها يقفل باب المكتب على نفسه، ويدع الأعصاب تسترخي، متأملاً الحال التي هو عليها، حال الرجل الذي عليه أن يكون بوجهين، ولسانين، وقولين، أحدهما لنفسه والآخر لزوجته وأولاده وزملائه، وضيوفه، وعندئذ كان يتألم، ويشقى، وكثيراً ما خاطب هذه الزوجة _ الأم في سره خطاباً مفجعاً، قائلاً بغير صوت: «آه أيتها الأم التي سينبت الشك في نفسها قريباً، كما ينبت الصبار على التخوم! أنت وحدك جديرة بمعرفة السر، وأنت وحدك خليقة بأن تعلم، لأنك أم، ولأن

حاسة الأمومة لا تخطئ مظانها إذ ترود مجاهل القلوب من حولها، وتعرف، على نحو خارق، كل ما يحيق بصغارها من أذى، لكنك، خلال الأيام الصعبة الآتية، يجب أن تظلي جاهلة هذا السر، لأجل رنا وأخواتها وأخيها، ولأجل البيت، والحياة التي ينبغي أن تجري في مسارها الطبيعي، ولأجل البسمة، والأمل، والقدرة على الاحتمال والعيش بطمأنينة».

ولشد ما تضايق عندما أقبل الناس عليه إقبالاً متواصلاً غبّ عودته من لندن. كان بيته لا يخلو من الزائرين: ضيوف، مهنئون، قبلات، مصافحات، قهوة، دخان، وأسئلة تبدأ ولا تنتهي، وهو يكذب، يكذب، بغير توقف ولا مبالاة.

لكنه، ومنذ اليوم الأول، واجه مشكلة مربكة، ساعده الأصدقاء على حلّها حلاً فورياً. ذلك أن رنا كانت بحاجة إلى كرسي ذي عجلات، تجلس عليه وتدور في البيت، فأرسلوا سيارة خاصة أحضرته من لبنان، وهكذا استراح وتنفس الصعداء. ثم لم تلبث مشكلة أخرى أن طرحت نفسها، وهي معالجة رنا بالأشعة النووية. فقد تساءلت الأم ملتاعة، حتى كادت تكتشف السر:

ـ لماذا المعالجة النووية؟

ـ لأن هناك ورماً سليماً في العمود الفقري.

ـ سليم أم خبيث؟

ـ سليم!

ـ أتقول الحقيقة؟

ـ ولماذا أكذب؟

ـ لست أدري، لكن المعالجة النووية تخيفني.

ـ لا تخافي!

ـ كيف لا أخاف؟ الناس يقولون..

ـ دعي كلام الناس، صدّقي ما أقوله أنا.

ـ أريد أن أصدقك، فأنت لم تكذب علي يوماً.
ـ ولن أكذب عليك يوماً..
ـ لكن المعالجة بالأشعة النووية.. هل هي ضرورية؟
ـ ضرورية جداً.
ـ أشك في هذه المسألة.
ـ لماذا؟
ـ لست أدري.. المعالجة النووية..
فقاطعها نافد الصبر:
ـ المعالجة النووية ضرورية لإزالة الورم.. أم أنني أتكلم اليونانية؟
ـ لا تزعل.. أردت كأم، أن أطمئن.. أليس هذا من حقي؟
ـ طبعاً، ولكنني أريدك أن تصدقي ما أقول.
ـ صدقت..
ـ إذن لماذا تعودين إلى الشك..؟
ـ لأن قلبي..
ـ ليطمئن قلبك.. رنا شفيت، كم مرة يجب أن أقول ذلك.!؟
ـ قله كل يوم، كل ساعة، أحب أن أسمع منك أنها شفيت تماماً.
ـ شفيت تماماً، ولدي أوراق من المستشفى تثبت ذلك، وقد اطلع عليها الأطباء هنا، فماذا تريدين بعد؟ ولماذا الوسواس؟.
ـ أنت تعرف انني موسوسة، وأنا أصدق كل كلمة تقولها..
ـ صدقي إذن أنها شفيت، وهذه المعالجة بالأشعة النووية لاستكمال الشفاء.
ـ صدقت.. لن أسألك بعد اليوم، أنت لا تكذب علي..
لكن بعض الزائرات جعلنها تعود إلى طرح أسئلتها، واضطر هو إلى إعادة أجوبته، وهكذا، في الأيام الاولى، واجه عذاب الجحيم، كان يهتف في ذاته: «جهاد! يا جهاد! أيها الأب الملتاع، المفجوع، النائح من الداخل، النازف من الداخل، صار الكذب مهنة لك.

الكذب قدرك، الكذب تسبيحة الصباح وتمسية المساء. أنت مهرج في كرنفال العيد. أنت الباكي في لحظة الضحك، والمشجع في وقت الضعف، والنافخ رجاء حين يخيب الرجاء، فكن على قدر المهمة، لأنه مكتوب أن فلذة كبدك في طريق النهاية، وأنت، بمجهودك الخارق، يجب أن تقتنع، وتقنع من حولك، أنها في طريق البداية، وأن المعالجة بأشعة، في مركز الطب النووي، ستعطي نتائجها السارة، وستفرح العائلة وتتهلل، وسيكون هذا شهادة لا تدحض على أنك قلت الصدق». وفعلاً تحسنت صحة رنا بعد الأسبوع الأول من المعالجة. صار بإمكانها أن تمشي بشكل أفضل. وبعد الأسبوع الثاني استجابت القدم اليسرى، شبه المشلولة، للعلاج، وصار بإمكان رنا السير، ومنذ المساء أعلنت:

ـ غداً أعود إلى المدرسة!

كان سرور الأم الآن على أشده. أيقنت أن جهاد كان صادقاً في قوله أن رنا شفيت. والشك الذي راودها قليلاً في البدء، انتفى كلياً، وتغلبت طبيعتها المؤمنة على أيما هاجس، فصار أمر الشفاء واقعاً راهناً، بحيث سألته وهي على قناعة أن الأشياء كلها عاودت مجراها:

ـ ما رأيك يا جهاد؟

ـ رأيي أن نتريث!

ـ لكن رنا صممت.

ـ يجب أن نقنعها بالتريث!

قالت الأم:

ـ لا أرى مبرراً لذلك.

وسأل الأب ابنته:

ـ لماذا لا نستغني عن المدرسة بقية هذا العام يا رنا؟

ـ لأنني لا أريد أن أضيع مستقبلي!

ـ لكن السنة الدراسية انتهت تقريباً.

ـ أمامنا شهر، ويمكن أن أدرس خلاله وأنجح.

ـ كما تريدين.

قالها باستسلام، بانكسار، وسار إلى مكتبه، إلى غرفة سره، إلى مبكاه الذي سيشهد دموعه طوال المسافة التي يقتضيها انتشار الورم الخبيث من العمود الفقري إلى الدماغ. أغلق باب المكتب على نفسه وفكر بقولها: «لا أريد أن أضيع مستقبلي!». فكيف يقول لها: «إن الذي ضاع، ليس مستقبلك وحده، بل حياتك أيضاً!؟»

«الله! يا الله! كن رحيماً بي، امنحني الشجاعة على الصبر، أعطني القدرة على الاحتمال، ويسّر لي الكذب الذي صار مهنتي الشاقة، واجعله ينطلي على الأم، والأهل، وكل من في البيت، وكل من يدخله ويخرج منه، وخذ بيدي في هذه العاصفة، كي أصمد، أنا القصبة المفردة على حافة نهر المحنة، فلا أنكسر، ولا يتحطم زورقي في هذه المغامرة المجهولة في قلب النَّوء، التي لا أدري كم تدوم».

وأفاق صباحاً فاذا رنا تستعد لتنفيذ ما اعتزمت. حملت كتبها، بعد أن ارتدت الثوب المدرسي، وودعت أمها، وببطء نزلت الدرج، ومضت في الشارع إلى أول جادة فيه، حيث تقع المدرسة في نهايتها.

كان جهاد يراقبها من بعيد. ثمة عرج خفيف في قدمها اليسرى ما يزال، لكنه لا يحول بينها وبين السير ببطء، وهي تحتمل ذلك، وتفرح به، وتحسب أن التحسن الصحي، من أثر المعالجة الشعاعية، سيتواصل، حتى تعود رجلها سليمة تماماً، ويصبح المشي عادياً، فتستأنف دراستها التي انقطعت خلال المرض.

وقد أحدث ذهابها إلى المدرسة ابتهاجاً غمر البيت كله، فحين عادت من المدرسة ظهراً، قصّت على أمها وإخوتها كل ما جرى معها، وكيف استقبلتها زميلاتها، وكيف استعارت من إحداهن دفتر المذاكرات التي فاتتها، فركعت الأم وصلت، وقامت بوفاء ما نذرت، وقالت لجهاد:

ـ الحمد لله.. لندن هذه تصنع المعجزات!

قال جهاد معززاً يقينها:

ـ ولماذا سافرنا إليها إذن؟

ـ أتحسب أن المرض يعاودها مرة أخرى؟

ـ قد يعاودها قليلاً، لكن التحسن سيعود أيضاً، ويستمر ذلك حتى تشفى نهائياً.

ـ إذن هي لم تَشْفَ نهائياً؟

ـ لم أقل هذا، لكن المرض قد ينكس، وعندئذ قد تتألم من السير.. كان الأفضل أن تستريح، وتنقطع عن المدرسة هذا العام.

ـ أنت متشائم.. رنا شفيت، وهي مصممة على الذهاب إلى المدرسة، فلماذا تعارض؟

ـ أنا لا أعارض.. بل مغتبط، وما أقوله من باب الاحتياط..

ـ احتياطك في غير موضعه.. لتذهب إلى المدرسة، وتضمن النجاح إلى الصف التاسع.

ـ ليكن ذلك كذلك، ما دامت هذه رغبتها.

ـ ورغبتك أنت؟

ـ هذه رغبتي أيضاً..

ـ لو رأيتها كيف تنكبّ على الدراسة!

ـ لتدرس ما تشاء. لكن عليها الا تمكث طويلاً وراء الطاولة.. القدم تحتاج إلى مزيد من التمرين على السير.

ـ سأنصحها بذلك، لكنني أرجوك الا تثبط همتها، انها ستمرض إذا ضاع العام الدراسي عليها.

ـ لن أثبط همتها، فما دامت راغبة في الدراسة فلتدرس.. أنت لا تقدرين مدى سروري برؤيتها صباحاً وهي في ثياب المدرسة، ثم وهي تذهب كسائر زميلاتها إلى صفها.

دام ذلك أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، عادت رنا بعدها تشكو من ألم

في رجلها، وشلل طفيف يعيقها في السير. كان جهاد يعرف ذلك ويراقبه بصبر وصمت. كان يتابع لعبته في إخفاء الحقيقة، والتظاهر بالسرور، غير أن الشلل عاود القدم، ببطء أولاً، ثم ازداد بحيث تعذر عليها أن تمشي، فبكت في المساء، حين عادت من المدرسة، لأنها عجزت عن المضي في المكابرة. وعندئذ ركضت الأم إلى جهاد في مكتبه وقالت مروعة:

ـ لماذا؟

ـ لأن قدمها لا تساعدها في السير.. عاودها شلل بسيط.

ـ كنت أتوقع هذا.

ـ كيف.. ألم تشف إذن؟

ـ شفيت، لكن الراحة ضرورية لها.

ـ ماذا نفعل؟

ـ ننصحها بترك المدرسة..

ـ ومستقبلها؟

وجم أمام السؤال «هذا صليبك يا يسوع! أنت لن تهرب من البيت يا جهاد، ولن تتفلت من المواجهة المحرجة كل يوم.. أنت كالصاعد إلى الجلجلة، احمل صليبك على كتفيك، وابحث عمن يضفر على رأسك أكليلاً من شوك. مستقبل ابنتك هو صليبك. كلما أنزلته عن كتفيك، عاد يطرح نفسه، كالسؤال الملعون، فتعود إلى حمله والصعود به في الدرب الوعر، إلى حيث لا حرس ولا حشد ولا حواريون، بل أنت والفضاء الرمادي، تنتظر دون طائل، ساعة الصلب التي تنتهي معها الآلام، عندما يتوقف قلبك عن الخفقان».

قالت الأم:

ـ رنا عنيدة، مصرة على الذهاب إلى المدرسة.

نهض الأب عن مكتبه الذي لا يكتب عليه شيئاً. إنه مكان للتفكير لا للكتابة. مكان للتأمل لا للممارسة. هنا مدفنه. هنا مدفن

حزنه. هنا مدفن همومه، وهنا بيت السر الذي على بابه رصد. وحين واجه ابنته، كاد يشرق بالدمع، لكنه عالج لهاته بالصمت، ريثما استطاع تخطي الغصة التي وقفت فيها.

سأل رنا بنوع من الاستغراب المريب:

ـ لماذا تبكين يا حبيبتي!؟

ـ أنا لا أبكي، دعوني، أنا لا أبكي..

ـ ولكنك قلقة.. هذا ما يبدو على وجهك.. الا تقولين ما بك يا روح بابا؟

ـ لا أستطيع الذهاب إلى المدرسة سيراً على قدمي.

فكر جهاد ملياً وأجاب:

ـ المسألة بسيطة.. نستأجر سيارة تنقلك في الذهاب والإياب.

ـ ولكن هذا مكلف.. لا أريد أن تتحمل لأجلي ما هو فوق طاقتك.

ـ استئجار التكسي لا يكلف كثيراً.. إذا كنت مصممة على إتمام العام الدراسي.

قالت وهي في نوبة بكاء:

ـ أنا مصممة، مصممة، مصممة..

ـ إذن ستكون السيارة غداً في انتظارك.

وفي الغد جاءت السيارة فأوصلتها إلى المدرسة، وبعد الظهر أعادتها إلى البيت، وسط عناية فائقة من الأهل، وباندفاع مهووس من الفتاة، في أن تدرس وتنجح، وتحصل، في العام المقبل، على الشهادة الإعدادية. ولأنها لا تستطيع أن تمشي، وهذا ما بدأت تعترف به كواقع، فقد رضيت أن تتجول في البيت وهي جالسة في كرسي المقعدين، وقام الأب، تلبية لرغبتها، بتصنيع طاولة، ذات قوائم عالية، يدخل الكرسي فيها، وبهذه الطريقة تمكنت من كتابة وظائفها المدرسية، وحفظ دروسها، وتناول الطعام أيضاً.

ثم لاحظت الأم أن ابنتها لا تتحسن. بل تجرأت على القول إن حالتها تتأخر، وأنه لا بد من عرضها على الأطباء، والكتابة إلى المستشفى الوطني في لندن، عساه يرسل لها دواء ما، أو ينصح بالعودة إلى المعالجة في مستشفى الطب النووي بدمشق. فقال الأب إنه راجع الأطباء، وكتب إلى لندن، وإنه لا يشارك الأم وساوسها ومخاوفها، فبعد التراجع في حالة الفتاة، سيأتي التقدم، وليس هناك من وسيلة في الوضع الذي هم فيه، سوى الصبر، وعدم الكلام عن مرض رنا أمامها، فإذا شكت هي، فيجب تشجيعها، وينبغي إفهامها أن مرضها سيظل يتراوح بين تأخر وتقدم، حتى يأتي التحسن النهائي، ويحصل الشفاء الكامل.

صدقت الأم، كانت مستعدة دائماً لتصديق كل ما يقوله زوجها، حتى لا يتكرر الشك ويتكرر التطمين، وكان هذا كله مبنياً على قناعة إنه لم يكذب عليها طوال حياتها المشتركة، التي مضى عليها نحو من عشرين عاماً، توطدت خلالها ثقتها بأقواله، حتى لا تجرؤ، ولو بينها وبين نفسها، على الشك بأنه يمكن أن يخون هذه الثقة ويكذب عليها.

« أنت يا جهاد لا تكذب. هذه حقيقة مسلّم بها. وأنت ترى الكذب رأس المعاصي، وهذا ما عرفته زوجتك واقتنعت به، لكنك الآن تكذب. أنت مضطر إلى الكذب، ومضطر إلى حبس نفسك في مكتبك، متظاهراً بأنك تعمل، ثم أنت مضطر إلى الفرار من رؤية ابنتك التي يأكلها الداء، فتنشفّ كفها الصفراء النحيلة، ويتغضّن ساعدها وييبس، وتبدو أناملها وهي تمسك بالقلم، رقيقة الجلد، حتى كأنه لا لحم على السلاميات، أما وجهها فيصفرّ، ووجنتاها تضمران، فلا تبقى منها سوى عينين سوداوين، لامعتين، مبتسمتين أحياناً، وجسدٍ واهٍ يزداد نحولاً كلما ازدادت مرضاً، وكلما انتشر الورم السرطاني في النخاع الشوكي، متصاعداً نحو الدماغ. ثم أنت وحدك، من دون سائر الأهل، تعرف العلة، وتعرف ألاّ شفاء، وتجاهد كي

تقنع من حولك أن الشفاء آتٍ، ولكي تتحمل كل هذا القدر من الشقاء، تبكي في خلوتك، وتضحك بين الأهل، وتحاول القراءة فلا تفهم الكلمات، وتعيد قراءة ما قرأت فلا تزداد إلا تشتتاً، والتناذر الناتج عن إعيائك النفسي يزداد، فلا تقوى على التركيز، ومع ذلك مضطر إلى كتابة مقالك الأسبوعي، وفيه ما فيك، أو ما يجب أن يكون فيك، من تفاؤل تؤمن به إيماناً مطلقاً».

امرأة وحيدة في دنياه كان قد باح لها بسره، تلك هي ليلى، هذه الحبيبة والقديسة والملهمة. هذه التي تصلي للعذراء، وهي تسجد أمام أيقونتها بخشوع، أن يشفي الله رنا، ويخفف عن جهاد ما به، ويجعل قسوة الحياة أخف على العائلة، فإذا ما جاء الأب الملتاع، أسندت رأسه المتعب على كتفها، وشاركته آلامه وأحزانه مشاركة صادقة.

قرأ لها يوماً قصيدة المسلول لبشارة الخوري، وتوقّف عند البيت الذي يقول فيه:

أيـــن التي كـــانـــت تقـــول لـــــه
ضـــع رأســـك الواهـــي على كبـــدي؟

ودون وعي منها، مدت ليلى يدها ومسدت على رأسه، ونظرت في عينيه المتعبتين، وتخيلت هذا الرجل الكبير، الكهل، طفلاً يبحث عن صدر، عن عاطفة، عن كلمة تشجيع، عـن شيء يحمـل لـه العـزاء، وقالت:

ـ ماذا بوسعي أن أفعل؟

ـ لا شيء..

ـ لكنني لا أستطيع أن أراك تتألم دون أن أفعل شيئاً.

ـ وما هو الشيء الذي في وسعك أن تفعليه.!؟

ـ أن أفتديك!.

ـ الفدية تنفع في عتق أسير.

ـ وهي كل ما أستطيع؟

ـ نعم!
ـ لكنني قادرة أن أفعل ما لا يفعل.
ـ أعرف، لكن لا فائدة..
ـ حملت أمس زيتاً إلى الكنيسة.
ـ ليكن نذرك مقبولاً.
ـ وصليت أمام المصلوب لأجل شفائها.
ـ المصلوب هو أنا الآن..
ـ أفهمك.. أقدر ما تعاني.. حين تكون متعباً تعال إلي..
ـ ها أنا متعب لذلك أتيت.
ـ ماذا لو شربنا فنجاناً من القهوة!؟
ـ على شرط أن أعدّه أنا.
ـ أما زلت تحتفظ بهذه العادة؟
ـ ازداد شغفي بها وأنا في لندن.. صارت طقساً بالنسبة إلي.

سار إلى المطبخ. كان نظيفاً، مرتّباً كعهده به، كان مريحاً كالبيت كله، وفي هذا البيت يجد جهاد العزاء. لم يكن، وهو فيه، يفكر في الجنس، كانت ليلى، بالنسبة إليه، مريم المجدلية، إنها قريبته، لكنه لا يأتيها بحق القربى فقط، كان يأتيها مأتى الحبيب أيضاً، ويجد لديها دائماً كلاماً مشجعاً. كان بيتها قارة أخرى بالنسبة إليه، وفي هذه القارة ينسيه البعد بعض ما يعاني في بيته، في قارته المسكونة بالمرض والموت. هنا، بوجودها، يتجدد عزمه على مقاومة الحزن، يستمد القوة كيلا ينكسر من الداخل، كي يظل صامداً، كي لا يبوح بسره، الذي هناك، في بيته، ينفرد به ويعذبه، أما هنا، وبوجودها، فإنه لا يشعر بعذابه، لانه يستطيع أن يقول عن مرض ابنته ما لا يقال.

صب الماء في ركوة القهوة، أضاف اليها البن، راح يطهوها على نار خفيفة، وقال جاداً: «القهوة لا تشرب إلا مُرّة، فالسكر يفسدها».

قالت ضاحكة: «قبلك كنت أشربها حلوة جداً» قال: «كنت بلهاء صغيرة إذن!» فسألته:

ـ وهل من يشرب القهوة حلوة يكون أبله؟

ـ لا يكون صاحب مزاج.

ـ تحب أصحاب الأمزجة؟

ـ أحب غير العاديين.

ـ أنا غير عادية إذن؟

ـ أنت هرّة ذات أظافر!

ـ احذر إذن!

ـ لست أبالي.. سمعت الشعر الذي يقول: «ما لجرح بميّت إيلام»؟

ـ انتبه كيلا تفور القهوة.

ـ لو فارت لكان هذا أفضل.. يتعطّر البيت.

ـ ألا يكفيك ما فيه من عطور؟

ـ القهوة عطر العطور..

ـ أيها المجنون، يا مجنوني الرائع، كم من أشياء تعلمتها منك.

ـ كل منا تعلم من الآخر..

ـ وماذا تعلمت مني؟

ـ ألاّ أنكسر من الداخل.

ـ هذه الجملة، أسمعها كثيراً منك.. أتخشى الانكسار.!؟

ـ هو وحده ما أخشاه.. وماذا لدي غيره أخاف عليه؟ الموت؟ إنني أخاف إمكانية ألا يأتي!

ـ ولمن تتركني إذا مت؟

ـ لشبابك..

ـ ما أسرعك في تذكيري بكهولتك.. أنت لست كهلاً في نظري، صدق ما أقوله لك.

ـ وعندئذ أكذب نفسي، أكذب الواقع.. هيا.. لنشرب القهوة وندخن.

شربا القهوة ودخنا. كان يكثر من التدخين، ومن الشرب، وكان يقول، حين تنصحه بالاعتدال: « إذا طـال هذا عندي قصر العمر »، فتنظر إليه مفتونة، خائفة، وتجيب:

ـ لا تقل هذا.. لا أريد سماعه.. لا تحاول أن تنتحر ببطء.

ويجيبها:

ـ لو ملكت الشجاعة لانتحرت بسرعة.

ثم يطلب، كعادته، كأساً من الويسكي، كأساً مثلوجة، يغرق فيها متاعبه وهمومه ونفسه وذاكرته جميعاً.

ـ ٢٣ ـ

السؤال الذي حيّر جهاد كثيراً هو: « هل صدقته رنا، وهي ترى صحتها تتدهور، أن التراجع سيعقبه تقدم؟ وهل أدركت، وهي في كرسي المقعدين، أنها تسير نحو الشلل التام، أم أنها ظلت على يقين بأن التحسن سيأتي، وانها ستنهض ثانية وتمشي على قدميها؟ »

أبداً لم يتلق جواباً قاطعاً على أسئلته هذه. ورنا لم تقل انها ستبقى مشلولة أو أنها ستموت يوماً. ظلت خارج دائرة الشك، كما بدا من تصرفها، ومن إصرارهـا على الدراسـة، ولكـم حـاول وهـو يجلس قبالتها، ويتحدث إليها، أن يكتشف سر هذا الصمت في عينيها. إنه حائر في أمرها، مرتبك أمامها، فلـو كـان هـو مكـانها، وفي مثـل مرضها، لضج بالشكوى، ولأدرك، منذ أوصى الطبيب بسفره إلى لندن، أنه في حال خطرة، وأن مرضه عضال، وربما لا شفاء منه. لكن رنا أطبقت شفتيها، وظل إيمان عميق بالشفاء يعمر قلبها، أو

أنها عرفت وسكتت، هي النبيهة، حادة الذكاء، كي لا تزيد في آلام من حولها، وكي لا ترى أمها تبكي، والبيت يجلله السواد قبل الأوان.

مهما يكن فإن المرض، كما كان متوقعاً، أخذ يتطور. وذات مساء بعد رجوعها من المدرسة، أعلنت والدموع تترقرق في عينيها، وتفيض سائلة كحبات اللؤلؤ على خديها، أنها لن تعود إلى صفها، وأن من العبث أن تكابر، فقد غدت عاجزة عن السير تماماً، والسيارة لا يمكن أن تدخل بها إلى قاعة الدرس.

وقد كانت لحظة المكاشفة تلك مأساوية تماماً. وكانت الدموع في عينيها تعبيراً عن قهر داخلي تعانيه، ولم تلبث أن شاركتها أمها بكاءها، ووقفت أخواتها حيارى، ومن جميع الذين في البيت، لم يكن سوى أخيها الصغير أيمن يحبو فرحاً، غير شاعر بالفاجعة من حوله، كما لم يكن في البيت كله من يعرف مدى هذه الفاجعة، سوى الأب الذي غص بدمعه وفر إلى مكتبه وأغلق الباب.

وحين هدأت رنا، وطلبت أن يحملوا أخاها الصغير إليها، لتضعه في حضنها، وتقبله، ازدادت وطأة اللحظة المأزومة، وقرعت الأم الباب على زوجها، فأجابها بأنه يشتغل، وتمهل في فتحه ريثما استعاد رباطة جأشه، وأخفى أثر الدمع في عينيه.

قالت الأم بصوتها الباكي، النائح كما لو أنها تندب ابنتها:

ـ والآن؟ ماذا نفعل؟

ـ لا شيء سوى الصبر والانتظار.

ـ رنا لن تذهب إلى المدرسة.

ـ هذا ما كنت أتوقعه.

ـ لكنها لن تنقطع عن الدراسة.

ـ كيف!؟

ـ تقول إنها لن تضيع مستقبلها.

ـ وأنت؟ ما رأيك؟

ـ أنا من رأيها، حرام أن يضيع مستقبلها..

ـ أجل! يجب أن نهتم بهذا المستقبل، ولكن كيف!؟

ـ رنا تطلب مدرساً للرياضيات يعطيها دروساً خاصة في البيت.

في اليوم التالي جاءها بمدرس للرياضيات. ونزولاً عند طلبها جاءها بمدرس للأدب العربي. فعل كل ذلك بجدية، وبحرص على أن يبقى سر المرض مكتوماً. لقد تماسك والموقف يدعو إلى التضعضع. قرر ألا يضعف، وأن يحتفظ بابتسامته مهما بلغ حزنه، وهكذا أطرى، صادقاً، موهبتها، حين أطلعته على وظيفة التعبير التي كتبتها، ورحب بفكرتها حين أعلنت بحزم، بعد شهر من ذلك، انها ستسلك طريق الأدب قائلة:

ـ إذا لم أنجح في الدراسة، فإنني سأنجح في الكتابة.. لا بد أن يكون في الأسرة من يقتدى بك.

قال لها وقد تظاهر بفرح غامر:

ـ يا حبيبتي! أنت ستكونين خليفتي.. وظيفة التعبير قطعة أدبية، يمكنك، منذ الآن، أن تكتبي.. حاولي، في البدء، أن تكتبي أشياء شخصية، يوميات مثلاً..

ـ فعلت هذا في لندن.. كتبت وأنا في المستشفى، لكنني لن أطلعك عليه.. إنه لا يستحق.. أعرف انني كتبت أشياء سخيفة..

ـ لا يستطيع الكاتب أن يحكم على أشيائه بنفسه.. لا بد له من قارئ، من ناقد.

ـ ستكون ناقدي إذن.

ـ أنا على استعداد.. أطليعني على ماكتبت.

ـ ليس بعد، ليس بعد.. انتظر سنة أخرى، ألم تقل، أنت نفسك، إنك أخفيت محاولاتك الأولى عن الناس؟

ـ عن الناس نعم، ولكنني أب، وقد تفيدك ملاحظاتي..

ـ سأحتفظ بدفتر مذكراتي لنفسي.. أما إذا كتبت خاطرة ما فسأطلعك عليها.. أرجوك، لا تتعجل.

ـ لست بمستعجل.. لكنني أوصيك بالقراءة.. مكتبتي تحت تصرفك.

ـ وهذا ما سوف أفعله، لذلك سأترك الرياضيات والمواد الأخرى، وأنقطع للأدب العربي.

ـ هذا أفضل ما تفعلين.. وستبدعين يا رنا، ستكونين شهيرة.

ـ وتكتب الصحف عني!؟

ـ ولماذا لا؟ بعد أن تنشري كتاباً أو كتابين، تأتي الشهرة وكتابة الصحف.

ـ إذن سأعتمد على نفسي، حتى لا يقال إنك تساعدني.

ـ سيكون لك أسلوبك الخاص.. أنت، منذ الآن، تملكين شخصية متميزة، وأهم عامل في نجاح الكاتب أن يكون متميزاً، وله اسلوبه الخاص.

ـ أنت لا تقول هذا لإدخال الفرح إلى نفسي، أليس كذلك؟

ـ أقوله جاداً وبموضوعية.. وأنت تعرفين أنني لا أحابي.

ـ إذن من الغد أتوقف عن درس الرياضيات، وسأبحث في مكتبتك عما يفيدني، وأدون ملاحظاتي في دفتر خاص.. يعني سأقاسمك مكتبك، وآمل ألاّ أزعجك..

ـ هذا يسعدني.. إنني أشتغل ليلاً، والمكتب لك النهار بطوله.

ـ اتفقنا.. (وبعد وقفة) سأتناول القهوة أيضاً، ألا تراها ضرورية؟

ـ إنها تساعد في الكتابة.. تحدث تنبهاً مفيداً.

ـ لكنني لن أدخن مثلك.. هل.. التدخين ضروري مثل القهوة؟

ـ التدخين عادة.

ـ لا أحب هذه العادة.. لا أحتمل رائحة التبغ مثلك.. يا إلهي! كم تدخن أنت!؟

ـ لا أستطيع الاقلاع عن التدخين، لكنني لا أقدّم أية نصيحة لأيما كاتب بهذا الخصوص.

ـ وما هي النصيحة التي تقدّمها لي؟

ـ المطالعة ثم المطالعة.. التهمي مكتبتي إذا استطعت..

ـ وغير ذلك..؟

ـ افعلي ما يحلو لك.

ـ لا، ليس إلى هذا الحد.. أنت لن ترضى أن.. كيف أقول؟

ـ فهمت.. وسأكون راضياً.. أحبي.. الحب فعل إنساني، إنه نعمة من الله، كالخبز والماء.

ـ أعرف أفكارك هذه.. قرأت كتبك.. لكنني لا أسمح لنفسي بما تسمح به لنفسك.. أنت رجل.. ونحن في مجتمع الحريم!

ـ مجتمع الحريم يتداعى.. أنا أؤمن بالمرأة، وأؤكد أنها هي وحدها تصنع التقدم الاجتماعي، وحين تتعلم المرأة وتعمل، ستصنع المعجزات.

ـ بودي لو أصنع معجزة صغيرة.

ـ ما هي؟

ـ أن أكتب كتاباً.

ـ كتابة الكتب لم تعد معجزة.

ـ بالنسبة إلي معجزة.

ـ هذا لأنك تملكين مشاعر كاتبة حقيقية.

ـ يا حبيبي! كم تطري أفكاري وأعمالي.. حذار أن تجاملني.

ـ أنا لا أجامل في الكتابة أحداً.. هيا، أريني مقدرتك على صقل موهبتك.

ـ هذا إذا كنت أملك موهبة.

ـ وتشكّين في ذلك؟

ـ لا أشك أبداً في ما تقول.. أنت قدوتي في هذه الحياة.. ومنذ الغد سأبدأ..

في الغد صرف جهاد مدرّس الرياضيات، ملمحاً إلى وضع الفتاة الصحي، ففهم المدرس وقال للأب:

ـ أقدر الظروف وأرجو لها الشفاء.

أما الأم فقد ناقشت الموضوع من زاوية الحرص على شهادة الإعدادية، حتى اضطر جهاد إلى حسم الموقف قائلاً:

ـ تحدثنا في هذا الأمر ما يكفي.. لندع الفتاة تختار طريقها بنفسها.

ـ ولكن الرياضيات ضرورية.

ـ ابنتنا اختارت الأدب العربي..

ـ وبماذا يفيدها؟

ـ في الكتابة.. ستكتب..

لم تقتنع الأم، لكنها سلمت بوجهة نظر الأب، على أساس أنه يعرف أكثر منها. وكان فعلاً يعرف أكثر منها. وقد حسد الأم على طيبة قلبها، وعلى أملها في أن رنا ستشفى وتعود إلى الدراسة. كان، في داخله، تنّور محمى، يخبز عليه ألمه الشخصي، وقد ازداد وضعه صعوبة، لأن عليه، الآن، ان يمثل دوره منذ أن يستيقظ إلى أن ينام. كان مضطراً إلى اصطناع الهدوء، والحكمة، والابتسام، لا أمام ابنته وحدها، بل أمام الأم والأخوات والأقارب والجيران، حتى لم يعد يجد راحة من عذابه المضني سوى في مكتبه، ولأن المكتب أصبح مشغلاً للفتاة التي انصرفت إلى المطالعة، وتدوين الهوامش والملاحظات، فقد أصبح مضطراً إلى الفرار من البيت، وملازمة المقهى، أو نشدان العزاء عند ليلى، الحبيبة التي صارت له أماً وأختاً، وقاسمته آلامه وأحزانه مقاسمة وجدانية حقيقية.

كانت ليلى ذات ثقافة جيدة، حصلت عليها من دراستها الثانوية

ومن المطالعة، ولم يكن الذكاء ينقصها، وإذا كانت لا تخوض معه في أحاديث معمقة حول الأدب، إلا أنها كانت بارعة في مناقشة بعض الأفكار، وخاصة السوداء منها، وتبديدها بمنطق من خبر الحياة، ولديه تجارب كثيرة عن تقلباتها. لقد كانت، كما وصفها، امرأة العزاء الصادق، التي تعرف كيف تستنبت الأمل عندما يخيب، بما تملك من قوة فائقة في مواجهة المصاعب.. ولكم جاءها قانطاً، مهيض الجناحين، تحت وطأة هموم هي صخور من الجرانيت، ثم خرج من عندها وقد تجدد رجاؤه، لا في شفاء ابنته الميئوس منه، بل في قدرته على احتمال هذا المصاب الذي له نهاية مهما يطل.

كانت تقول له وهي تترجم عن أحاسيسها بأصدق كلمات التدليل:

ـ أنت حبيبي وأملي، ولكن علي، ومهما يكن كلامي جارحاً، أن أصارحك بانك تقف وحيداً، لذلك تبقى خائباً.

ـ أنا لا أقف وحيداً سوى بسري.

ـ وهذا السر هو اللعنة.

ـ وماذا أفعل به؟

ـ فكر أنت..

ـ فكرت ولم أجد وسيلة للخلاص.

ـ هذا ليس صحيحاً.

ـ كيف ليس صحيحاً؟ مع من أقف إذن؟

ـ معي.. لو كنت تؤمن حقاً أنني إلى جانبك، ما استشعرت كل هذه الوحدة وكل هذا البؤس.

ـ **فهمت، أنت تشكين في حبي، أنت تزيدين في عذابي، يكفي!**

ـ **لا تفهمني خطأ.. أنا أريد مساعدتك.**

ويصيح جهاد:

ـ **وماذا تستطيعين لأجلي؟ ماذا في وسعك أن تقدمي لي؟ أية مساعدة؟**

ـ مساعدة كبيرة، ليس لها مثيل.

ـ وما هي؟

ـ حبي الذي ليس له حدود.

ـ وبعد؟ أهذه هي المساعدة؟ وماذا يفعل الحب في مثل وضعي؟

ـ الحب يصنع المعجزات!

ـ وأين معجزة حبنا..؟

ـ هي في صدق حبنا نفسه.. في قدرتنا على التضحية، الواحد لأجل الآخر.

ـ التضحية لا تكون من طرف واحد.. أنت تضحين بفرحك لمشاركتي في حزني، وأنا أستعذب هذا وأستغله، ثم لا أفعل شيئاً، لا أضحي بأيما شيء، فهل يرضيك هذا؟

ـ يرضيني..أنت تضحي إذ تحبني، أليس الحب تضحية؟

ـ وماذا تفيدك هذه التضحية، على فرض وجودها؟

ـ تجعلني أشعر أنني محبوبة.

ـ وهل هذا يكفي؟

ـ هذا لا يقدر بثمن.. يا بؤس من ليس له من يحبه!

ـ هذا كلام جميل.. تعرفين، أحياناً، أن تعبري عن نفسك بشكل جيد.

ـ الفضل في ذلك يعود إليك.. قبلك كنت وحيدة وتعسة.. لقد بدلت حياتي، جعلتني أشعر أنني أعيش حقيقة.

ـ حذار من هذا الوهم!

ـ الحب ليس وهماً.. من جانبي على الأقل.

ـ وإذا كنت لا أبادلك مثل هذا الحب، الذي يعيد الحياة إلى من فقدها كما تقولين؟

ـ يكفي أن أحبك أنا.

ـ الحب تبادل!

ـ والحب، كما قلت لك، تضحية.. هب أنك لا تحبني، فماذا

يمنعني من أن أحبك وأضحي لأجلك؟

ـ والمقابل؟ أين المقابل؟ إذا لم يكن للتضحية ما يقابلها ماتت!

ـ مع الحب لا تموت التضحية.. هكذا أشعر.. فكر كما تريد، وارحل إلى حيث شئت، واهجرني إذا استطعت، أما أنا فسأظل أحبك، وهذا يزيدني سعادة في حي، يجعلني أستمتع بطعم الإخلاص.

قال جهاد مبتسماً، نازعاً إلى المسالمة:

ـ لكي أفكر جيداً بما أسمع، وأفهم جيداً ما أسمع، ينبغي أن أتناول فنجاناً آخر من القهوة.

ـ من يدي هذه المرة.

ـ من يدك..

ـ آه يا حبيبي! كيف كنت سأكون لو لم تظهر في حياتي؟

ـ لكننا أقرباء.!

ـ القربى لا شيء.. كناقريبين قبل حبنا، لكننا كنا منفصلين، الواحد عن الآخر، والآن اتحدنا..هذا ما أسميه ظهور إنسان في حياة إنسان آخر.

ـ والاتحاد الجسدي؟

ـ لا تتباله.. الاتحاد الروحي، هذا هو الذي يبقى.

ـ وإلى متى يبقى؟

ـ إلى أن نموت، وبعد أن نموت.. الحب، كيف أقول؟ حمامة، والحمامة هي الروح، ألا يقولون إن الروح حمامة تطير من الجسد دون أن نراها!؟

ـ هذا حديث عجائز..

ـ ليكن.. العجائز لديهم تجاربهم أيضاً.. والآن اتبعني إلى المطبخ، سنصنع القهوة، ونشربها، وندخن.

قاطعها:

ـ ونتفلسف!

ـ هذه ليست شغلتي.. أنا امرأة لا تحمل سوى الشهادة الثانوية.

ـ وفي الشهادة الثانوية يدرسون الفلسفة.
ـ هذا صحيح، لكنني محرومة من نعمة التفلسف.
ـ أنتِ!؟
قالها وتوقف عن الكلام.
فابتسمت وهي تميس بقدها:
ـ ماذا أنا؟
ـ فيلسوفة على طريقتك!
ـ وصانعة قهوة رائعة على طريقتي أيضاً!
ـ وساقية رائعة بطريقة لا مثيل لها..
ـ ولكن ليس قبل أن تبتسم، قبل أن تكون لي، لي وحدي، نقطع الدرب معاً، ونواجه المصاعب معاً، ويثق كل منا بالآخر.. أم أنك لا تثق بي؟
ـ ثقة مطلقة.. قبل القهوة وبعدها، وقبل الويسكي وبعدها.. فقط لنسرع.. يجب أن أعود إلى البيت، لأمارس الكذب، كأي محتال في هذا الوجود..
ـ تكره الكذب إلى هذا الحد؟
ـ «الكذب رأس المعاصي»، ومع ذلك اضطرتني الأيام أن أرتكب هذه المعصية.. تأملي.!
ـ عدنا إلى تعذيب النفس؟
ـ ماذا أفعل إذا كان هذا مرضي.!؟
ـ سأشفيك منه..
ـ كيف!؟
ـ لن أقول كيف. سأجعل ذلك مفاجأة.
فكر وهو يراها تبتعد: «حياتي أصبحت كلها مفاجآت» ثم اعترف قائلاً: «لكن المرأة، حين تقف إلى جانب الرجل، تكون مفاجأة من نوع مريح، إنها هي، وليس من أحد سواها، بقادر أن

يصنع بحبه معجزة شفاء لي. العزاء ليس وصفة طبية، لكنه كلمة طيبة، صادقة، وليلى هي هذه الكلمة الصادقة العذبة.. صدق حبها يمسح على قلبي عزاء وصبراً، حتى أدمنت على تناولها من يدها، في كل ساعة، في كل نهار، في كل ليلة.. أصبحت أحتاجها، وأهرع إليها، وأجد عندها دائماً الكلمةالتي تنزل عني متاعي ببساطة مدهشة».

هكذا، بطواعية كاملة، جعل من قلبه عبداً لقلبها، وقد تم ذلك بتلقائية عبرت عن نفسها في أنه صار يفتقدها كل لحظة، ويجد دائماً ملاذه عندها، وفي حال كهذه كان يأخذ يدها ويقبلها، واضعاً في قبلته مشاعر امتنان لا حد له.

حتى زوجته، كانت تجد في ليلى أختاً، وكلما غلبها الأسى، أو ضاقت ذرعاً بصمتها أمام الألم الذي يفترس ابنتها، استدعتها، وشكت لها، وأبدت مخاوف أم على فلذة كبدها، دون تحرّج، وسمحت لدموعها أن تتساقط، وليلى تشاركها في أساها ودمعها، لكنها، من جهة أخرى، تعرف كيف تطامن من هواجس الأم، مؤكدة، وهي تلعب لعبة الكذب نفسها، أن حالة التراجع في صحة رنا مؤقتة، وانها إلى زوال، سرعان ما سوف يأتي التحسن، ثم الشفاء، ويتفتح الربيع في البيت الذي صار كل ما فيه إلى شتاء قاتم.

غير أن المرض كان ذئباً. وكان ذئباً ثلجياً انقض على شاة بكل ما في مخالبه من شهوة مسعورة إلى التمزيق. وتحت وطأة الهجمات الشرسة، راحت الفتاة تترنح، متألمة بصبر، صامتة كأبي الهول، مبتسمة في قرارة عينيها السوداوين كي لا تشكو ولا تخيف من حولها. وشيئاً فشيئاً بدأت تستسلم، نابذة اليوم ما كان بالامس أمنية بالنسبة إليها.

طلبت من والدها، دون إبداء أي عذر، أن يصرف مدرّس الأدب العربي كما صرف قبله مدرس الرياضيات، ولم يشكل الطلب أي مفاجأة للأب، فهو يرصد، عبر صراعه مع نفسه، صراع ابنته مع مرضها،

ويزيد، كل يوم، كمية الكذب، وينوع فيها، والأم التي فاقت طيبتها كل طيبة، ووثوقها بكلامه كل وثوق، ترزح تحت وطأة حزن صامت، حزن حائر، وتقرع باستمرار باب المكتب الذي هجرته رنا، مندفعة نحو الأب القابع في ناووس أوجاعه، وهي تسأل:

ـ ما العمل!؟

ـ كتبت مجدداً إلى لندن..

ـ ولكن لندن لا تجيب، ألا تصل رسائلك؟

ـ وهل يتفرغ مركز البحث العلمي في المستشفى لرسائلي وحدها؟

ـ ما رأيك أن تسافر بها ثانية إلى هناك؟

ـ سأفكر في الأمر.

ـ ومتى ينتهي تفكيرك إلى قرار؟ سنة مضت ونحن نفكر وننتظر.

ـ علينا أن ننتظر فترة أخرى.

ـ ما أبرد قلبك.. الا تراها تتعذب؟ لقد غدت مشلولة تماماً.

ـ أراها، وأتألم لها، لكن الأطباء ينصحون بالصبر.

ـ ولماذا لا تأتي بهؤلاء الاطباء لفحصها وإعطائها دواء ماء؟

ـ لأن حالتها المرضية معروفة، ولا تحتاج إلى فحص أو دواء جديدين.

ـ وما هو مرضها؟

ـ الشلل المؤقت، كم مرة تكرّر سؤالك وتكرّر جوابي؟

ـ اعذرني، أنا أم.

ـ وأنا أب.. اعذريني أنت أيضاً..

وتنادي رنا من غرفتها، فتخفي الأم دموعها، والأب أوجاعه، ويهرعان إليها:

ـ ماذا يا رنا؟

ـ سأقول شيئاً ولكنني خجلة!

قال الأب وهو يمسد على رأسها:

ـ تخجلين مني؟ ألسنا أصدقاء.!؟ لا تنسي أني أبوك.

ـ ولكنك تحملت فوق طاقتك.

ـ طاقتي لا حدود لاحتمالها.. قولي ما تريدين.. أطلي قلبي أقدمه مختاراً.

ـ سأتوقف عن محاولة الكتابة.. الصداع لا يترك لي مجالاً للتفكير.

ـ كما تشائين.. كنت أعرف أن الكتابة مهنة شاقة.

ـ أيّة مهنة علي أن أتعلم حتى لا أضيع مستقبلي!؟

قالتها بما يشبه الصراخ. بنبرات حادة، وبعد ذلك بكت، وتركها جهاد تبكي، لأنه كان عاجزاً عن الكلام.. وحتى لو استطاعه ماذا يقول!؟ تمنى لوكان مكانها، في كرسي المقعدين.. هو رجل، وقادر على اعتصار قوته لاحتمال أكبر. هو كهل، وإلى مغيب، وهي صبية، وإلى شروق، فماذا لو تبادلا المواقع؟

طلب فنجانين من القهوة، وقال إنه سيشرب قهوته معها، ويتحدثان بهدوء، وسيقرأ لها رسالة من ليديا وصلت اليوم. ابتسمت رنا. كفكفت دموعها وابتسمت، وقرأ الرسالة من ذهنه، فلم يذكر أن السيدة مارسيل تسير من سيّئ إلى أسوأ، بل أكد أنها شفيت، وأنها تذكرها، وتبعث بتحياتها إليها، وأن ليديا تعانقها، وتنتظر منها رسالة جوابية. وقد أرفقت بالرسالة بطاقة بريدية ذات مناظر خلابة، تأملتها رنا، وقبلتها، وقالت متهللة:

ـ لم تكن أيام لندن سيئة كما كنا نحسها في وقتها، أليس كذلك؟

ـ الأشياء هكذا دائماً.. يترسب الكدر في القاع، ويطفو الصفاء على الوجه.

ـ يا للذكريات!

ـ تحنّين إليها يا رنا؟

ـ أستعيدها بقراءة مذكراتي عنها.

ـ لكم أشتاق إلى قراءة هذه المذكرات.

ـ هذا لن يكون، لن أطلع أحداً على مذكراتي.
ـ ولماذا لا تكتبين مذكرات جديدة!؟
ـ فكرت في ذلك.. لكنني مللت القراءة والكتابة، لهذا أريد أن أضمن مستقبلي بطريقة أخرى.
ـ ما هي؟
ـ تعلّم الرسم!
ردد جهاد مستغرباً:
ـ الرسم!؟
وأجابت رنا:
ـ أنت لن تبخل عليّ بهذا الطلب، أليس كذلك؟
ـ لن أبخل عليك حتى بروحي، اطلبي ما تشائين.
ـ أقلام وأصباغ وقماش وحاملة.. ومدرّس للرسم.
وقال جهاد باندفاع صادق:
ـ من عينيّ الاثنتين.

- ٢٤ -

هكذا راحت الحياة تتملص من بين الأصابع، تضيع هي والمستقبل وكل الأحلام الوردية لفتاة شابة طالما تطلعت إلى بناء عالم من خيال لا ينقصه الخصب ولا يفتقد زهو الألوان. وكغزال في صحراء، تعب من مطاردة صياد عنيد، وتوقف ريثما يلتقط أنفاسه وهو يبحث عبر بحر الرمال، عن مكان يحميه، عن أم تجيره، عن سراب يتضامن معه في محنته، وقفت رنا وهي تتلفت حولها مستجيره بصمت.

كان ذلك في شهر نيسان، وكانت الطبيعة تتفتح زهرات من شمس ربيعية دافئة، والخضرة قد كست الأشجار التي تكللت في شهر آذار بتيجان بيض ووردية من زهور اللوز والتفاح والدراق، وبرعمت الأغصان وأورقت وانتفخت الثمار التي تعد بالجنى الطيّب المقبل،

وامتلأت الأجواء بتحويمات واندفاعات سريعة خاطفة للسنونو العائد، وعلت زقزقات العصافير الفرحة المتطايرة في كل مكان، وضحكت الدنيا حاملة بشائر الصيف القادم على هون، وهو يحفل بتهاويل مزوقة، وأشرقت النفوس بتلك البهجة السعيدة التي تستقبل الحياة المتجددة، حاملة الأمل والفرح والبسمة إلى الأرواح التي بهظتها كآبة الشتاء.

وذات يوم اقترح جهاد على العائلة أن تخرج في نزهة إلى الغوطة. وحاول أن يرسم لوحة للبهاء في أحضان البساتين، وقال لابنته المريضة إن نزهتها ستجلب لها فرحاً وعافية. وزيّن لها متعة الجلوس في أحد المقاهي المنتشرة بين أشجار الغوطة وخضرتها اليانعة، لكن رنا اكتفت بابتسامة مبتسرة، حزينة وهي تقول:

- إذهبوا أنتم ودعوني.
- كيف نذهب وندعك؟أنت أكثرنا حاجة للترويح عن النفس.
- لم أعد بحاجة إلى شيء.
- والغوطة الجميلة؟
- أستحضرها في خيالي.
- لكن خيالك سيزداد امتلاء بها عندما تشاهدينها.
- يكفي أن أخرج إلى الشرفة، ومنها أعاين الدنيا.

قال جهاد متوسلاً موافقتها:

- وإذا رجوتك أن تقومي بهذه النزهة؟
- قلت لا أريد الخروج.. دعوني..

بكت الأم، وبكت رنا لبكائها، وتصبّر جهاد وغصّ بألم أخرس، ولم يلحّ أكثر، فهو يدري ما تكابد ابنته، واكتفى بمساعدتها على الجلوس في الكرسي، ودفعها أمامه إلى الشرفة، دون أن تسعفه أعصابه على قول أي كلمة أخرى، قد تفجّر حزنه الذي تجمّد الآن في مآقيه لكثرة ما عانى.

ومن على الشرفة راحت رنا تتأمل الطبيعة من حولها. تتأملها بنهم،

بشوق، ولكن بصمت، فقد كرهت، كما خيل إليه، الكلام، ولاذت بهدوء معذب، أصبح الطابع العام لحضورها المأساوي في البيت وعلى سرير المرض. لم تقل: «آخ». الحسرة أنها لم تقل «آخ» ربما عزّ عليها أن تضعف، وربما نسيت الشكوى، فهي تداري ألمها بصمت وصبر، وكبرياء: وحتى أمام المطاردة العنيفة، هي الراحلة وملك الموت المدرع، يركب فرساً، ويشهر في وجهها رمحاً، لم تندّ عنها شكاة.. لهثت فقط من تعب، وتصبب العرق من شعرها الليلي، وبعد أن تشكل حبيبات على الجبين، وذاب الجسم وتضاءل وانكمش، وشف كطيف ولم تصرخ أو تتوجع. ظلت العينان لامعتين، عاتبتين على نحو ما، وراح الأسى الفاجع يتحير فيهما حين بدأ الداء مرحلة التصفية. وفي نوبات الحمى العنيفة، حين ترتفع الحرارة للتجاوز الأربعين درجة، كانت تطلب أن تمدد في سريرها، وتغطي رأسها محاولة الاحتجاب عن عيون الأحبة المحدقة بها. تلطي تحت اللحاف، دون شكوى، دون أنين، دون صوت، دون نأمة، وتروح، في بأس شجاع، تتقلى على نار حرارتها المتلظية، وحين تبدأ هذه الحرارة بالهبوط، تنام تعبة مكدودة، حتى إذا أفاقت، وأزاحت الغطاء عنها، بدت منهكة، تطلب كأساً من الماء، أو أخاها الصغير لتضمه، وتقبله، وتدلله، وتجلس وهو في حضنها، وتبقى كذلك دون ذكر للنوبة، دون تجديف عليها، ودون طلب للرحمة منها. وفي قرارة عينيها السوداوين تعاود الابتسامة الآسرة رزّ لمعانٍ كهربائي فاتن، وتنفرج الشفتان الشاحبتان عن ذلك الصف الجميل من الأسنان البيض.

وتلبية لطلبها جاءها جهاد بمدرّس للرسم، اشترى لها الحاملة والقماش والاصباغ والفراشي، وشرعت تأخذ دروساً منتظمة وهي سعيدة، مجتهدة في أن ترسم ما تتخيله، فإذا انصرف المدرس اقتربت، وهي جالسة في كرسيها، من حاملة اللوحة، وراحت تحاول تنفيذ بعض الخطوط والدوائر، وكل من في البيت يراقبها بحذر وأمل.

كانت الأم تتعذب لعذابها، تقرع صدرها وتبكي وتنذر النذور، أما الأب فقد كان عذابه مضاعفاً، كان عذاب العارف بالمصير، الشاهدُ على احتضار بطيء بطيء، وهو حزين إلى درجة الموت، أمام الفاجعة الرهيبة التي لا يستطيع أن يبــوح بسرهــا لأحــد. كــان، في ساعات إفاقتها من نوبة الحمى، يأتي ويجلس إليها، يحادثها، يستعيد بعض الذكريات معها، ويسألها عما ترسم، وماذا تريد أن تقول في ضربات الفرشاة التي تصنع رسماً سوريالياً بدائياً، فتجيبه وهي تبتسم:

ـ لا أعرف ماذا أفعل، لكني أحس أن هناك شيئاً في صدري يريد أن يخرج.

فيفكر بالمعنى الفنّي الذي ينطوي عليه كلامها ويقول:

ـ الرسم كتابة بالألوان، لا بد له من موضوع، فكرة، خاطرة ما..

ـ أفهم ما تقصد.. أنا أيضاً لدي أفكاري، لكنني لن أتحدث عن موضوع اللوحة قبل اكتمالها..

ـ في هذه الحال سننتظر أن تتشكل اللوحة وتتجسد في فكرة ما..

ـ الفكرة التي تسيطر علي هي أن أرسم ملاكاً أبيض رأيته في الحلم ونحن في لندن.

ـ ألاحظ ميلك إلى اللون الأبيض، ورغبتك في تجسيم الضوء.

ـ الأستاذ لاحظ هذا أيضاً.. حين أنتهي من لوحتي هذه، أريد أن أرسم صورة أخي أيمن.

ـ وصورتي أنا؟

ـ سيأتي دورك حين أتقن الرسم.. وكذلك دور أمي. يا إلَهي! كيف السبيل لرسم طيبتها.!؟

ـ طيبة أمك تعجز من يتصدّى لرسمها.

ـ لي رجاء عندك.

ـ ما هو؟

ـ إذا عجزت أنا عن رسم هذه الطيبة بالألوان، فارسمها أنت بالكلمات.
ـ سأفعل، هذا وعد شرف.
ـ لكنك لم تذكرها في أي من قصصك.
ـ هي في كل قصصي.. اقرئي ما كتبت عن الأم.
ـ هي الأم التي كتبت عنها إذن؟
ـ هي المرأة البهية التي ألهمتني صورة أمي..
ـ وأنا؟

فكر قبل أن يجيب، لاذ بالصمت، خاف أن يفضحه صوته، حاول تغيير الحديث، لكنها، بعنادها، كررت السؤال:
ـ وأنا!؟
اعتصر قوته وأجاب:
ـ أنت ستكونين بطلة قصة كبيرة.
ـ وتحكي عني كل شيء بصدق!؟
ـ بصدق كامل.
ـ يا لفرحي.. سيقرأني الناس إذن.. سيعرفون قصة حياتي، وحتى قصة هذا الكرسي الذي أجلس عليه.
ـ أنت لن تبقي جالسة في هذا الكرسي.. سيأتي الشفاء وتغادرينه..
ـ مع ذلك اذكره.. قل إنني كنت أكرهه، وانني وثقت بالله وبالشفاء التام في صبري الطويل على المرض.
ـ سأقول كل ذلك.
ـ عندئذ سأقرأ نفسي، سأرى صورتي كما في مرآة، وأدرك لحظات قوتي ولحظات ضعفي.. هذا إذا كتبت بأمانة، ولم تحاول أن تجمّل صورتي.
ـ سأكتب بموضوعية.

ـ وسأقرأ بموضوعية، كأن القصة عن غيري، عن فتاة في مثل عمري، وسأعرف، عندئذ، ما إذا كنت تجيد فهم النفس البشرية، بعد مقارنة ما كتبت في قصتي، مع ما كتبت في مذكراتي.

ـ لن تكون المقارنة في صالحي إذن.

ـ ولماذا؟

ـ لأنني أكتب عنك، وأنت تكتبين عن نفسك. الكاتب لا يعرف ذات بطله وعالمه الداخلي، بقدر ما يعرفها هو نفسه.

ـ لا أصدق. الإنسان قد يحس بأشياء لا يستطيع التعبير عنها، بينما الكاتب يستطيع ذلك، وإذا كان يعرف بطل قصته جيداً، وله قدرة على التحليل النفسي.

ـ آه! هذا رائع، إنك تصفين حال الكاتب بدقة، كأنما مارست الكتابة بنفسك.

ـ مارستها قليلاً.. وأحسست بهذا النقص عند كتابة مذكراتي.. كنت أحس بأشياء، لكنني لا أعرف كيف أعبر عنها، وكنت، عندئذ، أفكر فيك، وأشعر بفخر لأنك قادر على تصوير الأحاسيس بشكل جيد.

ـ هذا إطراء جميل.. هذا تشجيع، ولشد ما أكون مسروراً لو كنتُ تماماً كما تقولين.

ـ هذا تواضع، أليس كذلك.!؟

ـ ربما..

ـ بل هو تواضع أكيد.

ـ لكن بعض التواضع ينطوي أيضاً على غرور!

ـ وماذا في ذلك.!؟ لا بد للكاتب أن يكون مغروراً قليلاً.. أنا، مثلاً، لا أكره الغرور، إذا كان ثقة واعتداداً بالنفس.

ـ هذا شعور طيب، سيفيدك في الرسم، كوني واثقة بنفسك.

ـ لكن رسم الملاك الأبيض الذي رأيته في الحلم صعب، بل هو

صعب جداً، حتى لأقول في نفسي إن الكتابة أسهل من الرسم.

ـ هذا صحيح.. الرسم.. كيف أقول؟ يحتاج إلى موهبة كبيرة، وأنت تملكين هذه الموهبة.

ـ لا تمدحني كثيراً، انتظر حتى أكمل اللوحة، وحتى يقول أستاذ الرسم رأيه فيها.. دعني الآن أعمل..

ـ سأدعك.. الفنان يحتـاج إلى خلوة مع نفسه.. كوني مع نفسك ودعيني أسعد بلوحتك التي ستكون جميلة من غير شك، ومعبّرة.

يقول ذلك ويخرج، يـذهـب إلى مكتبـه ويحاول أن يكتـب، أن يقرأ، أن يفكر بما سمع، لكن ذكرى المريض الأليم تحول بينه وبين أن يفعل أي شيء.. وفي حين يطلب الهدوء، كانت ملاحظاتها هذه تهيج شجنه، فيحزن لأن موهبة كهذه سيغتالها الموت، وعندئذ يفتح الباب ويفر، كأنما ليهرب من عذابه، وعذابه يلحقه كظله، كخفقة قلبه، لأنه في قلبه، وفي روحه أيضاً!

في أمسية نيسانية جميلة، وبعد حديث مع رنا، أحس بالاختناق، فهرع إلى الشوارع يذرعها، وبعد تجوال طويل، قصد ليلى، وروى لها ما يدور بينه وبين ابنته من أحاديث، وكان يرتعش من تأثر وهو يتصور الموت الآتي، ومن فرط تأثره بكى. ولم يستطيع إمساك دمعه، فأمعن في ذرفه، وليلى واجمة، تحاول عبثاً أن تواسيه. كان يحترق، ومن بخار المرجل الذي في صدره، تفور الدموع وتنهمر، وهو يشعر بخجل قاتل لأنه رجل ويبكي، ولأن دموعه تخونه، تحرقه، وتتساقط برغم عنه، وهو يتساءل في ذاته: «لماذا يحرقني دمعي؟ ولماذا دموع الرجال تكون حارقة؟ هل لأنها عصية؟ هل لأنها لا تتساقط الا في الملمات الكبرى؟ ولماذا الدموع يا جهاد وأنت تعرف أنها ضائعة، ولن تفيد في شيء؟ خانتك رجولتـك؟ الرجـولـة تخون؟ الدمـع يخون؟ يفضح؟ وكيف السبيل إلى اتقاء الفضيحة في دموع لا تستطيع الا أن تتساقط؟ ليلى! يا ليلى! أيها القلب الكبير، اعذريني، اعذري دمع

رجل، ففي دمع الرجال تمرّد، فقدّري تمرد هذا الذي دمعه حرقة أب، وقولي له قولاً جميلاً.»

وتركته ليلى يبكي كي يستريح. قدرت موقفه، وتمرد دمعه، لكنها، عندما هدأ، سألته:

- ماذا هناك؟
- رنا تدرس الرسم.
- أعرف.
- وتريد أن ترسم وهي عاجزة عن الرسم.
- وماذا في ذلك؟
- لا شيء سوى العذاب.. عذابي أنا..
- ولماذا تتعذب أنت!؟ وما هو الدافع الذي يجعلها تصر على الرسم!؟
- مستقبلها، تريد الا يضيع مستقبلها.
- وماذا فعلتَ كي لا يضيع مستقبلها؟
- أتيتها بمدّرس للرسم كما تعلمين.
- وبدأت ترسم..
- نعم.. بدأت تحاول.
- دعها تفعل.. ربما نجحت.

صاح جهاد:

- تنجح بماذا؟ إنها تموت.. أصبحت خيالاً!
- وهل هذا هو الذي يبكيك؟
- ليس الرسم الذي يبكيني، بل كلماتها حول مستقبلها.
- وماذا ستفعل؟
- لا أدري؟ إنني أصبر، إنني أصرخ في وجه القدر، لكن القدر يمشي على صراخي كما تمشي العاصفة على العيدان اليابسة.
- وأمها؟

ـ لا تعلم عن مرضها شيئاً بعد.
ـ كل هذا ولم يخالجها شك؟
ـ طيبتها تعصمها من الشك، وأبقى الوحيد الذي يرزح تحت جبل الرصاص.
ـ لست الوحيد، قلت لك لست الوحيد، إنني معك، وجبل الرصاص فوق صدري كما هو فوق صدرك، أحسنت إذ جئت إلي.
ـ لكنني جئت باكياً!
ـ وماذا في ذلك؟
ـ الدمع يهين الرجل. وقد أهانني دمعي!
ـ هذا فرط حساسية.. الرجال يبكون أيضاً، لا تبالغ في تعذيب نفسك.
ـ لقد هانت علي نفسي.. لماذا لا يأتي الموت؟ (وصرخ عالياً وهو يضرب بقبضته على رأسه) لماذا لا يأتي الموت؟
ـ لأن الرب يجرب خائفيه!
ـ أتتفلسفين علي!؟
ـ أذكرك بما نسيت.. اهدأ.. العاصفة التي ذكرتها تقترب، فاجمع قواك لمواجهتها.. ماذا تفعل غداً حين تدخل ابنتك مرحلة النهاية؟
قال بنبرة يأس:
ـ لتأت مرحلة النهاية.. لقد تأخرت.. يجب أن ترتاح المسكينة.
ـ ترتاح هي أم أنت؟
ـ كلانا..
ـ بل أنت!
ـ ربما.. أنا اليوم أبكي عذابها، وغداً أبكي موتها.. لقد ضعت.
ـ لن تضيع وأنا إلى جانبك..
قاطعها صارخاً:
ـ وبماذا ينفعني ذلك؟

ـ يخفف عنك..

أضافت:

ـ ما أنت إلا طفل كبير.. يجب إدخالك الروضة.. اسمع! أفهمك في كل أحوالك.. وأقدرك في كل أحوالك أيضاً.. أنا قلبك.. ولو كنت تثق بهذا القلب الذي هو خارج صدرك، لخف حزنك، ولكن ماذا أفعل بإنسان لا يرى الا نفسه، ويأبى أن يشاطره الآخرون أحزانه!؟

ـ يا ليلى، يا صديقتي، يا أختي، يا أمي، ليس هناك غيري من يعايش الموت الآتي.. ومن يسمع الكلمات التي تدمي القلب بسبب جهل ابنتي أن الموت آت.. رنا، حتى في هذه المرحلة، تخاف أن يضيع مستقبلها، فكيف أشرح لها أن حياتها، لا مستقبلها وحده، قد ضاعت!؟

ـ لا تشرح شيئاً.. الزم الصمت.. كن صبوراً، كن كبيراً في صمتك وصبرك، وكل شيء يهون.

لكنه، بعد أيام، وجد أن الأشياء لا تهون لمجرد أننا نريدها كذلك، رنا أقلعت عن تعلم الرسم وصاحت وهي تبكي:

ـ لا موهبة لي، أنا عديمة الموهبة، فلماذا أعذب نفسي!؟

قال جهاد، وهو يتجلد، كأنما تحت لذع السياط:

ـ البكاء، يا حبيبتي، لا يفيد.. موهبتك كبيرة، لكن دراسة الرسم تحتاج إلى أعوام.

ـ كنت أرسم جيداً في المدرسة.

ـ كان ذلك رسم مدرسة.. انه نوع من تمارين بسيطة.

ـ وهذا؟ ما هذا؟ أليس تمارين على دروس الأستاذ.؟ انني غير مؤهلة للرسم.. لماذا المكابرة؟لقد أخفقت في الدراسة والكتابة والرسم، أخفقت وأشقيتك معي.. فماذا أفعل الآن؟

ـ لا تفعلي شيئاً..

ـ ومستقبلي!؟

ـ قولي صحتي، المهم صحتك الآن، وبعد ذلك تأتي الأشياء في أوانها..

ـ بل أريدها الآن.. أريد أن أعمل، حتى لا يضيع الوقت..

قال جهاد وهو يغتصب ابتسامة كأنما يمتحها من قاع بئر شحّ ماؤها:

ـ أعرف طريقة لعدم إضاعة الوقت.

ـ ما هي؟

ـ أن نشرب القهوة.. ثم نتفرج على أول مباراة في كأس العالم، نسيت أن مباريات كأس العالم تبدأ اليوم؟

قالت بنبرة ارتياح:

ـ وهل أحتاج إلى من يذكرني بها؟ لكنني أريد أن أعمل.. أريد أن أتعلم.

ـ سنشرب القهوة ونفكر معاً بهدوء..

ـ صيرتني مدمنة على القهوة.. هل يرضيك هذا؟

ـ يرضيني كثيراً.. ليس مثل القهوة في تهدئة الأعصاب، إنها شيء ضروري للفنان؟

ـ قد تكون ضرورية للفنان، ولكن أنا..

قاطعها:

ـ وأنت فنانة.. من يجرب الكتابة والرسم وله هواية رياضية فهو فنان.

ـ إذن أحضروا لي الجريدة الرياضية كل يوم، ودعوني أتمركز، بمقعدي الملعون هذا، أمام التلفزيون..

ـ لك ما شئت، وفوقه اننا سنتراهن على من يفوز بالكأس.

ـ رهاني معروف.. أنا من أنصار الفريق البرازيلي..

ـ وأنا من أنصار الفريق الايطالي..

ـ جماعة المعكرونة هؤلاء لن يصمدوا حتى أمام الأرجنتين.

- ومع ذلك أراهن عليهم.. نسيت أنني كنت لاعب كرة قدم؟
- لا تذكرني بلعبك البدائي.. كرة القدم صارت فناً.
- سنرى.. تمركزي أمام التلفزيون كما تقولين، ريثما أعدّ القهوة.

استمتعت رنا بمباراة كأس العالم. كانت فرحتها بمشاهدة مباراة حلوة، تنسيها حتى نوبة الحمى التي تنهض منها وهي منهكة، متعرقة، والشعر الأسود يلتصق بالصدغين، والوجه النحيل، الشاحب، يعطيها منظر الدمية الشمعية، لقامة فتاة فارعة ومقعدة، أوتيت من قوة الإرادة، أو طاقة الصبر، ما يجعلها تمتنع على الألم، أو تخفيه بمهارة، فتبتسم عبر شفتيها الداكنتين، ابتسامتها الرقيقة، العذبة، كاشفة، عن الجزء السليم الباقي في جسدها كله، وهو أسنانها البيضاء الجميلة.

وذات ليلة، بعد مباراة شيقة، فاجأت والدها بقولها انها فكرت بمستقبلها، وأن تفكيرها هداها إلى المهنة التي يتقنها المكفوفون والمقعدون. تكلمت بهدوء، وعن واقع مسلّم به، كأنما يخص غيرها، حتى لم يخالط نبرة صوتها أيما أسف على أنها مقعدة، تماماً كما لو أن الأمل بعودة العافية إلى قدميها قد صار بعيداً ومنسياً، وأنها ارتضت هذا الوضع، فهي لا ترى فيه أية غرابة، وكل ما تريده، وترجوه أن تكون نافعة، وأن تضمن مستقبلها حتى وهي مقعدة.

استمع جهاد إلى كلامها بهدوء. كانت الكلمات شفرات صدئة تحز في أوردة عنقه، وكان مختنقاً إلى درجة الانفجار، وقد شحب، هو الآخر، لفرط ما عاناه، ولولا طيبة الأم، التي يكافح ضد فجيعتها، ولولا الحب الأبوي، الذي انقلب إلى إشفاق حنون يرشح صفرة كحرير الشرنقة، خوفاً من أن يعرف أولاده أن أختهم ستموت، ولولا ليلى، بكل حبها الصادق، ومواساتها الدائمة، لكان أصيب بانفجار الدماغ أو انتحر. إن رعشة من حرارة مرضية كانت تنتابه، وهو يصغي إلى ابنته المريضة تتكلم عن مستقبلها، وعن رغبتها في أن تكون نافعة، وصالحة لشيء ما. وقد سرت هذه الرعشة الحرارية عبر

دورته الدموية كلها، لحظة أن قالت رنا إنها فكرت بمستقبلها. لقد غدت هذه الكلمة: «المستقبل!» خنجراً ينغرز كل يوم أعمق فأعمق في قلبه النازف، حتى ليعجب كيف لا يتوقف هذا القلب، وتنتهي بتوقفه تلك المأساة الرهيبة التي تحفر خطوطها ودوائرها على جبينه الكهل المغضن قبل الأوان.

وحين مرت الرعشة بجسده الواجف خيفة من المفاجأة الجديدة، استطاع أن يتكلم، سأل ابنته بصوت أقرب إلى الوهن:

ـ ماذا تريدين يا رنا؟

قالت رنا مبتئسة:

ـ بتّ أخجل من الطلب، فقد أرهقتك، واني لأخاف عليك، وانت الذي يضنيه العمل في الوظيفة، والعمل في الكتابة، أن تسقط مريضاً.

قال جهاد بنبرة حشد لها كل ما تبقى له من عزم:

ـ أنت، يا حبيبتي، فتاة مرهفة، يا لله كم أنت مرهفة، تخافين على صحتي وأنا كالثور؟ العمل لا يضنيني، لا في الوظيفة ولا في الكتابة، ولدي دخل يكفي، وكل ما تطلبينه أقدمه بطيبة خاطر، أقدمه من عيوني كما قلت لك دائماً..

قالت رنا باكية:

ـ تسلم عيونك.. أعرف أنك تفتديني.. هذا غير خاف علي، لكنني أرهقتك، نعم أرهقتك، وهذه هي الحقيقة، لكن ماذا أفعل؟ ذلك القديس، ذلك الملاك الأبيض، الذي رأيته في الحلم، ووعدني بالشفاء، لم ينجز وعده بعد.. انني أثق به، وأنتظر أعجوبته، وفي أثناء ذلك أطلب وأطلب، وأطلب، لا! يجب أن أتوقف عن أي طلب، يكفي ما فعلته لأجلي.

بكت الأم، بكت الأخوات، الأخ الصغير وحده ظل يضحك، وهو يلهو بلعبة بين يديه. أما الأب الذي ابتلي ليمتحن، فقد ضغط

على أعصابه وضغط، وأمام المناحة التي فرضت نفسها بشكل عفوي، فر إلى مكتبه وأغلق الباب، وأخرج سيكارة بللها دمعه، لكنها مكنته من أن يسيطر على نفسه. وبعد قليل عاد، وتلك الابتسامة المصنوعة من ألياف كتانية، عصيّة على الاهتراء، ترتسم كشعاع الغروب على وجهه.

كان الصغير أيمن، في حضن رنا الآن، كلما نهضت من نوبة حمى، وكلما انتهت من نوبة بكاء، طلبت أخاها وراحت تقبله، وتداعبه، وهكذا يعاودها الهدوء، بانتظار الملاك «غودو»، الملاك الذي بث في نفسها إيماناً ساعدها بشكل خارق على تحمل الألم، والتغافل عن الهاوية التي تنحدر إليها.

قال جهاد، في محاولة خبيثة وبارعة، مستدرجاً ابنته لتقول ما تريد:

ـ نحن تراهنّا على من يفوز بالكأس، لكننا نسينا الرهان.. هذه لعبة ذكية منك، لكي تطلبي ما تريدين إذا ما فزت .. انني أقترح تعيين الرهان منذ الآن.

قالت رنا ساخرة:

- على ماذا تراهن مفلسة مثلي؟

- على واحد مقابل مئة.. هذا مايسمى رهاناً رمزياً.. إذا ربحت أعطيك مئة ليرة، وإذا خسرت تعطيني ليرة واحدة..

- أنا موافقة، لانني واثقة من الفوز.. لكنني أقترح، بدل المئة ليرة، آلة موسيقية، فقد صممت أن أتعلم العزف..

ـ وما هي الآلة التي تفضلينها؟

الأكورديون..

اشترى جهاد، في اليوم التالي، أكورديون من الحجم الصغير، بناء على طلبها، كي تستطيع أن تعزف عليه وهي جالسة في مقعدها، وبحث عن مدرّس موسيقى، شرح له حالة ابنته، كي يترفق بها،

ويعلمها المبادئ الأولية لاستعمال هذه الآلة الشعبية.

ولقد فرحت رنا كثيراً، والتمعت عيناها بذلك البريق المكهرب، الذي زاده المرض قوة وصفاء، والآلة تستخرج من علبتها. أخذتها بين يديها، وفتنت بلونها العنابي، ومفاتيحها البيض، وعلقت السيرين الجلديين في كتفيها، وقالت وهي مبتهجة: «هذا المرض يحتاج إلى هذه الآلة.. أستطيع، بمفردي أن أعزف بعض الأنغام عليها»

غير أن والدها أبلغها ضرورة أخذ بعض الدروس، من موسيقي سيأتي غداً، وعندئذ صاحت والسعادة تغمرها:

ـ مهما تكن نتيجة الكأس، أعتبر نفسي الفائزة الآن.

قال جهاد:

ـ ما دام الفريق البرازيلي سيلعب مباراة الفوز، فان النتيجة أصبحت معروفة.

قالت رنا:

ـ لا تستهين بالفريق الألماني، لديه اللاعب بيكمباور..

ـ المهم أن الفريق الأيطالي خرج من دور الأربعة.. لقد فزت.

قالت ضاحكة:

فزت بعرق جبيني، تابعت تقديرات المدربين جميعاً.. لم أكن أراهن عن جهل.

ـ أنت دائماً تراهنين عن معرفة.

قاطعته:

الا في مسألة المرض.. ترى يصح رهاني ويفي ذلك الملاك بوعده؟

ـ ما دام قد ظهر لك في الحلم مبشراً، فإن بشارته لن تخيب.

ـ هذا ما أعتقده.. لننصرف الآن إلى تعلم الموسيقى.. إذا أتقنتها ضمنت مستقبلي.

وسألت أختها الصغرى:

- وأين ستعزفين؟
- في الأفراح..
- هذا يحتاج إلى «تخت» موسيقي.
وماذا في ذلك!؟ إذا أتقنت العزف سأنضم إلى تخت موسيقي، أليس كذلك يا أبي؟
- بعد الشفاء سيكون في وسعك أن تتدبري أمورك كما تريدين.
- سأتعلم العزف على الكمان أيضاً، ومن يدري، قد أنضم، يوماً، إلى فرقة سيمفونية، كما في الحفلات الموسيقية المتلفزة.
- هذه لم تخطر على بالي.
- أما أنا فقد حسبت حساب ذلك أيضاً.. عقلي يعمل بشكل جيد.
قال جهاد:
- بشكل رائع..
- أنت لا تفتأ تمتدحني.!
- وأنت لا تبرحين مثار إعجابي.. آه يا صغيرتي كم أنت ذكية!

- ٢٥ -

فاز الفريق البرازيلي بكأس العالم، فغمرت موجة الحماسة والفرح عشاق كرة القدم في أربع رياح الأرض، لكنها في بيت جهاد، كانت موجة مرتدة، لأن فرحة رنا، بكل شيء. كانت قد انطفأت. بدأ الورم السرطاني يتصاعد نحو الدماغ، وبدأ الصداع الرهيب ينشب أظفاره في الرأس والصدغين، ولم يبق، من كل ذلك الصبا، سوى العينين السوداوين اللتين ازداد بريقهما، بازدياد نحول الوجه، وتعظّم الوجنتين، وانتشار الشحوب الذي وشح السمرة الآسرة للطلعة والعنق، فصارت الابتسامة باهتة، مغتصبة، والجسد الهزيل، الشفاف، أصفر ضامراً، عاجزاً عن الحركة، ولم يبق من كل تلك الأماني سوى

أمنية أن تُترك وشأنها، راقدة في الفراش والحمى تشويها، في نوبات عنيفة، متتالية، كأنما الجسد آجرة مستطيلة، محماة، في فرن يفْخِر ما في جوفه، وصاحبة هذا الجسد صامتة، تتحمل عذابها دون أن تندّ عنها آهة واحدة.. أما الموسيقى فقد هُجرت، أو نُسيت، ككل ما سبقها من هوايات. ذلك أن رنا تعلمت بعض المعزوفات، وأجادتها، لكن نوبات الحمى لم تعد تترك لها مجالاً للعزف، فطلبت صرف المدرّس، وأهملت الأكورديون الذي وضع في علبته على ظهر الخزانة.

هل أدركت أن نهايتها اقتربت؟ هل صارت الطريدة في مرمى القوس تماماً؟ وهل عرفت مرضها أم مازالت تجهله؟ والملاك الذي بشرها بالشفاء، تراها يئست من بشراه؟ لا أحد يعرف شيئاً، لأنها هي لا تقول شيئاً، وفي وهن قواها تلفتت مسترحمة الصياد المطارد أن يكف قليلاً. ولأول مرة رأى جهاد هذا الاسترحام في عينيها، رآه تعباً تجمّد في المقلتين، ويأساً يغالب وهو يتراجع، وموتاً بارداً مقبلاً، مكشراً، لكنها، هي، لم تقل إنها ستموت، أو إنها خائفة من الموت، وصار لا يعنيها شيء، حتى ولا الرسالة التي وردت من ليديا، ولم يقرأها جهاد، لأن فيها أن السيدة مارسيل فارقت الحياة.

هكذا، كل الذين تخرجوا من المستشفى في لندن، ساروا في درب واحد، ورنا تتبعهم دون أن تدري. إنها لامبالية، ولم تبرح الفراش في الشهرين الأخيرين، فالحمى لا تفارقها، والصداع لا يدع لها سانحة للراحة، وشيئاً فشيئاً راح الظهر يتقرح، وانتفخت القدمان، وظهر قرحان كبيران في الكعبين، ولم تنفع البودرة، فالجسم يتفسخ، الجسم حياً يتفسخ، والنهاية باتت واضحة، مرئية، حتى لم تعد الأم تطيق صبراً، فدخلت باكية، مهتاجة، مكتب جهاد الذي صار الآن حبيس جدرانه الأربعة، وصاحت به متوسلة:

قل لي الحقيقة، آن أن تقول لي الحقيقة، ما هو مرض رنا؟

ـ ولم يعد جهاد قادراً على الكذب، ولم يعد الكذب نافعاً. الأب

الذي تماسك طويلاً انهار الآن. بعد سنتين من الوقوف، والتجلد، والتماسك، انهار الذي أصبح كتلة من عذاب. سمح لنفسه، أو غلبته نفسه، فاستسلم للضعف البشري، وراح، لأول مرة، يبكي علناً، يبكي بكاء مراً، يبكي دون تحفظ، وزوجه تلف رأسه إشفاقاً، وتذرف الدموع فوقه، فتبلله وتمسحه، وهي تسأل:

- إذن هي النهاية!؟

- نشج جهاد معترفاً:

- نعم هي النهاية!

- ستموت رنا.!؟

- نعم ستموت، إنه السرطان!

- لماذا لم تقل ذلك خلال سنتين؟

- وما الفائدة من قوله..؟ هل كان يرضيك أن تعلمي أن ابنتك مريضة بالسرطان وأنها ستموت؟

- وهل يرضيك أن تعلم أنت، وتتعذّب وحدك؟

- كان هذا حلاً، كان أفضل الحلول، أنقذت البيت من كارثة.. تصوري أن العائلة علمت بالخبر منذ عودتي من لندن، فأي جو مأتمي كانت ستعيش فيه طوال عامين؟ ولو شاع الخبر في العائلة، أي عذاب كانت ستعانيه رنا وهي تعرف انها ستموت؟ لقد تصرفت بحكمة.. تحملت العذاب وحدي.

- واستطعت خداعنا كل هذه المدة؟

- كان خداعاً لا حيلة فيه، والآن، بعد أن علمت، الزمي الصمت.. يجب الا يعرف أحد سوانا أن الكارثةستقع.

- لا أستطيع.. لا تطلب مني المستحيل.. أنا عاجزة، لا يمكن أن أراها وأمسك دمعي.. يا ربي! كيف سأنظر في عينيها؟ كيف أعرف أن رنا ستموت وأتظاهر بأنني لا أعرف شيئاً؟ تأمل حالي، أنا الأم، والموت يخطف ابنتها منها، ثم لا تستطيع شيئاً.. لا، انني سأحميها، إنني سأخبئها، سأبعد الموت عنها، وسأفتديها،سأسأل الله أن يشفيها،

سأركع وأصلي، سأصلي وأقرع صدري مسترحمة.. سأطلب رحمته أنا الخاطئة، سأتضرع إليه أن يأخذني ويبقيها.

قال جهاد الذي كفكف دموعه، واستعاد رباطة جأشه:

ـ كل هذا لا يفيد.. أي تصرف خاطئ، أو طائش، سيجعل رنا في وضع فاجع.. لا بد من الصمت. يجب أن تموت بهدوء، أن تموت دون أن تعلم أنها تموت.. وهذا أفضل ما نعمله لأجلها، لا تقيمي مناحة منذ الآن، لا تخربي البيت، أشفقي على أخواتها، أشفقي علي، أرجوك، أقبل يدك، كوني قوية، كوني قادرة، تحملي بعض ماتحملت، ارتفعي فوق الشدة، ابتسمي، يجب أن تراكِ تبتسمين، افعلي كما فعلت، وابكي في السر، في هذا المكتب، بين هذه الجدران، بصمت، وحين تخرجين كوني طبيعية، كوني هادئة.

صاحت الأم:

ولكن هذا صعب، صعب، صعب، لا أستطيع احتماله، كيف احتملته أنت؟ كيف تظاهرت بالاطمئنان وأنت خائف؟ كيف كذبت كل هذه المدة وخدعتنا جميعاً؟ أية أعصاب، أي صبر، أي تمثيل؟ من يعرف غيرك أن رنا ستموت؟

ـ الطبيب وقريبتنا ليلى.. كنت أذهب إليها وأبكي.. بكيت طويلاً، أطول مما تظنين، كانت أكثر كلمات رنا استدراراً لدموعي حديثها عن مستقبلها.. لقد حرقت قلبي وهي تردد كل يوم: «لا أريد أن أضيع مستقبلي.»

قالت الأم:

ـ الآن ضاعت هي نفسها.

ـ ضاعت وآسفاه!

ـ أما من حيلة بقيت؟

ـ انتهى كل شيء.

ـ وستتعذب كثيراً؟

ـ الآن يبدأ عذابها . .

ـ ولكنها لاتتكلم، لا تئن، لا تشكو . . الحمى، الصداع، والنحول، أية قدرة خارقة على الاحتمال ؟

ـ نعم، قدرة خارقة على الاحتمال . . وهذا بسبب أنها تجهل مرضها كما أظن .

لطمت الأم خديها وهي تنوح :

ـ كلنا كنا نجهل مرضها . . لقد صدقنا أنها ستشفى . . وكان قلبي يحس بشيء ما أحياناً، أنا أُم، وانت تقدر قلب الأم، لكنك عرفت كيف تطمئنني . .

ـ اليس هذا أفضل ؟ لماذا كان عليك، منذ عودتنا، أن تتعذّبي ؟

ـ حين هبطت من الطائرة وهي على ذلك الكرسي اللعين، نخزني قلبي، لكن صحتها تحسنت بعد ذلك، وحتى أنها ذهبت إلى المدرسة . .

ـ كان تحسناً موقتاً، بفعل المعالجة الشعاعية . .

ـ ماذا لو عالجناها بالأشعة مرة أخرى . . ؟

لا يجوز تعذيبها أكثر . . الطبيب، في لندن، حدّد مدة العلاج . . كان يعرف أن الورم سينتشر في العمود الفقري، ويرتفع نحو الرأس، نحو الدماغ، أبلغني كل ذلك، وقال أيضاً . .

توقف جهاد كأنما انزلق في الكلام إلى ما يريد، فصاحت الأم :

ـ ماذا قال أيضاً ؟

اعترف جهاد :

ـ قال إنها ربما . . ربما . . تعمى ! !

ـ ياويلاه ! تصاب بالعمى أيضاً . ! ؟ عيناها الجميلتان يأكلها المرض ! ؟ لا، الموت ولا هذا . . ليأت الموت، إذا كان لا بد من الموت، فليأتِ بسرعة، بسرعة، إنني لن أقوى على النظر في وجهها بعد الآن . . يجب أن أهرب من البيت، خذني خارج البيت . .

ـ نحن لا نستطيع أن نفر من البيت.. هذا قدرنا.. لقد تحملت كل تلك الأيام الطويلة وحدي، وعليك، أنت أيضاً، أن تتحملي الآن معي.. تودّعي منها، إنها سترحل، هي ضيفة وسترحل.. أكرمي ضيافتها، ولكن بالصبر لا بالدموع، يجب أن تظل جاهلة ما بها حتى النهاية، وهكذا تموت مرتاحة.. إذا كنت تحبينها دعيها تموت مرتاحة..

ـ يا ويلي! كيف أصبر؟ قل أنت كيف أصبر؟ كيف أعرف أن رنا ستموت وأصبر.!؟

ـ كلنا سنموت.

ـ ياليتني أموت.. أموت الآن، في هذه اللحظة، يا رب، لا تفجع قلب الأم، خذني الآن، قبلها، اجعلني فدية عنها.

قال جهاد:

ـ لمن تتركينني إذن؟ لمن تتركين أولادك وبيتك؟ ارحمينا.. تصبّري، ابكي ولكن تصبّري، تعالي، ابكي على كتفي..

تعانقا وهما يبكيان.. بكت على كتفه، صنعا مناحة صغيرة، وبعد ذلك كفكف دموعه، وأرغم الأم البائسة على تجفيف دموعها، وخرجا وهما يترنحان.

في هذا الوقت كانت رنا نائمة، كانت تحت وطأة حمى شديدة، فذهبت الأم وقبلتها، مسحت بمنديلها العرق عن جبينها، تأملتها وبكت، فقام جهاد بإبعادها، بإخراجها من الغرفة، وأغلق الباب، وفر من البيت، والحزن، ورؤية الأم المفجوعة، وقال في نفسه: «الله! يا الله! خذ بيدنا جميعاً».

هتف، قبل خروجه، إلى ليلى، استدعاها على عجل، وحرص، وهو واقف وراء باب الدار، أن يفتح لها بنفسه، وأن يقودها إلى مكتبه، ويبلغها أن الأم علمت بالمصيبة، وأن عليها أن تبقى إلى جانبها وتؤاسيها. كان يتطلع إلى تأييد منها، حول صوابية ما فعله،

كان يأمل أن يرتاح من عذابه، بسبب من أنه شك في أن ما فعله كان في محله. قال لليلى: «انها ابنتها أيضاً، ورنا في مرحلتها الأخيرة، وما عاد يجدي الإنكار، إضافة إلى أنني تعبت من الاحتفاظ بالسر لنفسي. أخاف أن تموت رنا، دون أن تتمكن أمها من وداعها، وهذا ما لن تغفره لي. المهم أنني، في لحظة ضعف، وأمام سؤال الأم الحاسم، المباغت، انهرت واعترفت.»

لم تقل ليلى، وهي تراه وسط دوامة قلق عاصف، سوى جملة واحدة: «لقد فعلت ما كان يجب أن يفعل» ثم غادرته إلى الأم، التي ارتمت، منذ رأتها، على صدرها، وهي تنشج.. إن الحزن في كتلته الصخرية، السوداء والصماء، يتفتت حين تواجهه، وتتحمله، الكثرة، لذلك يحاط المحزون بالمعزّين، ولقد كان عزاء الأم، في وجود زوجها إلى جانبها، ثم في تواجد ليلى أيضاً، ينسرب من مسام الجلد إلى الجسد المرتجف لوعة، فيلامس الروح، ويبلسم الجراح. وقد أدركت ليلى حاجة الأم إلى البكاء، فتركتها تبكي، ضمّتها، بشعور من المشاركة الحقيقية، إلى صدرها، وذهبت بها إلى غرفة جانبية، وأغلقت الباب. تجنبت أن تحملها على الصمت، والإقلاع عن البكاء، ولم تلجأ إلى الوعظ، أو التعنيف، فبئر الدمع، في صدر الأم، في حالة فوران، ولا بأس عليها أن تذرف قليلاً منه، أن تشفي غليلها، فذلك ما ينبغي في مثل حالتها، وهذا الدمع الذي حبس طويلاً، خليق بأن يُرخى له العنان الآن. كل ما فعلته ليلى أنها شاركتها دموعها بصمت، فهي قريبة، وهي، أكثر من ذلك، حبيبة الرجل الذي تفتديه، وهذا الرجل الذي أودعها سره، وعبراته، قد استنجد بها، اختارها من دون الآخرين، لتكون إلى جانب الأسرة، في المأتم الذي يتقدم الوفاة، كما تتقدم أكاليل الزهور النعش وهو في طريقه إلى المثوى الأخير.

وحين طرق جهاد عليهما الباب، وأبلغ الأم أن رنا صحت من

سبات الحمى، تجدّد نواحها، وتدفق، غـزيـراً هـذه المرة، دمعهـا، فحالت ليلى بينها وبين الخروج. أبقتها في الغرفة، ريثما تهدأ. أوصتها، الآن، أن تهدأ وقالت في نفسها: « الصبية التي سترحل، يليق بها أن ترحل هادئة، مطمئنة، وأنا التي سأقوم بمهمة الحراسة الوداعية للجثمان الذي ما زال ينبض ببقية من حياة. »

كانت رنا تتمدد في سريرها، كانت هيكلاً عظمياً يتمدد على طوله دون قدرة على الحركة. العينان فقط تبتسمان، والشفتان تنفرجان عن صفّين من الأسنان اللؤلؤية، والذراع تتحرك بوهن، والدنيا إلى غروب، والشمس إلى غروب، والمركب الذي يحمل « عروس النيل » إلى غروب أيضاً، لكن الصبية تجهل غروبها الآتي، فهي تريد أن تجلس قليلاً في سريرها، وتريد أن تأخذ أخاها الصغير في حضنها، ومذ رأت ليلى، استعادت شيئاً من نشاطها، وتضوأت ابتسامتها، وقالت بصوت ضعيف، لا ينقصه الفرح، ولا يخالجه أيما شك في الشفاء المنتظر:

- أين الماما؟

- إنها نائمة، تريدين أن أوقظها؟

- لا، دعيها نائمة، الماماتعبت، أنا التي أتعبتها، إنهاتسهر الليل بطوله إلى جانب سريري.. وأين البابا؟

- خرج في عمل مستعجل.

- هل يمكن، يا خالة، أن تأتيني بأخي الصغير؟

- قالت ليلى متسلحة بكل شجاعتها المعهودة:

- بكل سرور.. إنه لشقي، أيمن هذا، يحبو بسرعة، كأنه أرنب، ويملأ البيت ضجيجاً، ونحن نخشى أن يوقظك وأنت نائمة.

- لا تخشوا علي منه.. رؤيته تعيد الحيوية إلي، لكنه، الملعون، لا يهدأ في حضني، وسرعان ما يتفلّت ويهرب، يأخذ هداياي من اللعب ويهرب.

ـ وماذا يريد غير ذلك؟ الطفل لا يفرحه شيء كمثل تحطيم لعبه.
ـ عال! البابا يدفع ثمنها وهو يحطمها، أي عفريت هو؟

في هذا الوقت كان جهاد يجلس في مقهى بعيد، في أحد المنتزهات، يشرب قهوته ويفكّر. لقد أخبر زوجته أن ابنته ستموت، وهو، كما قالت ليلى، فعل ما كان يجب أن يفعل، لكن الزوجة ستغرق في الحزن الآن حتى ليخشى عليها. «انما لا بد مما ليس منه بد». رنا تقترب من ساعة انطفائها، وعندئذ سيعم الظلام بالنسبة إليها، ويكون العدم. تعود إلى العدم الذي جاءت منه. ذلك أن أحداً لا يعرف كيفية استمرار الكيان الإنساني عند الموت، وما إذا كانت هناك استمرارية. الجسد والروح وحدة، ثنائيتها في ذاتها، بما هي ثنائية خير وشر، والجسد، بما فيه الجنس، ليس ذا طبيعة شريرة يجب قمعها، فقمع الجسد يستتبع قمع الروح، وهذا غير ممكن، فالإنسان كامل بهما معاً. الجسد يعني الإنسان في وحدة الكيان، وهو جدير بالتكرمة، ما دامت الحياة المخلوقة كلها حياة في الجسد وحسب، والإنسان ليس شيئاً خالداً بالجسد، وليس شيئاً فانياً به أيضاً، والمراد هو إبقاء الشيء بجد ذاته، بسبب من قوته، والوعد في أن تكون هناك دينونة، هناك قيامة وحياة أخرى.. والسؤال الذي يحيرني، ولا أجد له جواباً كاملاً هو: «هل تستفيق المادة وتستعيد نورها المحجوب، أي نفسها التي كانت لها؟ وما هو حال الأرواح بعد انفصالها عن الجسد؟».

تذكر قول الطبيب فيليب قبل مغادرة ابنته المستشفى، فقد اعترف الطبيب أن الموت رهيب، لكنه الوجه الآخر للحياة. الناس يموتون لكن الحياة تستمر. الموت حتمي، بالنسبة لجميع الكائنات، الا أن شرارة الحياة لا تنطفئ.. يستمر نورها من جيل إلى جيل، الموت إنجاز للزمن، وهذا الموت يأتي لأن الحياة صيرورة، فدون موت لا تكون حياة، ودون حياة لا يكون موت، إنها سلسلة متتالية الحلقات،

وإلى ما لا نهاية.

أخيراً قال جهاد في نفسه وقد تعب من التفكير، «الموت لغز! الموت لغز! ولكن الصيرورة، في معرفة ماضي الزمن، وفي تراجعية هذه المعرفة إلى القدم السحيق، تجعل إنسان الحاضر، يعلم ما كان يجري في زمن الإنسان الماضي، وهذا العلم يسد الفجوة التي تقوم في الذاكرة، بين ما كانه الإنسان وما هو عليه، وفي هذا خلوده، أو خلود النوع، مما يدع مجالاً للتفكير بأن التقمص ليس شيئاً مرفوضاً تماماً.»

عاد أدراجه إلى بيته، عاد مكرهاً لأنه لا بد له أن يعود، ولا بد له أن يواجه الحالة المأتمية فيه. لكنه، الآن، كان أقدر على التحكم في أعصابه، نتيجة تفكيره في مآل الموت، وما سمع من الطبيب فيليب في المستشفى الوطني في لندن، وما فكر فيه من قدرة المادة على استعادة نورها المحجوب، وقدرة الذاكرة على سد الفجوة بين ماضي الزمن وحاضره، بحيث يصبح الإنسان، في قدرته على الاسترجاع، إنسان كل الأزمنة.

في البيت كانت رنا تجلس في مقعدها معصوبة الرأس، الصداع الشديد يعقب نوبة الحمى لديها، وهذا هو الألم الذي قال الطبيب فيليب إنه سينتابها. وكانت الأم تجلس قربها، محزونة، مطرقة الرأس، وليلى تحاول، بحديثها عن عجائب الله، أن ترسخ في ذهن الاثنتين، أن هناك أعجوبة منتظرة، هي أعجوبة شفاء رنا وعودة العافية إليها!

- ٢٦ -

لم تعد الحمى تفارقها، ولازمها الصداع، واتسعت وتعمقت قروح الجسم. ووميض البؤبؤين الأسودين، في الحور الذي أضفى بهاء خاصاً

على العينين، اتخذ شكل حباحب، فهو ينير بشكل متقطع، في متاهة ليل المرض التي دخلتها، واوغلت فيها، سائرة في طريق اللاعودة.

وبعد أن كانت الصلاة ابتهالاً حاراً يسأل الشفاء، وكان الدعاء تضرعاً ختامه اللطف بالقدر النازل، صار كل منهما التماساً موجعاً للنهاية التي تضع حداً لآلام الصبية الراحلة.

جبل الحزن الصغير فرش ظله على البيت، الأسرة في السفح، مغمورة بتراب الحفرة التي ستكون ضريحاً، تتطلع بقنوط إلى أشعة الشمس، أو ضياء القمر. زحف السواد على كل شيء. لم تبق بقعة بيضاء، والنجم في الأعالي انطفأ، فهو محتجب وراء ستارة كاهنة ساحرة، تبرز نيوبها من ثقوب الستارة، في تكشيرة للرعب، تنتظر، كالغراب الأسحم، الجثة التي سيتحول إليها الجسم، لتبدأ النهش في وليمة الموت القادم.

أما مكتب الأب، في الطرف القصي من البيت، فقد أضحى مسرحاً لتفجع الأم، حيث تسفح الدمع دونما عزاء، بعد أن صار العزاء تعجل نهاية، فهو شجرة تين عارية، عقيمة، حين لم يعد للسرو الأخضر، المكرس للميلاد، من وجود في بيت بائس، شديد البؤس، ترتفع، دون أن تُرى، على بابه، سارية عليها راية الحداد السوداء.

كان جهاد، المضطرب في مصيدة المأساة، ينقل خطاه الوانية، بين الغرف، دون أن يستقر في أي منها، وكان أقسى ما يلقاه، هو عناق زوجته التي تنفرد به وتبكي، وسؤال واحد معذب، يتعلق بشفتيها أبداً:

ـ أما من وسيلة يا جهاد؟

ـ ما من وسيلة بعد الآن.

ـ وندعها تموت؟

ـ لنسأل لها الراحة في الموت.

ـ لكنني سأحميها، سأحتضنها، سأحتضنها وأبعد الموت عنها، لن

أدعه يقترب منها.

ـ لقد اقترب وانتهى الأمر، وصارت مسكونة به.

ـ والرب، ودعاؤنا، ودموعنا؟

ـ ليحفظك الرب الرحيم من بعدها.

نبرت الأم، في رنة احتجاج:

ـ لا أريد أن يحفظني، لقد سألته، في دعواتي، أن يحفظها هي لا أنا.

ـ سيحفظها برحمته.

ـ وماذا تجدي الرحمة بعد موتها؟

ـ موتها هو الرحمة بعينها.

ـ تتكلم وكأنها ماتت؟

ـ إنني أحاول تقبّل موتها بصبر.

ـ أما زال لديك موضع للصبر؟

ـ وماذا أفعل؟ لولا الصبر لقتلت نفسي.

ناحت الأم:

ـ لا، لا تقتل نفسك.. أنت عمود البيت..

ـ كفّي عن البكاء إذن، لكي يبقى عمود البيت قائماً.

ـ وماذا بقي غير البكاء؟

ـ سيكون لديك وقت طويل له.

ـ لا، الوقت لا يتسع لبكائي.. إنني أم، أم يا جهاد!

ـ أعرف، لكن الأمهات اللواتي فجعن مثلك كثيرات، ولم يجلب البكاء لهن نفعاً.

ـ وأنت؟ ألم تبك؟ كيف احتفظت بالسر كل هذه الأيام، وكم من دموع سكبت؟

ـ تحملت آلامي بصبر، وجاء دورك لتتحملي، ولتساعديني على الاحتمال.. هيا، لنلق نظرة عليها، فقد تكون أفاقت من نوبة الحمى..

جففي دموعك. يجب الا ترى الدمع في عينيك، إنها تجهل مرضها، فدعيها جاهلة به، لكي ترحل بسلام.

دخلا غرفة رنا. كانت راقدة، هامدة في سريرها، شعرها مبعثر على الوسادة، واليدان المتعظمتان، تبعثان على الإشفاق والرهبة، والوجه المستطيل، برموش العينين السوداء، والوجنتين الناتئتين، والشحوب الكامل، والأنف الدقيق، المنشمر قليلاً، كل ذلك يعطي انطباعاً فاجعاً، معلناً أن الحياة بدأت تخمد، في الجسم الذي ما زال حياً، لكنه ينفصل، تدريجياً، عن عالم الأحياء، ويدخل عالم الأموات، عبر الغيبوبة التي لم تكتمل، لكنها تستعلن في كل إمارة، وكل جارحة، وكل خلجة في عروق الرقبة الصفراء، الهزيلة، البارزة التي ينبض الدم المتسارع فيها.

جلسا قرب السرير صامتين، صار الصمت الآن واجباً واحتراماً. صار طقساً، كما أمام النعش ساعة الصلاة على الجثمان. النظرات وحدها تنشر أساها، تودّع، تقول ذاتها بكلمات جنائزية، والجو المتّشح بالأسى، يعطي انطباعاً رمادياً بارداً، مثلما في ساعة الاحتضار، والأب يدخن، والأم تنشج بغير صوت، رازحة تحت انفعالاتها الخرساء، والعائلة انقسمت، ضمن البيت الواحد، إلى قسمين: أحدهما، الأب والأم، يعرفان الحقيقة، والآخر، البنات والصبي، يجهل كل شيء، لكنه يعيش المأساة بطريقته الخاصة.

تحركت رنا في السرير، أدارت رأسها نحو والديها مفتحة العينين، عاجزة عن الكلام، أو راغبة عنه، مبتسمة كعهدها، تلك الابتسامة الأبدية، التي ستنحفر في ذهن من حولها طويلاً، دون أن يصدر عنها أنين، أو شكوى، ودون أيما طلب، كأنما لم يعد لها ما تطلبه في هذه الحياة.

بادرت الأم إلى إعداد كأس من العصير المبرد، واقترب الأب فساعد الصبية على رفع جذعها وإسناد رأسها على خشبة السرير، وفتح

الباب بدفعة صغيرة من الطفل أيمن، الذي انفلت من أيدي أخواته وحبا نحو الغرفة التي فيها والداه، وفيها أخته التي أحبته باكثر مما أحبه أي كائن آخر في الوجود. كان يريدها هي، ويتجه نحوها بالغريزة، وقد ابتسمت له، وطافت إشراقة غروبية في المحيا الذابل، ومدت يديها، بساعديها الناحلين إلى درجة لا تصدق، فأسرع الأب إلى رفع الصغير إليها، ووضعه إلى جانبها في السرير، حيث راح يمارس شقاوته الطفلية، التي هي وحدها تعبير عن سعادة حقيقية، نابعة من ذات لا تدرك ما حولها، ولا تأبه له.

تقدمت الأم وسقت ابنتها العصير المنعش، وجاءت بمشط وراحت تسرح لها شعرها، وبقي الأب شاهداً ومراقباً، وتكلمت رنا بوهن شديد، مقترحة أن توضع في كرسيها، وتدفع إلى السطيحة السماوية التي أمام البيت، حيث يتاح لها أن ترى الشارع، والناس، والسماء، وتتنشق الهواء، مستمتعة بهذه الدقائق من الصفاء الذهني، الذي يؤاتيها عند زوال الحمى والصداع.

وقد فرحت الأم بذلك، وتفتحت في داخلها نبتة الأمل الذابلة، كأنما خادعت نفسها بأمر المرض الذي يلم بابنتها. وعلى السطيحة، وراء الدرابزين الحديدي، انكشف الشارع، وتبدى المارة، وعلت ضجة الحركة، ودرجت السيارات في اتجاهها نحو قلب المدينة، وسأل الأب، برجاء قلبي حميمي، عما إذا كانت رنا تستطيع، في هذه الجلسة الحلوة، أن تتناول معه ومع أمها فنجاناً من القهوة.

قالت رنا وهي تبتسم:

ـ الخروج من الغرفة صار نزهة بالنسبة إلي، وحين يتنزه الناس يشربون المرطبات أو القهوة، وأريد أن أكون مثلهم، أن أستمتع بنزهتي الصغيرة هذه، وأشرب القهوة معكم.

جنّت الأم من الفرح، زاد تفتّح زهرة الأمل في داخلها، وقالت للأب الذي لحق بها إلى المطبخ، ليجلب بعض الفاكهة المثلجة:

ـ ما رأيك يا جهاد ؟ أليست هذه علامة حسنة ؟

قال جهاد :

ـ لا شك في ذلك.. يجب الا تبقى رنا حبيسة غرفتها ، الهواء النقي ينعشها ويفيدها .

ـ ألا يمكن أن تحدث الأعجوبة ؟

ـ لا أحد يعرف متى تحدث الأعاجيب .

ـ تقول إن الرب استجاب لدعائي.. ؟

ـ الرب يستجيب لدعوة القلب الملهوف ، وخاصة قلب الأم .

ركعت الأم وانحنت فقبّلت الارض ، ونهضت وهي تتمتم بالدعاء ، وحملت القهوة التي تذوقتها رنا على غير عادتها ، الأمر الذي زاد في سرور الأم ، كما زاده ذلك الاقتراح المفاجئ الذي تقدمت به رنا كأمنية أخيرة ترغب في تحقيقها .

قالت وهي تبتسم :

ـ ماذا لو ذهبنا غداً إلى اللاذقية ؟ بودّي أن أرى المدينة ، والأهل ، وأمتع نفسي طوال الطريق .

قالت الأم باندفاع :

ـ وما المانع إذا كان طول الطريق لا يضنيك ؟

ـ حين أشعر بالتعب أستلقي على المقعد الخلفي.. إنني أشعر بشوق إلى الأهل .

قالت الأم :

ـ وهم بشوق إليك ، ستكون نزهة جميلة ومفيدة ، ما رأيك يا جهاد ؟

قال جهاد الذي فاجأه الاقتراح ، وباغتته حماسة الأم :

ـ أنا موافق إذا كانت هذه رغبة رنا .

قالت رنا :

ـ إنها أكثر من رغبة.. إنها تصميم.. وأعرف أن البابا لا يرفضها .

قال الأب:

ـ كل رغائبك مستجابة.. وأنت تعرفين ذلك يا حبيبتي، لكنني أخاف عليك من إزعاجات الطريق.

ـ لا تخف علي من شيء.. وصلنا إلى لندن، فهل نعجز عن الوصول إلى اللاذقية؟ وافق أنت على الرحلة، وسأكون سعيدة بها.. لماذا أبقى بين هذه الجدران الأربعة؟

ـ أنا موافق، لكن المسافة بعيدة، والطريق ملأى بالحفر.

ـ لا يهمني طول المسافة ولا حفر الطريق.. أنا مصممة!

ـ ليكن ما تريدين.. متى نسافر؟

ـ غداً.

ـ بهذه السرعة!؟

ـ نسيت عبارتك: «خير البرّ عاجله»؟

ـ ومن يسافر معنا؟

ـ أنت والماما وأخي الصغير.. نستأجر سيارة سياحية، وتلحقنا أخواتي في البوسطة.. ما رأيكم بهذا الحل؟

قال الأب:

ـ جيد.. تهيأوا للسفر إذن.. أنا ذاهب إلى الكاراج.

كان جهاد غير قادر على فهم هذه الحماسة للسفر، وغير راغب بها، بخلاف زوجته. هذه كانت فرحة، ظناً منها أن الفتاة تميل إلى التحسّن، وأن تحولاً طرأ على صحتها. وربما كانت رنا، في لحظة صحو، رافقها انتعاش مؤقت، تأمل أن تساعدها زيارة اللاذقية على استعادة صحتها، فهي ككل مريض تتعلـق بأيما خدعة، وتتشرب خلبية السراب، فيصبح الأمل بالشفاء يقيناً يترسخ لمجرد النهوض من السرير، أو لمجرد الخروج في نزهة.

قال جهاد في نفسه: «أتكون هذه صحوة الموت التي يتحدثون عنها؟ بودي أن تسافر، وأن أرافقها إلى اللاذقية، وأبقى إلى جانبها

إذا تطلب مرضها وجودي، لكن الفرح لا يـؤاتيني، فـأنـا أعـرف حالتها، وقد تكون هذه رحلة الوداع، تلبية لنداء مجهول، يقول لها، من فوهة ضريحها الذي غدا مفتوحاً: «تعالي إلي، ما دام مدفن العائلة هنا.»

وبعد أن حجز السيارة، وحدّد موعد السفر في الثامنة صباحاً، طوف في الشوارع تتناهبه الأفكار: «لكم أكون سعيداً لو أن صحتها تتحسن فعلاً، وحتى لو كان هذا التحسن عابراً، وأطال في عمرها قليلاً، فسيكون ذلك مدعاة لراحتي.. هناك، في اللاذقية، تستريح، ترى الأهل، ترى البحر إذا ما استطاعت القيام بنزهة قصيرة، وقد ترى الجبال والغابات، وتتذوق السمك الذي تحبّه كثيراً.»

لكن جهاد كان يشك، في قرارة نفسه، في أن هذا سيصير، أو أنها ستستطيع، عند وصولها، أن تغادر الفراش، فالجسم المقرح، الذي بدأت تنتشر منه رائحة النتن، يؤكد أن الداء قد افترسها، وأنها، بدافع لاشعوري، تذهب إلى المدينة التي ستدفن فيها.

وبعد أن تعب من التجوال والتفكير كليهما، قصد بيت المرأة التي يودعها سره، وقلبه، ويجد لديها الأجوبة على الأسئلة التي تحفر في رأسه. لقد كانت ليلى بالنسبة إليه أكثر من امرأة، أكثر من حبيبة، كانت وجوداً، وكان هذا الوجود شعوراً بالامتلاء، لا يحس معه بأي فراغ، فهو في مرض ابنته، بكى لديها وعلى صدرها، وفي موت هـذه الابنة سيبكي لديها وعلى صدرها، ولـن يحمـل الطمأنينـة إلى نفسـه المعذبة، سوى شعوره بأن ليلى إلى جانبه، وأنها تعيش في عالم يعيش فيه، حتى أن غيابها من حياته، لو حصل يوماً، سيكون الضربة القاضية بالنسبة إليه، لأنه، عندئذ فقط، سيستشعر الفراغ الرهيب، والموت الرهيب، موت ابنته وموته هو بالذات.

وعندما أخبرها برغبة رنا في السفر إلى اللاذقية، أدركت، فوراً، ما وراء هذه الرغبة، لكنها لم تقل شيئاً. تألمت، حزنت، وظلت حائرة

وهو يسألها :

ـ ما رأيك ؟

ـ لا رأي لي .

ـ كيف ؟

ـ هكذا .. أنت أب فقرّر ما تراه مناسباً .

ـ تتوقعين مصيبة إذن ؟

ـ ...

ـ نعم ، أنت تتوقعين مصيبة !

قالت بنبرة صدق ، كأنما تقرأ الغيب :

ـ ما يؤسفني هو أنني لن أكون إلى جانبك في وقت هذه المصيبة .

قال جهاد فزعاً :

ـ لا تتحدثي عن المصيبة وكأنها واقعة غداً .

ـ إذا لم يكن غداً فبعد غد .

ـ هذا تشاؤم .

ـ بل هو الحقيقة .

ـ ولكنها ، كما تبدّت اليوم ، في حال جيدة .

ـ حال خادعة .. كنت عندكم قبل الظهر ورأيتها .

ـ لماذا تجزمين على هذا الشكل ؟

ـ لأنني أعرف ، ولأن الداء أتى عليها كلها .. منذ عدت من لندن وأنا أشاطرك السر ، الألم ، والحزن ، وأراقب تطوّر مرضها مراقبة دقيقة .

ـ مهما يكن ، فلا بدّ من السفر !

ـ سافر إذن ، لكن حذار من تغذية أي أمل في نفسك ، عندئذ تكون المفاجأة صدمة بالغة الخطر ..

ـ هذا ما تتوقعينه ؟

ـ هذا ما سوف يكون ؟

ـ يا لرحلة العذاب إذن!

ـ مع ذلك فهي ضرورية كما قلت.. نفّذ لها آخر رغباتها.

في الصباح سافر جهاد.. جلس إلى جانب السائق، ووضع الصغير أيمن في حضنه، تاركاً المقعد الخلفي لابنته وأمها.. كان قلقاً، وكان يجهد لإخفاء قلقه، وراح يشرح الأشياء من حوله، ويدل رنا على المناظر الجميلة، محاولاً تسليتها، لكنها، بعد نصف ساعة من الانطلاق، عاودتها الحمى، وانطفأ ذلك الشعور البهيج بالرحلة في عينيها. عندئذ ارتبكت الأم، عاودها الخوف مضاعفاً، وحين بدأت الفتاة تتألم من ارتجاج السيارة، رجا جهاد السائق أن يخفف السرعة، وقام بتمديد رنا على طول المقعد الخلفي، طالباً من الأم أن تجلس عند قدميها، وأن تصبر، ولا تتصرف بشكل يثير مخاوفها ويزيد في وطأة المرض عليها.

لكن الرحلة كانت مشؤومة إلى حد لم يتصوره جهاد. رنا تألمت وهي مستلقية، وتألمت بأشد من ذلك وهي جالسة، وارتفعت درجة الحرارة إلى حد لم تبلغة من قبل، حتى لم تعد تعي ما حولها، فبدأت تصرخ وتهذي، وراحت الأم تفرك يديها، وتلطم خديها، واحتار السائق في ما يفعل، ومن سوء حظه، أو من نكد الطالع، أن السيارة، وهي قديمة نوعاً ما، تعطلت عدة مرات، بعد أن اجتازوا أكثر من نصف الطريق.

لم يعد التراجع ممكناً، والإمعان في السير ازداد صعوبة، وتبادل الأب والأم المواقع، فجلس جهاد على المقعد الخلفي، واضعاً رأس ابنته على ركبته، باذلاً أقصى ما يستطيع في تشجيعها على الاحتمال، مستشعراً الحرارة التي تكويها، مبللاً بالعرق الذي ينضح منها، محاولاً أن يسليها، في كلامه على الأماكن التي يمرّون بها، مكثراً من الوعود في الوصول القريب، بعد أن انكشف البحر لهم، وهم يدرجون على الطريق الساحلية من طرطوس إلى اللاذقية، حيث طفقت الخضرة

الوارفة من على الجانبين، تبعث السرور في النفس، وهو يحاول أن يلفت رنا إلى جمال الطبيعة وزرقة السماء، ونوارس البحر، وكل ما كان فاتناً من حولهم.

أخيراً قالت رنا، وهي تجاهد لتفتح عينيها، كي تستوعب ما حولها، وكي تخفف عن الأم التي بلغت حافة الأنهيار:

ـ حين نصل سأكون قد تحسنت.

وهتفت الأم:

ـ يا رب!

وقال جهاد:

ـ ستتحسنين يا حبيبتي. بدأت الحمى تزايلك، وستعطي أقراص الأسبرين مفعولها، ويكف الصداع قريباً.

كان الآن مجرح الروح تماماً. لقد استنفد طاقته، ومع ذلك راح يمسح العرق عن جبهة ابنتـه، ويبتسم أمامها مشجعاً، محاولاً أن يتماسك ما استطاع، سائلاً الله السلامة، وهو ينظر في لوحة العداد، ليعرف سرعة السيارة، ويستعجل الوصول، مستشعراً ان الطريق تطول وتطول بشكل غير مألوف، متذكراً قول ليلى ان هذه هي رحلة الوداع!

وبينما كانت السيارة تدرج، كان هو يتفرس في الوجه الناحل، المعروق، المستلقي على حضنه، ويتألم للشحوب الشديد البادي عليه، وبغير وعي، كانت يده تتخلل الشعر الطـويـل، الأسـود، المنفـرش على ركبتيه، الذي راح يسوّيه، ويسند الرأس المتهزهز بفعل ارتجاج عجلات السيارة، على طريق كثيرة الحفر، ويتأمل العينين المطبقتين، والجسم المتلاشي، فتتحير الدموع في عينيه، ويضطر، لإخفائها، إلى النظر خارج السيارة، نحو السماء العالية، شـديـدة الزرقـة، في فصـل الصيف هذا، ويتابع سحباً عالية، متفرقة، تدفعها الريح نحو الغرب، وفي داخله يعلو صراخ مكتوم: «لماذا!؟ لماذا!؟» .. ذلك أن المأساة ليست في مرض ابنته، ولا في اقترابها الحثيث من الموت، ولا في رحلة

العذاب هذه، بل في الألم الرهيب الذي تكابده فتاته المسكينة، الألم الذي لم يبلغ، في أقصى درجات تصوره، أنه سيكون رهيباً، قاسياً إلى هذا الحد.

وكانت الأم، وابنها نائم في حضنها، ما تنفك تبكي، وتتلفت إليه، وتسأله بنظرات خائفة، متوسلة، عن حال الفتاة، وهو صامت، مطرق، لا يدري ماذا يفعل، ولا كيف يتصرف.

لقد صار الآن عاجزاً حتى عن مؤاساة زوجته أو نفسه. انه ضائع تماماً، لا يعرف على من يعتب، ولمن يشكو، وماذا يقول. فقط لو أن الأم تكف عن هلعها، لو تساعده بالتوقف عن ذرف الدموع، لو تمسك عن طرح أسئلتها القلقة، الملحاحة، حول ما إذا كانت رنا في خطر.. انها تراها مثله، وباتت تعرف مرضها مثله، وينبغي أن تتوقع، كما قال لها، ما يتوقعه هو، فما نفع الدموع؟ وما جواب السؤال الهامس، بالصوت المرتعش، الذي لا يستطيع، حياله، الا أن يختنق في أساه الذي أصبح غصة في الحلق، تسدّ حتى مجرى الهواء الذي يحتاجه للتنفس؟

تذكر جهاد رحلات سبقت، ودروباً قطعت، وحالاًغير هذه الحال، وطبيعة غير هذه الطبيعة، في وجومها، واكفهرارها، واصفرار شمسها، كأنما كل شيء، حول السيارة، يواكبها، ويحيط بها، ويتقدمها، على نحو مأتمي.. ولكي يتصبر غضّ بصره، وهم يدخلون اللاذقية، عما يمر به من وجوه، وسيارات، ودراجات، ومارة، وحركة حياة تمضي في سيرها المعتاد، غير آبهة بالأرواح المعذبة، المجرحة، التي تضمها سيارة لا يعرف أحد ما فيها، ومن فيها، وأي شقاء يكابده والدان، ينقلان صبية في رحلة أرادتها نزهة، فإذا هي، في الغيبوبة التي صارت إليها، هولة، يحف بها حضور فاجع، وإذا الجسد المسجى على الركبتين، جثة لم يبق فيها سوى قلب يخفق واهناً، خائراً، ينوس كشمعة تنطفئ رويداً رويداً.

وحين بلغوا حي الصليبية واقتربوا من البيت، كان الأهل قد تجمعوا كأنما لاستقبال عروس ستنزف قريباً.. كانوا يبتسمون، يهللون، يتسابقون، وفي ظنهم أن رنا في انتظارهم، وقد شفيت، لكنهم ما كادوا يقتربون، ويرون إليها شلواً منطرحاً، منطفئاً، حتى وجموا، وغارت ابتساماتهم، وتحلقوا حول السيارة تحلّقهم حول نعش في داخلها، وفتحوا الأبواب وقد شحبت وجوههم، وخفتت أصواتهم، ولم يعد يسمع سوى نحيب الأم، ولا يرى سوى وجه الأب المتقع، وسوى الجسد الذابل، المسجّى، المعن في غيبوبته، فمدوا أيديهم للمساعدة، وتناولوا، بكثير من اللطف، وكثير من الحرص، الجسم الحارّ، المتعرق، وعندئذ فقط، وعند محاولة رفع رنا عن المقعد، فتحت عينيها كأنما ترى طيوفاً حولها، ثم أغمضتها واستسلمت لنوبة الحمى التي ما برحت تتطاول وتشتد عليها.

وبهدوء أجلسوا رنا في كرسيها ذي العجلات الذي كان في السيارة، وقد بدت، وهي في كرسيها، هيكلاً عظمياً متهافتاً، متضعضعاً، متكوراً، بسبب من فقدان الوعي، وفقدان القدرة على تثبيت جسدها في وضع مستقيم، فمالت إلى الجانب الأيمن، والتوى رأسها لأن العنق تداعى بفقراته التي تشكل عمود الرقبة، وانسدلت اليدان على جانبي الكرسي متطوحتين، وفي ارتخاء، لشدة الضعف وغيبوبة الحمى. وأمام هذا المشهد المؤلم، البالغ في تناقضه مع ما كان عليه الجسم قبل الانحدار المرضي، دمعت العيون المحدقة بحزن والتياع، وصاحت العمة فضيلة، وهي تدفع الكرسي، شجاعة مقدامة كعادتها:

ـ إلى بيتي.. إلى الطابق الثالث.

أضافت وهي تصيح بالشباب الذين حملوا رنا وهي جالسة في كرسيها:

ـ إلى فوق.. ودون أن تزعجوها.

وتلفتت إلى الجميع، آمرة بنبرة حازمة:

ـ لا دموع، ولا ضجة، رنا نائمة، وقريباً تفيق، وتستعيد وعيها.

كفكف الحاضرون دموعهم، وصعدوا صامتين، وحتى الأم استعادت رباطة جأشها، وارتقت درجات السلم مستندة على من حولها، وظل جهاد حائراً، مرتبكاً، مستسلماً، نادماً على أنه وافق على هذه الرحلة التي كانت أشبه بكارثة على ابنته.

في البيت، وفي غرفة تطل على حديقة، رفعوا رنا من الكرسي ومددوها على السرير، وجاء طبيب استدعى على عجل، فتوقف أمام الفتاة واجماً، لا يدري كيف يتصرف، وبعد أن جس نبضها، وقاس حرارتها، زرقها بابرة منشطة، وأعطاها حبوباً لخفض الحرارة، وانصرف وهو يقول للعمة على انفراد:

ـ الحالة خطيرة جداً.

قالت العمة:

ـ أما من أمل!؟

ـ أشك..

ـ ومتى تنخفض حرارتها؟

ـ بعد قليل..

ـ وماذا نفعل؟

ـ لا شيء.. دعوها تسترح.. إنها متعبة من السفر، وستتحسن قريباً.

وفعلاً تحسنت حالها عند العصر، انطفأت الحمى كما اشتعلت، وفتحت رنا عينيها مبتسمة، فأخذت يد عمتها بيدها، وقالت بصوت واهن:

ـ لم أكن أقدر أن الرحلة ستكون صعبة بهذا المقدار.

قالت العمة:

ـ هذا بسبب طول الطريق.. الحمد لله على السلامة.

ـ شكراً يا عمتي.. لقد أزعجتكم، لكنني غير نادمة، كان يجب أن آتي وأراكم..

ـ ونحن كنا بشوق إليك.. الأهل جميعاً هنا، والطبيب طمأننا، وسيفيدك هواء البحر..

ـ أحب رؤية البحر.

ـ سترينه، غداً تنهضين من الفراش، ونقوم بنزهة، وسيكون كل شيء على ما يرام.. استريحي الآن، وسيزول تعب الطريق، ويبدأ التحسن كما قال الطبيب.

ـ أعرف هذا.. مناخ اللاذقية يلائمني.. وسأشفى بإذن الله، أليس كذلك؟

ـ ستشفين تماماً.. وستتوقف نوبات الحمى، بعد تناول الدواء.

ـ أريد أن أجلس في سريري، وأرى الأهل جميعاً.

أجلسوها في سريرها، وتوافد الأقارب، فأحست بانتعاش، وراحت تبتسم، وتتكلم، ومن جديد، كأنما بقوة الشباب، بارادة الحياة، استعادت نشاطها، ومنذ صباح اليوم التالي، جلست في كرسيها، وخرجت إلى الشرفة، مسرحة النظر في المدى البعيد، متطلعة إلى السماء الزرقاء، مستنشقة نسمات البحر، قائلة لمن حولها:

ـ لن أعود إلى دمشق ثانية.

قالت العمة:

ـ ستبقين عندي.

وقالت الأم:

ـ ربما تحدث الأعجوبة هنا.. ما رأيك يا جهاد؟

ـ ربما... رحمة الله واسعة.

كان جهاد يجلس صامتاً، غير مكترث بما يقال. إنه يعرف خلفية هذه الآمال، فالنوبة لن تلبث أن تعاودها، بأشد ما كانت أمس، متناسبة مع انحدارها الصحي. وهو يعي، على نحو واضح، ألا أمل،

وأن النهاية تقترب، ومع اقترابها سيتضاعف الألم، بقدر ما تتضاعف الحمى والصداع. إنه يفكر، على نحو مغاير، وفي اطراقته، في زاوية الصالون، حيث جلس يدخن، تذكر المريض الفلسطيني، إبراهيم خليل النابلسي، الذي مات في المستشفى الوطني في لندن، ودفن فيها، وتذكر السيدة مارسيل، التي كانت تخاف الموت، والتي ماتت في بلدها، وتذكر أحمد الليبي، الذي خرج من المستشفى كما خرجت ابنته، وسار في الدرب التي تسير فيها.

كان يعرف كل شيء، غير أن ما يعرفه يجب أن يبقى في صدره، فهو لا يقال، ولا فائدة من قوله، وعليه هنا، في اللاذقية، أن يتحمل كما تحمل في دمشق، وقبلها في لندن، وأن ينتظر، فلا يعلن الحقيقة، تاركاً لها أن تفرض نفسها، في اللحظة الحاسمة، اللحظة التي قد تطول، لكنها آتية لا ريب فيها.

في غمرة أفكاره، وآلامه، تلقى هاتفاً من دمشق، يطلب عودته لأمر هام.. قرر عدم تلبية الطلب في البدء. أراد البقاء إلى جانب ابنته، ليشارك في تحمل العذاب الذي ستتحمله العائلة. إن حدساً داخلياً كان يقول له: «لا تذهب، ابق إلى جانب ابنتك، في ساعاتها الأخيرة» لكن الأم، والعمة، والأهل، ورنا نفسها، في لحظة صحوها، أصروا عليه أن يسافر، وأن يعود، ما دام ليس ثمة ما يدعو إلى البقاء في الوقت الحاضر.

كان، الآن، قد وصل إلى مرحلة العجز الكامل عن اتخاذ أيما قرار. كان قد أصبح مركباً قطعت مرساته فاستسلم لأمواج العاصفة تتلاعب به.. لقد أصبحت الأمور، بالنسبة إليه، سواسية، وكمن يركب البحر للمرة الأولى، أصيب بدوار، وغامت نظراته، فذرّات النور تتراقص، وتتداخل أمام ناظريه، والفضاء من حوله، تلبّد، تأرجح، وبرزت فؤوس، ورؤوس وأذرع، وشاعت المرارة في فمه من كثرة التدخين، وأحترق شيء ما في داخله، حتى أيقن أنه سيجن، وأن

ستارة من الماء الاسود تنتصب أمام عينيه، فتحجب الرؤية، وأنه يائس إلى حد يتمنى لو يطلق النار على نفسه ويستريح.

وحين دفعوه إلى السفر دفعاً، ولم يبق ثمة مجال للامتناع، قصد ابنته التي كانت قد عادت إلى سريرها، ورزحت تحت عبء الصداع الشديد، فعانقها، وقبّلها، وتملاها، وخرج دون أن يقول كلمة، لأن الكلام والدمع تعانقا وامتزجا في ذاته، فراح يكابد حسرة خرساء، حتى تعذّر عليه أن يقول لها: وداعاً!

في دمشق، فقد القدرة على السكون. أنجز العمل الذي دعي لأجله آلياً، وهرع إلى بيته، يدور بين غرفه، يطالع المصيبة في كل شيء تقع عليه عيناه، ويتوقف، أكثر ما يتوقف، أمام سرير رنا، مستعيداً في ومضات استرجاع مؤلمة، كل تاريخ حياتها، منذ ولدت، إلى أن ترعرعت، وشبت، وذهبت فتاة صغيرة حلوة الى المدرسة، وأصيبت بالمرض، وسافرت إلى لندن، وعادت منها، وعاشت عاميها الأخيرين مقعدة، تطلب كل يوم شيئاً، وكل شهر مدرّساً، كي لا يضيع مستقبلها.

أغلق الباب على نفسه دون أن يتصل بأحد. لم يعد يريد أحداً. صار في وضع الانهيار. لقد كان عليه أن يرتفع على الشدة، إلا أنه ناء تحت وطأة الشدة، ولأنه كذلك، وعلى هذه الحالة من الضعف، فقد خجل أن يراه أحد، وقرر أن يداري حزنه بالمهدئات، والشراب، والقهوة، والسيكارة، هذه التشكيلة التي كانت وجبته الوحيدة في اليوم الأول لعودته إلى دمشق.

لكنه، في اليوم التالي، تلقى زيارة مفاجئة. فقد اتصلت ليلى باللاذقية، فأخبروها انه عاد، أمس، إلى دمشق، ورجوها أن تتفقده، وأن تواسيه وترعاه، خشية أن يكون مريضاً أو يقتل نفسه حزناً. وهرعت ليلى إليه، تقرع الباب دون أن يفتح لها أحد. في البدء ظنت أنه في العمل، ولما أخبروها أنه لم يأت، عادت تقرع الباب،

وظلت تقرع كلبوة مهتاجة، إلى أن فتح لها، وكان في حال من السكر، والبؤس، والحزن، أحالته إلى شبح، فاندفعت إليه تعانقه، وتهتف به معنّفة:

ـ ماذا تفعل بنفسك!؟

ـ لا شيء.. أريد أن أنسى..

ـ لكن هذا لا ينسيك، إنه يزيد في تذكيرك.

ـ وماذا أفعل، إذا كان ليس لدي ما أفعله غير هذا؟

ـ تقتل نفسك وابنتك لم تمت بعد؟

ـ حين تموت أستريح.. أعرف أنها ماتت.. أصبر كما يصبر الآباء، أما أن تتعذب على هذا الشكل، آه.. أنت لم تكوني معنا في الرحلة، ولم تريها في الحالة التي صارت إليها.

ـ أعرف كل شيء، وقد حزرته سلفاً.. لماذا تحبس نفسك؟ ولماذا لم تأت إلي؟

ـ لا أريد أن يراني أحد وأنا على هذا الضعف.

ـ وهل في الضعف، أمام مصيبة كهذه، ما يخجل.!؟

ـ كنت أريد أن أكون قوياً، وقد كنت قوياً، خلال سنتين، ثم انهارت قواي، لم أعد قادراً على الاحتمال.

ـ أنت تغالط نفسك، وتعذبها، بحكم مرضك، وأنا أفهمك، تعال! تعال إلى السرير، يجب أن تنام، يا إلهي! منذ كم يوم لم يرقد لك جفن.!؟

ـ منذ سافرت.

ـ ولماذا لا تنام؟

ـ لأنني لا أستطيع النوم، أنتظر هاتفاً.. ولا أدري لماذا لا يهتفون إلي؟

ـ وأنت، لماذا لم تهتف إليهم؟ تخاف؟

ـ نعم أخاف!

ـ ولكنك ستواجه الواقع مهما تهربت.. إنه القدر ، من يمنع القدر يا جهاد !؟ من يدفع الموت !؟

ـ لا أحد .. أعرف ذلك ، والآن دعيني ..

قالها وأغمض عينيه. كان قد شرب لتوه ثلاث حبات منومة ، شربها دون وعي، راغباً أن ينسى أو يموت.. لكنه نام ولم يمت ، واستغرق في نومه حتى العصر ، حين جاءه الهاتف المنتظر :

ـ تعال بسرعة !

نهض من سريره كالملسوع، وركض فوضع رأسه تحت صنبور الماء. كان يريد أن يستيقظ تماماً ، أن يستعيد صحوه وقدرته على المواجهة ، وكانت ليلى إلى جانبه ، لم تفارقه الا حين ركب السيارة ، وطلب من السائق أن يندفع بأقصى سرعته ، كي يصل قبل أن تموت ابنته . لقد رافقها في كل مراحل المرض ، والآن ، يريد أن يرافقها في مرحلة الموت ، يريد أن يكلمها قبل أن تموت .

غير أنه وصل متأخراً ، كانت رنا تحتضر ، وكانت عاجزة عن الكلام ، وحين رأته بكت ، وطلبت ورقة وقلماً ، وبيدين مرتجفتين كتبت عبارة واحدة مفككة : « اتركوني أنام »

ونامت !

دمشق ٢٦ حزيران ١٩٨٧

مؤلّفات حنّا مينة

* المصابيح الزرق
* الشراع والعاصفة
* الثلج يأتي من النافذة
* الشمس في يوم غائم
* الياطر

{ بقايا صور
المستنقع
القطاف }

* الأبنوسة البيضاء
* المرصد

{ حكاية بحّار
الدقل
المرفأ البعيد }

* الربيع والخريف
* مأساة ديمتريو
* حمامة زرقاء في السحب
* نهاية رجل شجاع
* الولاعة
* فوق الجبل وتحت الثلج
* الرَّحيل عند الغروب
* النجوم تحاكم القمر
* القمر في المحاق
* المرأة ذات الثوب الأسود

{ حدث في بيتاخو
عروس الموجة السوداء
المغامرة الأخيرة }

* الرجل الذي يكره نفسه
* الفمّ الكرزي
* حارة الشحادين
* ناظم حكمت: السجن، المرأة، الحياة
* ناظم حكمت ثائراً
* هواجس في التجربة الروائية
* كيف حملت القلم؟

تصميم الغلاف

HAMAMA ZARKAA
ISBN:16313074 SH.NO.676248
AED 40.00
QR 40.00
OR 4.000
BD 4.000
KD 3.200
630050 260711
HANA MENA PB20180729 00F
204032/204032
ARABIC BOOKS LITERARY
16300699

هاتف
ص.ب